

الإصدار الثاني في سلسلة:

﴿ فَأَقْصِصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من قصص القرآن الكريم)

الطبعة الأولى

1446 هـ

2024 م

اسم الكتاب: الإصدار الثاني في سلسلة: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

التأليف: الدكتور / فضل بن يسلم صنبور اليامي

موضوع الكتاب: قصص قرآن

عدد الصفحات: 544 صفحة

عدد الملازم: 34 ملزمة

مقاس الكتاب: 17x24

عدد الطباعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2024 / 17421

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 8795 - 05 - 6



يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم



elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com



01012355714 - 01152806533

الإصدار الثاني في سلسلة:

﴿ فَأَقْصِصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من قصص القرآن الكريم)

(قصة الرسالة الأولى)

(شيخ الأنبياء وأطولهم عمراً في الدعوة إلى الله،

وأول رسول إلى أهل الأرض نوح عليه السلام)

إعداد الشيخ الدكتور

فضل بن يسلم صنبور اليهاني

دار البشير للثقافة والعلوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله منزل الكتاب ومجري السحاب وخالق خلقه من تراب؛ والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإخوانه الأنبياء؛ وبعد:

لقد شرفت بالاطلاع على كتابي: (قصة الخلق الأول - أبو البشر آدم ﷺ) / وقصة الرسالة الأولى شيخ الأنبياء وأطولهم عمرا في الدعوة إلى الله؛ نوح ﷺ من سلسلة ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لفضيلة العلامة الأستاذ الدكتور/ فضل بن يسلم صنبور البياني حفظه الله تعالى.

وهي سلسلة مباركة وكيف لا تكون مباركة وهي دراسة حديثة علمية تأصيلية - لم يسبق لها نظير في عالم التأليف - لصفوة خلق الله تعالى وهم النخبة المختارة الذين اختارهم الله تعالى لحمل دينه وتبليغ رسالته والواسطة بينه وبين خلقه؛ وهم الأنبياء ﷺ وجعل حياتهم نبراسا وقدوة لكل من حمل لواء الدعوة إلى الله من هذه الأمة المختارة فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْتَدِرُ﴾^(١).

وقد بدأت هذه السلسلة المباركة بسيدنا آدم - أبو البشر ﷺ الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وكرمه وذريته؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٢).

وأعلن عن وظيفته ومنصبه في هذا الكون؛ وهو - خلافة الله في الأرض - أي تطبيق قوانين الله وأحكامه على نفسه وعلى غيره في الأرض، ولذا أسجد له ملائكته لبيان لهم شرف مهمته وذريته في الحياة، وأخبر عنه قبل أن يخلقه؛ فكل حدث عظيم له إرهاباته ونبوءاته:

(١) سورة الأنعام، الآية رقم: (٩٠).

(٢) سورة الإسراء، الآية رقم: (٧٠).

ففي سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)، وفي سورة الحجر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَاحٍ مِّن حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾^(٢) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٣)، وفي سورة ص قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾^(٤) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٥).

ولما صور الله - تعالى - آدم ﷺ جعل إبليس يطوف به كما في الحديث: عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك»^(٦)، ومن هنا بدأت قصة حسد إبليس لآدم ﷺ.

وأسكن الله - تعالى - آدم جنته؛ وخلق له حواء من ضلعه الأيسر الذي فوق قلبه لتكون قريبة منه وتؤنسه؛ وأباح له أن يأكل من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٧).

ولكن لا بد أن تجري أقدار الله - تعالى - فنسي آدم ذلك العهد الذي أخذه الله عليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(٨)؛ فتحايل

(١) سورة البقرة، الآية رقم: (٣٠).

(٢) سورة الحجر، الآيتان رقم: (٢٨ - ٢٩).

(٣) سورة (ص)، الآيتان رقم: (٧١ - ٧٢).

(٤) الحديث: رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب - بَابِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ خَلْقًا لَا يَمَالُكَ بِرَقْم: (٢٦١١).

(٥) سورة البقرة، الآية رقم: (٣٥).

(٦) سورة طه، الآية رقم: (١١٥).

عليها إبليس كما قال الله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾^(١)، وعلى أثر هذا النسيان نزل آدم وحواء من الجنة إلى الأرض لتبدأ معاناته وذريته في طلب المعاش وفي مجاهدة عدوه الله إبليس الذي أقسم بعزة الله كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴾^(٢).

فما فقدناه بالنسيان لا يرجع إلينا إلا بالتذكير؛ ولذا جاءت قصص الأنبياء في القرآن لناخذ منها العبر والعظات والفوائد النافعة.

ونستنبط منها أصول دعوة الأنبياء؛ ونحن نسير في درب الدعوة إلى الله، ونأخذ منها مزاج النبوة في الدعوة إلى الله كالعفو واللين والرحمة والشفقة على الخلق وعاطفة إرضاء الله تعالى؛ ولذا نجد الله تعالى يقول: ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنَى الشَّيْطَانُ يَتَّصِبْ وَعَدَابِ ۝٤١ أَزْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغَسِّلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَىٰ لِلْأُولَى الْأَلْبَبِ ۝٤٣ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرُبْ بِهِ وَلَا تُحَنِّتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٤٤ ﴾^(٧).

(١) سورة البقرة، الآية رقم: (٣٦).

(٢) سورة (ص) الآيتان رقم: (٨٢ - ٨٣).

(٣) سورة مريم، الآية رقم: (٤١).

(٤) سورة مريم، الآية رقم: (٥١).

(٥) سورة مريم، الآية رقم: (٥٤).

(٦) سورة مريم الآيتان رقم: (٥٦).

(٧) سورة (ص)، الآيات رقم: (٤١ - ٤٤).

فالتأمل في هذه الآيات يرى أن وراء كل ذكر نبي من الأنبياء قصة دعوية تحمل أخلاقاً لا غنى للدعاة عنها.

ومن فوائد ذكر قصص الأنبياء تثبيت قلوب الدعاة إلى الله؛ قال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

ومن قصة أطول الأنبياء أعماراً نوح عليه السلام نتعلم الصبر على المدعويين وإن طال الزمن؛ ونتيقن بأن النتائج بيد الله تعالى وليست بيد الداعي فعلينا بالجهد والنتيجة على الله تعالى، وأن عدم قبول المدعويين للدعوة لا ينقص من قدر الداعي إلى الله مادام قام بواجبه كما ينبغي.

والتأمل في القرآن يجد أنه لا يخلو جزء من القرآن من قصص الأنبياء عليهم السلام؛ وذلك لإعداد وتربية هذه الأمة الخاتمة على دعوة الأنبياء بنهج الأنبياء، وبسبب قيامها على الدعوة بالترتيب الصحيح تشهد على الخلائق بأن رسلهم ما قصروا في دعوتهم إلى الله؛ ففي صحيح البخاري: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَغْتَ؟ فيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغْتُمْ؟ فيَقُولُونَ: لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ، وهو قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^{(٢)(٣)}، والوسَطُ: العدلُ.

وهذا ما تناوله فضيلة الدكتور/ فضل بن يسلم صنبور الياني حفظه الله تعالى

(١) سورة هود، الآية رقم: (١٢٠).

(٢) الحديث: صحيح البخاري - رقم الحديث أو الصفحة: ٤٤٨٧.

(٣) سورة البقرة، الآية رقم: (١٤٣).

بالتفصيل في هذين الكتابين المباركين الماتعين الذي لا غنى لأحد من طلبة العلم والعلماء والدعاة إلى الله من النظر فيهما والاستفادة منهما في درب الدعوة إلى الله تعالى. فقد تكلم حفظه الله تعالى باستفاضة في بيان أهمية القصص القرآني وأنواعه ومزاياه وخصائصه وفوائده وأغراضه ومقاصده وأهدافه وحكمة تكراره؛ وعاش مع القرآن الكريم وآياته؛ وغاص في بطون كتب التفسير واستخرج منها فوائد قصص القرآن الكريم فأفاد وأجاد جزاه الله خيرا.

ولهذا أرى أن هذين السفيرين الماتعين يغنيان حاملهما عن كثير من كتب الأخيار. وفي النهاية أسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يمد لنا في عمر فضيلة الدكتور / فضل ويكمل لنا هذه السلسلة المباركة فيتطرق لحياة كل الأنبياء ﷺ.

والله ولي التوفيق

كتبه الفقير إلى ربه المنان

محمد بن علي محمد إمام

ميت غمر - محافظة المنصورة

غرة صفر ١٤٤٦ هـ

الموافق: الخامس من شهر أغسطس ٢٠٢٤ م

مقدمة السلسلة

﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عِوَجًا، الحمد لله جابر القلوب المنكسرة من أجله، وغافر ذنوب المستغفرين بفضلِهِ، نحمدك اللهم حمد الشاكرين، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا شيء كمثله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وخيره بين أن يكون ملكا نبيا أو عبدا رسولا، فاخترَ مقامَ العبودية مع رسلِهِ.

وبعد فهذه هي السلسلة الثانية جمعتها من أقوال أهل العلم والفضل من الفقهاء والمفسرين وأساتذة الإقراء وعلوم القرآن وسميتها بقوله تعالى: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

ولقد كان ومنذ زمن يحدو بي الشوق إلى سبر أغوار قصص القرآن وقد توالى الأسئلة على عقلي وقلبي عن أغراض تعدد القصص في القرآن باختلاف ألفاظها من سورة إلى أخرى.

- ففي قصة الخلق الأول مثلاً نقرأ في سورة البقرة قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢)، ونقرأ في سياق هذا الخبر حوارات وتساؤلات تمت بين الخالق جل في علاه وبين الملائكة الكرام البررة الذين لم يكونوا يعلمون الحكمة من خلق الإنسان حتى بين لهم الله تعالى ذلك، ثم

(١) الآية: رقم ١٧٦ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٣٠ من سورة البقرة.

أمرهم بالسجود لآدم ﷺ فسجدوا كلهم إلا إبليس فقد أبى السجود فبين الله رده الأمر بالسجود بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(١)، ذكرت ذلك آيات سورة البقرة من قوله جل وعلا: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، إلى قوله ﷺ: ﴿فَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢)، وذلك ما لم يذكر في غيرها من السور، وفي سورة الأعراف تبدأ القصة بسياق مختلف حيث يقول المولى عن بدايتها:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(٣)، وعن قصة السجود ورفض إبليس السجود بين الله لنا ذلك بصيغة غير ما جاء في سورة البقرة فيقول سبحانه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٤)، ثم تنساب القصة في سياق جديد يذكر فيه ربنا سؤاله لإبليس عن امتناعه عن السجود وهذا ما لم يذكر في سورة البقرة، ويذكر كذلك جرأة إبليس ورده الأمر على الله تعالى بعلّة ادعاها لنفسه ولم يميزه الله تعالى بها، وهي ادّعاؤه أنه خير من آدم ﷺ، وتفصّل القصة في سياق هذه السورة قصة الإغواء والأسلوب الذي اتخذته إبليس اللعين مع أبينا آدم ﷺ وذلك من قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٥).

(١) الآية: رقم ٣٤ من سورة البقرة.

(٢) الآيات: رقم ٣٠-٣٧ من سورة البقرة.

(٣) الآية: رقم ١١ من سورة الأعراف.

(٤) الآية: رقم ١٢ من سورة الأعراف.

(٥) الآيات: رقم ٢٠-٢٢ من سورة الأعراف.

ونقرأ في سورة الحجر قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾^(١)، ثم يتوجه المولى في سياق القصة في هذه السورة مباشرة إلى أمر الملائكة بالسجود لآدم ﷺ وبين أنهم سجدوا إلا إبليس فيقول عنه: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾^(٢)، وفي سياق هذه السورة يذكر الله ﷻ ما لم يذكره في سياق القصة في سورة البقرة من طرده لإبليس ولعنته وتوعده له إلى يوم الوقت المعلوم يوم القيامة، ونقرأ هذا من قوله ﷺ: ﴿قَالَ يَتَابِلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(٣) وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ^(٤)، كما نقرأ في سياق القصة في سورة الإسراء تعليلاً آخر تعلق به إبليس في رفضه السجود لآدم ﷺ ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾^(٥)، وفي سياق القصة في سورة الكهف نرى المولى ﷺ يبين لنا في سياق قصة رفض إبليس السجود لآدم ﷺ أن إبليس قد تمرد على أمر الله ﷻ فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(٦)، كما نقرأ في سياق القصة في سورة طه وهي تبدأ بذكر العهد الذي أخذه الله تعالى على أبنائنا آدم فنسبه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُحِذِّ لَهُ عَزْماً﴾^(٧)، ويستمر السياق في أمور لم تذكر فيها سبقها من السور؛ من ذكر وعد الله لآدم بعدم الشقاء في الجنة، وأنه لن يجوع فيها ولن يظمأ ولن يضحى، ثم يذكر قصة وسوسة الشيطان لآدم في سياق آخر غير من ذكر في سورتي البقرة والأعراف وذلك من قوله تعالى:

(١) الآية: رقم ٢٨ من سورة الحجر.

(٢) الآية: رقم ٣١ من سورة الحجر.

(٣) الآيات: رقم ٣٢-٤٢ من سورة الحجر.

(٤) الآية: رقم ٦١ من سورة الإسراء.

(٥) الآية: رقم ٥٠ من سورة الكهف.

(٦) الآية: رقم ١١٥ من سورة طه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾، إلى قوله ﷺ: ﴿قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾^(١).

ونقرأ في سورة ص قوله جل في علاه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾^(٢).

- وفي قصة الرسالة الأولى إلى أهل الأرض: نقرأ للقصة صيغا مختلفة من سورة إلى أخرى، في سورة الأعراف وهي أول سورة في ترتيب المصحف الذي بين أيدينا ذكرت فيها قصة نوح ﷺ الرسول الأول إلى أهل الأرض كما ورد في الأثر نرى السورة تبدأ بقول المولى ﷺ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٣)، وفي سورة هود مثلا نرى القصة تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(٤)، ونراها تبدأ في سورة يونس بقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا اللَّهَ مَا كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾^(٥)، وأما في سورة الصافات فتبدأ بقوله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾^(٦) وَتَجِيئُهُ وَأَهْلُهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ^(٦)، وفي سورة الذاريات نرى القصة التي تصور نجات المؤمنين مع نوح ﷺ وتصور مآل المكذبين من قوم نوح، نراها تبدأ بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿كَذَبَتْ

(١) الآيات: رقم ١١٦-١٢٣ من سورة طه.

(٢) الآية: رقم ٧١ من سورة ص.

(٣) الآية: رقم ٥٩ من سورة الأعراف.

(٤) الآية: رقم ٢٥ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ٧١ من سورة يونس.

(٦) الآية: رقم ٧٥ من سورة الصافات.

قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ^(١)، وأخيرا وفي سورة كاملة من سور القرآن سُميت بسم نوح ﷺ نرى القصة الكاملة الموضحة لكل السبل التي سلكها نوح في دعوة قومه نراها تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢)، وذلك إلى قصة الدعاء الذي دعاه نوح ﷺ على قومه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٣) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْصُلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا^(٤)﴾^(٥).

- كذلك قصة الخليل الأول إبراهيم ﷺ فقد جاءت في سورة كثيرة من سور القرآن منها ما ذكر فصولا من القصة في سورة واحدة ومنها ما ذكر طرفا من القصة مما تقتضيه أهداف السورة ومقاصدها، ففي سورة البقرة وهي أول سورة ذكر فيها اسم الخليل إبراهيم ﷺ قال تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١)، ثم يذكر في سياق القصة في هذه السورة قضية الإمامة لإبراهيم ﷺ بما استحقه من التكليف بالقيام بشأن البيت الحرام من بناء وتطهير ودعوة إلى الحج إليه، ثم بما أوصى به بنيه من بعده أن يتمسكوا بالدين الخالص لله ﷻ وهو دين الإسلام، وذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَنْبَىٰ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢)، وفي هذه السورة أيضا وفي سياق قصصها الكثيرة المتنوعة جاءت قصة الخليل إبراهيم ﷺ مع الملك الظالم

(١) الآية: رقم ٩ من سورة القمر.

(٢) الآية: رقم ١ من سورة نوح.

(٣) الآيتان: رقم ٢٦-٢٧ من سورة نوح.

(٤) الآية: رقم ١٢٤ من سورة البقرة.

(٥) الآيات: رقم ١٢٥-١٣٢ من سورة البقرة.

الذي أدعى لنفسه كذبا القدرة على الإحياء والإماتة والتي هي حق خالص لله ﷻ، فرد عليه الخليل إبراهيم ﷺ بما أدحض حجته وأخرس لسانه وأبهت قلبه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١)، وفي سورة الأنعام يبين لنا القرآن ما كان من إبراهيم ﷺ لفت نظر قومه إلى الله الواحد الأحد بما أراهم من شك في البحث عن ربه حتى أوصلهم إلى أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَعِزَّنِي بِمَا أَنِيتُكَ وَقَوْمَكَ فِي صُنْعِكُمْ مُبِينٌ﴾^(٢)، وفي قصة الحيرة قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِىْ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾^(٣).

ففي سورة مريم جاءت قصة نداء إبراهيم ﷺ لأبيه والتودد إليه ليؤمن بالله وحده ويترك ما عليه قومه من الشرك قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾^(٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْتَنِي أَتَعْبدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ إلى قوله جل وعلا: ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾^(٥).

وفي سورة الأنبياء جاءت القصة في صورة أخرى التغير للمنكر باليد وذلك بتحطيم الأصنام التي كانت تُعبد من دون الله ووضع أئمة الكفر وسدنة الشرك في صورة مزرية أمام اتباعهم في عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تُغني عن

(١) الآية: رقم ٢٥٨ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ٧٤ من سورة الأنعام.

(٣) الآيات: رقم ٧٥-٨٣ من سورة الأنعام.

(٤) الآيات: رقم ٤١-٤٧ من سورة مريم.

نفسها شيئاً، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا إِنَّا لُكُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾^(١).

وكذلك قصة البشري التي جاءت في سورتي هود والذاريات، ففي سورة هود قال جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِئِدٍ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَفَشَرْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾^(٢)، وأما في سورة الذاريات فيقول تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرْقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾^(٣) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ^(٤).

- وفي قصة الكليم موسى ﷺ، والتي غطت في كتاب الله مساحة واسعة، جهاد نبي كريم ورسول أمين، جاهد أمته التي أرسل إليها وجاهد عدو أمته الذي كان يسومها سوء العذاب، فنرى القرآن يذكر لنا قصة الولادة والعودة إلى الأم بعد نزع منها بالوحي من الله الحافظ لما استودع والكافي لمن خاف وفزع، ففي سورة القصص، قال تعالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۖ أَنِ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۚ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾^(٥)، وأما في سورة القصص، فيقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ إِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَاذِبِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَيْكَ أُتْمَةً كَىٰ نَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٦).

(١) الآيات: رقم ٥١-٦٩ من سورة الأنبياء.

(٢) الآيات: رقم ٦٩-٧١ من سورة هود.

(٣) الآيات: رقم ٢٤-٣٠ من سورة الذاريات.

(٤) الآيات: رقم ٣٨-٤١ من سورة طه.

(٥) الآيات: رقم ٧-١٣ من سورة القصص.

وفي قصة الوحي بالنبوة والتي جاءت في سور عدة وبصيغ مختلفة الألفاظ متلاقية المعاني، ففي سورة طه يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۖ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ﴾^(١)، وفي سورة الشعراء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۖ﴾^(٢) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَنْقُوتُونَ ۖ﴾، إلى قوله ﷻ: ﴿أَن أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ﴾^(٣)، وفي سورة النمل يقول جل وعلا: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَإِتِكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۖ﴾^(٤) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَجَاذُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۖ﴾^(٥)، وفي سورة القصص قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِّن شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْسُكْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۖ﴾^(٦).

وفي قصة العصا واليد وما تنقلبان إليه آيات مبسوطات في سور شتى، ففي سورة الأعراف يقول تعالى: ﴿فَالْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۖ﴾^(١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ۖ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۖ﴾^(١١٧) فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ﴾^(١١٨)، وفي سورة طه قوله تعالى: ﴿فَالْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۖ﴾^(١٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ۖ﴾^(١٢١)

(١) الآيات: رقم ٩-٢٤ من سورة طه.

(٢) الآيات: رقم ١٠-١٧ من سورة الشعراء.

(٣) الآيات: رقم ٧-١٤ من سورة النمل.

(٤) الآيات: رقم ٣٠-٤٠ من سورة القصص.

(٥) الآيات: رقم ١٠٧-١١٨ من سورة الأعراف.

وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿١﴾، إلى قوله جل وعلا: ﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ (١)، وفي سورة الشعراء، قوله جل في علاه: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (٢) ونزع يده. فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣﴾، إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْكُونُ﴾ (٤)، وفي سورة النمل قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦﴾ وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سَعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٧﴾، وقال سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨)، وفي سورة القصص قوله ﷺ: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بُرْهَانُكَ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٩).

وهكذا تكررت القصص في كتاب الله ﷻ لاسيما قصص الأنبياء الذين كانت تنزل قصصهم في سور شتى وبألفاظ مختلفة وأساليب مشوقة، تسلية لقلب النبي ﷺ ومن معهم من المؤمنين الصابرين الذين يتعرضون لأنواع كثيرة من الابتلاءات، وتثبيتا للنبي ﷺ والمسلمين.

(١) الآيات: رقم ٢٠-٦٩ من سورة طه.

(٢) الآيات: رقم ٣٢-٤٥ من سورة الشعراء.

(٣) الآيات: رقم ١٠-١٣ من سورة النمل.

(٤) الآية: رقم ١٤ من سورة النمل.

(٥) الآيتان: رقم ٣١-٣٢ من سورة القصص.

فقد تكررت قصص الأنبياء إسحاق ويعقوب وداوود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل ويونس ولوط، ﷺ.

ومن القصص ماورد مرة واحدة ولم يتكرر كقصة يوسف ﷺ وقصة عزيز وقصة لقمان وقصة أصحاب الكهف وأصحاب الجنة وأصحاب الأخدود إلى غيرها من قصص القرآن الكريم.

وقد تبين لي مما مضى أن الغرض من تعدد مواضع القصة في سور القرآن الكريم، أن تستقر القصة في ذهن القارئ ويثبت الهدف منها بأخذ أكثر من ملمح لأكثر من واقعة.

فقصة آدم مثلاً: في سورة البقرة: تحدثت عن عدم الاقتراب من الشجرة وفي الأعراف وطه ذكرت وسوسة الشيطان وفي سور أخرى ذكرت ملامحاً آخر وكل هذا لتثبيت أخذ الهدف والفائدة من القصة، فلو ذكر القرآن قصة آدم كلها في سورة البقرة مثلاً سينساها القارئ عندما يصل إلى آخر الكتاب ولكن عندما تقرأ عنها في العديد من السور وتجدها في أكثر من مكان ترسخ في البال وتستقر في القلب وتحصل منها الفائدة وتنفع العظة.

وهكذا بقية القصص التي تكررت كثيرا في القرآن كقصة نوح وهود وصالح وموسى وعيسى ولوط وشعيب ﷺ وغيرهم من أنبياء الله المرسلين.

والقصص في كتاب الله ﷻ كان لها التأثير البالغ والأهمية القصوى في هداية المسلمين وتمسكهم بدينهم وصبرهم على البلاء في ذات الله ﷻ وذلك لما يلي:

- ورودها منسوبة إلى رب العزة والجلال في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾^(١).

(١) الآية: رقم ٣ من سورة يوسف.

- أمر الله رسوله ﷺ أن يقص على الناس ما أوحى إليه: ﴿ فَأَقْصِ الْقَصَصَ لَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(١).
- القصة معلم بارز من معالم القرآن الكريم لتوضح الحقائق وإزالة الشبهات: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾^(٢).
- القصُّ بالمفهوم العام كان من مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿ يَمَعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي ﴾^(٣).
- حياة الأنبياء هي محور القصص، وهم موضع القدوة والأسوة ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةً ﴾^(٤).

جمعه وكتبه

الدكتور: فضل بن يسلم على صنبور البياني

(١) الآية: رقم ١٧٦ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٧٦ من سورة النمل.

(٣) الآية: رقم ١٣٠ من سورة الأنعام.

(٤) الآية: رقم ٩٠ من سورة الأنعام.

مقدمة الإصدار

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وبعد فإن نوحاً ﷺ من أولي العزم من الرسل، وهو الأب الثاني للبشر ﷺ.

روى ابن حبان في صحيحه من حديث أبي أمامة ﷺ: أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنَبِيُّ كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، مُكَلَّمٌ»، قَالَ: فَكَمْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: «عَشْرَةُ قُرُونٍ»^(١).

وروى الطبري في تفسيره عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»^(٢).

فإن كان المراد بالقرن مائة سنة، كما هو المتبادر عند كثير من الناس، فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس ﷺ بالإسلام، إذ قد يكون بينهما قرون آخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث أبي أمامة ﷺ يدل على الحصر في عشرة قرون، وزادنا ابن عباس ﷺ أنهم كلهم على الإسلام، وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه عبدوا النار.. والله أعلم.

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾^(٣)، وقوله جل وعلا: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾^(٤)، وكقوله ﷺ:

(١) الحديث: ورد في صحيح ابن حبان برقم ٦١٩٠ ج ١٤ ص ٦٩.

(٢) الحديث: ورد في معجم الطبراني الكبير برقم ٧٥٤٥ ج ٨ ص ١١٨، وفي الأوسط ج ١ ص ٤٠٣.

(٣) الآية: رقم ١٧ من سورة الإسراء.

(٤) الآية: رقم ٣١ من سورة المؤمنون.

«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي»^(١)، فقد كان الجيل قبل نوح يعمرّون الدهور الطويلة، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألف من السنين. والله أعلم.

وبالجملة فنوح ﷺ إنما بعثه الله لما انتشر الفساد في الأرض، وعُبدت الأصنام والطواغيت، وشرع الناس في الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمة للعباد، فكان أول رسول بُعث إلى أهل الأرض، كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة.

روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة: «يَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ.. أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنْكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَّغْنَا؟» فَيَقُولُ: رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَنَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَمَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا بَلَّغْنَا؟ أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ.. الحديث»^(٢).

وكان قومه يُقال لهم: بنو راسب، فيما ذكره ابن جرير رضي الله عنه وغيره، واختلفوا في مقدار سنه يوم بُعث، فقيل: كان ابن خمسين سنة، وقيل ابن ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل ابن أربعمائة وثمانين سنة، حكاها ابن جرير رضي الله عنه وعزا الثالث منها إلى ابن عباس رضي الله عنه.

وقد ذكر الله تعالى قصة نوح وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير ما موضع من كتابه كما في سور: (الأعراف، ويونس، وهود، والأنبياء، والمؤمنون، الشعراء، والعنكبوت، والصفات).

وقد تقدم عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام،

(١) الحديث: ورد في صحيح البخاري برقم ٢٦٥٢، وصحيح مسلم برقم ٢٥٣٣.

(٢) الحديث: ورد في صحيح البخاري برقم ٣٣٤٠، وصحيح مسلم برقم ١٩٤.

وذكرنا أن المراد بالقرن الجليل، أو المدة على ما سلف، ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام، وكان سبب ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾^(١)، قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، ونسخ العلم عُبدت، قال ابن عباس رضي الله عنه: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد^(٢).

وكل صنم من الأصنام السابقة عبده طائفة من الناس، وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان، جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لها، ثم عُبدت بعد ذلك من دون الله ﷻ.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث عائشة أن أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهن: ذكرت كنيسة رأيها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبي ﷺ فقال: «إِنَّ أَوْلَيْكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، فَأُولَئِكَ شَرَّ أَرْخُلِ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

فلما بعث الله نوحًا ﷺ، دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن لا يعبدوا معه صنمًا، ولا تمثالًا، ولا طاغوتًا، وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين كلهم من ذريته، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾^(٤).

(١) الآية: رقم ٢٣ من سورة نوح.

(٢) الحديث رواه البخاري في صحيحه برقم ٤٩٢٠.

(٣) الحديث: ورد في صحيح البخاري برقم ٤٢٧، وصحيح مسلم برقم ٥٢٨.

(٤) الآية: رقم ٧٧ من سورة الصافات.

وذكر تعالى أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار، والسر والإجهار، بالترغيب والترهيب أخرى، وكل هذا لم ينجح فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان، وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان، وتنقصوه، وتنقصوا من آمن به، وتوعدوهم بالرجم والإخراج، ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم.

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم، كما قال تعالى: ﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾^(١)، أي: ومع هذه المدة الطويلة، فما آمن به إلا القليل منهم، وكان كلما انقرض جيل وصّوا من بعدهم ترك الإيمان به ومحاربتة ومخالفته، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه، وصّاه فيما بينه وبينه أن لا يؤمن بنوح أبداً ما عاش، ودائماً ما بقي، وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق.

ولما يؤس نوح ﷺ من صلاحهم، وفلاحهم، ورأى أنه لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته، ومخالفته، وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال، دعا عليهم دعوة غضب لله، فلبى الله دعوته، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾^(٢) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ^(٣)، وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾^(٤) فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(٥)، فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم، ودعوة نبيهم عليهم، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها، ولا يكون بعدها مثلها، وأخبره الله تعالى أنه إذا جاء أمره، وحل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعهم، فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم، فإنه ليس الخبر كالمعاينة، قال تعالى: ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ

(١) الآية: رقم ١٤ من سورة العنكبوت.

(٢) الآيتان: رقم ٧٥-٧٦ من سورة الصافات.

(٣) الآيتان: رقم ١١٧-١١٨ من سورة الشعراء.

ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلُوكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالِ إِنْ تَسْخَرُونَ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾^(١).

وقد كان حالهم الكفر الغليظ، والعناد البالغ في الدنيا، وهكذا في الآخرة، فإنهم يمحذون أيضاً أن يكون جاءهم من الله تعالى رسول، روى البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَغْتَ؟ يَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، يَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغْتُمْ؟ يَقُولُونَ: لَا، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، يَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ يَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فَشَهِدَ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^{(٢)(٣)}.

والوسط: العدل، فهذه الأمة تشهد على شهادة نبينا الصادق المصدوق بأن الله تعالى قد بعث نوحاً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الحق وأمره به، وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه، وأتمها، وأنه لم يدع شيئاً مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به، ولا شيئاً مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه، وحذرهم منه، وهكذا شأن جميع الرسل.

ثم أمره الله تعالى أن يصنع السفينة، ويحمل فيها من كل زوجين اثنين من الحيوانات، وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها، وأن يحمل معه أهله، أي: أهل بيته ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾^(٤)، أي: إلا من كان كافراً، فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا تُرد، ووجب عليه حلول البأس الذي لا يُرد، وأمره أن لا يراجعهم فيهم إذا حل بهم ما يعانيه من العذاب العظيم، الذي قد حتمه عليهم الفعّال لما يريد. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾^(٥) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا

(١) الآيتان: رقم ٣٧-٣٨ من سورة الأنعام.

(٢) الآية: رقم ٢٢ من سورة البقرة.

(٣) الحديث: ورد في صحيح البخاري من رواية أبي سعيد الخدري برقم ٤٤٨٧، وورد في مسند أبي يعلى الموصلي برقم ١١٣٨.

(٤) الآية: رقم ٢٧ من سورة المؤمنون.

وَوَحْيَنَا^(١)، أي: بأمرنا لك، وبمرأى منا لصنعتك لها ومشاهدتنا لذلك، لنرشدك إلى الصواب في صنعها، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾^(٢).

وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٣)، هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم، ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهاراً، بضروب المقال، وفنون التلطفات، والتهديد، والوعيد تارة، والترغيب والوعد أخرى، فقليل: عدد المؤمنين سبعة، وقيل: كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم، وأما امرأة نوح ﷺ وهي أم أولاده كلهم، وهم: حام، وسام، ويافث، ويام، وهو الذي غرق، قيل إنها غرقت مع من غرق، وكانت ممن سبق عليه القول بكفرها.

وقال تعالى عن نوح ﷺ: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٤) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا^(٥)، وقد استجاب الله تعالى لدعوته فلم يبق منهم عين تطرف.

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه في ولده، وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف، ووجه السؤال: إنك وعدتني بنجاة أهلي معي، وهو منهم وقد غرق، فأجيب بأنه ليس من أهلك، أي الذين وعدت بنجاتهم، أي: أما قلنا لك: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾^(٥)، فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم، بأنه سيغرق بكفره، ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان،

(١) الآيتان: رقم ٢٦-٢٧ من سورة المؤمنون.

(٢) الآية: رقم ٢٧ من سورة المؤمنون.

(٣) الآية: رقم ٤٠ من سورة هود.

(٤) الآيتان: رقم ٢٦-٢٧ من سورة نوح.

(٥) الآية: رقم ٢٧ من سورة المؤمنون.

فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان، ثم قال سبحانه: ﴿قِيلَ يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١)، هذا أمر لنوح ﷺ أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودي، وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور، ﴿بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾، أي: اهبط سالماً مباركاً عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد، أي من أولادك، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عقباً سوى نوح ﷺ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾^(٢)، فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينتسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم: سام، وحام، ويافث^(٣).

فأما يافث فقد ملأ المشرق من الذرية، وحام ملأ المغرب من النسل، وسام ملأ ما بين ذلك، ومكث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ومكث بعد هلاكهم ما شاء الله^(٤).

* * *

(١) الآية: رقم ٤٨ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٧٧ من سورة الصافات.

(٣) أنظر: البداية والنهاية لابن كثير ﷺ (١/ ٢٣٧-٢٧٥) باختصار.

(٤) أنظر: مجموع مؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي (٣/ ١٨١).

التعريف بنوح ﷺ

أولاً: اسمه ونسبه:

ذكر الإمام ابن كثير في نسب نوح ﷺ أنه: نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ، وهو إدريس عليه السلام بن يرد بن مهلايل بن قينن بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام^(١).

وقيل: إن اسم نوح من مادة النوح العربية، ولكن المشهور أنه اسم أعجمي معرب، إنما صرف؛ لأنه على ثلاثة أحرف فهو من ناح ينوح، ومعناه بالعربية: (السكن)^(٢)، وكان اسم نوح ﷺ السكن، وسمي به؛ لأن الناس بعده سكنوا إليه، فهو أبوهم، فكأنه صار آدم الثاني بعد حادثة الطوفان، وذلك لانحصار النوع الإنساني بعده في نسله.

وقيل: اسمه: شاكر^(٣).

وفي سبب تسميته ﷺ بهذا الاسم أورد العلماء خمسة أقوال:

الأول: أنه كان ينوح على نفسه.

الثاني: أنه كان ينوح لمعاصي أهله وقومه.

الثالث: أنه كان ينوح لمراجعته لله ﷻ في ولده الذي غرق بالطوفان.

الرابع: أنه كان ينوح لدعائه على قومه بالهلاك.

الخامس: أنه مر بكلب مجذوم فقال له: احسأ يا قبيح. فأوحى الله تعالى إليه: أعبتني

يا نوح أم عبت الكلب؟^(٤).

(١) أنظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، ١/ ٧٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٦٢، تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٧/ ٤٨٨.

(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي، ٦/ ٤٣٦، التفسير المظهر، محمد ثناء الله المظهري، ٣/ ٣٦٧، فتح

البيان، صديق خان، ٩/ ١١١.

(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ٣٧٤، التفسير المظهر، محمد ثناء الله المظهري، ٣/ ٣٦٧.

ومن الملاحظ: أن هذه الأقوال متكلفٌ فيها؛ لأن الأعلام لا تفيد صفة في المسمى.

ثانيًا: حكمة تسمية سورة باسمه:

لقد ورد ذكر نوح ﷺ في القرآن الكريم في ثلاثة وأربعين موضعًا^(١)، في حين ذكرت قصة نوح ﷺ مفصلةً في القرآن الكريم في ست سور، كما أن القصة ذاتها مختلفة اللفظ في كل موضع حسبما يقتضيه السياق أو المعنى أو المحور الرئيسي للسورة.

وسورة نوح ﷺ كغيرها من السور التي سميت بأسماء أنبياء كسورة هود ويوسف وإبراهيم ﷺ على سبيل المثال، إلا أنه يتضح في السور التي سميت بأسماء أنبياء أنها لم تقتصر على ذكر النبي الذي سميت باسمه السورة، فربما تذكر قصصًا أخرى غيره أو تتطرق إلى مواضيع أخرى باستثناء سورة نوح ﷺ، فهي السورة الوحيدة التي لم يذكر الله ﷻ فيها سوى قصة نوح ﷺ وحدها، وربما يرجع السبب في ذلك إلى ما يأتي:

١- ذكر نوح ﷺ في مفتتح السورة ومختتمها^(٢)، فقد ورد في أول السورة قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣)، وفي خواتمها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٤).

٢- طول لبث نوح ﷺ في قومه، وتكرار دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك^(٥).

٣- إنها السورة الوحيدة التي ذكرت قصة نوح ﷺ مع قومه من بداية دعوته إلى إهلاكهم بالطوفان، مع التركيز على موضوع تكذيب قومه وتفصيله تفصيلًا تامًا^(٦).

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٢٢ وما بعدها.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ١٠ / ١٥٨٨.

(٣) الآية: رقم ١ من سورة نوح.

(٤) الآية: رقم ٢٦ من سورة نوح.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٨٨.

(٦) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، ١٢ / ٥، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩ / ١٣٣.

ثالثاً: زمانه ومدة مكثه فيه قومه:

اختلف العلماء في زمان نوح عليه السلام وبعثته، فمنهم من قال: إنه بعد آدم عليه السلام، ومنهم من قال: إنه بعد إدريس عليه السلام، وقيل غير ذلك، فذكر الطبري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُبَشِّرًا وَمُنْذِرًا وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(١)، ما رواه الحاكم عن ابن عباس عليه السلام قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فلما اختلفوا بعث الله النبيين والمرسلين وأنزل كتابه فكانوا أمة واحدة»^(٢).

كما استدل بقراءته التي تعتبر قراءة تفسيرية وهي: (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا)، وبين ابن كثير أن هذا القول هو أصح سنداً ومعنى، وذلك أن الناس كانوا في البداية على ملة آدم عليه السلام، وبعد أن طال العهد به عبدوا الأصنام، فبعث الله تعالى إليهم نوحاً عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى الأرض.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُبَشِّرًا وَمُنْذِرًا﴾^(٣)، ويؤيد هذا أيضاً ما ذكره الألوسي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٤)، فقال: «اصطفى نوحاً بأنه أول رسول بعث بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات وسائر ذوي الأرحام، وأنه أب الناس بعد آدم»^(٥).

وهذه سنة الله سبحانه وتعالى في الكون، فبعد أن تتغير معالم الحق، ويضل الناس

(١) الآية: رقم ٢١٣ من سورة البقرة.

(٢) الحديث: أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين، كتاب التفسير، وقال: صحيح على شرط البخاري، ٤٤٢/٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤/٢٧٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/٤٢٥.

(٤) الآية: رقم ٣٣ من سورة آل عمران.

(٥) أنظر: روح المعاني، الألوسي، ٣/١٣٢.

طريق العبادة الصحيحة، فإنه ﷺ لا يترك الناس يتخبطون في غياهب الباطل، وإنما يرسل إليهم الأنبياء والرسل، وينزل عليهم الكتب السماوية، وهكذا إلى أن ختمت الرسالات برسالة نبينا محمد ﷺ وبالكتاب المنزل عليه القرآن العظيم.

هذا عن زمان نوح ﷺ، أما عن مدة مكثه في دعوته لقومه فإنها هي المدة المحققة التي صرح بها القرآن الكريم في قوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(١).

ومع هذه المدة الطويلة في دعوته ﷺ لقومه إلا أنه لم يستجب لدعوته إلا القليل كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٢).

ولعل الحكمة من ذلك تبدو في أن قصص الأنبياء مع أقوامهم عمومًا وقصة نوح ﷺ مع قومه خصوصًا فيها تسرية وتسلية لقلب النبي محمد ﷺ حين آذته قريش أشد الإيذاء وهو في مكة، ومن خلال قراءة السيرة النبوية فالذين استجابوا مع النبي محمد ﷺ في ثلاث عشرة سنة أكثر بكثير من الذين استجابوا لنوح ﷺ في هذه القرون الكثيرة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذا يعلمنا درسًا مهمًا، ألا وهو أن الهداية بيد الله ﷻ، فهو الذي يملكها وهو علام الغيوب، فهذه عقيدة يجب أن تكون راسخة في قلب كل مسلم، ف سبحانه هو الذي يملك القلوب، فجميع قلوب عباده بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والآيات القرآنية في مثل هذا

المعنى كثيرة، ومنها على سبيل المثال قوله ﷺ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣).

(١) الآية: رقم ١٤ من سورة العنكبوت.

(٢) الآية: رقم ٤٠ من سورة هود.

(٣) الآية: رقم ٢٧٢ من سورة البقرة.

ذكر نوح ﷺ في القرآن الكريم

ورد ذكر نوح ﷺ في القرآن الكريم: (٤٣) مرة، في (٢٨) سورة.

وأما قصته ﷺ فقد وردت في السور الآتية:

١- سورة الأعراف: الآيات من ٥٩-٦٤.

٢- سورة يونس: الآيات من ٧١-٧٣.

٣- سورة هود الآيات من ٢٥-٤٨.

٤- سورة الأنبياء الآيات ٧٦-٧٧

٥- سورة المؤمنون الآيات من ٢٣-٣٠.

٦- سورة الشعراء الآيات من ١٠٥-١٢٠.

٧- سورة العنكبوت الآيات من ١٤-١٥.

٨- سورة الصافات الآيات من ٧٥-٨٢.

٩- سورة القمر الآيات من ٩-١٦.

١٠- سورة التحريم الآية ١٠.

١١- سورة نوح الآيات من ١-٢٨.

مكانة نوح ﷺ:

لقد كان لنوح ﷺ مكانة عالية، يأتي بيانها في النقاط الآتية:

أولاً: ثناء الخلق عليه:

فقد أشنى الله ﷻ على نوح ﷺ؛ لما كان له من طول لبثٍ في دعوة قومه، وصبر

شديد على ما لقيه منهم من أذى، فجعل الله تعالى جميع الناس من بعده وكل الأمم من الإنس والجن يشني عليه ﷺ ثناءً حسناً، وتذكره الأجيال من بعده ذكراً جميلاً، وهذه سنة الله تعالى في عباده المحسنين المؤمنين، وهي أن ينشر لهم من ثناء الخلق عليهم على حسب إحسانهم^(١)، فقال الله سبحانه وتعالى في هذا السياق: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾^(٢).

ومعنى الترك في هذه الآية: الإبقاء، وفعل الترك هو فعلٌ متعد، ولكن مفعوله محذوف، فجعل فعلاً لازماً فصار معناه كما يقول الإمام البقاعي: (أوقعنا عليه الترك بشيء هو من عظمته، وحسن ذكره بحيث يعز وصفه)^(٣).

ثانياً: إجابة دعوته:

لما طال مكث نوح ﷺ في دعوة قومه وكانت ألف سنة إلا خمسين عاماً، وبلغ دعوة الله تعالى على أكمل وجه، وصبر على بلاء قومه وأذاهم له، ومع ذلك فلم يؤمن معه إلا القليل، ولما ضاق نوح ﷺ بقومه ذرعاً دعا الله تعالى أن يهلك قومه الذين كفروا بالله تعالى، وبما توعدهم به من العذاب، وكفروا بالنبوة التي أكرم الله تعالى بها نوحاً ﷺ، فكان من جملة ما دعا به نوح ﷺ قوله تعالى على لسانه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٤)، وقوله أيضاً: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾^(٥).

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٠٥، التفسير المنير، الزحيلي، ١٠٦/٢٣، التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ص ٤٤٩، التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، ٢١٨/٤.

(٢) الآيتان: رقم ٧٨-٧٩ من سورة الصافات.

(٣) أنظر: نظم الدرر، البقاعي، ٢٤٧/١٦.

(٤) الآية: رقم ٢٦ من سورة نوح.

(٥) الآية: رقم ١٠ من سورة القمر.

فما كان من الله ﷻ إلا أن أجاب عبده نوحًا ﷺ، وأغرق الكافرين وأهلكهم بالطوفان، ونجاه ﷻ وأهل الإيمان من ولده وأزواجهم من هذا الهلاك المفزع^(١)، وفي هذا المعنى يقول الله ﷻ: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَاهِلَةً مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾^(٢).

ف ﴿ إِذْ ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مبني في محل نصب بفعل محذوف، تقديره: واذكر نبأ نوح الواقع وقت دعائه، والفاء في: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا ﴾، حرف عطف يفيد الترتيب والتعقيب، فتدل على سرعة إجابة الله تعالى بمجرد دعاء نوح ﷺ إياه^(٣)، وورد أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾^(٤)، وقد تضمن نداء نوح ﷻ واستغاثته بالله ﷻ أشياء كثيرة، منها: الدعاء على قومه، وطلب النصر، وفي جميعها كانت إجابة الله تعالى متحققة وواقعة على أكمل وجه، وهي متمثلة في الآتي:

- نجاة نوح ﷻ والمؤمنين معه من الغم الشديد الذي أصابهم، وكذلك من الغرق الذي أصاب الكفار.

- إهلاك الكافرين بدعاء نوح ﷻ، وجعل ذريته وحدها هي الباقية على قيد الحياة، ما سيأتي تفصيله في النقطة الآتية.

- إبقاء الله تعالى الشاء الحسن لنوح ﷻ والذكر الجميل من الأمم التي بعده إلى يوم الدين^(٥).

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٧/ ٥٥، التفسير الواضح، محمد حجازي، ٢٤/ ٣.

(٢) الآية: رقم ٧٦ من سورة الأنبياء.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ٧٨.

(٤) الآية: رقم ٧٥ من سورة الصافات.

(٥) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٣/ ٢١٧٦.

ثالثاً: الذرية الصالحة:

وكما امتن الله تعالى على نوح ﷺ ببناء الخلق عليه، وإجابة دعوته، امتن عليه أيضاً بالذرية الصالحة.

فلما نجى الله تعالى نوحاً ﷺ والمؤمنين الذين كانوا معه على متن السفينة التي أمره الله تعالى بصنعها من الطوفان الذي عم وجه الأرض، وأغرق الكافرين من قومه، كان أهل الأرض بعد ذلك من ذرية نوح ﷺ^(١)، وفي هذا المعنى يقول الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾^(٢)، ف﴿هُمُ﴾: في الآية ضمير فصل يفيد الحصر والتخصيص، فقد امتن الله تعالى على نوح ﷺ لما أغرق الكافرين بأن جعل ذريته وحدها هي الباقية إلى آخر الدهر، وقد قال بعض العلماء: (نسل أهل السفينة انقرضوا غير نسل ولده، فالناس كلهم من ولد نوح)^(٣).

هذا بالإضافة إلى ما جعله الله تعالى من أمر النبوة في ذرية نوح ﷺ.

* * *

(١) أنظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١٩٣/٢.

(٢) الآية: رقم ٧٧ من سورة الصافات.

(٣) أنظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٥٤٤/٣.

صفات وأخلاق نوح ﷺ

من خلال استعراض مواضع الآيات التي ذكر فيها نوح ﷺ وفيما يخص صفاته وأخلاقه فقد تبين أن هذه الصفات والأخلاق يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: صفات نوح ﷺ وأخلاقه مع الله تعالى:

لقد اتصف نوح ﷺ بصفات أخلاقية مع ربه ﷻ، وبيان ذلك فيما يأتي:

١ - الإخلاص:

لقد وصف الله تعالى نبيه نوحاً ﷺ بخالص الإيمان، وكمال العبودية لله تعالى، وشدة خضوعه وانقياده وتسليمه لأوامر الله ﷻ، ووصفه تعالى بهذه الصفة في معرض الحديث عن إهلاك الأمم السابقة التي كذبت أنبياء الله تعالى ورسله، فاستثنى عباد الله الذين أخلصهم للإيمان برسله من المنذرين الذين وقع بهم عقاب الله تعالى^(١)، فيقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۖ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ۖ ﴿٧٢﴾ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ۖ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۖ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۖ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۖ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ۖ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۖ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۖ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۖ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴿٨١﴾﴾^(٢).

ومن جملة عباد الله تعالى نوح ﷺ، فقد مدحه الله تعالى بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾^(٣)، أي: كان نوح مخلصاً لله تعالى في عبوديته، كامل الإيمان واليقين^(٣).

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٥٨/٢١.

(٢) الآيات: رقم ٧١-٨١ من سورة الصافات.

(٣) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/٣٤.

وكلمة ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ فيها قراءتان:

الأولى: بكسر لام (المُخْلِصِينَ)، والمعنى: من آمن بالرسول من الأمم، فأخلص العمل والإيمان لله تعالى.

الثانية: بفتح لام (المُخْلِصِينَ)، والمعنى: من آمن بالرسول، وكان قد أخلصه الله تعالى بالإيمان والتصديق في سابق علمه، فوفقه له^(١).

ويتبين أيضاً أن نداء نوح ﷺ لله ﷻ بإخلاص كان سبباً في إجابة الله تعالى لدعوته^(٢).

وقال أبو زهرة في تفسير قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾^(٣)، أنه كان عبداً يحس بنعمة العبودية لله تعالى، فلم يكن ذا جبروت، بل كان خاضعاً لله سبحانه وتعالى. والخضوع لله تعالى وحده هو العزة التي لا ذل فيها ولا استكبار^(٤).

٢- الإحسان:

وصف الله تعالى نوحاً ﷺ بصفة الإحسان هذه بعد تعدادها للنعم التي أنعمها الله تعالى عليه من جعل الدنيا مملوءة من ذريته، ومن إبقاء الثناء الحسن له على جميع ألسنة الناس، ومن إجابة دعوته، فهذه التكرمة لنوح ﷺ وهذه التشريفات الرفيعة له، لأنه كان محسناً لله ﷻ في أقواله وأفعاله، ومعروفاً بهذه الصفة^(٥)، فقال جل جلاله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٦).

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٩/ ٦١١٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٣٩.

(٣) الآية: رقم ٣ من سورة الإسراء.

(٤) أنظر: زهرة التفاسير، ٨/ ٤٣٣١.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٤٠، فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٤٥٩.

(٦) الآية: رقم ٨٠ من سورة الصفات.

فجملته: ﴿ تَجَزَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليلٌ لاستحقاق نوح ﷺ تلك التشريفات الرفيعة بكونه ﷺ من زمرة المعروفين بالإحسان، ثم علل الله ﷻ هذا الاستحقاق للإحسان بأنه كان عبداً لله تعالى مؤمناً.

فهذا الوصف هو أقصى صفات المدح والتعظيم^(١)، ففيه بيان أن أعظم الدرجات وأرفعها إلى الله تعالى هو الإيمان بالله ﷻ والانقياد لطاعته الذي ينبثق عنه كل الصفات الجليلة والأخلاق الحميدة.

كما تمثل إحسان نوح ﷺ في مجاهدته لأعداء الله تعالى بالدعوة إلى دينه، والصبر الطويل على أذى قومه، ومطاولته لهم في سبيل الله تعالى، وغير ذلك من ألوان عبادته ﷺ وأفعاله وأقواله^(٢).

٣- التوكل والثقة:

اتصف نوح ﷺ بهذه الصفة، وتخلق بهذا الخلق، حيث دعا قومه على هذا الأساس فلم ييأس، ولم يمل، فقد دعاهم إلى الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عاماً، سالكاً وآخذاً جميع السبل في ذلك، كما سيأتي في أساليب دعوته، فقال الله تعالى عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۖ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ۖ وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعُهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۖ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۖ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۖ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۖ ﴾^(٣).

فلما أوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا هذا العدد القليل، ورأى أنه لم تعد هناك من فائدة في دعوة قومه، وأنهم مصرون على كفرهم وجحودهم، فقد حان الآن وقت المفاصلة، فقال لقومه: ﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ

(١) انظر: الكشف، الزمخشري، ٤/ ٤٨، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٤٠.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٤٧٧، التفسير الواضح، محمد حجازي، ٣/ ٢١١.

(٣) الآيات: رقم ١٠-٥ من سورة نوح.

كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿١﴾، وبالرجوع إلى تفسير هذه الآية الذي مر معنا نجد أن نوحاً ﷺ قد واجه قومه، ولم يمتلك سوى رصيد الاعتماد والتوكل على الله ﷻ الذي أرسله إلى هؤلاء القوم، فقد حاول هدايتهم كثيراً، ولكنهم لم يستجيبوا^(٢).

فقول نوح ﷺ: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ نجد أنه حصر من يتوكل عليه وما يعتمد عليه في دعوة قومه على الله ﷻ وحده، وهذا مستفاد من تقديم شبه الجملة ﴿فَعَلَى اللَّهِ﴾: على الفعل ﴿تَوَكَّلْتُ﴾، وفي هذا الكلام منه ﷻ ما يدل على مدى وثوقه بنصر ربه الذي أرسله، كما يدل على عدم مبالاته بما يتوعد به قومه^(٣).

ثم إن قوله ﷺ: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾، يظهر التحدي الكبير، فهو يطلب منهم أن يجتمعوا وشركاءهم على أمر واحد، وألا يكون هذا الأمر فيه خفاء أو غموض، ثم ينفذوا ما اتفقوا عليه دون تهاون أو تردد أو تأجيل، فهل هناك تحدٍّ للخصم أكثر من هذا؟^(٤).

٤ - الشكر:

أثنى الله تعالى على نوح ﷺ في قوله ﷻ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾^(٥)، وقد وصف الله تعالى نوحاً ﷺ في الآية المذكورة بوصفين:

الأول: أنه عبدٌ لله تعالى، معترفٌ له بالعبودية، غير متكبر بالإشراك، فكان يحس

(١) الآية: رقم ٧١ من سورة يونس.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١٠/٦٠٩٤.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/٢٥٢.

(٤) انظر: تفسير الشعراوي، ١٠/٦١٠٠.

(٥) الآية: رقم ٣ من سورة الإسراء.

بنعمة العبودية لله جل جلاله، فلم يكن ذا جبروت، بل كان خاضعاً لله تعالى وحده، وهذا الخضوع هو الذي يحمل معنى العزة لنوح ﷺ.

الثاني: أنه شديد الشكر لله تعالى على ما أنعم به عليه في سرائه وضرائه^(١).

وكلمة: (شكور) هي صيغة مبالغة على وزن: (فعلول) التي تفيد الكثرة.

فنوح ﷺ كان دائم الحمد لله تعالى في كل فعل يقوم به، فقد روي عنه أنه: (كان نوح إذا طعم طعاماً أو لبس ثوباً حمد الله، فسمي عبداً شكوراً)^(٢).

وفي هذه الآية تذكير لبني إسرائيل بأن الله تعالى قد نجى نوحاً ﷺ من الهلاك بسبب شكره هو وشكر الذين معه في السفينة، ففيها تحريضٌ وحثٌ لذريته على التأسي والافتداء بنوح ﷺ في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم لما أبقاهم واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم^(٣).

٥ - الاستغفار:

ورد طلب نوح ﷺ المغفرة من الله ﷻ في قوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا نَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا﴾^(٤).

فنوح ﷺ وإن كان من الأنبياء الذين هم معصومون من الخطأ والذنوب والزلل فإنه لا يسعه إلا حلم الله تعالى وعفوه ورحمته^(٥)، فكأنه يقول: يا رب، أسألك أن تغفر لي ذنوبي. فكان دائم الاستغفار لله ﷻ، فإن الاستغفار دواء الذنوب، وشفاء

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٧/١٥، زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٨/ ٤٣٣١.

(٢) الحديث: أخرجه الحاكم في المستدرک، کتاب التفسیر، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ٢/ ٣٦٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٧/١٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٥٣.

(٤) الآية: رقم ٢٨ من سورة نوح.

(٥) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٢٠/ ٤٥٩.

القلوب، وبه النجاة والأمان من الهلاك، كما أنه نعمةٌ وسببٌ في التخلص من كل بلاء ومصيبة، وكذلك هو سبب لحصول الرزق، بالإضافة إلى أنه سبب لحصول رضا الله جل جلاله.

وقد أمر نوح ﷺ قومه بالاستغفار حين قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١﴾^(١).

ولا يعقل أن يأمر قومه بفعل ولا يأتيه، فهو أكثر الناس في زمانه عبودية لله تعالى، ومن ضمن خضوعه لله ﷻ طلبه المغفرة منه سبحانه وتعالى.

٦- بر الوالدين:

لما طلب نوح ﷺ المغفرة من الله ﷻ لنفسه لم يقتصر على ذلك، فطلبها أيضاً لمن كانا سبباً في وجوده، وهما والداه، فقال في دعائه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ۝٢١﴾^(٢)، ويذكر المفسرون أنها كانا مؤمنين^(٣)، وفي تخصيصهما بالذكر تأكيد حقهما، وتقديم برهما، فهما أحق بالدعاء من غيرهما، ثم بعد ذلك عمم بالدعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات؛ ليكون ذلك أبلغ في الدعاء^(٤).

ويؤكد هذا حديث النبي ﷺ حيث قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٥)، فيعتبر دعاء نوح ﷺ لوالديه بالمغفرة من باب البر لهما.

(١) الآيتان: رقم ١٠-١١ من سورة نوح.

(٢) الآية: رقم ٢٨ من سورة نوح.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/٣٦١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/٣١٣.

(٤) انظر: الكشف، الزمخشري، ٤/٦٢١، لباب التأويل، الخازن، ٤/٣٤٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٨٩.

(٥) الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، عن أبي هريرة، رقم ١٦٣١، ٣/١٢٥٥.

ثانيًا: صفات نوح ﷺ وأخلاقه:

لقد اتصف نوح ﷺ بصفات وأخلاق، وبيان ذلك فيما يأتي:

١ - الإيمان بالدعوة:

لقد أثنى الله تعالى على نوح ﷺ لما قال فيه: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

هذا الإيمان هو الدافع المحرك للقوى الكامنة في نفس المؤمن، فيجعله دائماً في شوقٍ للعمل بما يرضي الله ﷻ، كما يدفع صاحبه إلى تحقيق هدفه وغايته التي آمن بها، وإلى إخلاص العمل ليتحقق له ما يسعى إليه، فهذا الإيمان لا يترك صاحبه يهدأ حتى يرى جميع الناس قد دخلوا في دين الله تعالى، ويرى راية الحق والإسلام عالية خفاقة في كل مكان وزمان^(٢).

وتظهر هذه الصفة جليةً في شخصية نوح ﷺ في الآية التي فاصل فيها قومه، وهي قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِحَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣).

أما نوح ﷺ فقد كان يمثل موقف المؤمن الجريء الجسور الذي لا يخشى الصعاب، ولا يعرف التردد والتراجع، ولا يهاب الموت في سبيل دعوته، ويتحدى جميع الخلق فيما يريدون أن ينفذوه فيه، هذا كله؛ لأنه مؤمن بدعوته.

أما موقف قومه فكان موقف الهياب الضعيف الجبان المتخاذل المتردد، الذي لم يكن باستطاعته أن يتخذ موقفاً أو قراراً حاسماً بشأن نوح ﷺ، الذي كانت هيبة الإيمان تعصمه وتحميه من مكائدهم ومخططاتهم الشريرة^(٤).

(١) الآية: رقم ٨١ من سورة الصافات.

(٢) انظر: أسس الدعوة وآداب الدعاة، محمد السيد الوكيل، ص ٩٣.

(٣) الآيتان: رقم ٧١-٧٢ من سورة يونس.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١١/ ٢٢٩.

٢- القدوة الحسنة:

إن الداعية يكسب لدعوته بسلوكه الحسن وأخلاقه الحسنة ما لا يكسبه بكلماته وخطبه ومواعظه العديدة، فالقدوة الحسنة تعتبر دعوة صامتة، فالناس يتأثرون بسلوك الدعاة العملي أكثر من الخطب الرنانة، فكيف يطلب الدعاة من الناس تنفيذ أمر معين وهم لا يفعلونه، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَفْعَلُونَ﴾ (١)، وتظهر هذه الصفة واضحة في شخصية نوح ﷺ حينما قال لقومه: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢).

فكانه يقول لهم: أنا أول داخل في هذا الدين الذي أدعوكم إليه، وأول فاعل لما أمرتكم به (٣)، فهو مستقيم على شرع الله ﷻ.

٣- العمل والقدرة على الكسب:

إن من المروءة أن يكسب الإنسان رزقه من تعبته وجهده وعمله يده، وكان أنبياء الله تعالى ورسله يعملون، ولم يكن منهم أحد عالة على أحد، وقد أرشدهم الله تعالى إلى الصناعات؛ لعظيم نفعها، فنوح ﷺ قد أمره الله تعالى بصناعة السفينة التي سوف يسلك فيها طريق النجاة هو ومن آمن معه.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٤).

(١) الآية: رقم ٤٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ٧٢ من سورة يونس.

انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٦٩. (٣)

(٤) الآيتان: ٣٧-٣٨ من سورة هود.

هذا يعني أنه كان نجارًا، وإلا كيف يصنع السفينة وليس لديه علمٌ بهذه الصناعة؟! وقد روي من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن داود عليه السلام كان زرادًا يصنع الزرد والدروع، وكان آدم عليه السلام حراثًا، وكان نوح عليه السلام نجارًا، وكان إدريس عليه السلام خياطًا، وكان موسى عليه السلام راعيًا^(١). وفي ذلك إعلاءٌ لشأن العمل ودليلٌ على شرف العاملين، كما في الحديث المروي عن النبي ﷺ: «ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»^(٢).

٤ - علو الهمة:

ذكر الجرجاني في تعريف الهمة قوله: (هي توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق؛ لحصول الكمال له أو لغيره)^(٣)، هذا وقد أثنى الله ﷻ على أصحاب المهمم العالية وفي طليعتهم ومقدمتهم الأنبياء والرسل عمومًا، وأولو العزم خصوصًا، وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ^(٤)، فقال عنهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَغَ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٥).

ونوح عليه السلام هو أحد أولي العزم من الرسل، وتجلت همته العالية في مجاهدته في إعلاء كلمة الله ﷻ، والدعوة إلى الحق ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهراً^(٦)، فهو ﷺ لم يتوان

(١) الحديث: ذكره الألباني في كتاب تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عاجلها الإسلام، رقم ٣٤، وقال: لم أره مرفوعًا. ٢٨/١.

(٢) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، عن المقدم، ٥٧/٣، رقم ٢٠٧٢.

(٣) أنظر: كتاب التعريفات للجرجاني، ص ٢٥٧.

(٤) انظر: علو الهمة، محمد المقدم، ١٢٨/١.

(٥) الآية: رقم ٣٥ من سورة الأحقاف.

(٦) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٢١٤/٨.

لحظة، ولم يقصر طرفه عين في دعوة قومه إلى توحيد الله تعالى، فطال مكثه في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وفي هذا دعوة إلى الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى بعلو همتهم في هذا المجال.

٥- الثبات:

لما عجز قوم نوح عليه السلام عن جداله وانهزموا أمام دعوته وحجته ومنطقه القوي السليم لجأوا إلى التهديد الصريح للرسول الذي جاءهم من عند الله تعالى ليدعوهم إلى الخير وإلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، وهذا التهديد منهم يدل على أنهم كانوا أقوياء، وأنهم أصحاب جاه وبطش، وأنهم قادرون على إنفاذ تهديدهم، وهذا التهديد هو سلاح الطغاة دائماً عندما لا يجدون حجة قوية يواجهون بها صاحب الحق، فقالوا له: إذا لم تنته عن دعوتك هذه فسوف نرجمك بالحجارة حتى الموت. ولكن نوحاً عليه السلام لم يخفه هذا التهديد فظل ثابتاً على موقفه ومبدئه، وقابل هذا التهديد بكل أدب وثبات، فما كان منه إلا أن شكى قومه إلى الله تعالى طالباً منه أن يفصل بينه وبينهم^(١)، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١٣٧) فَأَفْنِ بَنِيَّ وَيَنْهَهُمْ فَتَحَا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

٦- الولاء والبراء:

عندما رفض ابن نوح أن يؤمن ويستجيب لدعوة أبيه عليه السلام وهلك وكان من الغارقين، دفعت عاطفة نوح عليه السلام إلى معرفة مصير ابنه، فقال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾^(٣)، فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ يَنْتَوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٤)؛ لأنه بكفر ابنه وجحوده انقطعت الولاية بينه

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٧/١٠٦٢٦، التفسير المنهجي، صلاح الخالدي، ٧/١٠٣.

(٢) الآيتان: رقم: ١١٧-١١٨ من سورة الشعراء.

(٣) الآية: رقم ٤٥ من سورة هود.

(٤) الآية: رقم ٤٦ من سورة هود.

وبين ابنه، فقد عمل أعمالاً ليست صالحة، وبذلك صار ليس من أهله، وأرشده الله تعالى إلى عدم السير والانقياد وراء عاطفته وشفقته عليه، فاستعلى نبي الله ﷺ نوح على عاطفته، ورضي بحكم الله تعالى، فما كان منه إلا التسليم المطلق والاتباع لما يحبه الله تعالى ويرضاه، والولاء كذلك لمن يحبه الله، والبراء والعداء لمن حاد الله تعالى، ولو كان ابنه وزوجته التي قال الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾^(١).

٧- الصدق:

وصف الله تعالى نوحاً ﷺ بهذه الصفة في معرض الحديث عن أخذه الميثاق الغليظ من الأنبياء عموماً، وخاصة أولي العزم من الرسل، ونوح ﷺ أحد أولي العزم الخمسة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ۖ ﴾^(٢) لَيْسَ لَكَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا^(٣)، والمعنى: اذكر أيها الرسول الكريم وقت أن أخذنا العهد الوثيق من جميع الأنبياء السابقين على أن يبلغوا دين الله ﷻ، وأن يجاهدوا في سبيل تحقيق تلك الغاية بإخلاص العبادة لله جل جلاله، وعلى أن يصدق بعضهم بعضاً في أصول الشريعة ومكارم الأخلاق، وقد أخذ الله تعالى هذا العهد والميثاق منك أيها الرسول ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ﷺ الذين هم أولو العزم من الرسل، الذين تحملوا في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى أكثر مما تحمله غيرهم من الأنبياء، والسبب في أخذ الله ﷻ هذا الميثاق الغليظ ليسأل الأنبياء عن كلامهم الصادق الذي قالوه لأقوامهم، وماذا رد عليهم أقوامهم^(٣).

(١) الآية: رقم ١٠ من سورة التحريم.

(٢) الآيتان: رقم ٧-٨ من سورة الأحزاب.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٥٩، التفسير الوسيط، طنطاوي، ١١/ ١٧٨.

ولكن الله تعالى يعلم أن هؤلاء الأنبياء صادقون، فلماذا سوف يسألهم يوم القيامة عن صدقهم في تبليغ الرسالة؟ والجواب على هذا السؤال يكمن في حكمتين:
الأولى: أن في هذا السؤال تشريفاً لهؤلاء الرسل وتكريماً لهم، فيثيبهم جنات النعيم^(١).

الثانية: فيه توبيخ للمكذبين لأنبيائهم فيما جاءهم به هؤلاء الأنبياء من كلام صادق وإرشاد حكيم، وفيه وعيد لهم؛ لأنه إذا كان الأنبياء سوف يسألون فكيف بغيرهم؟! فيعذبهم العذاب الأليم^(٢).

ومما ينبغي الإشارة إليه أن يكون الداعية صادقاً في دعوته؛ لأن المقصد من هذه الدعوة هو هداية الناس إلى البر والتقوى، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فكيف يحقق الداعية هذا وهو غير صادق؟، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يجب أن يكون صادقاً في قوله؛ لأنه يبلغ دعوة الله تعالى كما جاءت، فما يقوله ليس تعبيراً عن رأيه الشخصي، فهذا يدفع المدعويين إلى تصديقه والاستجابة له.

٨- الأمانة:

أخبر الله تعالى عن نبيه نوح ﷺ لما كان يدعو قومه إلى توحيد الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَتَّقُونَ﴾ (١٦) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٧) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٣).

وقول نوح ﷺ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، يخرج على قولين:

الأول: ذكر المفسرون أن نوحاً ﷺ قد تخلق بهذا الخلق قبل بعثته، فإن قومه كانوا يعرفون صدقه وأمانته من قبل، كصدق محمد ﷺ وأمانته في قريش قبل بعثته.

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، ١١/ ١٧٨.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٠٤.

(٣) الآيات: رقم ١٠٦-١٠٨ من سورة الشعراء.

والمعنى: كنت أميناً فيكم قبل دعوتي إياكم إلى الله تعالى، فتصدقونني في جميع ما أخبركم به، فما بالكم لا تصدقونني الآن لما أخبرتكم أني رسول الله إليكم؟^(١).

الثاني: كأن نوحاً ﷺ يقول: إني لكم رسول من الله تعالى، أمينٌ على وحيه إلي بإرساله إياي إليكم، جعلني الله تعالى أميناً فيما بعثني به، أبلغكم رسالة ربي لا أزيد فيها، ولا أنقص منها شيئاً، وأؤدي الأمانة شئتم أم أبيتم، قبلتم الدعوة أم توليتم، فقد وضح لكم صدقي، وبانت أمانتي فيما بعثني الله به واثممني عليه، فأنا لا أخاف ما تتوعدونني به^(٢).

ومما تجدر الإشارة إليه أن الداعية يجب عليه أن يكون مشهوراً بالأمانة بين الناس؛ حتى يصدقوا ما يدعو إليه ولا يتهموه بما قد كان منه إذا لم يكن كذلك.

٩ - النصيحة:

هذا الخلق يتضمن الرحمة بالناس، والشفقة عليهم، والرافة بهم، والحرص على إنقاذهم من الضلالة إلى الهداية؛ لئلا يتعرضوا لعذاب الله ﷻ وعقابه.

فهذا نوح ﷺ يقول الله تعالى فيه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(١) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ^(٢) قَالَ يَتَقَوَّمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ^(٣) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(٤) أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ^(٥) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ^(٦)، والمعنى: أن الله ﷻ بعث نوحاً ﷺ إلى قومه؛ ليدعوهم إلى إفراد الله

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٨/ ٧٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ١١٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٣٦٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٥١، وتأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٨/ ٧٠.

(٣) الآيات: رقم ٥٩-٦٤ من سورة الأعراف.

تعالى وحده بالعبودية؛ لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وما سواه ﷻ مخلوقٌ مدبرٌ له، ليس له من الأمر شيء، وكأنه يقول لهم: يجب عليكم أن تخضعوا لله تعالى بالطاعة وإخلاص العبادة له، فليس لكم من إله يستحق العبادة غيره، فإن لم تفعلوا وبقيتم على ما أنتم عليه من الكفر والجحود فإني أخاف عليكم أن يحل عليكم يومٌ يعظم فيه بلاؤكم^(١)، ويقصد بهذا اليوم يوم الطوفان الذي هلكوا فيه جميعاً في الدنيا، أو يوم القيامة الذي ينتظرهم فيه العذاب في الآخرة.

فقول نوح ﷺ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعد من نصحه ﷺ وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي والشقاء السرمدى، كإخوانه المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم^(٢).

كما أن قوله ﷺ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: أن وظيفتي هي أن أبلغكم ما أرسلني به الله ﷻ إليكم ببيان توحيده وأوامره ونواهيه؛ وأني أقصد لكم الصلاح والخير والفلاح في الدنيا والآخرة^(٣)، وأعلم من الله تعالى ما لا تعلمونه. فهو يعلم عن طريق الوحي من أمر الله وسنته في خلقه وما يتبع هذه الدنيا من أحوال الآخرة ما لا يعلمون، ويعلم أن الله ذو القوة المتين، وأنه يبطش بالمكذبين المعاندين، وقوم نوح لا يعلمون ذلك لأنهم أول أمة عذبها الله بكفرها، فأزالها من على وجه الأرض، ولم يبق إلا من آمن مع نوح. قال ابن كثير: (وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً فصيحاً، ناصحاً بالله، لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات)^(٤).

وهكذا عندما يتحلى الداعية بهذا الخلق، فإنه يتبين لدى المدعويين مدى حرصه

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٩٢، التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ص ١٥٨.

(٢) أنظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٩٢.

(٣) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٤١٩.

(٤) أنظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٣٢.

على هدايتهم؛ لئلا يعرضوا أنفسهم لعقاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهذا يكون على وجه النصيحة لهم والشفقة عليهم فيلتفتوا حوله، ويسمعوا منه، ويستجيبوا له، وقد قال النبي ﷺ في الحديث: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «الله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١).

١٠ - الزهد:

عند الاطلاع على قصة نوح ﷺ في مخاطبته لقومه نجده يقول: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢).

وفي موضع آخر يقول: ﴿وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾^(٣)، فإنه يؤكد على أن عدم استجابتهم لدعوته لا يعود إلى سؤاله المال منهم، فيثقل عليهم مكافأته^(٤) عند استجابتهم، أو يثقل عليه عند إعراضهم وتوليهم^(٥).

وكذلك نجد في قصص الأنبياء مع أقوامهم أن جميع الأنبياء والرسل عندما كانوا يخاطبون أقوامهم يبينون لهم أنهم لم يطلبوا من وراء دعوتهم مالا أو أجرا على ذلك أو مقابل استجابتهم، فيقولوا: هذا جاءنا ليأخذ أموالنا، فيمتنعون عن قبول الدعوة، فكأن الرسل ﷺ يقولون لأقوامهم: لو أنكم فطنتم إلى حقيقة الأمر لكان من الواجب أن يكون لنا أجر على ما نقدمه لكم من منفعة، لكننا لا نريد منكم أنتم أجرا، إنما سنأخذ أجرا من رب العالمين؛ لأن المنفعة التي نقدمها لكم لا يستطيع بشر أن يقومها، وإنما القادر على تقييمها هو واضع المنهج سبحانه وتعالى ومنزله على

(١) الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، عن تميم الداري، ٧٤/١، رقم ٩٥.

(٢) الآية: رقم ٧٢ من سورة يونس.

(٣) الآية: رقم ٢٩ من سورة هود.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٦٥/٨.

(٥) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ٥٥/٢.

رساله^(١)، وعليه فإن هذه الصفة هي سنة مطردة عند جميع الأنبياء والمرسلين، فهم لا يطلبون لأنفسهم أجرًا مقابل دعوتهم، ولا يؤملون لأنفسهم عند أقوامهم قدرًا ومكانة، فعملهم الذي هو تبليغ الدعوة لله ﷻ لا يطلبون عليه شيئًا من غيره جل جلاله، فمن سلك من الدعاة والعلماء سبيلهم ومسلكهم واقتفى أثرهم فإنه سوف يحشر في زميرتهم، ومن أخذ على إصلاحه عوضًا من أحد، أو اكتسب بسداد رأيه جاهًا لم ير من الله تعالى إلا ذلًا وهوانًا وصغارًا^(٢).

فهذه الصفة هي من أهم الصفات في نجاح الداعية في مهمته؛ لأنه إذا تعلق قلبه بالدنيا واشتغل بتحصيلها كان هذا حائلًا بين الداعية والناس، فلا يسمع أو يستجيب له أحد، لذلك يجب على الداعية أن يزهد عما في أيدي الناس فضلًا عن أن يكون كريماً حتى يجمع الناس حوله ولا ينفرهم.

١١ - الصبر:

تخلق نوح ﷺ بهذا الخلق الرفيع، فقد تحمل أذى قومه تسعمائة وخمسين عامًا وهي أطول فترة دعوة، واستخدم معهم جميع الأساليب والوسائل الدعوية إلا أنهم كانوا يكذبونه ويزجرونه، ويتهمونونه بالجنون والسخرية والاستهزاء، فلما بلغ السيل الزبى دعا ربه فقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾^(٣)، وقال في آية أخرى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٤)، إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^(٥).

فأجاب الله تعالى سؤاله، وانتصر له من قومه، فقال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا

(١) أنظر: تفسير الشعراوي، ١٠/٦١٠٦.

(٢) انظر: لطائف الإشارات، القشيري، ١٣٣/٢.

(٣) الآية: رقم ١٠ من سورة القمر.

(٤) الآيتان: رقم ٢٦-٢٧ من سورة نوح.

نُوحٌ فَلْنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَحْنُ وَأَهْلُهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾، وعليه فإن الصبر على الأذى هو سلاح قوي يجب على الداعية التسلح به؛ ليصل إلى بغيته ويحقق به آماله وطموحاته.

١٢- الحلم:

كثيراً ما أودى نوح ﷺ من قومه أشد الإيذاء، وبما أن دعوته فيهم طالت فلنا أن نتخيل حجم هذا الإيذاء طيلة هذه القرون، وعندما كان نوح ﷺ يواجههم ويخاطبهم في أمر الدعوة كان لا يلقي منهم إلا الكذب والزجر والاتهام بالسخرية والاستهزاء، هذا بالإضافة إلى التهديد الصريح المباشر الذي كانوا يلجؤون إليه عندما لا يجدون منطقاً سليماً وحجة قوية يردون بها على نوح ﷺ، فقد هُدد ﷺ بأنواع كثيرة من التهديدات، وأقصى ما هُدد به هو الرجم حيث قالوا: ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ (١)، ومع ذلك لم نجده ﷺ قد ثار لنفسه ولو مرة واحدة فقط، وإنما كل ما فعله أن توجه إلى الله ﷻ بالدعاء، وقال: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَبُونَ ﴾ (٢) فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾.

من أجل هذا يعد الحلم هو سيد الأخلاق التي يجب على الداعية أن يتحلّى بها؛ لأنه يواجه أقوالاً وتصرفات كثيرة من شأنها أن تثير غضبه، فإذا لم يتحل الداعية بهذا الخلق نفر عنه الناس ولم يجتمع عتبه أحد، ومن ثم لن يستطيع أن ينجح في مهمته.

١٣- التواضع:

تخلق نوح ﷺ بهذا الخلق الرفيع أيضاً، فمن خلال الحوار الذي دار بينه وبين قومه لأجل الدعوة نجد أنهم اشتروا على نوح ﷺ أن يطرد الذين آمنوا معه من الضعفاء

(١) الآيتان: رقم ٧٥-٧٦ من سورة الصافات.

(٢) الآية: رقم ١١٦ من سورة الشعراء.

(٣) الآيتان: رقم ١١٧-١١٨ من سورة الشعراء.

والفقراء، أو أن يخصص لهم مجلسًا خاصًا بهم لا يلتقون فيه مع هؤلاء الضعفاء والفقراء الذين سموهم أراذل القوم، وهذا من باب استكبارهم وأنفتهم وترفعهم، ولكن نوحا ﷺ رفض هذا الطلب، وبين لهم أنهم يجهلون الميزان الحقيقي الذي يوزن به الناس عند الله ﷻ، وهو الإيمان، فهؤلاء المؤمنون في رعاية الله تعالى وحمايته، وليس بالموازين الوضعية الحقيرة التي يزنون بها من الغنى والثراء^(١)، فقال الله تعالى مصورًا هذا الموقف على لسان نوح ﷺ: ﴿وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾^(٢) وَيَقَوْمٍ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(٣)، فيظهر تواضع نوح ﷺ في عدم طرده للمؤمنين معه الذين هم من طبقة الضعفاء والفقراء، بل تواضع لهم، وأجلسهم في مجلسه، يتدارس وإياهم سبل التقرب إلى الله ﷻ، وهكذا يكون نوح ﷺ قد خفض جناحه وتودد لهؤلاء المؤمنين به وبدعوته.

ويتبين من هذا أن الداعية يجب عليه أن يتحلى بهذا الخلق، حتى يكون قادرًا على جمع الأنصار حوله، فبالتواضع يحبه الناس، ويلتفون حوله، ويستمعون إليه، ويتأثرون به، لذلك قال النبي ﷺ: «وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ»^(٤).

هذا على صعيد الناس، أما عند الله تعالى فإن صاحب هذا الخلق يزيده الله تعالى رفعةً وقدرًا، كما قال النبي ﷺ: «وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»^(٥).

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ١٨٧٤، التفسير المنير، الزحيلي، ١٢/ ٥٧.

(٢) الآيتان: رقم ٢٩-٣٠ من سورة هود.

(٣) الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها أهل الجنة وأهل النار، عن قتادة، ٤/ ٢١٩٨، رقم ٦٤.

(٤) الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، عن أبي هريرة، ٤/ ٢٠٠١، رقم ٦٩.

دعوة نوح ﷺ

أولاً: اصطفاؤه وتكليفه بالرسالة:

أخبر الله ﷻ في جملة من آياته أنه اختار مجموعة من الأنبياء الذين هم أولياؤه وأصفياءه وأحباؤه، فأحاطهم الله تعالى برعايته وعنايته، ومن هؤلاء نوح ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١).

ولم يقف الأمر عند حد الاصطفاء، بل جعله الله ﷻ أهلاً لحمل رسالته، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾^(٢).

كما أنه ﷻ من أولي العزم من الرسل، كما قال الله تعالى عنه: ﴿وَلِذَٰلِكَ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(٣)، فكان نوح ﷺ أول رسول يذكر في موكب الأنبياء والرسل، فهو شيخ المرسلين.

هذا، وإن مسوغات وموجبات اصطفاؤه واجتباؤه أمورٌ خمسة، وهي كما يأتي:

الأول: إن الله جل جلاله جعله أبا البشر فإن الله تعالى عندما عذب قومه بالطوفان كان الناس كلهم قد غرقوا وصارت ذريته هم الباقين؛ فيعتبر نوح ﷺ هو أبو البشر الثاني بعد آدم.

(١) الآية: رقم ٣٣ من سورة آل عمران.

(٢) الآية: رقم ١٦٣ من سورة النساء.

(٣) الآية: رقم ٧ من سورة الأحزاب.

الثاني: إن الله تعالى أطال عمره، فقد مكث في الدعوة فقط ألف سنة إلا خمسين عامًا، بالإضافة إلى عمره قبل تكليفه بالرسالة، وإلى عمره بعد نجاته والمؤمنين من الطوفان.

الثالث: إن الله ﷻ استجاب دعاءه لما دعا على الكافرين من قومه، فأهلك الله تعالى بدعائه أهل الأرض.

الرابع: إن الله سبحانه وتعالى حمله على السفينة التي أمره بصنعها؛ لينجيه والمؤمنين معه من الطوفان القادم لإهلاك الكافرين.

الخامس: هو أول رسول شرع الله تعالى على لسانه الشرائع وأحكام الحلال والحرام، ونسخ الشرائع التي كانت قبله من حل الزواج بالخالات والعمت^(١).

هذا بالإضافة إلى ما وفقه الله تعالى من الصبر، والاحتفال والشكر والدعوة إلى الله تعالى في جميع الأوقات والأحوال^(٢).

ثانيًا: معالم دعوته:

من خلال استعراض الآيات القرآنية التي ذكرت دعوة نوح ﷺ لقومه نجد أن دعوته ﷺ ارتكزت على ثلاثة معالم وتفصيلها فيما يأتي:

الأول: الاستناد إلى قوة الله القوي العزيز:

إن التعبير بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٣).

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣٨٣/١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦٤/٤، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦٦/١١، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١٤٩/١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢٥٥/٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٢٨.

(٣) الآية: رقم ٥٩ من سورة الأعراف.

وهذا التعبير مؤكد بثلاثة مؤكدات، فالأسلوب أسلوب قسم دلت عليه (اللام) الموطئة له، هذا الأول، أما الثاني فهو حرف التحقيق (قد) الداخلة على الفعل الماضي ﴿أَرْسَلْنَا﴾، فيدل على التوكيد، وعلى تحقق وقوع الفعل، والثالث هو صيغة الفعل الماضي ﴿أَرْسَلْنَا﴾ الدالة على أن الفعل قد حصل وانتهى وتحقق، في حين كان التعبير في سورة نوح بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١)، فهو مؤكد أيضاً بـ (إن) والفعل الماضي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الفعل ﴿أَرْسَلْنَا﴾ مسندٌ إلى نون العظمة، فهذا الإرسال ليس من عند أحد، إنما هو من عند الله جل جلاله المتصف بجميع صفات الجلال والكمال، فكأن نوحاً ﷺ يستند في دعوته إلى قوة القوي العزيز ويرتكز إليها، وهذا شأن جميع الأنبياء والمرسلين في دعوتهم لأقوامهم.

ويستفاد من هذا أن الدعاة إلى الله ﷺ يجب عليهم أن يستعملوا بالحق الذي معهم، فيركنوا إليه سبحانه وتعالى، فلا يذلوا، ولا يهنوا، ولا يشعروا بالدونية والانكسار، إنما يشعرون بالعزة المستمدة من عزة الله ﷻ^(٢)، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبْزَوُّ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤).

الثاني: الدعوة إلى الإيمان بالله ﷻ:

أمر نوح ﷺ قومه بعبادة الله تعالى، وبين لهم على سبيل الحصر أنه لا إله لهم سوى

(١) الآية: رقم ١ من سورة نوح.

(٢) انظر: التفسير الموضوعي ٢، مناهج جامعة المدينة العالمية، ص ٣٦٦.

(٣) الآية: رقم ١٠ من سورة فاطر.

(٤) الآية: رقم ٨ من سورة المنافقون.

الله تعالى، فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(١)، وفي موضع آخر قال: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾^(٢).

ومعنى عبادة الله تعالى توحيده ﷻ، وسمي التوحيد عبادة؛ لأن العبادة لا تصح إلا بالتوحيد فيها خالصاً^(٣)، وقدم نوح ﷺ دعوته مشفوعةً بالدليل، وهو قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وكان قومه يصنعون أصناماً بأيديهم، وزعموا أنها تقرهم إلى الله زلفى، فهم يعترفون بالله ﷻ رباً، ولكنهم يشركون في العبادة معه هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى، فبين لهم نوح ﷺ أنه ليس هناك إله يستحق العبادة إلا الله جل جلاله، لأنه هو الخالق الرازق المدبر لجميع أمورهم، وما سواه مخلوقٌ مدبرٌ له ليس له من الأمر من شيء^(٤)، فهو الإله الذي يجدر أن تتعلق القلوب به، وتطمئن النفوس إليه، وتجأ بالدعاء له وحده.

وهذا المعلم الذي بدأ به نوح ﷺ دعوته هو الأساس الذي يشاد عليه البنيان، كما أن هذا المعلم هو الذي أتى به كل الأنبياء والرسل يدعون إليه أقوامهم، ويرشدونهم إلى هذا الطريق المستقيم، ويدعونهم إلى عبادة الله تعالى وحده، كما قال جل شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٥)، وقوله: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾^(٦).

(١) الآية: رقم ٥٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٢٦ من سورة هود.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤ / ٤٦٨.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٩٢.

(٥) الآية: رقم ٢٥ من سورة الأنبياء.

(٦) الآية: رقم ١٣ من سورة فاطر.

فهذا يؤكد أن العقيدة والأصول العامة لهذا الدين هي واحدة عند جميع الأنبياء والرسل، ولكن الشرائع والأحكام الفقهية هي التي تختلف.

الثالث: الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر:

كما دعا نوح عليه السلام قومه إلى إفراد الله تعالى بالألوهية والعبادة دعاهم أيضاً إلى الإيمان باليوم الآخر، يوم البعث والحساب، عندما خوفهم من عذاب الله تعالى في هذا اليوم، فقال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، وفي موضع آخر قال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾.

وذكر المفسرون أنه لا مانع من أن المقصود باليوم في الآيتين هو يوم القيامة، أو يوم نزول عذاب الطوفان عليهم^(١)، والمعنيان يحملان الهلاك والعذاب سواء كان في الدنيا أم في الآخرة، لأن نوحاً عليه السلام يخوفهم من يوم القيامة بدءاً من خروج الناس من قبورهم وما يكون في هذا اليوم من أهوال وأحداث حتى يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار ويستقر كل منهما فيما دخله.

وعند التأمل في وصف العذاب بأنه عظيم أو أليم فالوصفان على صيغة مبالغة على وزن (فعليل)، فهذا يدل على أن هذا العظم والإيلام لا يدرك من جهته، ولا تدرك المشاعر حقيقته في الدنيا، فيمكن تخيل مدى قوة هذا العذاب وهوله وعظمته وشدة إيلامه.

(١) انظر: الكشف، الزمخشري، ١١٣/٢، فتح القدير، الشوكاني، ٢/٢٤٧.

ثالثاً: أساليب دعوته:

تعددت أساليب دعوة نوح ﷺ، ومن خلال استقراء الآيات نجد فيها عدة أساليب، نذكر منها ما يأتي:

١- أسلوب الحوار:

وهو أسلوب استخدمه نوح ﷺ مع قومه؛ لبيان الحق، وعرض العقيدة، وطلب الإيمان بالله تعالى، ومنها قوله: ﴿أَوْعِظَتْكُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١)، والمعنى: أعجبتم يا قوم أن جاءكم رسالة من ربكم تحمل لكم الموعظة والبيان على رجل منكم تعرفون صدقه وأمانته من قبل دعوتكم؛ لينذركم عذاب الله تعالى إن لم تؤمنوا؛ لكي تتقوا الله، ولكي ترحموا^(٢).

كما حاول نوح ﷺ أن يفتح عقولهم وأن يوجهها إلى ما في الكون من آيات يظهر فيها خلق الله ﷻ وبديع صنعه وتصريفه لأموال الكون، كما وجه أنظار المشركين إليه تعالى وحده؛ لأنه المستحق للعبادة دون سواه؛ ليفتح أبصار الجاحدين وبصائرهم، فذكر نوح ﷺ قومه قائلاً: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۖ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۖ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۖ لَّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَالًا ۖ﴾^(٣)، والمعنى: أن نوحاً ﷺ نبههم إلى خلق السموات والأرض وما فيها من الدلالات على أنها مخلوقة، وأن خالقها وحده هو الذي يستحق صفات العلو والعزة، فقال لهم: من باب التقرير لهم؛ لأنهم يشاهدون مخلوقات الله تعالى ويعلمون أنه سبحانه وتعالى هو الخالق لها: لقد علمتم أن الله هو الذي خلق سبع سماوات متطابقة، بعضها فوق بعض، وجعل

(١) الآية: رقم ٦٣ من سورة الأعراف.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٢٤١.

(٣) الآيات رقم ١٥-٢٠ من سورة نوح.

القمر في السماء الدنيا نورًا للأرض ومن فيها، وجعل الشمس كالسراج في إضاءتها وتوهجها، وإزالة ظلمة الليل، وهو الذي أوجد وأنشأ أباكم آدم ﷺ من الأرض إنشاءً، وجعلكم فروعًا عنه، ثم يعيدكم إلى هذه الأرض بعد موتكم؛ لتكون قبورًا لكم، ثم يخرجكم منها يوم البعث للحساب والجزاء، كما جعل لكم بفضلته ومنه الأرض مبسوطةً تتقلبون عليها كما تشاؤون؛ لتتخذوا منها لأنفسكم طرقًا واسعةً في إمكان الانتفاع بها والتقلب على أرجائها^(١)، فكان استخدامه لهذا الأسلوب بهدف هدايتهم وتصحيح معتقداتهم الفاسدة.

٢- أسلوب الترغيب:

وهو ترغيبٌ بالوعد والإمداد بأنواع الخيرات، والزيادة مع الشكر^(٢).

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمِدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾^(٣).

فقد أطمع نوح ﷺ قومه بالحصول على بركات السماء والأرض إن هم استجابوا لدعوته وآمنوا بالله جل جلاله الذي بيده مفاتيح الخزائن، فأثابهم من طريق القلب؛ ليحرك عواطفهم، فقال لهم: توبوا عن الكفر والمعاصي، فإن الله تعالى توابٌ رحيم، يغفر الذنب، ويقبل التوبة، وينزل عليكم المطر غزيرًا منسكبًا، ويكثر لكم الأموال والأولاد، ويجعل لكم الحدائق الفسيحة الغناء ذات الأشجار المثمرة، ويجعل لكم الأنهار تجري خلالها^(٤).

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، ١٥/١١٩، ١٢١.

(٢) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، سعيد القحطاني، ٢/٤٨٨.

(٣) الآيات: رقم ١٠-١٢ من سورة نوح.

(٤) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/٤٢٨.

٣- أسلوب الترهيب:

استخدم نوح ﷺ أسلوب الترهيب مع قومه^(١)، فقال لهم: ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(٢)، والمعنى: أي: أنذركم وأحذركم عاقبة كفركم، ونهاية شرركم من قبل فوات الفرصة، ومن قبل أن يأتيكم عذابٌ أليم شديد الألم للغاية^(٣)، فأمرني واضح، ودعوتي ظاهرة، فقابلوا هذا بالإيمان والتصدق. ثم وبخهم على عدم الاستجابة لدعوته فقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾^(٤)، أي: ما لكم لا تحافون الله تعالى عظمةً وقدره على أخذكم بالعقوبة^(٥).

٤- أسلوب التودد:

استخدم نوح ﷺ طريقة التودد إلى قومه، حيث استجاش مشاعرهم، وذكرهم بحق القرابة الذي من شأنه أن يستعين بهم ويكونوا عوناً له على تقلبات الزمن، فقال ﷺ: ﴿فَقَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٦)، فمن الواجب عليهم أن ينصروه في دعوته ويستجيبوا له.

هذا وقد تكررت كلمة (يا قوم) ثلاث مرات في قصة نوح ﷺ مع قومه في موضع واحد، فقال الله ﷻ على لسانه ﷺ: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآئِنِّي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنُتِمَّ هَهَا كِرِهُونَ﴾^(٧) وَيَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرِئُكُمْ قَوْمًا

(١) انظر: مفهوم الحكمة في الدعوة، صالح بن عبد الله بن حميد، ص ٥٩.

(٢) الآية: رقم ٢ من سورة نوح.

(٣) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ٧٥٣/٣.

(٤) الآية: رقم ١٣ من سورة نوح.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٠٣/١٨.

(٦) الآية: رقم ٥٩ من سورة الأعراف.

تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾، فتكرارها يفيد المبالغة في التودد إلى قومه.

٥ - أسلوب الجدل المحمود:

الجدال المحمود هو نوعٌ من أنواع الجدل، وهو يقوم على تقرير الحق، وإظهاره بإقامة الحجج القوية والأدلة والبراهين على صدقه، فهذا النوع من الجدل له فائدة، ففيه خير ونفع للإسلام، كما فيه عزة للمسلمين؛ لأنه بدوره لا تتم الدعوة إلى الله تعالى والذب والدفاع عن دينه العظيم، وقد أمرت آيات كثيرة من القرآن الكريم بهذا النوع من الجدل كما في قوله تعالى: ﴿ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٢)، وقوله: ﴿ وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ (٣)، وشأن هذه الآيات هو إظهار الحق، والدعوة إليه، وتدفع عن الإسلام والمسلمين كل ما يلصق بهم من اتهامات باطلة وزائفة (٤).

ومارس نوح ﷺ أسلوب الجدل المحمود هذا، القائم على المنطق القويم، والحجة القوية، والرأي السديد في دعوته لقومه إلى عبادة الله تعالى وحده وعدم الإشراك به، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٣٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ آتِبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٣٧) قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَانِنِّي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْكُمْ فِيهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ ﴾ (٣٨)

(١) الآيات: رقم ٢٨-٣٠ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ١٢٥ من سورة النحل.

(٣) الآية: رقم ٤٦ من سورة العنكبوت.

(٤) انظر: موسوعة الأخلاق الإسلامية، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، ٢/ ٢٠٦.

وَيَقْوِمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ
 مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقْوِمُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ
 أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ
 وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ
 الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأُنَبِّئُكَ بِمَا تَعُدُّنَا إِنْ كُنْتَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّكُمْ بِإِيتَانِكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي
 إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ
 يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَى إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْعَلُونَ ﴿٣٥﴾، لَذَلِكَ سَمَّ
 مِنْهُ قَوْمَهُ، وَاتَّهَمُوهُ بِإِكْثَارِ الْجِدَالِ فِيهِمْ، وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِمَا يَتَوَعَّدُهُمْ بِهِ مِنْ
 الْعَذَابِ.

* * *

مواقف قوم نوح عليه السلام من دعوته

أولاً: تكذيب قوم نوح:

بعد أن عرض نوح عليه السلام دعوته ومعالمها على قومه، كيف كان استقبالهم للدعوة؟ وماذا كان ردهم عليها؟ ذكر الله تعالى تكذيب قوم نوح عليه السلام له ولدعوته بشكل عام في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾^(٢).

لكن أول من امتنع من قبول الدعوة ورفضها ووقف في طريقها وصد عنها، هم المملأ من قومه، والمملأ هم: (جماعة يجتمعون على رأي، فيملؤون العيون رواءً ومنظراً، والنفوس بهاءً وجلالاً)^(٣)، فهم الرؤساء وعظماء القوم وسادتهم، وهم واجهة المجتمع، يقفون عقبة أمام وجه الدعوة، ويظنون أنهم إن استجابوا للنبي الذي بعث فيهم أنه سيضيع ملكهم، وجاههم ومنصبهم ومكانتهم في المجتمع، فها هم يرفضون دعوة نبيهم، ويتهمونه بالضلال الذي هو العدول عن طريق الحق والذهاب عنه^(٤)، فيقول الله ﷻ عنهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٥)، أي: إنا لنراك في دعوتنا إلى إله واحد في ضلال عن الحق، وتارة أخرى يطعنون في نبوته من ثلاث جهات، وهذا متمثل في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا

(١) الآية: رقم ١٢ من سورة ص.

(٢) الآية: رقم ٩ من سورة القمر.

(٣) أنظر: المفردات، الأصفهاني، ص ٧٧٦.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٢٣٤.

(٥) الآية: رقم ٦٠ من سورة الأعراف.

نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نُنظِّكُمْ كَذِبِينَ ﴿١﴾، ووجوه الطعن الثلاثة هي:

الأول: قولهم: ﴿وَمَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾، أي: نحن وأنت مشتركون في البشرية، فلم تكن لك مزية علينا تستحق بها النبوة التي تدعيها؟

الثاني: قولهم: ﴿وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ﴾، أي: لم يتبعك فيما زعمت أحد من الأشراف، فكلهم من أرادل القوم، فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الأراذل لك في ظاهر الرأي بدون ترو ولا تعمق ولا أدنى تفكير.

الثالث: قولهم: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، أي: ما نرى لك ولمن اتبعك من هؤلاء الأراذل فضلاً علينا تتميزون به وتستحقون ما تدعونه.

ثم اتهموه بالكذب فقالوا: ﴿بَلْ نُنظِّكُمْ كَذِبِينَ﴾ في كل ما تدعونه وتزعمونه^(٢).

وتارةً ثالثة صرحوا أن البشر لا يكونون رسلاً، فقال الله تعالى عنهم: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾^(٣)، أي: قالوا: ما نوح ﷺ إلا رجل عادي منكم، ليس له مزية عليكم في فضل ولا خلق، فيكون أهلاً للنبوة دوننا؛ بل هو رجل أراد أن يسود عليكم، وتكون له الكلمة، وزعم الرسالة؛ ليحقق ما تصبو إليه نفسه، ثم ذكروا موانع ثلاثة تحول بينه وبين نبوته، وهي:

الأول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾، أي: لو شاء الله أن نعبده وحده لأرسل إلينا ملائكة تؤدي الرسالة، وليس نوحاً ﷺ.

الثاني: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، أي: ما سمعنا في عهود آبائنا وأجدادنا

(١) الآية: رقم ٢٧ من سورة هود.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٥٦٠.

(٣) الآية: رقم ٢٤ من سورة المؤمنون.

بمثل الذي يدعوننا إليه نوح، وفيه إشارة إلى أنهم قومٌ يعولون على التقليد الأعمى، كما أنهم قد بلغوا الغاية في العناد والتكذيب.

الثالث: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾^(١)، أي: ما نوح ﷺ إلا رجل به خبل في عقله، فالذي يدعيه ويزعمه لا يصدر عن رجل عاقل يزن قوله ويدعم رأيه بحجة قوية ناصعة، ثم قالوا في إبطال دعوته: ﴿فَتَرَى صُورَهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، أي: فتلبثوا وانتظروا لعله يعود إلى سيرته الأولى، إلى دينكم ودين آبائكم وأجدادكم^(٢).

وهكذا يظهر تكذيب هؤلاء الملأ لنوح ﷺ، وليس هذا فحسب، بل يتبين مدى مكابرتهم لفرط عنادهم، مع علمهم بأن نوحاً ﷺ هو أرجح الناس عقلاً وأكثرهم رزانةً في كلامه.

ثانياً: صفات قوم نوح:

تعددت صفات قوم نوح ﷺ، ومن خلال استقراء الآيات الواردة فيها صفاتهم نجدها متمثلة في الآتي:

١ - العمى:

وصفهم الله تعالى بهذا الوصف في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾^(٣).

فبعدما دعا نوح ﷺ قومه إلى توحيد الله ﷻ وأخبرهم أنه مرسلٌ من عنده كذّبوه وخالفوا أمره، فما كان من الله تعالى إلا أن نجاه والذين آمنوا معه في الفلك، وأغرق الله ﷻ الذين كذبوا بآياته وحججه، ولم يتبعوا نبيهم، ولم يقبلوا نصحه وإرشاده

(١) الآية: رقم ٢٥ من سورة المؤمنون.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٨/١٨.

(٣) الآية: رقم ٦٤ من سورة الأعراف.

لهم، فأغرقهم بالطوفان؛ لأنهم كانوا قومًا عمين عن الحق والإيمان^(١)، فقد أغلقوا بصائرهم عنهما.

٢- الجبن:

عندما حانت لحظة المفاصلة التامة بين الحق والباطل، هدد نوح ﷺ قومه بأن يجتمعوا هم وشركاؤهم على أمر واحد، وينفذوه بدون تردد ولا تراجع، فقال الله تعالى على لسان نوح ﷺ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّانَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾^(٢)، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتفقوا، أو أن يأخذوا قرارًا حاسمًا بشأن نوح ﷺ وبشأن دعوته القوية التي حماها الله ﷻ وحمى الداعي إليها.

وبذلك يظهر أن موقف قوم نوح ﷺ كان موقف الجبان الضعيف الهَيَّاب المتخاذل المتردد.

٣- سوء الأدب:

إن قوم نوح ﷺ قد أساءوا التعامل مع نبيهم الذي أرسل فيهم، فكذبوه، واتهموه بالجنون، وهددوه بالرجم، ولو أنهم أرادوا عدم التصديق بنبوته لاكتفوا بهذا، ولما فعلوا بنوح ﷺ ما فعلوه، وفي المقابل رأينا كيف كان نوح ﷺ يخاطبهم بلفظ الحريص عليهم والمشفق بهم والناصح لهم، فكان يقول: ﴿يَنْقُومُ﴾؛ لذلك وصفهم الله تعالى بأنهم قوم سوء، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣)، أي: إنهم كانوا قومًا يسيئون الأعمال، فيعصون الله تعالى، ويخالفون أوامره^(٤).

(١) انظر: معاني القرآن، الزجاج، ٣٤٧/٢، جامع البيان، الطبري، ٥٠٢/١٢.

(٢) الآية: رقم ٧١ من سورة يونس.

(٣) الآية: رقم ٧٧ من سورة الأنبياء.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤٧٤/١٨.

٤ - السخرية:

دعوة نوح ﷺ لما طالت في قومه أوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن معه واتبعه، وستحين لحظة المفاصلة التامة بين الحق والباطل، فأوحى إليه أن يصنع السفينة؛ كي ينجو بها هو والمؤمنون معه من هلاك الطوفان الذي سوف يعم الكافرين، فامتثل نوح ﷺ لأمر ربه وشرع يصنع السفينة، وأثناء صناعته لها كان كلما مر عليه جماعة من قومه سخروا منه وهزئوا وضحكوا، وقالوا: يا نوح، كنت بالأمس نبياً، وأصبحت اليوم نجاراً!!، أو سخروا من صناعته للسفينة بعيدة عن البحار والأنهار، فرد عليهم نوح ﷺ بكل هدوء واطمئنان قائلاً: إن تهزؤوا منا اليوم فإننا سوف نسخر منكم في المستقبل عندما تغرقون بالطوفان كما تسخرون منا الآن، فأنتم الأولى والأحق بهذه السخرية والاستهزاء، ثم توعدهم وهددهم بأنهم سوف يعلمون عاقبة التكذيب والاستهزاء هذا^(١)، فقال تعالى مصوراً هذا الأمر: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٣٨) ﴿فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (٢).

وعليه فإن السخرية خلق مذموم، ومن آثاره ومضاره أنه نذير شؤم للساخرين، فقد كان الغرق عاقبة قوم نوح، هؤلاء الذين كفروا بالله سبحانه وتعالى وسخروا من نبيهم النبي الذي بعثه الله تعالى إليهم.

٥ - الفسق:

قال الله ﷻ: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٣)، والمعنى: أن قوم نوح ﷻ حين كذبوا نبيهم أغرقهم الله ﷻ؛ لأنهم كانوا قوماً فاسقين خارجين عن طاعة الله تعالى^(٤)، وهذه سنة الله تعالى فيمن عصاه.

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ١٢/٢.

(٢) الآيتان: رقم ٣٨-٣٩ من سورة هود.

(٣) الآية: رقم ٤٦ من سورة الذاريات.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١٠٩/٥.

٦- الظلم والطغيان:

وصف الله تعالى قوم نوح بهذين الوصفين الشنيعين، فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾^(١)، والمعنى: أن قوم نوح ﷺ كانوا في الوجود قبل إهلاك عاد وشمود، وكانوا أكثر ظلماً وطغياناً منهما، فإنهم كانوا يؤذون نبي الله نوحاً ﷺ، وينفرون الناس عنه، وكانوا يحذرون صبيانهم من السماع له، كما كانوا يضربونه حتى لا يكون قادراً على الحركة، ما أثر فيهم دعاؤه قريباً من ألف سنة^(٢)، وفي قول نوح ﷺ: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا زِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾^(٣)، تسجيلٌ عليهم بالظلم^(٤)، فقد ظلموا أنفسهم عندما حرموها من الهداية، وظلموا غيرهم سواء بالتعذيب لنوح ﷺ، أو لغيرهم من الذين لم يؤمنوا عندما صدوهم عن الإيوان، وحذروهم من اتباع نوح ﷺ.

٧- المكر:

وصف الله تعالى قوم نوح ﷺ بهذه الصفة، فقال عنهم: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبَارًا﴾^(٥)، أي: مكرًا بليغاً متناهياً كبره في معاندة الحق^(٦)، فكلمة (كبارا) صيغة مبالغة حملت هذا المعنى البليغ.

واختلف العلماء في معنى مكر قوم نوح فيم كان؟ فقالوا:

- في تحريضهم السفلة من القوم على قتل نوح ﷺ.

(١) الآية: رقم ٥٢ من سورة النجم.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨ / ١٦٥.

(٣) الآية: رقم ٢٤ من سورة نوح.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥ / ٣٦١.

(٥) الآية: رقم ٢٢ من سورة نوح.

(٦) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٩ / ٣٢٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٨٩.

- في تغريهم على الناس بما أوتوا من المال والولد حتى قال الضعفاء منهم: لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم.
- فيما جعلوه لله تعالى من الصاحبة والولد.
- في كفرهم^(١).

- في قولهم: إن آهتكم خيرٌ من إله نوح؛ لأن آهتكم تعطيتكم المال والولد، وإله نوح لا يعطيكم شيئاً؛ لأنه فقير^(٢).

٨- حب الرياسة والجاه:

هذه الصفة خاصة بالملا، فالملا دائماً يحبون الرياسة والجاه، والتسلط على رقاب الضعفاء والفقراء؛ ولذلك فهم يعارضون دعوة النبي المبعوث فيهم، وهي دعوة الحق، ويظنون متوهمين أن قبولهم دعوة الحق سوف يسلب منهم رياستهم وجاههم ومناصبهم ومكانتهم وهيبته الطاغية المتجبرة أمام الناس؛ لذلك كان حبهم للرياسة والجاه والسلطان من أهم أسباب رفضهم دعوة نوح ﷺ.

قال تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي صَلَاحٍ مُبِينٍ ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنِكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنِكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾^(٥).

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣٦٠ / ٥.

(٢) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٥٦٧ / ٢.

(٣) الآية: رقم ٦٠ من سورة الأعراف.

(٤) الآية: رقم ٢٤ من سورة المؤمنون.

(٥) الآية: رقم ٢٧ من سورة هود.

(١) الآيات: رقم ٥-٢٠ من سورة نوح.

في الأرض، ثم إني دعوتهم جهازاً بحيث يسمعونني كلهم، وإني أسررت بالدعوة لكل واحد منهم على حدة، وقلت لهم: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب والمعاصي والشرك، واستغفروا منها، فإن الله تعالى كثير المغفرة لمن تاب واستغفر.

ثم قلت لهم موبخاً إياهم: ما بالكم لا تعظمون الله تعالى، ولا تجعلون له قدراً في قلوبكم، والحال أنه قد خلقكم خلقاً من بعد خلق، على مراحل متعددة إلى أن أوصلكم إلى ما أنتم عليه؟! أليس من انفراد بهذا أحق أن يعبد ويوحد؟، كما دعوتهم يا رب إلى التفكير في آلائك ونعمائك، من سموات وما فيها من قمر وشمس، وذكرتهم كيف خلقت أباهم آدم ﷺ من تراب وكانوا في صلبه، ثم تعيدهم في الأرض بعد الموت، وتخرجهم للبعث والنشور، وكيف خلقت لهم الأرض مبسوطاً مهياً للانتفاع بها بالحرث والغرس والزراعة والبناء والسكون والاستقرار عليها.

فبعد كل هذا النصح والوعظ والتذكير والإرشاد لم يفد فيهم هذا الكلام شيئاً، ولم ينفع، ولم يثمر.

ثم استرسل نوح ﷺ في مناجاته لله تعالى وشكواه إليه قائلاً: ﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِنْ لَدُنْهُمْ مَالَهُمْ وَلَوْلَدُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۝٦١ وَمَكْرُؤُهُمْ كِبَارًا ۝٦٢ ﴾^(١)، أي: إنهم عصوني فيما أمرتهم به، وأنا أنصحتهم وأدلتهم على الخير، واتبعوا المأل والأشراف الذين لم تزدتهم أموالهم وأولادهم إلا هلاكاً وتفويتاً للأرباح، ومكروا مكراً كبيراً بالغاً في معاندة الحق، فدعوههم إلى التعصب إلى دين آبائهم وأجدادهم القائم على الشرك قائلين لهم: لا تتركوا وداً، ولا سواعاً، ولا يغوث ويعوق ونسراً، مع أن هذه الأسماء كانت لرجال صالحين فيهم، فلما ماتوا زينها الشيطان لهم، وقد أضل هؤلاء الكبار والرؤساء بدعوتهم هذه كثيراً من الخلق، فلا يزيدون بدعوة هؤلاء الرؤساء إلا ضلالاً، فيا رب، لم يبق هناك مجال ولا محل لنجاحهم وصلاحهم^(٢).

(١) الآيتان: رقم ٢١-٢٢ من سورة نوح.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٨٨، مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٥٦٦/٢.

كما قال في موضع آخر شاكيًا أيضًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾^(١)، فلم يبق بيني وبينهم أي ائتلاف وارتباط، حيث كذبوني بجميع ما جئت به من عندك تكذيبًا شديدًا، وسفهوني تسفيهاً بليغاً، فلم يكتفوا عند هذا الحد، بل عمدوا إلى قتلي بأشد العذاب وأقبح العقاب، فقد هددوني بالرجم^(٢).

ونحو هذا قال في موضع آخر: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾^(٣)، أي: غلبني قومي تمرّدًا وعتوّاً، فلم يسمعوا مني، واستحكم اليأس منهم^(٤).

ويلحظ من شكوى نوح عليه السلام ومناجاته لله ﷻ، أن هذه الشكوى لم تكن بمجرد ملاقة أول عقبة في طريق الدعوة، أو أول صد له عن دعوته، بل كما تم ذكره من أن الدعوة تمت مرارًا وتكرارًا حتى قاربت ألف سنة، وبعدها حصلت الشكوى عندما لم يعد هناك أمل في استجابة فرد واحد منهم، واستحكم اليأس منهم، كما أن هذا يدل على مدى صبر نوح عليه السلام على قومه، وشدة تحمل أذاهم واستكبارهم. فيجب على الداعية التأسي والافتداء بنبي الله نوح عليه السلام.

ويلحظ من هذه الشكوى أنها تمهيدٌ من نوح عليه السلام وتوطئة منه؛ ليدعو على قومه بالهلاك، وإلهابًا إليه وتهيجًا، معرضًا عن تهديدهم له صبرًا واحتسابًا؛ لأن هذا من لوازم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٥).

رابعًا: دعاء نوح عليه السلام قومه:

لما أيس نوح عليه السلام من إقلاع قومه عن الكفر وأيس من إيمانهم دعا عليهم بالهلاك،

(١) الآية: رقم ١١٧ من سورة الشعراء.

(٢) انظر: الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية، نعمة الله بن محمود النخجواني، ٢/ ٤٧.

(٣) الآية: رقم ١٠ من سورة القمر.

(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٩/ ٩١.

(٥) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٤/ ٦٦.

وهذا الدعاء منه لم يكن إلا بعد أن وصل إلى مرحلة إحياء الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، واستجاب للدعوة، فأذن الله تعالى له بالدعاء عليهم؛ لأن الأنبياء لا يدعون على أقوامهم بالهلاك إلا بإذن من الله ﷻ في ذلك، والدليل على ذلك أنه عاتب يونس ﷺ لما خرج من ديار قومه بلا إذن من الله تعالى له، فإذا عاتب يونس ﷺ بالخروج بلا إذن، فلا يحتمل أن يدعو عليهم بالهلاك إلا بإذن أيضاً^(١).

وكان نوحاً ﷺ يقول: يا رب لا أدعوك عليهم لأنهم آذوني وشتموني وحاولوا رجمي وقتلي، وإنما أدعوك لأجلك، ولأجل دينك، ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك^(٢).

وذكر بعض العلماء أن نوحاً ﷺ دعا عليهم حين أخرج الله تعالى كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم، وأعقم أصلاب الرجال وأرحام النساء قبل العذاب بسبعين سنة؛ لذلك دعاهم نوح ﷺ إلى استغفار ربهم؛ حتى ينزل عليهم المطر وكانت الأرض قد جذبت ويرزقهم بالبين؛ لأنه أعقمهم.

ونعود إلى دعوته ﷺ على قومه، فقال في دعائه: ﴿ فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٣)، أي: احكم يا رب بيننا بما يستحقه كل طرف منا، وافتح باباً من أبواب عدلك على مستحقه بأن تنزل العقوبة بهم، وافتح باباً من أبواب فضلك ورحمتك يكون فيه الفرج والمخرج من الضيق لي وللمؤمنين معي، ونجنا مما تعذب به الكافرين^(٤)، كما قال أيضاً في دعائه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴾^(٥)، أي: إني مغلوب من جهة قومي بتسليطهم علي، «وليس الغلبة بالحجة؛ لأن الحجة كانت له وليس

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٧٢ / ٨.

(٢) أنظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٥٢١ / ١٤.

(٣) الآية: رقم ١١٨ من سورة الشعراء.

(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٦٦ / ١٤، مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ١٥٤ / ٢.

(٥) الآية: رقم ١٠ من سورة القمر.

لقومه» فانتقم منهم بعذاب تبعثه عليهم، وانتصر لي وللذين آمنوا بك معي^(١)، وفي موضع آخر قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^(٢)، أي: يا رب، لا تدع منهم أحدًا يسكن الديار إلا أهلكته وأوقعت به العذاب، فإنك يا رب إن تتركهم على الأرض فإنهم يضلوا عبادك عن طريق الحق، ولا يلدوا إلا فاجرًا يترك طاعتك، وكفارًا لنعمتك.

ثم دعا عليهم مرة أخرى فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَارًا﴾^(٣)، أي: لا تزد المتصفين بالظلم إلا هلاكًا وخسرانًا ودمارًا، وقد شمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة^(٤).

خامسًا: عاقبة قوم نوح ﷺ:

أوضح الله ﷻ أنه بعدما أوحى إلى نوح ﷺ أنه لن يؤمن من قومه إلا القليل الذين استجابوا له، ولم تعد هناك فائدة من دعوة نوح ﷺ قومه، فدعا عليهم، فاستجاب الله تعالى دعاءه، فنصره على قومه الذين كذبوا بحجج الله تعالى وأدلتها، فأنجاه منهم، وأغرقهم أجمعين.

وسجلت الآيات التي تتحدث عن هلاك قوم نوح أن تعذيبهم بالطوفان كان للأسباب الآتية:

السبب الأول: ما كان عليه قوم نوح ﷺ من إساءة العمل، ومعصية الله جل جلاله، وفسقهم المتمثل في مخالفة أمره تعالى، والخروج عن طاعته^(٥)، فقال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٦).

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٥/ ٥٢٥.

(٢) الآيتان: رقم ٢٦-٢٧ من سورة نوح.

(٣) الآية: رقم ٢٨ من سورة نوح.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٢٦١.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٤٧٤.

(٦) الآية: رقم ٧٧ من سورة الأنبياء.

السبب الثاني: ما اتصف به قوم نوح ﷺ من الظلم ومجاوزة الحد، فذكر الله تعالى عنهم أنه عاقبهم وأخذهم بالطوفان عقب المدة الدعوية التي كانت ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهذا الطوفان قد أحاط بهم من كل جانب، وحالهم أنهم كانوا مستمرين على الظلم، فلم ينجع فيهم وعظ نبينهم نوح ﷺ^(١)، فقال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(٢).

السبب الثالث: ما كان عليه قوم نوح ﷺ من خطايا عديدة وكثيرة، وأخطرها شركهم بالله جل جلاله، حيث اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله تعالى، فهل هي قادرة اليوم (يوم الطوفان) أن تنصرهم من عذاب الله ﷻ؟^(٣)، فقال فيهم: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾^(٤)، فعذاب الطوفان هذا كان في الدنيا، وقد رأوه بأم أعينهم، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم هذا العذاب الواقع بهم، أما العذاب الأشد إيلاماً فهو الذي قد أعدّه الله ﷻ وجهزه لهم في الآخرة، فإنه ينتظرهم لا محالة^(٥)، فقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٦).

وبهذا الهلاك والاستئصال للكافرين يسدل الستار على قصة قوم نوح المكذبين، فلم يبق الله تعالى منهم أحداً على وجه الأرض.

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢٢٧/٤.

(٢) الآية: رقم ١٤ من سورة العنكبوت.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤١/٩.

(٤) الآية: رقم ٢٥ من سورة نوح.

(٥) انظر: الباب في تفسير الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ٥٣٢/١٤.

(٦) الآية: رقم ٣٧ من سورة الفرقان.

سادساً: حكمة تذكير الرسل أقوامهم بعاقبة قوم نوح ﷺ:

إن الله ﷻ قد جعل هلاك قوم نوح ﷺ آيةً لجميع الناس، وقد ذكر ذلك في كتابه العزيز فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(١)، وكلمة: (الناس) عامة تشمل المؤمن والكافر، فجعل الله تعالى إهلاك قوم نوح ﷺ، واستئصالهم بالغرق آية وعبرة للمكذبين من الأقوام التي أتت بعدهم إلى يوم الدين، وكذلك جعل نجاة المؤمنين، وخلاصهم من الطوفان آية وعبرة للمؤمنين من الأقوام التي أتت بعدهم إلى يوم الدين، فجعل الآية والعبرة لما يؤول إليه عاقبة أمر كل مكذب ومصدق، فعاقبة المكذبين الهلاك، وعاقبة المؤمنين الصادقين النجاة^(٢).

فها هم الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله تعالى بعد نوح ﷺ يذكرون أقوامهم الذين بعثوا فيهم وأرسلوا إليهم، بالاعتاظ والاعتبار من قوم نوح، ﷻ فأولهم كان هوداً ﷺ، فعندما عرض دعوته ونبوته على قومه رفضوا وكذبوا، فقال لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣)، والمعنى: كيف تعجبون من أمر ليس فيه داع للتعجب، وهو أن الله تعالى أرسل إليكم رجلاً منكم تعرفون صدقه وأمانته، يذكركم بما فيه مصلحة لكم، ويحثكم على ما فيه نفعكم، فتعجبتم منه؟! ثم عدد عليهم نعم الله ﷻ حيث مكن لهم في الأرض، وجعلهم يخلفون قوم نوح الذين كذبوا رسولهم، ثم ذكرهم بالنعمة التي خصها الله تعالى فيهم من قوة الأجساد، وشدة البطش، فهو يذكرهم بنعم الله الواسعة عليهم؛ لعلهم يؤدّون حق الله جل جلاله فيها بالشكر، فيفوزوا بما وعدهم الله تعالى به، وينجون من عذاب الله تعالى^(٤).

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢٦ / ٨.

(٢) الآية: رقم ٢٥ من سورة نوح.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٩٤.

(٤) الآية: رقم ٨٩ من سورة هود.

وها هو شعيب عليه السلام، عندما عرض دعوته على قومه كذبوه، فقال لهم مذكراً إياهم بما حل بالأقوام السابقة التي كذبت أنبياء الله ورسله: ﴿وَيَقَوْمٍ لَا يُجْرِمَنَكُمْ شِقَاقَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾^(١)، والمعنى: يا قوم وناداهم بهذا اللفظ المشعر بحرصه عليه السلام على هداية قومه ونجاتهم من عذاب الله تعالى لا تحملنكم معاداتكم للحق ومعاندتكم لي على استمراركم في العصيان، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح عليه السلام من الغرق، وما أصاب قوم هود عليه السلام من ريح صرصر عاتية، وما أصاب قوم صالح عليه السلام من صيحة تبتعتها رجفة، وما أصاب قوم لوط عليه السلام من جعل عالي القرية سافلها وإمطارهم بحجارة من سجيل^(٢).

وها هو موسى عليه السلام، يذكر قومه بني إسرائيل بما أنعم الله تعالى عليهم من نعمة الإنجاء من آل فرعون، لما كانوا يولونهم سوء العذاب، ويكلفونهم مشاق الأعمال، ويذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، وفي هذا امتحان وبلاء عظيم اختبرهم الله به؛ ليعظم شكرهم، ثم بين لهم موسى عليه السلام أنه إذا شكروا الله تعالى على نعمائه فإنه سوف يزيدهم من النعم والعطايا، أما إن قابلوا هذه النعم بالكفر والعصيان فإن عذاب الله تعالى شديد، ثم ذكرهم موسى عليه السلام بمن سلف قبلهم من الأقوام الذين عذبهم الله عليه السلام بسبب كفرهم وعصيانهم، فقال الله تعالى على لسانه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾^(٣)، أي: ألم يأتكم خبر الأقوام السابقة ماذا فعل الله عليه السلام بهم حين عصوا أنبياءهم، قوم نوح، وعاد، وثمود عليه السلام، والذين من بعدهم أمم كثيرة لا

(١) الآية: رقم ٨٩ من سورة هود.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٣٧٤٢/٧.

(٣) الآية: رقم ٩ من سورة إبراهيم.

يعلمها إلا الله تعالى؛ لكثرة أعدادهم واندراس آثارهم، فوضعوا أيديهم على أفواههم من باب التعجب والاستهزاء بأنبيائهم، أو لإسكات أنبيائهم، فيمنعون أنبياءهم من الكلام، أو ردوا نعم الأنبياء عليهم، وهي متمثلة في مواعظهم وشرائعهم التي أتوا بها من عند الله ﷻ، فكذبوها، ولم يمثلوا لأمر أنبيائهم، ولم يكتفوا بهذا فحسب بل صرحوا بالكفر، وقالوا: إن الذي تدعوننا إليه من التوحيد والإيمان يجعل النفس لا تطمئن إليه أبداً^(١).

واستبغاً لتذكير موسى ﷺ لبني إسرائيل بعاقبة الأقوام السابقة يظهر موقف الرجل المؤمن الذي هو من آل فرعون، ولكنه كان يكتُم إيمانه عن فرعون؛ خشية قتله. فعندما عزم فرعون وملؤه على قتل موسى ﷺ أنكر الرجل المؤمن عليهم ذلك قائلاً: كيف تقتلون رجلاً يقول: ربي الله، وقد جاءكم بالآيات الواضحات، والمعجزات الظاهرات، فإن فرضنا كذبه فيما يدعي فإن إثم كذبه يعود عليه وحده لا عليكم، أما إن كان صادقاً فسوف يصيبكم بعض الذي يتوعدكم من العذاب، ثم ذكر لهم أنهم لهم الملك اليوم، وهم ظاهرون وعالون في الأرض، فمن سوف ينصرهم من عذاب الله وبطشه؟ فرد عليه فرعون بأن ما يشيره على قومه - من قتل موسى ﷺ هو الرأي السديد، حينئذ رد الرجل المؤمن بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْفَرُ مِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ (٢) مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣﴾، أي: أخاف عليكم مثل اليوم الذي أنزل الله تعالى فيه العذاب على الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم، مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، والذين من بعدهم ممن كذبوا أنبياءهم، فعذبهم الله ﷻ بسبب كفرهم وعنادهم عن قبول الحق والاستجابة له^(٣).

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٤٤/٣ - ٤٧.

(٢) الآيتان: رقم ٣٠-٣١ من سورة غافر.

(٣) انظر: أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ٥٧٤/١.

وهذا نبينا خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ، يذكر الكفار من قريش وغيرها بقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^(١)، والمعنى: لقد أتاهم خبر الأقوام الماضية كيف أهلكهم الله ﷻ حين خالفوا أمره وعصوا رسله، أمثال قوم نوح، فقد أهلكهم بالطوفان، وعاد أهلكهم بالريح العقيم، وثمود أهلكهم بالرجفة، وقوم إبراهيم أهلكهم بسلب النعمة، وأهلك النمرود ببعوضة، وقوم شعيب بعذاب يوم الظلة، والمؤتفكات التي هي قرى قوم لوط أهلكها الله تعالى بالخسف.

وخص الله تعالى ذكر إهلاك هؤلاء الأقوام؛ لأن آثارهم باقية، وبلادهم الشام والعراق واليمن قريية من بلادهم الحجازية، وكانوا يمرون عليها، ويعرفون أمرها، فإن هؤلاء الأقوام أتتها رسل الله ﷻ بالمعجزات الباهرات على صدقهم في دعوتهم، ولكنهم كذبوهم وخالفوا أمرهم، فاحذروا أيها الكفار أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فتعجل عليكم العقوبة كما عجلت عليهم، وليست هذه العقوبة إلا بسبب ظلمهم لأنفسهم^(٢).

وفي موضع آخر يسلي الله ﷻ نبيه محمداً ﷺ وهو أشرف الخلق بالأنبياء والرسل السابقين الذين كذبهم أقوامهم ورفضوا الاستجابة لدعوتهم، فيقول جل جلاله: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِى مُعْتَلَّةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا

(١) الآية: رقم ٧٠ من سورة التوبة.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٣٨٢.

أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿١﴾
 والمعنى: لا تحزن يا أكرم الرسل على تكذيب قومك لك، فلست وحدك الذي كذبه
 قومه، فإن الأمم السابقة جميعهم قد كذبوا أنبياءهم ورسلكم، فكذب نوح وهود
 وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى ﷺ أجمعين، فأمهلت هؤلاء الأقوام حتى
 أخذتهم بعذاب الاستئصال، فانظروا يا سيد الرسل، كيف غيرت حياتهم من العمار إلى
 الخراب! والآن أغفل أهل مكة فلم يسافروا في تجارتهم فتكون لهم قلوب يعقلون
 بها ويعتبرون بها سنة الله تعالى في الكون فيوحدوه؟! أو تكون لهم آذان يسمعون بها
 أخبار النبي محمد ﷺ؟ ثم أكد الله تعالى على أن الأبصار لا تعمي، فليس الخلل في
 حواسهم، بل هو في عقولهم عندما اتبعوا أهواءهم، وانهمكوا في غفلتهم، واعتمدوا
 في ذلك على تقليدهم الأعمى لدين آبائهم وأجدادهم، وهي الأصنام والأوثان التي
 كانوا يعبدونها من دون الله ﷻ (٢).



(١) الآيات: رقم ٤٢-٤٦ من سورة الحج.

(٢) انظر: مراحم لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٧٥/٢.

نوح عليه السلام وابنه وزوجته

أولاً: نوح عليه السلام وابنه:

عندما أمر الله تعالى نوحاً عليه السلام بصناعة السفينة؛ لينجيه والذين آمنوا معه من العقاب الذي سوف يحل على المشركين من قومه، نفذ نوح عليه السلام أمر ربه ﷻ، وعندما انتهى من صنع أمره الله تعالى أن يحمل فيها ذكراً وأنثى من كل نوع من الحيوانات والطيور، وكذلك يحمل فيها أهله المؤمنين معه، حينئذ نادى نوح عليه السلام ابنه وكان كافراً؛ ليركب معه في السفينة، فلن ينجو اليوم أحدٌ من عذاب الله ﷻ إلا من هو داخل السفينة، فحملته الشفقة على مناداة ابنه؛ للركوب معه.

قال جل جلاله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (١) قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١﴾، وكان هذا النداء قبل حدوث الغرق، ولكن ابنه أجاب على هذا النداء الذي يحمل معنى الرحمة والشفقة وعاطفة الأبوة، أجاب بكل عنادٍ وتكبرٍ وصلف، فقال: سأحتمي وأتحصن بجبل يمنعني ارتفاعه من وصول الماء إلي، فرد عليه أبوه نوح عليه السلام بأن هذا اليوم ليس كأَيِّ يومٍ عادي، بل هو يوم قد حق فيه العذاب، وهو واقع لا محالة، فليس هناك عاصم أو مانع من نفاذ أمر الله جل جلاله إلا من قدر الله تعالى له الهداية من قبل فكان من المؤمنين، وفي أثناء هذا الحوار بين الأب وابنه بدأ الماء بالارتفاع حتى حال الموح بينهما، فتعذر على نوح عليه السلام إقناعه بالركوب معه؛ ليخلص وينجو من الغرق، فكان ابنه من ضمن من أصابه الطوفان فغرق (٢).

(١) الآيتان: رقم ٤٢-٤٣ من سورة هود.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥٦٧/٢.

ويلاحظ من هذا أن ابن نوح كان عنده عجبٌ وغرور كبير بنفسه، والعجب كما عرفه الجرجاني بقوله: (هو عبارة عن تصور استحقاق الشخص رتبةً لا يكون مستحقاً لها)^(١)، وكما عرفه الإمام الغزالي فقال: (هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم)^(٢)، فقد اغتر بنفسه، وأنه ابن نبي الله تعالى، ولكن هذا النسب لم ينفعه؛ لأنه خلا من الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح، وفي المجتمع أناسٌ كثيرون يزعمون أنهم أفضل من العلماء والفقهاء، وهم جاهلون بكتاب ربهم جل وعلا.

وبعد انتهاء هذا الحدث الجسيم دفعت عاطفة الأبوة نبي الله نوحاً ﷺ أن يسأل الله تعالى عن مصير ابنه الذي غرق، قال ﷺ: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾^(٣)، أي: يا رب إن ابني هذا من أهلي الذين وعدتني بنجاتهم عندما أمرتني بحملهم في السفينة، وذلك عندما قال الله ﷻ: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٤)، فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ يَنْفُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٥)، أي: يا نوح، إنه ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم في السفينة؛ لإنجائهم، والسبب في ذلك أنه كان يعمل أعمالاً غير صالحة، فقد التزم الفساد منهجاً في حياته، وتنكب عن طريق الهداية والصلاح.

ثم نهاه الله تعالى عن سؤال ما ليس له به علم صحيح، فيكون من زمرة الجاهلين، فيسألون الله تعالى إبطال حكمته وتقديره في خلقه إجابةً لشهواتهم وأهوائهم.

(١) أنظر: التعريفات للجرجاني، ص ١٤٧.

(٢) أنظر: إحياء علوم الدين للغزالي، ٣/ ٣٧١.

(٣) الآية: رقم ٤٥ من سورة هود.

(٤) الآية: رقم ٤٠ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ٤٦ من سورة هود.

وبعد هذا النهي الصريح طلب نوح ﷺ المغفرة من ربه فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١)، أي: يا رب، إني أُلجأ إليك وأحتمي بك من أن أسألك في المستقبل سؤالاً ليس لي به علم، وإن لم تغفر لي ذنب هذا السؤال الذي كان من باب شفقتي على ابني ومن باب طمعي في رحمتك أكن من الخاسرين فيما كان مني من محاولة إنجاء أبنائي كلهم^(٢).

ويلاحظ من هذا أن نوحاً ﷺ اجتهد فأخطأ؛ لذلك لم يقره الله تعالى على خطئه، بل عاتبه وأرشده إلى الاستغفار، وقد يستعظم البعض نسبة الخطأ إلى الأنبياء، متوهمين أن الخطأ هو الإثم، أو الانحراف الذي يتنافى مع عصمة الأنبياء الثابتة لهم، فليس المقصود بالخطأ هذا المعنى، بل المقصود به هو عدم مطابقة اجتهاد النبي لما هو الكمال الثابت في علم الله جل جلاله^(٣).

ثانياً: نوح ﷺ وزوجته:

تحدث القرآن الكريم عن امرأة نوح ﷺ في سياق الذم والإنكار لما بدر منها، فقال الله ﷻ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾^(٤).

وحقيقة الخيانة هي: (عمل من أوْثَمَ على شيء بضد ما أوْثَمَ لأجله بدون علم صاحب الأمانة)^(٥).

(١) الآية: رقم ٤٧ من سورة هود.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٤٠ / ١٢.

(٣) انظر: فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص ١٦٥.

(٤) الآية: رقم ١٠ من سورة نوح.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١٦ / ٢٤.

وتفسير الآية ومعناها: أن الله ﷻ ضرب مثلاً للذين كفروا في مخالطتهم للمسلمين ومعاشرتهم، فإن هذه المخالطة والمعاشرة لا تجدي عن الكافرين شيئاً، ولن تنفعهم عند الله ﷻ إن لم تكن قلوبهم مليئة بالإيمان بالله جل جلاله، وذكر مثلاً على ذلك هما امرأتا نوح ولوط ﷺ فكانتا زوجتين لنبيين، يصاحبانها في الليل والنهار، ويؤاكلانهما، ويعاشرانهما أشد المعاشرة والاختلاط، ولكنهما خانتا زوجيهما في الإيمان، حيث لم تؤمنا بنبوة ورسالة زوجيهما.

فهذه العشرة والصحبة للنبيين لم تُجدِ عنهما شيئاً، ولم تدفع عنهما محذوراً؛ لأنهما كافرتان؛ لذلك قيل لهما: ﴿أَدْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾، فلا يراد بالخيانة: الخيانة الزوجية، فإن نساء الأنبياء جميعاً وإن كن كافرات معصومات عن الوقوع في الفاحشة؛ حرمة أزواجهن الأنبياء^(١).

وذكر الرازي أن خيانة امرأة نوح ولوط ﷺ كانت في نفاقهما وإخفاءهما الكفر، وكانتا تعينان قوميهما على زوجيهما الرسولين، فامرأة نوح ﷺ قالت لقومه: إنه مجنون، وامرأة لوط ﷺ كانت تدل قومها على ضيوف زوجها؛ لفعل الفاحشة بهم^(٢).

ثالثاً: نوح ﷺ والسفينة:

إن دعوة نوح ﷺ معرضة الآن للخطر والتهديد من قومه؛ فلهذا السبب أوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن واستجاب، فلجأ نوح ﷺ متضرعاً إلى الله ﷻ شاكياً إياه ما أصاب دعوته، مناجياً إياه أن ينصر دعوة الحق، ويهلك الظالمين، فاستجاب الله تعالى لنبيه نوح ﷺ، وأمره بصناعة الفلك قائلاً: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَحْطَبْنِي فِي

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١٧١ / ٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ٥٧٥ / ٣٠.

الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ^(١)، أي: أوحى الله تعالى إليه صناعة السفينة، والله تعالى حافظٌ له؛ لئلا يفسدها عليه قومه، وأثناء صناعته لها كان نوح ﷺ يلاقي من قومه السخرية والاستهزاء، فلم يبال بصنيعهم هذا ولم يكثر له، بل ذكر لهم أنهم سوف يعلمون من الأولى بهذه السخرية عندما يحل عليهم عذاب الله ﷻ بالطوفان فيهلكوا ويغرقوا جميعاً، وبهذا يعد نوح ﷺ أول من صنع السفينة؛ لذلك سخر منه قومه، ولو كان يصنع شيئاً عادياً معروفاً لما سخرُوا منه^(٢).

وأعطاه الله تعالى علامةً يعرف بها إرادة الله ﷻ عند وقوع العذاب على قومه، وهي فوران التنور الذي هو موضع النار بالماء، حينئذٍ أمره الله تعالى إذا رأى هذه العلامة أن يدخل في السفينة من كل حيوان موجود في عصره فردين مزدوجين، ذكراً وأنثى؛ حتى لا ينقطع نسل ذلك الحيوان. كما أمره أن يدخل في السفينة من أهل بيته المؤمنين فقط، أما الكافرون منهم فمحكومٌ عليهم بالغرق والهلاك لا محالة، ويدخل كذلك الذين آمنوا معه وصدقوه من قومه^(٣).

وذكر الله تعالى أن سفينة نوح ﷺ كانت مملوءةً بالمؤمنين، والحيوانات التي أمره الله تعالى بحملها معه^(٤)، فقال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾^(٥)، وبعد أن تجهز نوح ﷺ، واستعد لأمر الله تعالى عندها أمر الله ﷻ السماء أن تنزل المطر الكثير على غير العادة، والأرض أن تتفجر كلها حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه؛ لأنه موضع للنار وليس للماء، فالتقى ماء السماء مع ماء الأرض بأمر الله ﷻ بذلك، وكان قد كتب هذا الأمر منذ الأزل عقوبةً لهؤلاء الظالمين الطغاة^(٦)، فقال

(١) الآية: رقم ٢٧ من سورة المؤمنون.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١٣/٧٨٤٨.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٧/٤٦٥، مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٢/٨٧.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ٤/٩٥.

(٥) الآية: رقم ١١٩ من سورة الشعراء.

(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٢٥.

تعالى مصوراً هذا المعجزة: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾^(١).

أما نوح عليه السلام ومن معه فقد قال الله تعالى في نجاتهم: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾^(٢)، أي: حمله الله تعالى ومن معه على السفينة، ووصف الله تعالى طريقة صنعائها، فهي ذات ألواح خشبية، مثبتة بالدر، وهي المسامير التي سمّرت بها الألواح وشد بها أسرها، ولكن مهما أحكمت هذه الألواح بالمسامير، فإنه لا بد أن يظل بينها مسام، ويتسرب منها الماء، فيؤدي إلى الغرق، فكيف السبيل إلى تفادي ذلك خصوصاً في تلك العصور البدائية؟! فقالوا: لا بد لصانع الفلك أن يجفف الخشب جيداً قبل تصنيعه، فإذا ما نزل الخشب الماء يتشرب منه، فيزيد حجمه ويسد هذه المسام تماماً، هذا بالإضافة إلى ربطها بالحبال وضم بعضها إلى بعض، فمن علم نوحاً عليه السلام هذه الأمور الدقيقة؟ إنه الله جل جلاله، لم يترك نبيه يفعل ما يشاء في صنعائها، إنما تابعه ولاحظه، ووجهه إلى كيفية صنعائها، وحدد له المواد المستخدمة فيها^(٣).

وخلاصة القول: إن الله تعالى نجى نبيه نوحاً عليه السلام والمؤمنين معه بهذه السفينة التي صنعها بحفظ الله ورعايته، وكانت أيضاً تجري بأمره، وترسو كذلك بأمره، فلم يخافوا الغرق مع ما كان من أمواج هائلة، جزاءً من الله تعالى لنوح عليه السلام؛ لأنه هو المكفور به^(٤).

وبعد هلاك الكافرين تماماً أمر الله تعالى الأرض والسماء فقال لهما: ﴿وَقِيلَ يَتَّزِرُ أَرْبَعِي مَاءٍ لِّكَ وَيَكْسُمَاءُ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ

(١) الآيتان: رقم ١١-١٢ من سورة القمر.

(٢) الآيتان: رقم ١٣-١٤ من سورة القمر.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ٩٩٩٦/١٦.

(٤) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٣٣/٦، أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ١/٦٥٣.

الظَّالِمِينَ ﴿١﴾، والمعنى: أمر الأرض أن تبلع الماء الذي عليها، وأمر السماء أن تقلع عن إنزال المطر، فنقص الماء حتى ذهبت زيادته عن الأرض، واستوت السفينة على جبل الجودي (٢).

ثم خاطب الله تعالى نوحًا ﷺ بقوله: ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ السَّلَامُ لِلَّهِ الَّذِي بَخَسْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣)، أي: إذا استقر بك المقام وبمن معك من المؤمنين في السفينة فاحمد الله تعالى أنت وهم أن أنقذكم ونجاكم من هؤلاء الكافرين المشركين الظالمين (٤).

ثم أمره الله تعالى أن ينزل من السفينة ويدعو الله ﷻ دعاءً مقروناً بالثناء، فقال: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ (٥)، أي: أنزلني مكاناً تبارك لي فيه، وتعطيني الزيادة فيه لخير الدارين، وأنت يا رب خير من ينزل عباده الطائعين له المنازل الطيبة؛ لأنك تحفظه في سائر أحواله، وتدفع عنه المكروه حسب ما تقتضيه حكمتك العلية (٦).

فنزل نوح ﷺ بأمن وسلامة من الله تعالى وخيرات وبركات كثيرة عليه، فقال تعالى: ﴿ قِيلَ يَنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمُّهُمْ سَتُمَتِّعُهُمْ نَحْنُ بِمَسَّتْهُمْ مِمَّا عَذَابُ الْإِيمِ ﴾ (٧)، ومن هذه الخيرات والبركات أن الله تعالى جعل ذريته هي الباقية إلى يوم القيامة، وهذه البركات أيضاً على ذرية أمم ممن كانوا

(١) الآية: رقم ٤٤ من سورة هود.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٤٧٤.

(٣) الآية: رقم ٢٨ من سورة المؤمنون.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٨/ ٣٥.

(٥) الآية: رقم ٢٩ من سورة المؤمنون.

(٦) انظر: المصدر السابق ١٨/ ٣٦.

(٧) الآية: رقم ٤٨ من سورة هود.

معه في السفينة، أما الأمم الكافرة، فسوف يمتعها الله تعالى في الدنيا، ثم يجازيهم العذاب الأليم في الآخرة^(١).

والحكمة من ذكر السفينة أن الله تعالى جعلها علامة على قدرته ووحدانيته، فهو الأحق والأجدر بالعبودية، فقال جل جلاله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَا وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢)، أي: جعلها عبرة عظيمة لمن يعتبر، وفي كونها آية وجهان:

الأول: أنها باقية على جبل الجودي مدة طويلة.

الثاني: أن الله تعالى سلمها من الرياح المزعجة.

فالضمير في ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾: إما راجع إلى السفينة، أو إلى الواقعة أو الحادثة التي اشتملت على نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين بالغرق^(٣)، وقال الماتريدي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾^(٤)، هذا يدل على أنها كانت آية؛ لأن الأمواج تمنع من جريان السفينة وسيرها، فإذا أخبر أنها لم تمنع هذه من جريانها دل أنه أراد أن تصير آية لهم^(٥).

وأخيراً فإن الله تعالى يذكر الكافرين في عصر النبي محمد ﷺ بطغيان الماء وتجاوزه حده في زمن نوح عليه السلام حتى علا كل شيء وارتفع فوقه، فنجاهم وحملهم في السفينة؛ ليجعل هذه الحادثة عظة للناس وعبرة تدل على انتقام الله تعالى ممن كذب رسله، فتحفظها أذن واعية للمواعظ^(٦)، فقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾^(٧).

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ١٨١/٤.

(٢) الآية: رقم ١٥ من سورة العنكبوت.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢٢٧/٤.

(٤) الآية: رقم ٤٢ من سورة هود.

(٥) تأويلات أهل السنة، ١٣٣/٦.

(٦) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٤١٢/٣.

(٧) الآية: رقم ١١ من سورة الحاقة.

وإذا سأل سائل: كيف يمتن الله ﷻ على كفار مكة بحملهم في سفينة نوح ﷺ؟
والجواب: أنه في نجاة الذين كانوا في السفينة من المحمولين نجاة لذريتهم، فكأن الله تعالى حمل المخاطبين من قريش بحمل أولئك الناجين من هلاك الطوفان^(١).

رابعاً: نوح ﷺ والنبوة فيه ذريته:

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

وتم الحديث عن معنى الاصطفاء ومسوغاته، وعن معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾، أي: كان الأنبياء والمرسلون من سلالة نوح ﷺ، وتتابع المختارون بعده^(٣).

وفي سياق الشناء على إبراهيم ﷺ من إعطائه الحجة الدامغة القوية التي أعطاها الله تعالى إياه؛ ليلزم بها قومه ويقنعهم به، فرفع بها درجته، حيث أعطاه النبوة التي هي أعلى الدرجات، فقال ﷻ معدداً نعمه على إبراهيم ﷺ، حيث جعله أشرف الناس، والأنبياء والرسل من ذريته، وأبقى له هذه الكرامة إلى يوم القيامة، فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

فقد وهب الله تعالى لإبراهيم ﷺ إسحاق، وجعله نبياً، وجعل يعقوب ﷺ من ذرية إسحاق ﷺ.

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٠ / ١٧١.

(٢) الآيتان: رقم ٣٣-٣٤ من سورة آل عمران.

(٣) انظر: التفسير المنهجي، فضل عباس، ٢ / ٤٤.

(٤) الآيتان: رقم ٨٣-٨٤ من سورة الأنعام.

وقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾، أي: هدينا جد إبراهيم ﷺ، وهو نوح ﷺ، إلى مثل ما هدينا به إبراهيم ﷺ وذريته، فقد آتاه الله تعالى النبوة والحكمة وهداية الخلق إلى الطريق المستقيم، وإذا كان الله تعالى قد امتن على إبراهيم ﷺ بجعل النبوة في ذريته فقد امتن عليه من قبل إذ أخرجه من أصلاب آباء طاهرين كنوح ﷺ وإدريس ﷺ، فأبراهيم ﷺ من ذرية نوح ﷺ، فهو كريم الآباء شريف الأبناء^(١)، فإذا علم هذا فإن النبوة كلها قد جعلت في ذرية نوح ﷺ.

ويزيد هذا المعنى قوة ما ورد في قوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٢)، أي: جعل الله تعالى النبوة والكتب السماوية في أولاد كل من نوح ﷺ وإبراهيم ﷺ.

فهو ذو وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط ﷺ من ذرية نوح ﷺ، وإسماعيل وإسحاق، وباقي الأنبياء من ذرية إبراهيم ﷺ^(٣).

وإذا كان إبراهيم ﷺ من ذرية نوح ﷺ فأبراهيم ﷺ وذريته كلها من ذرية نوح ﷺ.

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٨١ / ٧.

(٢) الآية: رقم ٢٦ من سورة الحديد.

(٣) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٢٧٨ / ٥.

المناهج التي تضمنتها قصة نوح ﷺ

لقد تضمنت قصة نوح ﷺ أربعة مناهج دعوية هامة وهي كما

يليه:

أولاً: نبذ الشرك بالله ووجوب التطهر منه.

ثانياً: الإنذار بالعذاب الأليم عند رفض دعوته.

ثالثاً: البشري بالمغفرة القاضية على ما سبق من الذنوب عند الإيمان برسالته.

رابعاً: السعة في الرزق والبركة فيه عند متابعتة.

هذه أربعة مناهج سار عليها نبي الله نوح ﷺ في دعوته لقومه ولكن وقبل أن نتعرف ما أجاب به قومه، سنبيّن مسألتين مهمتين، وهما: معرفة الدين الذي كان عليه نوح ﷺ، ثم مبدأ هاماً جعله ضمن أسلوبه في دعوته لقومه، وهو: أن أجره على رسالته على الله تعالى الذي أرسله، وليس على أحدٍ من البشر.

أما دينه: فقد كان الإسلام، وهو أيضاً دين جميع الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي إِيَّائِي فَاجْتَمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾^(١)، ونحن من منطلق إيماننا بوحدة الرّسالات نقول: إن دين الأنبياء واحد؛ وهو: دين الإسلام، وذلك بنص القرآن الكريم، قال تعالى عن نبيه إبراهيم ﷺ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ

(١) الآيتان: رقم ٧١-٧٢ من سورة يونس.

مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾، وعن يعقوب وآبائه وبنيه قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٢)، وعن يوسف ﷺ قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٣)، وعن نبيه موسى قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٤)، وعن أتباع موسى قال تعالى: ﴿وَمَا نُنْقِمْ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (٥)، وعن نبيه عيسى قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُوْنَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦)، والجامع لهذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (٧)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨).

وأما ما جعله ضمن أسلوبه مع قومه في دعوته حيث كان أجره على الله وليس على أحد من الخلق، فهو قوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ (٩)، وقد كان هذا أسلوب جميع الرسل مع أقوامهم.

(١) الآية: رقم ٦٧ من سورة آل عمران.

(٢) الآية: رقم ١٣٣ من سورة البقرة.

(٣) الآية: رقم ١٠١ من سورة يوسف.

(٤) الآية: رقم ٨٤ من سورة يونس.

(٥) الآية: رقم ١٢٦ من سورة الأعراف.

(٦) الآية: رقم ٥٢ من سورة آل عمران.

(٧) الآية: رقم ١٩ من سورة آل عمران.

(٨) الآية: رقم ٨٥ من سورة آل عمران.

(٩) الآية: رقم ٢٩ من سورة هود.

وقد ذكر الله هذه الحقيقة عن قصص الرُّسل من سورة الشعراء يقول كلُّ رسول: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، وذلك لأنَّ رسالة الله هي التي يتمُّ بها العمران، وتصلح بها العقيدة، وينتشر بها العدل وتنزل بها الرَّحمة، فحاجة الإنسان إليها أشدُّ من حاجته إلى الهواء والشمس، ولُقمة العيش وشربة الماء، لو كان النَّاس يعقلون، فإذا يجب أن تُعطى بالمجان، وأجر الدَّاعي لا يقدره بشرٌ، وإنما يقدره الله لعظم شأنه.

صور من اعتراض قوم نوح ﷺ عليه دعوته المباركة:

فَمِنْ جُمْلَةٍ مَا قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٢)، أي: بعيد عن طريق الحقِّ، والمعروف أنَّ الضلال ضد الهدى، فأجاب نوح ﷺ عليهم بأبلغ عبارة وأوجز بيان: ﴿قَالَ يَتَقَوْمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، أي: ليس بي أدنى شيء من الضلالة، بل أنا رسولُ الله، وما يستلزمه من كونه في أقصى مراتب الهدى؛ لأنَّها رسالة ربِّ العالمين، فإثبات الهداية يستلزم نفي الضلالة، كما تستلزم هذه العبارة أيضاً نفي الجنون الذي رموه به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾^(٤)، فإثبات أنَّه رسول ربِّ العالمين ينفي عنه الجنون، كذلك قالوا: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ﴾^(٥)، وهذه بدورها تهمة مؤدَّاها أنَّه ادَّعى النبوة يبتغي من ورائها الوصول إلى مركز القيادة، وهذه التُّهم يتبرأ منها الرُّسل؛ فإنَّهم ما جاؤوا لكسب شيء من حطام الدنيا، كيف وهم لم يسألوا النَّاس أجراً على رسالتهم؟

(١) الآية: رقم ١٠٩ من سورة الشعراء.

(٢) الآية: رقم ٦٠ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ٦١ من سورة الأعراف.

(٤) الآية: رقم ٥٢ من سورة المؤمنون.

(٥) الآية: رقم ٢٤ من سورة المؤمنون.

ثُمَّ اتَّجَهُوا إِلَى أَتْبَاعِهِ، وَاتَّخَذُوا مِنْ وَضْعِهِمُ الْاجْتِمَاعِي ذَرِيعَةً لاختلاق تهمة أخرى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكَ بَادِيَ الرَّأْيِ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾^(٢)، يعني: أتباعك الفقراء، سفلة الناس، أصحاب الحِرَفِ الدَّنيئة، فلا عبرة باتباعهم لك؛ إذ ليس لهم رِجَاحَةُ عَقْلٍ ولا إصَابَةُ رَأْيٍ، وقد كان ذلك منهم بَادِي الرَّأْيِ، وذلك قِيَاسًا مِنْهُمْ عَلَى عَادَتِهِمُ الْجَاهِلِيَّةِ الْقَائِلَةِ: إِنَّ الشَّرِيفَ عِنْدَهُمْ هُوَ الْأَكْثَرُ حِظًا وَمَالًا وَأَعْلَى جَاهًا، وَمَنْ حُرِّمَ ذَلِكَ فَهُمْ الْأَرْذَلُونَ، فكيف نُؤْمِنُ بِرِسَالَةٍ تَسْوِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْأَرْذَلِينَ مِنْ قَوْمِنَا؟ فَأُجَابُهُمْ بِمَا يُؤَكِّدُ عَدَالَةَ الرِّسَالَةِ، وَأَنَّهُ مُلْتَزِمٌ بِاحْتِرَامِ أَتْبَاعِهِ وَتَقْدِيرِهِمْ أَيْ مَا كَانُوا، حَيْثُ قَالَ لَهُمْ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُؤُا رَبِّهِمْ﴾^(٣)، يعني: أَنِّ مَهْمَّتِي إِبْلَاجُ الرِّسَالَةِ، وَلَا دَخَلَ لِي بِاخْتِيَارِ نَوْعِيَّاتِ الْأَتْبَاعِ، وَمِنْ عَدَالَةِ الرِّسَالَةِ الَّتِي بُعِثْتُ بِهَا أَنِّ مَنْ أَتَّبَعَنِي فَهُوَ الْأَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ، وَمَرَدُّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

كَذَلِكَ مِمَّا رَدُّوا بِهِ دَعْوَتَهُ قَوْلُهُمْ: ﴿مَا زَنَّاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾^(٤)، يعني: لَا نَرَى لَكَ مَزِيَّةً عَلَيْنَا حَتَّى يَخْصِكَ رَبُّكَ بِالرِّسَالَةِ مِنْ بَيْنِنَا وَنَحْنُ وَأَنْتَ سَوَاءٌ؛ إِذِ الرِّسَالَةُ ذَاتُ مَسْتَوًى رَفِيعٍ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا بَشَرٌ، فَأَنْتَ عَلَى هَذَا دَعِيٍّ وَلَسْتَ رَسُولًا، وَمِنْ الْعَجَبِ أَنَّ تِلْكَ الدَّعْوَى كَانَ يَرُدُّهَا أَعْدَاءُ الرُّسُلِ عَلَى مَرِّ تَارِيخِ الرِّسَالَاتِ، فَمَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا وَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ: إِنَّكَ بَشَرٌ، وَالْبَشَرِيَّةُ لَا تَتَّفِقُ مَعَ الرِّسَالَةِ لِمُسْتَوَاهَا الرَّفِيعِ، وَلَا يَصْلَحُ لِحَمَلِهَا بَشَرٌ، وَلَقَدْ قَالَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ ذَلِكَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾^(٥)، أَي: تَنْقَادُونَ لِلْسَّحَرِ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ.

(١) الآية: رقم ٢٧ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ١١١ من سورة الشعراء.

(٣) الآية: رقم ٢٩ من سورة هود.

(٤) الآية: رقم ٢٧ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ٣ من سورة الأنبياء.

وقد انقسم الناسُ إزاء بشرية الرسل إلى فريقين: فريق رَفَعَ من شأن الرسالة؛ وقالوا: إنها فوق مستوى البشر، ومن ادَّعاهَا من البشر فهو كاذب، وقالوا عن معجزات الرسل: إنها سحر، فيجب إنكارها والكفرُ بها، فأنزلوا من مستوى الرسل، وفريق آمن بالرسالة؛ غير أنهم جعلوا الرسولَ خلقًا فوق مستوى البشر، وهذا الأخير عليه عامة الصوفية ومن سار في ركبهم؛ حيث قالوا: إنَّ محمدًا خلق من نور الله؛ وهذا يعني أنَّ فيه جزءًا من الله، وهذه هي البنية التي هي عقيدة النصارى ولكنهم لا يعلمون، فهم قد رفعوا من شأن الرسل فوق مستوى البشر، وقد بين الله لهؤلاء وأولئك خطأهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴾^(١)، فأجاب الله تعالى بقوله: ﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ ﴾^(٢)، والتقدير: لو كان في الأرض ملائكة استقرُّوا فيها واحتاجوا إلى رسالة، لكان من الحكمة الإلهية أن يبعث الله فيهم ملكًا رسولاً؛ إذ الرسالة إصلاحٌ عقائدي واجتماعي، ولا يتسنَّى للملك أن يخاطب البشر من قبل غرائزه وميوله، فيُصلح من فسادهم، ويقوِّم معوجَّهم، فلا يصلح للرسالة إلى البشر إلا البشر.

* * *

(١) الآية: رقم ٩٤ من سورة الإسراء.

(٢) الآية: رقم ٩٥ من سورة الإسراء.

الخلاصة

أَنَّ جميع ما أجاب به قومُ نوح ﷺ كان المقصود منه إظهار نوح بالرجل غير الكُفء لحمل رسالة الله، وما ساقوه من أنواع التُّهم أرادوا بها إلحاق النقيصة بشخصه الكريم، وقد ألحقوا بأتباعه نوعاً منها مثل قولهم: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾؛ أي: لا قيمة لهم ولا يستطيعون حمل عبء الرسالة، وقصدتهم تنفير الناس عنهم حتى يُوقفوا مدَّ الدَّعوة إلى الآفاق، وفِعلاً كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَمْنٌ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(١).

* * *

(١) الآية: رقم ٤٠ من سورة هود.

الآيات التي ذكر فيها نوح في القرآن

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿ أَوْحَيْنَا أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^(٣)، وقال سبحانه: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾^(٤)، وقال جل وعلا: ﴿ قَالُوا يٰنُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأُنَبِّئُكَ بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(٥). وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا نَبَيْتِسَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يٰبُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾^(٧)، وقال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ

(١) الآية: رقم ١٦٣ من سورة النساء.

(٢) الآية: رقم ٦٩ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ٧٠ من سورة التوبة.

(٤) الآية: رقم ٧١ من سورة يونس.

(٥) الآية: رقم ٣٢ من سورة هود.

(٦) الآية: رقم ٣٦ من سورة هود.

(٧) الآية: رقم ٤٢ من سورة هود.

نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴿١﴾، وقال جل وعلا: ﴿قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٢﴾، وقال سبحانه: ﴿قِيلَ يَنْوُحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٣﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَقَوْمُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ ﴿٤﴾، وقال تعالى: ﴿الْمُرَايَاتُ كَمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ﴿٥﴾، وقال جل وعلا: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿٦﴾، وقال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿٧﴾.

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا﴾ ﴿٨﴾، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ ﴿٩﴾، وقال سبحانه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا

(١) الآية: رقم ٤٥ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٤٦ من سورة هود.

(٣) الآية: رقم ٤٨ من سورة هود.

(٤) الآية: رقم ٨٩ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ٩ من سورة إبراهيم.

(٦) الآية: رقم ٣ من سورة الإسراء.

(٧) الآية: رقم ٩ من سورة إبراهيم.

(٨) الآية: رقم ٥٨ من سورة مريم.

(٩) الآية: رقم ٤٢ من سورة الحج.

لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا^(١)، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ^(٢)، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْقِوْنَ^(٣)، وقال ﷺ: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا^(٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ^(٦)، وقال تعالى: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ^(٧)، وقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ^(٨)، وقال جل وعلا: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرِسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ^(٩).

* * *

(١) الآية: رقم ٣٧ من سورة الفرقان.

(٢) الآية: رقم ١٠٥ من سورة الشعراء.

(٣) الآية: رقم ١٠٦ من سورة الشعراء.

(٤) الآية: رقم ١١٦ من سورة الشعراء.

(٥) الآية: رقم ٧ من سورة الأحزاب.

(٦) الآية: رقم ٧٥ من سورة الصافات.

(٧) الآية: رقم ٧٩ من سورة الصافات.

(٨) الآية: رقم ١٢ من سورة ص.

(٩) الآية: رقم ٥ من سورة غافر.

السور التي ذكرت فيها قصة نوح ﷺ

أولاً: سورة (الأعراف): الآيات من ٥٩-٦٤.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنَ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَتُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مَنَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَانجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾.

ثانياً: سورة (يونس): الآيات من ٧١-٧٣.

قال تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ مَا كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَانجَيْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾).

ثالثاً: سورة (هود) الآيات من ٢٥-٤٨.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرُكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرُكَ إِلَّا الَّذِينَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَن يُكْفِرُوا مِنَّا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا

(١) الآيات: رقم ٥٩-٦٤ من سورة الأعراف.

(٢) الآيات: رقم ٧١-٧٣ من سورة يونس.

نَزَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْهِ
 مِنْ رَبِّي وَءَانِئِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِيَتْ عَلَيْكُمْ أُنْزِلْ مُكْمُوها وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا
 أَشْكُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ
 وَلَكَفَىٰ أَرْسَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾
 وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ
 تَزَيَّروا بِكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا
 يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِنَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
 إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ
 إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ قُلْ إِنْ
 أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْحَرُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ
 قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا
 وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ
 قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
 مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ
 فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ
 إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْظَهَا وَفَرَسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ
 تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا
 وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ
 مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَتَّارِضْ
 أَبْلَعِي مَاءَكَ وَبَسْمَاءَ أَقْلَعِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ
 الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
 إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْبَهِالِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ

عَلَّمَ وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنُوحُ أَهَبْطِ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنَمَتُّهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمُ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ (١).

رابعاً: سورة (الأنبياء) الآيات ٧٦-٧٧

قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ (٢).

خامساً: سورة (المؤمنون) الآيات من ٢٣-٣٠

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٤﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَنَرْتَصُّوهُ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٦﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا ووَحَيْنَا إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ وَقُلِ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٣٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣١﴾﴾ (٣).

سادساً: سورة الشعراء الآيات من ١٠٥-١٢٠

قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْفُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ

(١) الآيات: رقم ٢٥-٤٨ من سورة هود.

(٢) الآيات: رقم ٧٦-٧٧ من سورة الأنبياء.

(٣) الآيات: رقم ٢٣-٣٠ من سورة المؤمنون.

الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿١١٠﴾ ﴿١١١﴾ قَالُوا أَنْزِلْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١٢﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٣﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٤﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٦﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَلْنُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِّمِي كَذَّبُونَ ﴿١١٨﴾ فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَنَجْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢١﴾^(١)

سابعاً: سورة العنكبوت الآيات من ١٤ - ١٥

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾^(٢)

ثامناً: سورة الصافات الآيات من ٧٥ - ٨٢

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ ﴿٧٥﴾ وَنَجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ، مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾^(٣)

تاسعاً: سورة (القمر) الآيات من ٩ - ١٦

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَحْنُونا وَازْدُجِرْ ﴾ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَاجِ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءٌ لِّمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ ﴿١٦﴾^(٤)

(١) الآيات: رقم ١٠٥ - ١٢٠ من سورة الشعراء.

(٢) الآيات: رقم ١٤ - ١٥ من سورة العنكبوت.

(٣) الآيات: رقم ٧٥ - ٨٢ من سورة الصافات.

(٤) الآيات: رقم ٩ - ١٦ من سورة القمر.

عاشراً: سورة (نوح) الآيات من ١-٢٨

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ ﴾ قَالَ يَفْقَهُمْ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ٧ فِيمَا أَذْنَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ٨ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ٩ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ١٠ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١١ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ١٢ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِ وَجَعَلْ لَكُمْ جُنُودًا وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ١٣ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ١٤ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ١٥ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ١٦ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ١٧ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ١٨ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ١٩ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ٢٠ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ٢١ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْني وَأَتَّبَعُوا مِنْ لَدُنْهُ مَا لَهُ، وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ٢٢ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا ٢٣ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ٢٤ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ٢٥ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ٢٦ مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ٢٧ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ٢٨ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ٢٩ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ٣٠ ﴾

ما قاله المفسرون وأصحاب التأويل فيه سياق القصة

أولاً: ما قاله المفسرون وأصحاب التأويل فيه سياق القصة فيه
سورة (الأعراف):

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمِرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَتَقَوَّمِرُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مَنَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

١ - ما قاله الإمام ابن جرير الطبري^(١) رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمِرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٦٢)، قال أبو جعفر: أقسم ربنا جل ثناؤه للمخاطبين بهذه الآية: أنه أرسل نوحاً ﷺ إلى قومه، منذرهم بأسه، وخوفهم سخطه، على عبادتهم غيره، فقال لمن كفر منهم: يا قوم، اعبدوا الله الذي له العباد، وذللوا له بالطاعة، واخضعوا له بالاستكانة، ودعوا عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة، فإنه ليس لكم معبودٌ يستوجب عليكم العبادَةَ غَيْرُهُ، فإني أخاف عليكم إن لم تفعلوا ذلك:

(١) الإمام الطبري: هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ).

(٢) الآية: رقم ٥٩ من سورة الأعراف.

﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، يعني: عذاب يوم يعظم فيه بلاؤكم بمجيئه إياكم بسخط ربكم.

وقد اختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿غَيْرُهُ﴾، فقرأ ذلك بعض أهل المدينة والكوفة: (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ)، بخفض: (غير) على النعت لـ: ﴿إِلَهِ﴾.

وقراه جماعة من أهل المدينة والبصرة والكوفة: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ برفع: (غير)، ردًا لها على موضع: ﴿مِنْ﴾، لأن موضعها رفع، لو نزع من الكلام، لكان الكلام رفعًا، وقيل: (ما لكم إله غير الله).

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١).

قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه، عن جواب مشركي قوم نوح ﷺ، وهم: ﴿الْمَلَأُ﴾، و﴿الْمَلَأُ﴾: الجماعة من الرجال، لا امرأة فيهم^(٢)، وأنهم قالوا له حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له: ﴿إِنَّا لَنَرْنَكَ﴾، يا نوح، ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، يعنون في أمر زائل عن الحق، مبين زواله عن قصد الحق لمن تأمله^(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمٍ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤).

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال نوح ﷺ لقومه مجيبًا لهم: يا قوم، لم آمركم بما أمرتكم به من إخلاص التوحيد لله، وإفراده بالطاعة دون الأنداد والآلهة، زوالا مني عن محجة الحق، وضلالا لسبيل الصواب، وما بي ما تظنون من الضلال،

(١) الآية: رقم ٦٠ من سورة الأعراف.

(٢) انظر: تفسير «الملاء» فيما سلف ٥: ٢٩١، وقد فسره هناك بما فسرت به كتب اللغة، أنهم وجوه القوم ورؤساؤهم وأشرافهم. وأما التفسير الذي هنا، فلم يرد فيها، وهو شيء ينبغي أن يقيد. وهذا نص الفراء في معاني القرآن ١: ٣٨٣.

(٣) انظر: تفسير «الضلال» و«مبين» فيما سلف من فهارس اللغة (ضلل) و (بين).

(٤) الآية: رقم ٦١ من سورة الأعراف.

ولكنِّي رسول إليكم من رب العالمين بما أمرتكم به: من إفراده بالطاعة، والإقرار له بالوحدانية، والبراءة من الأنداد والآلهة.

قوله تعالى: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن نبيه نوح ﷺ أنه قال لقومه الذين كفروا بالله وكذبوه: ﴿وَلِكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أرسلني إليكم، فأنا أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم في تحذيري إياكم عقاب الله على كفركم به، وتكذيبكم إياي، وردكم نصيحتي، ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من أن عقابه لا يرد عن القوم المجرمين.

قوله تعالى: ﴿أَوْعَجَبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢).

قال أبو جعفر: وهذا أيضاً خبر من الله عز ذكره عن قيل نوح ﷺ لقومه أنه قال لهم، إذ ردُّوا عليه النصيحة في الله، وأنكروا أن يكون الله بعثه نبياً، وقالوا له: ﴿مَا نَزَلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَزَلَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾^(٣)، ﴿أَوْعَجَبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، يقول: أوعجبتم أن جاءكم تذكير من الله وعِظَة، يذكركم بما أنزل ربكم، ﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ﴾، قيل: معنى قوله: ﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ﴾، مع رجل منكم^(٤)، ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾، يقول: لينذركم بأس الله ويخوفكم عقابه على كفركم به^(٥)، ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾، يقول: وكي

(١) الآية: رقم ٦٢ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٦٣ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ٢٧ من سورة هود.

(٤) انظر: تفسير ومعنى (الإندار) فيما سلف من فهارس اللغة (نذر).

(٥) انظر: معاني القرآن للفراء ١: ٣٨٣.

تتقوا عقابَ الله وبأسه، بتوحيده وإخلاص الإيمان به، والعمل بطاعته، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ يقول: وليرحمكم ربكم إن اتقيتم الله، وخفتموه وحذرتكم بأسه.

وفتحت: (الواو) من قوله: ﴿أَوْعِجَّتُمْ﴾، لأنها: (واو) عطف، دخلت عليها ألف استفهام قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾^(١).

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فكذب نوحًا ﷺ قومه إذ أخبرهم أنه الله رسول إليهم، يأمرهم بخلع الأنداد، والإقرار بوحدانية الله، والعمل بطاعته، وخالفوا أمر ربهم، ولجوا في طغيانهم يعمهون، فأنجاه الله في الفلك والذين معه من المؤمنين به، وكانوا بنوح ﷺ أنفسا عشرة، قيل: نوح ﷺ وبنوه الثلاثة سأم وحام وياث، وأزواجهم، وستة أناسي ممن كان آمن به.

وكان قد حمل معه في الفلك من كل زوجين اثنين، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٢)، و﴿الْفُلْكِ﴾: هو السفينة.

قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، يقول: وأغرق الله الذين كذبوا بحججه، ولم يتبعوا رسله، ولم يقبلوا نصيحته إياهم في الله بالطوفان.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾، يقول: عمين عن الحق، قيل: في قول الله تعالى: ﴿عَمِينَ﴾، قال: عن الحق.

(١) الآية: رقم ٦٤ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٤٠ من سورة هود.

٢- وقال الإمام ابن أبيه حاتم^(١) رحمه الله فيه تفسيره: (تفسير ابن أبيه

حاتم):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، فَعَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَوَّلُ نَبِيٍّ أُرْسِلَ نُوحٌ صلى الله عليه وسلم»^(٢).

وعن مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: (كَانَ مِنْ حَدِيثِ نُوحٍ صلى الله عليه وسلم وَحَدِيثِ قَوْمِهِ فِيمَا قَصَّ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم، وَمَا يَذْكُرُ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ التَّوْرَةِ، وَمَا حَفِظَ مِنَ الْأَحَادِيثِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، وَعَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ رضي الله عنه اللَّهُ بَعَثَ نُوحًا صلى الله عليه وسلم إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَقَدْ فَشَتْ فِي الْأَرْضِ الْمَعَاصِي، وَكَثُرَتْ فِيهَا الْجَبَابِرَةُ، وَعَتَوْا عَلَى اللَّهِ عِثُوا كَبِيرًا، وَكَانَ نُوحٌ صلى الله عليه وسلم فِيمَا يَذْكُرُ أَهْلُ الْعِلْمِ حَلِيمًا صَبُورًا لَمْ يَلْقَ نَبِيٌّ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الْبَلَايَا أَكْثَرَ مِمَّا لَقِيَ إِلَّا نَبِيًّا قُتِلَ).

وَعَنْ يَزِيدَ الرَّقَاشِيِّ قَالَ: (إِنَّمَا سُمِّيَ نُوحٌ لَطُولِ مَا نَاحَ عَلَى نَفْسِهِ)^(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَوْلُهُ: (اعْبُدُوا أَيُّ: وَحَدُّوا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَوْلُهُ: عَذَابَ يَقُولُ: نَكَالٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ﴾، عَنْ أَبِي مَالِكٍ قَوْلُهُ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ يَعْنِي: الْأَشْرَافَ مِنْ قَوْمِهِ.

(١) ابن أبي حاتم: هو أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، أنظر: تاريخ دمشق ٣٥ / ٣٥٧، التقييد ٢ / ٧٨، سير أعلام النبلاء ١٣ / ٢٦٣. تاريخ الإسلام ٢٤ / ٢٠٦، تذكرة الحفاظ ٣ / ٨٢٩.

(٢) الحديث: ورد بسنده المذكور في كتاب الأوائل برقم ٥٢٧١ (٢٠٧) ص: ٣٤٩.

(٣) الحديث: ورد في كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم، ج ٣ ص ٥١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾، فعن عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَلَغَهُ: (أَنَّهُمْ كَانُوا يَبْطِشُونَ بِهِ، يَعْنِي: نُوحًا ﷺ) فَيَخْنُقُونَهُ حَتَّى يَغْشَى عَلَيْهِ، فَإِذَا أَفَاقَ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» حَتَّى إِذَا تَمَادَوْا فِي الْمَعْصِيَةِ، وَعَظُمَتْ فِيهِمْ فِي الْأَرْضِ الْخَطِيئَةُ، وَتَطَاوَلَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ الشَّأْنُ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ مِنْهُمْ الْبَلَاءُ، وَانْتَظَرَ الْجَلِيلُ بَعْدَ الْجَلِيلِ فَلَا يَأْتِي قَرْنٌ إِلَّا كَانَ أَحَبَّ مِنَ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ حَتَّى كَانَ الْآخِرُ مِنْهُمْ لَيَقُولُ: قَدْ كَانَ هَذَا مَعَ آبَائِنَا وَمَعَ أَجْدَادِنَا، هَكَذَا مَجْنُونًا لَا يَقْبَلُونَ مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى شَكَا ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى اللَّهِ ﷻ وَقَالَ: كَمَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ^(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾، فعن مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: (كَانَ مِنْ حَدِيثِ نُوحٍ ﷺ وَحَدِيثِ قَوْمِهِ مِمَّا يَذْكُرُ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّهُ كَانَ حَلِيمًا صَبُورًا لَمْ يَلْقَ نَبِيٌّ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الْبَلَايَا أَكْثَرَ مِمَّا لَقِيَ إِلَّا نَبِيٌّ قُتِلَ وَكَانَ يَدْعُوهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ: لَيْلًا وَنَهَارًا، سِرًّا وَجَهَارًا بِالنَّصِيحَةِ لَهُمْ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ مِنْهُ إِلَّا فِرَارًا، حَتَّى إِنَّهُ لَيَكَلِّمُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ فَيَلْفُ رَأْسَهُ بِنُوبِهِ، وَيَجْعَلُ أَصَابِعَهُ فِي أُذُنِهِ لئَلَّا يَسْمَعَ شَيْئًا مِنْ قَوْلِهِ)^(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، فعن عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، لَكِنِّي تَرْحَمُونَ فَلَا تُعَذِّبُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ﴾، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: (كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ ثَمَانُونَ رَجُلًا أَحَدُهُمْ جُرْهُمُ)^(٣).

وَعَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (كَانَ فِي سَفِينَةِ نُوحٍ ثَمَانُونَ رَجُلًا أَحَدُهُمْ جُرْهُمُ، وَكَانَ لِسَانُهُ عَرَبِيًّا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، فعن أَبِي زُهَيْرٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ قَالَ: (بَلَغَنِي أَنَّ قَوْمَ نُوحٍ عَاشُوا فِي ذَلِكَ الْغَرَقِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا).

(١) أنظر: تفسير السعدي، تفسير البغوي، التفسير الوسيط، تفسير ابن كثير، تفسير الطبري.

(٢) أنظر: المصادر السابقة.

(٣) الأثر: ورد في كتاب الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٦٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾، فعن ابنِ عَبَّاسٍ ؓ فِي قَوْلِهِ: إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ قَالَ: (كفاراً).

وَعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾، قَالَ: عَنِ الْحَقِّ.

٣- وقال الإمام الماتريدي^(١) رحمه الله فيه تفسيره: (تأويلات أهل السنة):

قول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾، كما أرسلناك إلى قومك ولست أنت بأول رسول؛ كقوله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ﴾^(٢)، وفيه دلالة أن الإيمان يصح بالأنبياء والرسول، وإن لم تعرف أنسابهم؛ لأن الله ﷻ ذكر الأنبياء والرسول بأسمائهم، ولم يذكر أنسابهم، دل ذلك أن الإيمان يكون بهم إيماناً وإن لم تعرف أنسابهم؛ وكذلك يصح الإيمان وإن لم تُعرف أسماؤهم؛ لأن من الأنبياء من لا يُعرف اسمه، فيصح الإيمان بجملة الأنبياء، وإن لم تعرف أسماؤهم، وفي ذلك دلالة إثبات رسالة مُحَمَّدٍ ﷺ، لأنه أخبر عن رسالة نوح ﷺ، فدل أنه بالله عرف ذلك.

وقوله ﷻ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، قيل: قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: وحدوا الله، سمو التوحيد عبادة لأن العبادة، لا تكون ولا تصح إلا بالتوحيد فيها لله خالصاً سمي بذلك مجازاً إذ يجوز أن يكون عبادة.

وقوله ﷻ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، أي: ما لكم من الإله الحق الذي ثبت ألوهيته وربوبيته بالدلائل والبراهين من إله غير الله.

وقوله ﷻ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

(١) الإمام الماتريدي: هو محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، أنظر: اعلام الاخير من فقهاء مذهب النعمان، أنظر: المختار للكفوي ٩٩٠ اللوح رقم ١٨٠، اتحاف السادة المتقين بشرح احياء علوم الدين للمرتضى الزبيدي ١٢٠٥ ج ٢ ص ٥.

(٢) الآية: رقم ٩ من سورة الأحقاف.

قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾، أي: إني أعلم أن ينزل عليكم عذاب يوم عظيم إن متم على هذا.

أَوْ قَالَ بَعْضُهُمْ: الخوف هو الخوف، وهو خوف إشفاق، وذلك يحتمل أن يكون في الوقت الذي كان يطمع في إيمان قومه، ثم آيسه الله عن إيمان قومه بقوله: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾^(١).

وقوله ﷺ: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، هو يوم عظيم للخلق؛ كقوله ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٢) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ^(٣)، وهو عظيم للخلق على ما وصف.

وقوله ﷺ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾، هم: أشراف قومه وسادتهم؛ كقوله: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾^(٤)، وكانوا هم أضداد الأنبياء والرسل؛ لأنهم كانوا يدعون الناس إلى ما يوحى إليهم الشياطين، والرسل كانوا يدعون إلى ما يوحى إليهم الله، وينزل عليهم؛ لذلك قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛ لأنهم ظنوا أن ما أوحى إليهم الشيطان هو الحق، وأن ما يدعو إليه الرسل هو ضلال وباطل.

وقوله ﷺ: ﴿قَالَ يَقَوْمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾، أي: لست أنا بضال؛ لأنه إذا نفى الضلال عنه، نفى أن يكون ضالاً، وهو حرف رفق ولين، وعلى ذلك أمر الأنبياء والرسل أن يعاملوا قومهم؛ لأن ذلك أنجع في القلوب، وإلى القبول أقرب، ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والعالم هو جوهر الكل.

ويحتمل قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أي: لفي خطأ مبين، ثم يخرج على وجهين:

(١) الآية: رقم ٣٦ من سورة هود.

(٢) الآيتان: رقم ٥-٦ من سورة المطففين.

(٣) الآية: رقم ٦٧ من سورة الأحزاب.

أحدهما: نسبوه إلى الخطأ؛ لما رأوه خالف الفراعنة والجبابرة الذين كانت همتهم القتل لمن خالفهم.

والثاني: نسبوه إلى الخطأ؛ لأنه ترك دين آبائه وأجداده، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي﴾، رسالته التي أمرني بتبليغها إليكم، قبلتم أو رددتم؛ أو عدتم أو وعدتم، لأنني أبلغها على أي حال استقبلتموني، أو يقول: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي﴾ رسالته التي أرسلها إلي.

وقوله ﷺ: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾، يحتمل قوله: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾: أي: أدعوكم وأمركم إلى ما فيه صلاحكم، وأنهاكم عما فيه فسادكم، والنصيحة هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهي عما فيه الفساد، وتكون النصيحة لهم، ولجميع المؤمنين.

روي عن رسول الله ﷺ، من حديث تميم بن أوس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١).

قال الشيخ أبو الفدا الحكيم رحمه الله عليه: النصيحة: هي النهاية من صدق العناية، ثم أخبر أنه يبلغهم رسالات به، ولم يبين فيم ذا؟! في كتاب أنزله عليه، أو بوحى في غير كتاب يوحى إليه، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة سوى التصديق له فيما يبلغ إليهم.

وقوله ﷺ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْكَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قد أتاه من الله العلم بأشياء ما لم يأت أولئك مثله، وهو كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَتَّبِعْتَنِي إِذْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعْنِي﴾^(٢)، ويحتمل قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْكَ اللَّهُ﴾، من العذاب أنه ينزل بكم ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنتم إذا دتم على ما أنتم عليه.

(١) الحديث: رواه الشيخان البخاري ومسلم من رواية تميم الداري رضي الله عنه.

(٢) الآية: رقم ٤٣ من سورة مريم.

وقوله: ﴿أَوْعِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: تعجبون بما جاءكم ذكر من الله على يدي رجل منكم ما لا أقدر أنا ولا تقدرون أنتم على مثله، كانوا يعجبون وينكرون أن يكون رسل الله من البشر بقولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾^(١)، ونحو ذلك كانوا ينكرون رسالة البشر وما ينبغي لهم أن ينكروا ذلك؛ لأنهم قد كانوا رأوا تفضيل بعض البشر على بعض، وفي وضع الرسالة فيهم أعني في الرسل تفضيلهم، وذلك قد رأوا فيما بينهم، والله تفضيل بعضهم على بعض؛ إذ له الخلق والأمر، ولكل ذي ملك وسلطان أن يصنع في ملكه ما شاء من تفضيل بعض على بعض وغيره.

أو يقول: ﴿أَوْعِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، على يدي رجل منكم، ولو كان جاء الذكر على من هو من غير جوهركم، كان في ذلك لبس واشتباه عليكم.

وقوله ﷺ: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ عذاب الله، ﴿وَلِنَنْقُوْا﴾ معاصيه، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، إن اتقيتم ما نهاكم عنه، أو كان في قومه من يجوز أن يرحم.

وقوله ﷺ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾، يعني: نوحًا ﷺ فيما دعاهم إلى عبادة الله ووحدانيته، ونهاهم عن عبادة غير الله، أو كذبوه فيما آتاهم من آيات نبوته ورسالته.

وقوله ﷺ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾، يعني: نوحًا ﷺ، والذين آمنوا في الفلك، ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ الذين كذبوا بآياتنا، إذا كان إهلاك القوم إهلاك تعذيب وعقوبة، ينجي أوليائه ويبقيهم إلى الآجال التي قدر دهم، ويكون ذلك نجاة لهم من ذلك العذاب الذي حل بالأعداء.

وقوله ﷺ: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أي: بآياتنا، التي جعلناها لإثبات رسالته ونبوته، ويحتمل: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، التي أعطيناها لوحدانية الله وألوهيته.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾، عموا عن الحق.

(١) الآية: رقم ٢٤ من سورة المؤمنون.

ع- وقال الإمام السمرقندي^(١) في تفسيره: (بحر العلوم):

قوله ﷺ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، يعني: بعثنا نوحاً ﷺ إلى قومه بالرسالة فأتاهم، ويقال: معناه جعلنا نوحاً ﷺ رسولاً إلى قومه، ﴿فَقَالَ يَتَوَمَّرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: وحدوا الله، ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾، أي: ليس لكم رب سواه.

قرأ الكسائي إله غيره بكسر الراء، وقرأ الباقر غيرُهُ بالضم، فمن قرأ بكسر الراء فلاجل: ﴿مِّنْ﴾ وجعله كله كلمة واحدة والغير تابعاً له، ومن قرأ بالضم، فمعناه: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾، ودخلت ﴿مِّنْ﴾ مؤكدة، ثم قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وهو: الغرق، ف ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾، وهم: الرؤساء والأجلة والأشراف، سمووا بذلك لأنهم ملئوا بما يحتاج إليه منهم، ويقال: لأنهم ملأوا الناظر هيبة إذا اجتمعوا في موضع.

قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، يعني: في خطإ بين، ﴿قَالَ يَتَوَمَّرُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وفي الآية بيان أدب الخلق في حسن الجواب والمخاطبة. لأنه ردّ جهلهم بأحسن الجواب.

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾^(٢)، يعني: السداد من القول.

ثم قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾، أي: أمتنعكم من الفساد وأدعوكم إلى التوحيد وأحذركم من العذاب، وقال أهل اللغة: أنصح لكم وأنصحكم لغتان بمعنى واحد، كما يقال: شكرت لك وشكرتك ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا

(١) الإمام السمرقندي: هو أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ)، أنظر: الأعلام » (٢٧/٨)، وسير أعلام النبلاء ج ١٦ ص ٣٢٣.

(٢) الآية: رقم ٦٣ من سورة الفرقان.

نَعْلَمُونَ ﴿١﴾، يعني: أعلم أنكم إن لم تتوبوا يأتاكم العذاب وأنتم لا تعلمون ذلك، وذلك أن سائر الأنبياء ﷺ خوفوا أمتهم بعذاب الأمم السابقة، كما قال شعيب لقومه: ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَّنُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾^(١)، وأما قوم نوح ﷺ فلم يكن بلغهم هلاك أمة قبلهم، فقال لهم نوح ﷺ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من العذاب الذي ينزل بكم، فقالت الكبراء للضعفاء: لا تتبعوه فإن هذا بشر مثلكم فأجابهم نوح ﷺ فقال: ﴿أَوْعِجَتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾، يعني: ينزل الكتاب والرسالة على رجل منكم تعرفون حسبه ونسبه ليُنذِرَكُمْ بالنار ولتتقوا الشرك، قال بعضهم: (هذه الواو)، صلة وهو زيادة في الكلام، ومعناه: ليُنذِرَكُمْ لكي تتقوا، وقال بعضهم: (هذه واو العطف)، أي: جاءكم رسول لكي ينذركم، ﴿وَلِتَنفُكُوا وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، يعني: لكي تنجوا من العذاب.

قرأ أبو عمرو: أبلغكم بجزم الباء والتخفيف، وقرأ الباقون: أبلغكم بالتشديد فيكون فيه معنى المبالغة.

قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: نوحاً ﷺ ﴿فَأُجِنَّتْهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ﴾، يعني: الذين اتبعوه من المؤمنين في السفينة، والفلك: اسم لواحد والجماعة، يعني: أنجينا المؤمنين من الغرق، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾، عن نزول العذاب. ويقال ﴿عَمِينَ﴾، عن الحق يعني: جعلوا أمره باطلاً.

(١) الآية: رقم ٨٩ من سورة هود.

هـ - وقال الإمام القشيري^(١) رحمه الله في تفسيره: (لطائف الإشارات):

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنَ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، بلغ الرسالة فلم ينجع فيهم ما أظهر من الآلاء، لأنَّ محزوم القسمة لا ينفعه مجهود الحيلة.

قوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾، نسبوا نوحا ﷺ إلى الضلالة، فتولَّى إجابتهم بنفسه فقال: ﴿يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾، ونبينا ﷺ نسب إليه فتولَّى الحق سبحانه الردَّ عنه فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾^(٢)، فشتان بين من دافع عن نفسه، وبين من دافع عنه ونفى عنه ربّه.

قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مَنَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، إني أعلم أني وإن بالغت في تبليغ الرسالة فمن سبقت له القسمة بالشقاوة لا ينفعه نصحي، ولا يؤثر فيه قولي، فمن أسقطته القسمة لم تنعشه النصيحة.

قوله: ﴿أَوْعِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، عجبوا من كون شخص رسول الله، ولم يتعجبوا من كون الصنم شريكا لله، هذا فرط الجهالة وغاية الغباء.

(١) الإمام القشيري: هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، أنظر: طبقات الشافعية الكبرى: السبكي (ت ٧٧١هـ)، ج ٥، ص ١٥٣، البداية والنهاية: الحافظ بن كثير، تحقيق: علي نجيب عطوي، ج ١٢، ص ١١٤.

(٢) الآية: رقم ٢ من سورة النجم.

٦- وقال الإمام الزمخشري^(١) رحمه الله في تفسيره: (الكشاف):

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّبِعُونَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿﴾، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾: جواب قسم محذوف،
فإن قلت: ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام، إلا مع (قد)، وقلّ عنهم، نحو قوله:

حلفت لها بالله حلفة فاجر لنا موا فإنا من حديث ولا صالي

كأنه قال: (ليس بي شيء من الضلال)، كما لو قيل لك: ألك تمر، فقلت: ما لي
تمر، فإن قلت: كيف وقع قوله: ﴿وَلَا يَكْفِي رَسُولٌ﴾، استدراكا للانتفاء عن الضلالة؟
قلت: كونه رسولا من الله مبلغا رسالاته ناصحا، في معنى كونه على الصراط المستقيم،
فصحّ لذلك أن يكون استدراكا للانتفاء عن الضلالة.

وقرئ: أبلغكم، بالتخفيف، فإن قلت: كيف موقع قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾، قلت: فيه
وجهان:

أحدهما: أن يكون كلاما مستأنفا بيانا لكونه رسول رب العالمين.

والثاني: أن يكون صفة لرسول، فإن قلت: كيف جاز أن يكون صفة والرسول
لفظه لفظ الغائب؟ قلت: جاز ذلك لأن الرسول وقع خبراً عن ضمير المخاطب
وكان معناه، كما قال:

أنا الذي سمتن أمي حيدر كليث غابات كريحه المنطرة

قوله: ﴿رَسَلْتُ رَجِي﴾، ما أوحى إلى في الأوقات المتطاوله، أو في المعاني المختلفة من
الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر، ويجوز أن يريد رسالاته إليه

(١) الإمام الزمخشري: هو أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)،
أنظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة (٣/ ٢٦٥/ رقم ٧٥٣)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٥١/ رقم ٩١)،
شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٦/ ١٩٤)، العبر في خبر من غبر (٢/ ٤٥٥).

وإلى الأنبياء قبله من صحف جده إدريس عليه السلام، وهي ثلاثون صحيفة، ومن صحف شيث عليه السلام وهي خمسون صحيفة، ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾، يقال: نصحته ونصحت له، وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصوداً بها جانبه لا غير، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعاً ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿ وَأَعْلَمُ مِنْكَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، أي: من صفات الله وأحواله، يعنى: قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه، وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين.

وقيل: لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم فكانوا آمنين لا يعلمون ما علمه نوح عليه السلام بوحى الله إليه، أو أراد وأعلم من جهة الله أشياء لا علم لكم بها قد أوحى إلى بها.

قوله: ﴿ أَوْعِجْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، ﴿ أَوْعِجْتُمْ ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكذبتم وعجبتم أن جاءكم من أن جاءكم ذِكْرٌ موعظة من ربكم على رجل منكم على لسان رجل منكم، كقوله: ﴿ مَا وَعَدْنَاهُ عَلَى رَسُولِكَ ﴾^(١)، وذلك أنهم يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا مِنْ آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾^(٢)، يعنون إرسال البشر، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾، ﴿ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا ﴾ ليحذركم عاقبة الكفر وليوجد منكم التقوى وهي الخشية بسبب الإنذار، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم.

قوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾، وَالَّذِينَ مَعَهُ قيل كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل: تسعة، بنوه سام وحام ويافت، وستة من آمن به.

(١) الآية: رقم ١٩٤ من سورة آل عمران.

(٢) الآية: رقم ٢٤ من سورة المؤمنون.

فإن قلت: ﴿ فِي أَلْفَلِكٍ ﴾ بم يتعلق؟ قلت: هو متعلق بـ ﴿ مَعَهُ ﴾، كأنه قيل: والذين استقروا معه في الفلك أو صحبوه في الفلك، ويجوز أن يتعلق: بفعل الإنجاء، أي: أنجيناهم في السفينة من الطوفان، ﴿ عَمِيكَ ﴾: عمى القلوب غير مستبصرين، وقرئ: عامين والفرق بين العمى والعامى، أن العمى يدل على عمى ثابت، والعامى على عمى حادث.

٧- وقال الإمام ابن عطية^(١) في تفسيره: (الوجيز فيه تفسير الكتاب العزيز):

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾^(١٥) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ^(١٦) قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ^(١٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مَنِ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، اللام لام القسم، قال الطبري: أقسم الله تعالى أنه أرسل نوحا ﷺ .

وقالت فرقة من المفسرين: سمي نوحا لأنه كان ينوح على نفسه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف، قال سيبويه: نوح ولوط وهود أسماء أعجمية إلا أنها حقيقة فلذلك صرفت، وهذه نذارة من نوح ﷺ لقومه دعاهم إلى عبادة الله وحده ورفض آلهتهم المسماة ودا وسواعا ويغوث ويعوق وغيرها مما لم يشتهر، وقرأ الكسائي وحده: (غيره) بالكسر من الراء على النعت ل ﴿ إِلَهِ ﴾، وهي قراءة يحيى بن وثاب والأعمش وأبي جعفر، وقرأ الباقون: (غيره) بالرفع، وقرأ حمزة والكسائي:

(١) الإمام ابن عطية: هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، أنظر: قلائد العقيان ومحاسن الاعيان، الفتح ابن خاقان ٥٢٨هـ، ص ٦٥٥، الصلة في تاريخ أئمة الاندلس، ابن بشكوال ٥٧٨هـ، ص: ٤٨٧، سير أعلام النبلاء ج ١٩ ص ٥٨٦.

﴿ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ ﴾^(١) خفضاً، وقرأ الباقون: ﴿ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ رفعا والرفع في قراءة الجماعة هنا على البدل من قوله: ﴿ مِنْ إِلَهِ ﴾، لأن موضع قوله: ﴿ مِنْ إِلَهِ ﴾، رفع، وهو الذي رجح الفارسي، ويجوز أن يكون: نعتا على الموضع لأن التقرير ما لكم إله غيره، أو يقدر (غير) ب (إلا)، فيعرب بإعراب ما يقع بعد (إلا)، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿ غَيْرُهُ ﴾ بنصب الراء على الاستثناء، قال أبو حاتم: وذلك ضعيف من أجل النفي المتقدم، وقوله: ﴿ عَذَابٌ ﴾، يحتمل: أن يريد به عذاب الدنيا ويحتمل أن يريد به عذاب الآخرة.

والملا: الجماعة الشريفة، قال الطبري: لا امرأة فيهم، وحكاه النقاش عن ثعلب في: الملا والرھط والنفر والقوم، وقيل هم مأخوذون: من أنهم يملؤون النفس والعين، ويحتمل أن: يكون من أنهم إذا تمالؤوا على أمرٍ تم، وقال سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري عند قفول رسول الله ﷺ من غزوة بدر «إنما قتلنا عجائز صلعا»، فقال له النبي ﷺ: «أولئك الملا من قريش لو حضرت أفعالهم لاحترت ففعلك»^(٢)، وقولهم: ﴿ لَنَرَنَّكَ ﴾، يحتمل أن: يجعل من رؤية البصر، ويحتمل من: رؤية القلب وهو الأظهر، و﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾، أي: في إتلاف وجهالة بما تسلك.

وقوله لهم جوابا عن هذا: ﴿ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ ﴾، مبالغة في حسن الأدب والإعراض عن الجفاء منهم وتناول رفيق، وسعة صدر حسبما يقتضيه خلق النبوة، وقوله: ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ ﴾، تعرض لمن يريد النظر والبحث والتأمل في المعجزة.

قال القاضي أبو محمد: ونقدر ولا بد أن نوحا ﷺ وكل نبي مبعوث إلى الخلق كانت له معجزة تخرق العادة فمنهم من عرفنا بمعجزته ومنهم من لم نعرف.

وقرأ السبعة سوى أبي عمرو: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ ﴾، بشد اللام وفتح الباء، بسكون الباء

(١) الآية: رقم ٣ من سورة فاطر.

(٢) الحديث: أورده ابن عطية في تفسيره (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز).

وتخفيف اللام، وقوله ﷺ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْكَ اللَّهُ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾، وإن كان لفظا عاما في كل ما علمه فالمقصود منه هنا المعلومات المخوفات عليهم لا سيما وهم لم يسمعوا قط بأمة عذبت فاللفظ مضمن الوعيد.

قوله ﷺ: ﴿أَوْعِجْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾.

قوله ﷺ: ﴿أَوْعِجْتُمْ﴾: هذه ألف استفهام دخلت على الواو العاطفة، والاستفهام هنا بمعنى التقرير والتوبيخ، وعجبهم الذي وقع إنما كان على جهة الاستبعاد والاستمحال، هذا هو الظاهر من قصتهم، وقوله: على قيل هي بمعنى مع، وقيل هو: على حذف مضاف تقديره على لسان رجل منكم.

قال القاضي أبو محمد: ويحتمل أن: يكون المجيء بنفسه في هذا الموضع يصل ب على إذ كل ما يأتي من الله تعالى فله حكم النزول، فكأن: (جاءكم)، معناه: نزل فحسن معه أن يقال: ﴿عَلَى رَجُلٍ﴾، واللام في: ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾، لام: كي.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: ترجّ بحسب حال نوح ﷺ ومعتقده لأن هذا الخبر إنما هو من تلقاء نوح ﷺ.

وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾، أخبر الله عنهم أنهم بعد تلاففه بهم كذبوه فأنجاه الله والمؤمنين به في السفينة وهي الفلك، والْفُلْكِ: لفظ واحد للجمع والمفرد.

وقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، يقتضي أن نوحا ﷺ كانت له آيات ومعجزات، وقوله: ﴿عَمِينَ﴾، وزنه: فعلين وهو جمع عم وزنه فعل، ويريد عمى البصائر.

٨- وقال الإمام الرازي^(١) ﷺ فيه تفسيره: (التفسير الكبير):

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾، اعلم أنه تعالى لما ذكر في تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة وبيانات قاهرة وبراهين باهرة أتبعها بذكر قصص الأنبياء ﷺ وفيه فوائد:

أحدها: التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبيانات ليس من خواص قوم محمد عليه الصلاة والسلام بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة والمصيبة إذا عمت خفت، فكان ذكر قصصهم وحكاية إصرارهم على الجهل والعناد يفيد تسليية الرسول عليه الصلاة والسلام وتخفيف ذلك على قلبه.

وثانيها: أنه تعالى يحكي في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى الكفر واللعن في الدنيا والخسارة في الآخرة وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة في الدنيا والسعادة في الآخرة وذلك يقوي قلوب المحقين ويكسر قلوب المبطلين.

وثالثها: التنبيه على أنه تعالى وإن كان يمهّل هؤلاء المبطلين ولكنه لا يمهّلهم بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه.

ورابعها: بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لأنه ﷺ كان أمياً وما طالع كتاباً ولا تلمذ استاذاً فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله وذلك يدل على صحة نبوته.

(١) الإمام الرازي: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، أنظر: طبقات الحنفية (١/ ٨٤)؛ الطبقات السننية في تراجم الحنفية (١/ ١٢٢).

ولقائل أن يقول: الإخبار عن الغيوب الماضية لا يدل على المعجز لاحتمال أن يقال إن إبليس شاهد هذه الوقائع فألقاها إليه أما الإخبار عن الغيوب المستقبلية فإنه معجز لأن علم الغيب ليس الا الله سبحانه وتعالى.

واعلم أنه تعالى ذكر في هذه السورة قصة آدم ﷺ وقد سبق ذكرها.

قصة نوح ﷺ وهي المذكورة في هذه الآية وهو نوح بن ملك بن متوشلخ بن أخنوخ وأخنوخ اسم إدريس النبي ﷺ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾: جواب قسم محذوف.

المسألة الثانية: قرأ الكسائي: ﴿غَيْرُهُ﴾ بكسر الراء على أنه نعت: (للإله) على اللفظ، والباقون: بالرفع على أنه صفة للإله على الموضع لأن تقدير الكلام، (ما لكم إله غيره)، وقال أبو علي: وجه من قرأ بالرفع قوله:

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١)، فكما أن قوله: إلا الله بدل من قوله: ما من إله كذلك قوله: غيره يكون بدلا من قوله: من إله فيكون (غير) رفعا بالاستثناء، وقال صاحب الكشاف: قرئ (غير) الحركات الثلاث وذكر وجه الرفع والجر كما تقدم، قال: وأما النصب: فعلى الاستثناء بمعنى: (ما لكم من إله إلا إياه)، كقولك: ما في الدار من أحد إلا زيدا وغير زيد.

المسألة الثالثة: في الآية فوائد:

الفائدة الأولى: أنه تعالى حكى عن نوح ﷺ في هذه الآية ثلاثة أشياء:

أحدها: أنه ﷺ أمرهم بعبادة الله تعالى.

(١) الآية: رقم ٦٢ من سورة آل عمران.

والثاني: أنه حكم أن لا إله غير الله والمقصود من الكلام الأول إثبات التكليف والمقصود من الكلام الثاني الإقرار بالتوحيد.

ثم قال عقيبهِ: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، ولا شك أن المراد منه إما: عذاب يوم القيامة، وعلى هذا التقدير: فهو قد خوفهم بيوم القيامة، وإما: عذاب يوم الطوفان، وعلى هذا التقدير: فقد ادعى الوحي والنبوة من عند الله، والحاصل أنه تعالى حكى عنه أنه ذكر هذه الدعاوى الثلاثة ولم يذكر على صحة واحد منها دليلاً ولا حجة فإن كان قد أمرهم بالإنذار بها على سبيل التقليد فهذا باطل لما أن القول بالتقليد باطل وأيضاً فالله تعالى قد ملأ القرآن من ذم التقليد فكيف يليق بالرسول المعصوم الدعوة إلى التقليد؟ وإن كان قد أمرهم بالإقرار بها مع ذكر الدليل فهذا الدليل غير مذكور.

الفائدة الثانية: أنه ﷺ ذكر أولاً قوله: ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾، وثانياً قوله: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾، والثاني كالعلة للأول، لأنه إذا لم يكن لهم إله غيره كان كل ما حصل عندهم من وجوه النفع والإحسان والبر واللطف حاصلًا من الله، ونهاية الإنعام توجب نهاية التعظيم فإنما وجبت عبادة الله لأجل العلم بأنه لا إله إلا الله ويتفرع على هذا البحث مسألة وهي: إنا قبل العلم بأن لا إله واحد أو أكثر من واحد لا نعلم أن المنعم علينا بوجوه النعم الحاصلة عندنا هو هذا أم ذاك؟ وإذا جهلنا ذلك فقد جهلنا من كان هو المنعم في حقنا وحينئذ لا يحسن عبادته فعلى هذا القول كان العلم بالتوحيد شرطاً للعلم بحسن العبادة.

الفائدة الثالثة: في هذه الآية أن ظاهر هذه الآية يدل على أن الإله هو الذي يستحق العبادة لأن قوله:

﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾، إثبات ونفي فيجب أن يتواردا على مفهوم واحد حتى يستقيم الكلام فكأن المعنى: اعبدوا الله ما لكم من معبود غيره حتى

يتطابق النفي والإثبات ثم ثبت بالدليل أن الإله ليس هو المعبود وإلا لوجب كون الأصنام آلهة، وأن لا يكون الإله إلهًا في الأزل لأجل أنه في الأزل غير معبود فوجب حمل لفظ الإله على أنه المستحق للعبادة.

واعلم أنهم اختلفوا في معنى قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾، هل هو اليقين أو الخوف بمعنى الظن والشك؟ قال قوم: المراد منه الجزم واليقين لأنه كان جازما بأن العذاب ينزل بهم إما في الدنيا وإما في الآخرة إن لم يقبلوا ذلك الدين.

وقال آخرون: بل المراد منه الشك، وتقريره من وجوه:

الأول: أنه إنما قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾، لأنه جوز أن يؤمنوا كما جوز أن يستمروا على كفرهم ومع هذا التجويز لا يكون قاطعا بنزول العذاب فوجب أن يذكره بلفظ الخوف.

والثاني: أن حصول العقاب على الكفر والمعصية أمر لا يعرف إلا بالسمع ولعل الله تعالى ما بين له كيفية هذه المسألة فلا جرم بقي متوقفا مجوزا أنه تعالى هل يعاقبهم على ذلك الكفر أم لا؟

والثالث: يحتمل أن يكون المراد من الخوف الحذر كما قال في الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾^(١)، أي: يحذرون المعاصي خوفا من العقاب.

الرابع: أنه بتقدير: أن يكون قاطعا بنزول أصل العذاب لكنه ما كان عارفا بمقدار ذلك العذاب وهو أنه عظيم جدا أو متوسط، فكان هذا الشك راجعا إلى وصف العقاب، وهو كونه عظيما أم لا لا في أصل حصوله.

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ يَنْقَوْمَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١) الآية: رقم ٥٠ من سورة النحل.

ثم إنه تعالى حكى ما ذكره في قومه فقال: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾، وقال المفسرون: الملاء: الكبراء والسادات الذين جعلوا أنفسهم أصدقاء الأنبياء والدليل عليه أن قوله من قومه يقتضي أن ذلك الملاء بعض قومه وذلك البعض لا بد وأن يكونوا موصوفين بصفة لأجلها استحقوا هذا الوصف وذلك بأن يكونوا هم الذين يملؤون صدور المجالس وتمتلئ القلوب من هيبتهم وتمتلئ الأبصار من رؤيتهم وتتوجه العيون في المحافل إليهم وهذه الصفات لا تحصل إلا في الرؤساء وذلك يدل على أن المراد من الملاء الرؤساء والأكابر.

وقوله: ﴿ إِنَّا لَنَرَنَّكَ ﴾، هذه الرؤية لا بد وأن تكون بمعنى الاعتقاد والظن دون المشاهدة والرؤية.

وقوله: ﴿ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾، أي في خطأ ظاهر وضلال بين ولا بد وأن يكون مرادهم نسبة نوح عليه السلام إلى الضلال في المسائل الأربع التي بينا أن نوحاً عليه السلام ذكرها وهي التكليف والتوحيد والنبوة والمعاد ولما ذكروا هذا الكلام أجاب نوح عليه السلام بقوله: ﴿ يَنْقُورُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾.

فإن قالوا: إن القوم قالوا: ﴿ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾، فجوابه أن يقال: ليس بي ضلال فلم ترك هذا الكلام، وقال: ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾، قلت: لأن قوله: ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾، أي: ليس بي نوع من أنواع الضلالة البتة، فكان هذا أبلغ في عموم السلب، ثم إنه عليه السلام لما نفى عن نفسه العيب الذي وصفه به ووصف نفسه بأشرف الصفات وأجلها، وهو كونه رسولا إلى الخلق من رب العالمين ذكر ما هو المقصود من الرسالة وهو أمران: الأول: تبليغ الرسالة، والثاني: تقرير النصيحة، فقال: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو: أبلغكم بالتخفيف من أبلغ، والباقون: بالتشديد.

قال الواحدي: وكلا الوجهين جاء في التنزيل، فالتخفيف: قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾^(١)، والتشديد: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ﴾^(٢).

المسألة الثانية: الفرق بين تبليغ الرسالة وبين النصيحة هو أن تبليغ الرسالة معناه: أن يعرفهم أنواع تكاليف الله وأقسام أوامره ونواهيه وأما النصيحة: فهو أنه يرغبه في الطاعة ويحذره عن المعصية ويسعى في تقرير ذلك الترغيب والترهيب لأبلغ وجوه وقوله: ﴿رِسَالَتِي رَبِّي﴾، يدل على أنه تعالى: حمّله أنواعا كثيرة من الرسالة وهي أقسام التكاليف من الأوامر والنواهي وشرح مقادير الثواب والعقاب في الآخرة ومقادير الحدود والزواج في الدنيا، وقوله: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾، قال الفراء: لا تكاد العرب تقول: نصحتك إنما تقول: نصحت لك ويجوز أيضا نصحتك، قال النابغة:

نصحت بني عوف فلم يتقبلوا رسولي ولم تنجح لديهم رسائي

وحقيقة النصح: الإرسال إلى المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه، والمعنى: أني أبلغ إليكم تكاليف الله ثم أرشدكم إلى الأصوب الأصلح وأدعوكم إلى ما دعاني، وأحب إليكم ما أحبه لنفسي.

ثم قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْكَ اللَّهُ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾، وفيه وجوه:

الأول: وأعلم أنكم إن عصيتم أمره عاقبكم بالطوفان.

الثاني: وأعلم أنه يعاقبكم في الآخرة عقابا شديدا خارجا عما تتصوره عقولكم.

الثالث: يجوز أن يكون المراد: وأعلم من توحيد الله وصفات جلاله ما لا تعلمون ويكون المقصود من ذكر هذا الكلام: حمل القوم على أن يرجعوا إليه في طلب تلك العلوم.

(١) الآية: رقم ٥٧ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٦٧ من سورة المائدة.

قوله تعالى: ﴿أَوْعِجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتُنْذِرُوا وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿١٤﴾﴾.

أما قوله: ﴿أَوْعِجِبْتُمْ﴾، فالهمزة: للإنكار، والواو: للعطف والمعطوف عليه محذوف كأنه قيل: أكذبتكم وعجبتكم أن جاءكم؟ أي عجبتكم أن جاءكم ذكر، وذكروا في تفسير هذا الذكر وجوها:

قال الحسن: إنه الوحي الذي جاءهم به، وقال آخرون: المراد بهذا الذكر المعجز ثم ذلك المعجز يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه تعالى كان قد أنزل عليه كتابا وكان ذلك الكتاب معجزا فسماه الله تعالى ذكرا كما سمي القرآن بهذا الاسم وجعله معجزة لمحمد ﷺ.

والثاني: أن ذلك المعجز كان شيئا آخر سوى الكتاب.

وقوله: ﴿عَلَى رَجُلٍ﴾، قال الفراء: على هاهنا بمعنى مع كما تقول: جاء بالخبر على وجهه ومع وجهه كلاهما جائز، وقال ابن قتيبة: أي: على لسان رجل منكم كما قال: ﴿رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾^(١)، أي على لسان رسلك.

وقال آخرون: ذكر من ربكم منزل على رجل، وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾، أي: تعرفون نسبه فهو منكم نسبا وذلك لأن كونه منهم يزيل التعجب، لأن المرء بمن هو من جنسه أعرف، وبطهارة أحواله أعلم، وبما يقتضي السكون إليه أبصر، ثم بين تعالى ما لأجله يبعث الرسول فقال: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾، وما لأجله ينذر، فقال: ﴿وَلِتُنْذِرُوا﴾، وما لأجله يتقون، فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، وهذا الترتيب في غاية الحسن فإن المقصود من البعثة الإنذار، والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي، والمقصود من التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة.

(١) الآية: رقم ١٩٤ من سورة آل عمران.

قال الجبائي والكعبي والقاضي: هذه الآية دالة على أنه تعالى أراد من الذين بعث الرسل إليهم التقوى والفوز بالرحمة وذلك يطل قول من يقول: إنه تعالى أراد من بعضهم الكفر والعناد وخلقهم لأجل العذاب والنار.

﴿وَلِنَفَقُوا﴾، وما لأجله يتقون، فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، وهذا الترتيب في غاية الحسن فإن المقصود من البعثة الإنذار، والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي، والمقصود من التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة.

٩- وقال الإمام الخازن^(١) رحمه الله فيه تفسيره: (لباب التأويل فيه معاني

التنزيل):

قوله ﷺ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، اعلم أن الله تبارك وتعالى لما ذكر في الآيات المتقدمة دلائل آثار قدرته وغرائب خلقه وصنعتة الدالة على توحيده وربوبيته وأقام الدلالة القاطعة على صحة البعث بعد الموت، أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما جرى لهم مع أممهم وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ لأنه لم يكن إعراض قومه فقط عن قبول الحق، بل قد أعرض عنه سائر الأمم الخالية والقرون الماضية وفيه تنبيه على أن عاقبة أولئك الذين كذبوا الرسل كانت إلى الخسار والهلاك في الدنيا وفي الآخرة إلى العذاب العظيم، فمن كذب بمحمد ﷺ من قومه كانت عاقبته مثل أولئك الذين خلوا من قبله من الأمم المكذبة وفي ذكر هذه القصص دليل على صحة نبوة محمد ﷺ لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يلق أحدا من علماء زمانه فلما أتى بمثل هذه القصص والأخبار عن القرون الماضية والأمم الخالية مما لم ينكره عليه أحد، علم

(١) الخازن: هو علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيعي، أنظر: طبقات الشافعية لابن قاضي شعبة (٤٢/٣)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ ابن حجر (١١٥/٤، ١١٦)، شذرات الذهب لابن العماد (١٣١/٦)، معجم المؤلفين (١٧٧/٧، ١٧٨)، إيضاح المكنون للعالم الأديب إبراهيم بن محمد الباباني البغدادي (٥٩١/١).

بذلك أنه إنما أتى به من عند الله ﷻ وإنه أوحى إليه ذلك فكان دليلاً واضحاً وبرهاناً قاطعاً على صحة نبوته ﷺ، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾: جواب قسم محذوف، تقديره: والله لقد أرسلنا نوحاً، وهو نوح بن ملك بن متوشلخ بن أخنوخ، وهو: إدريس عليه الصلاة والسلام، ويعني: ﴿أَرْسَلْنَا﴾، أي: بعثنا، وهو أول نبي بعثه الله تعالى بعد إدريس عليه السلام وكان نوح عليه السلام نجاراً.

وقيل: معنى الإرسال: أن الله تعالى حمّله رسالة ليؤديها إلى قومه فعلى هذا التقدير فالرسالة: تكون متضمنة للبعث أيضاً ويكون البعث كالتابع لا أنه أصل، قال ابن عباس عليه السلام: بعثه الله وهو ابن أربعين سنة، وقيل: وهو ابن خمسين سنة، وقيل: وهو ابن مائتين وخمسين سنة، وقيل: هو ابن مائة سنة، وقال ابن عباس عليه السلام: سمي نوحاً لكثرة نوحه على نفسه واختلفوا في سبب نوحه، فقيل: لدعوته على قومه بالهلاك، وقيل: لمراجعته ربه في شأن ابنه كنعان، وقيل: لأنه مر بكلب مجذوم فقال له: اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى إليه أعبتني أم عبت الكلب؟ فقال: يعني نوحاً لقومه: ﴿يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، يعني: اعبدوا الله تعالى فإنه هو الذي يستحق العبادة لا غيره، فإنه ليس لكم إله معبود سواه، فإنه هو الذي يستوجب أن يعبد، ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، يعني: إن لم تقبلوا ما أمركم به من عبادة الله تعالى واتباع أمره وطاعته واليوم الذي خافه عليهم وهو إما يوم الطوفان وإهلاكهم فيه أو يوم القيامة وإنما قال: أخاف على الشك وإن كان على يقين من حلول العذاب بهم إن لم يؤمنوا به لأنه لم يعلم وقت نزول العذاب بهم أي عاجلهم أم يتأخر عنهم العذاب إلى يوم القيامة، ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾، وهم: الجماعة الأشراف، ﴿مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ﴾، يعني: يا نوح، ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، يعني: في خطأ وزوال عن الحق بين، قال: يعني: نوحاً عليه السلام ﴿يَقَوْمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾، يعني: ما بي ما تظنون من الضلال، ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يعني: هو أرسلني إليكم لأنذركم وأخوفكم إن لم تؤمنوا به وهو قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾، يعني: بتحذيري إياكم

عقوبة على كفركم إن لم تؤمنوا به، ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾، يقال: نصحته ونصحت له كما يقال: شكرته وشكرت له، والنصح: إرادة الخير لغيره كما يريده لنفسه وقيل النصح: تحري قول أو فعل فيه صلاح للغير، وقيل: حقيقة النصح تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه، والمعنى أنه قال: أبلغكم جميع تكاليف الله وشرائعه وأرشدكم إلى الوجه الأصح والأصوب لكم وأدعوكم إلى ما دعاني إليه وأحب لكم ما أحب لنفسي، قال بعضهم: والفرق بين إبلاغ الرسالة وبين النصيحة هو أن تبليغ الرسالة أن يعرفهم جميع أوامر الله تعالى ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التي أوجبها الله تعالى عليهم.

وأما النصيحة: فهو أن يرغبهم في قبول تلك الأوامر والنواهي والعبادات ويحذرهم عقابه إن عصوه، ﴿وَأَعْلَمُ مِنْكَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: أعلم أنكم إن عصيتم أمره عاقبكم بالطوفان والغرق في الدنيا، ويعذبكم في الآخرة عذابا عظيما، وقيل: أعلم أن مغفرة الله تعالى لمن تاب وعقوبته لمن أصر على الكفر وقيل: لعل الله تعالى أطلعته على سر من أسرارها فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْكَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوْعِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٣) فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأعرقنا الذين كذبوا بتأييننا إياهم كانوا قوماً عَمِينَ ﴿﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوْعِبْتُمْ﴾، الألف: ألف استفهام، والواو: للعطف، والمعطوف عليه: محذوف، وهذا الاستفهام: استفهام إنكار، معناه أكذبتهم وعجبتم، ﴿أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، يعني: وحيًا من ربكم، ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾، تعرفونه وتعرفون نسبه وذلك لأن كونه منهم يزيل التعجب، وقيل: المراد بالذكر الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نوح عليه الصلاة والسلام سماه ذكرا كما سمي القرآن ذكرا.

وقيل: المراد بالذكر: المعجزة التي جاء بها نوح عليه السلام فعلى هذا تكون: ﴿عَلَى﴾،

بمعنى: مع، أي: مع رجل منكم، قال الفراء: ﴿عَلَى﴾، بمعنى: (مع)، ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾، يعني: جاءكم لأجل أن ينذركم، ﴿وَلِنُنَقِّوْا﴾، أي: ولأجل أن نتقوا، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، لأن المقصود من إرسال الرسل الإنذار والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي والمقصود بالتقوى الفوز بالرحمة في الدار الآخرة، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، يعني: فكذبوا نوحا ﷺ، ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ يعني: من الطوفان والغرق، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ يعني: من آمن من قومه معه ﴿فِي الْفُلِّ﴾، يعني: في السفينة، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾، قال ابن عباس ؓ: ما عميت قلوبهم عن معرفة الله تعالى، قال الزجاج: عموا عن الحق والإيمان.

يقال: رجل عم في البصيرة وأعمى في البصر وأنشدوا قول زهير:
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم
قال مقاتل: عموا عن نزول العذاب بهم وهو الفرق.

* * *

إعراب آيات القصة الواردة في سورة الأعراف

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾: كلام مستأنف مسوق لذكر قصص عن الأنبياء السابقين تسلياً للنبي ﷺ، ولينأسى بمن قبله، فلا يتحيفه يأس، ولا يخالجه فتور أو وهن في أداء رسالته.

واللام: جواب للقسم المحذوف، ولا يكاد العرب ينطقون بهذه اللام إلا مع قد، و﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، و﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بأرسلنا.

﴿فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، الفاء: عاطفة، ويا: أداة نداء، وقوم: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة بدليل الكسرة، واعبدوا: فعل أمر، والواو: فاعله، والله: لفظ الجلالة في محل مفعوله، وما: نافية، ولكم: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، ومن: حرف جر زائد، وإله: مبتدأ مؤخر محلا، وغيره صفة: ل (إله): على المحل، كأنه قيل: ما لكم إله غيره، وجملة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، في: محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: استئنافية.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، الجملة: تعليل للأمر بالعبادة لا محل لها، وإن واسمها: مبتدأ، وجملة: أخاف خبرها، وعليكم: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿أَخَافُ﴾، وعذاب: مفعول به، ويوم: مضاف إليه، وعظيم: صفة.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: كلام مستأنف مسوق لبيان جواب قومه.

قال الملأ: فعل وفاعل، ومن قومه: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، وجملة إن وما في حيزها: في محل نصب مقول القول، وإن واسمها، واللام المزحلقة، ونراك:

فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: خبر (إن)، وفي ضلال: جار ومجرور متعلقان ب (نراك) على أنه مفعول به ثان للرؤية، والرؤية هنا قلبية، ومبين: صفة.

﴿قَالَ يَقَوْمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾: كلام مستأنف مسوق لبيان ردّ نوح ﷺ عليهم، وهو من أحسن الكلام وأبلغه، ليس: فعل ماض ناقص، وبـي: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ليس المقدم، و ضلالة: اسمها المؤخر، ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ أَلْعَلَّيْتِ﴾، الواو: عاطفة، ولكن واسمها: وقد جاءت في أحسن موقع لأنها بين نقيضين، ورسول: خبر لكن، ومن رب العالمين: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لرسول، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾: كلام مستأنف مسوق لتقرير رسالته وتفصيل أحكامها ومهمتها، ويجوز أن تكون الجملة: صفة ثانية لرسول، ولكنه راعى الضمير السابق للمتكلم، فقال: أبلغكم، ولو راعى الاسم الظاهر بعده لقال: يبلغكم، والكاف: مفعول أبلغكم الأول، ورسالات ربي: مفعوله الثاني، وأنصح لكم عطف على أبلغكم، ومعلوم أن (نصح) يتعدى بنفسه وباللام، يقال: نصحه ونصح له ﴿وَأَعْلَمُ مِّنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، عطف على: (أبلغكم)، ومن الله: جار ومجرور متعلقان ب (أعلم)، ولا بد من تقدير محذوف، أي: جهته، وما: اسم موصول في محل نصب مفعول به، وجملة لا تعلمون: صلة الموصول لا محل لها، ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، عطف على: ما تقدم مسوق في أسلوب الاستفهام الإنكاري في الهمزة، والواو: عاطفة، وعجبتم: معطوف على محذوف لا بد من تقديره، أي: أكذبتكم وعجبتم، وأن: حرف مصدري ونصب، وهي مع مدخولها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، أي: من أن جاءكم، وذكر: فاعل، ومن ربكم: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لذكر، أو: ب (جاءكم)، وعلى رجل: صفة لذكر، ولا بد من تقدير محذوف، أي: على لسان رجل، ومنكم: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لرجل، أي: من جملتكم ومن جنسكم، لأنهم كانوا يتعجبون من إرسال البشر، ويقولون: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾.

وقوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، اللام: علة للمجيء، وينذركم: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، ولتتقوا: عطف على: (لينذركم)، وجملة الرجاء: حالية، وجملة: (ترحمون) خبر:

(لعل)، جعل العلل: لمجيء الذكر على لسان رجل منهم ثلاثا:

أولاهما: (لينذركم)، وثانيتهما: (لتتقوا)، وثالثتها: (لعلكم ترحمون)، وهو ترتيب حسن بالغ موقعه من الإفادة

والحسن، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾، الفاء: الفصيحة لأنها وقعت جواب شرط محذوف، أي: إذا أردت أن تعلم مغبة أمرهم فقد كذبوه، وكذبوه: فعل وفاعل ومفعول به، وفأنجيناه: عطف على: (فكذبوه)، والواو: للمعية، والذين: اسم موصول في محل نصب مفعول معه، ولك أن تعطفه على الهاء، ومعه: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول، أي: استقروا معه في الفلك، وفي الفلك: جار ومجرور متعلقان بما في الملك من الاستقرار، أي: بمتعلق الظرف أو: ب (أنجيناه)، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ عطف على ما تقدم، وأغرقنا: الذين فعل وفاعل ومفعول به، وجملة كذبوا صلة، وبآياتنا جار ومجرور متعلقان ب (كذبوا)، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾، الجملة: تعليل لما سبق من هلاكهم، أي: هلكوا لعمى في بصيرتهم.

وإن واسمها، وجملة كانوا: خبرها، وقوما: خبر (كانوا)، وعمين: صفة ل (قوما).

البلاغة في آيات القصة الواردة في سورة الأعراف

١ - المجاز المرسل:

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾، وقوله: ﴿ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ ﴾، فقد جعل الضلال ظرفا والضلال ليس ظرفا يحل فيه الإنسان.

لأنه معنى من المعاني، وإنما يحل في مكانه فاستعمال الضلال في مكانه مجاز مرسل؛ أطلق فيه الحال وأريد المحل، فعلاقته الحالية، وفائدته المبالغة في وصفه بالضلال وإيغاله فيه، حتى كأنه مستقر في ظلماته لا يتزحزح عنها، وزادوا في المبالغة بأن أكدوا ذلك بأن صَدَّروا الجملة بـ (أن) وزادوا اللام في خبرها.

٢ - نفى الأخص والأعم:

وأردف ذلك بقوله: ﴿ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ ﴾، للإطاحة بما زعموه، وتفنيده ما توهموه، وهو من أحسن الرد وأبلغه وأفلجه للخصم، لأنه نفى أن تلبس به ضلالة واحدة، فضلا عن أن يحيط به الضلال، فلم يقل: ضلال، كما قالوا، كما يقتضيه السياق.

وقد توثب خيال الزمخشري فقرر أن الضلالة أخص من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل لك: ألك تمر؟ فقلت: مالي ثمرة.

ولكن الزمخشري غفل عن نقطة هامة جدا في هذا البحث العظيم، لأن نفي الأخص أعم من نفي الأعم، فلا يستلزمه ضرورة أن الأعم لا يستلزم الأخص، بخلاف العكس، ألا ترى أنك إذا قلت: هذا ليس بإنسان، لم يستلزم ذلك أن لا يكون حيوانا، ولو قلت: هذا ليس بحيوان، لاستلزم أن لا يكون إنسانا.

فنفي الأعم كما ترى أبلغ من نفي الأخص، إذا تقرر هذا فالتحقيق في الجواب أن يقال: الضلالة أدنى من الضلال وأقل، لأنها لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه، وأما الضلال: فينطلق على القليل والكثير من جنسه، ونفي الأدنى أبلغ من نفي الأعلى، لا من حيث كونه أخص بل من حيث التنبيه بالأدنى على الأعلى، كما قررنا في مستهل هذا البحث.

* * *

الفوائد اللغوية في آيات القصة الواردة في سورة الأعراف

١ - الاسم إذا كان سبقه ضمير:

كل اسم سبقه ضمير حاضر من متكلم أو مخاطب يجوز فيه وجهان:
أولهما: مراعاة الضمير السابق، وثانيهما: مراعاة الاسم الظاهر، تقول: أنا رجل
أفعل كذا، مراعاة للضمير (أنا)، وإن شئت قلت: يفعل كذا، مراعاة لرجل، ومثله:
أنت رجل تفعل العجائب، ويفعل العجائب، بالمخاطب والغيبة.

٢ - اللام الداخلة على قد:

لا يكاد العرب ينطقون بهذه اللام إلا مع (قد)، وقل عنهم نحو قول امرئ القيس:
حلفت لها بالله حلفة فاجر لنا موا فإنا من حديث ولا صال
وذلك لأنه لما كانت الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها التي
هي جوابها كانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو معنى (قد)، عند استماع المخاطب كلمة
القسم، وقد جرى ابن الرومي الشاعر العباسي على غرار امرئ القيس بقوله:
لرأينا مستيقظين أمورا حسبنا أن تكون رؤيا منام
وقيل: إذا أجيب القسم بماض متصرف مثبت فإن كان قريباً من الحال جيء باللام
وقد جميعاً، نحو قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّوْا لِلَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا
لَخَطِئِينَ﴾ (؟)، وإن كان بعيداً جيء باللام وحدها، كقول امرئ القيس الآنف
الذكر وقول ابن الرومي.

ثانيا: ما قاله المفسرون وأصحاب التأويل في سياق القصة في سورة (يونس):

قال تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا يَتَّبِعُ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۖ﴾ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۖ﴾ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِمَا يَنْتَظِرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ۖ﴾.

١- ما قاله الإمام ابن جرير الطبري رحمته الله: قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾، قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد صلوات الله عليه: ﴿وَأَتْلُ﴾ على هؤلاء المشركين الذي قالوا: (اتخذ الله ولداً) ^(١)، من قومك، ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾، يقول: خبر نوح، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾، يقول: إن كان عظم عليكم مقامي بين أظهركم وشق عليكم، ﴿وَتَذِكْرِي بِمَا يَتَّبِعُ اللَّهُ﴾، يقول: ووعظي إياكم بحجج الله، وتنبيهي إياكم على ذلك، ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾، يقول: إن كان شق عليكم مقامي بين أظهركم، وتذكيري بآيات الله، فعزمت على قتلي أو طردي من بين أظهركم، فعلى الله اتكالي وبه ثقتي، وهو سَنَدِي وظهري، ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾، يقول: فأعدوا أمركم، واعزموا على ما تنوون عليه في أمري.

يقال منه: (أجمعت على كذا)، بمعنى: عزمت عليه، ومنه قول النبي صلوات الله عليه: «من لم يُجِمِّعْ على الصوم من الليل فلا صَوْمَ له» ^(٢)، بمعنى: من لم يعزم، ومنه قول الشاعر:

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْمُنَى لَا تَنْفَعُ هَلْ أَغْدُونَ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعٌ ^(٣)

فعن الأعرج: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾، يقول: أحكموا أمركم، وادعوا شركاءكم.

(١) الآية: رقم ١١٦ من سورة البقرة.

(٢) الحديث: أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، من حديث حفصة أم المؤمنين. انظر سنن

أبي داود ٢: ٤٤١، ٤٤٢، رقم: ٢٤٥٤.

(٣) أنظر: نوادر أبي زيد: ١٣٣، معاني القرآن للفراء ١: ٤٧٣.

ونصب قوله: ﴿ وَشُرَكَاءُكُمْ ﴾، بفعل مضمر له، وذلك: (وَادَعُوا شُرَكَاءَكُمْ)، وعطف ب(الشركاء) على قوله: ﴿ أَمْرُكُمْ ﴾، واختلفت القراء في قراءة ذلك: فقرأته قراء الأمصار: ﴿ وَشُرَكَاءُكُمْ ﴾، نصبًا، وقوله: ﴿ فَأَجْمِعُوا ﴾، بهمز الألف وفتحها، من: (أَجْمَعْتُ أَمْرِي فَأَنَا أَجْمَعُهُ إِجْمَاعًا).

وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤه: ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ ﴾، بفتح الألف وهمزها، (وَشُرَكَاءُكُمْ)، بالرفع على معنى: وأجمعوا أمركم، وليجمع أمرهم أيضًا معكم شركاءكم^(١).

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك قراءة من قرأ: ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ ﴾ وَشُرَكَاءُكُمْ، بفتح الألف من (أجمعوا)، ونصب (الشركاء)، لأنها في المصحف بغير واو، ولإجماع الحجة على القراءة بها، ورفض ما خالفها، ولا يعترض عليها بمن يجوز عليه الخطأ والسهو.

وعني: ب(الشركاء)، آلهتهم وأوثانهم.

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾، يقول: ثم لا يكن أمركم عليكم ملتبسًا مشكلاً مبهمًا.

من قولهم: (غُمَّ عَلَى النَّاسِ الْهَالِل)، وذلك إذا أشكل عليهم فلم يتبينوه، ومنه قول الشاعر:

بَلْ لَوْ شَهِدَتِ النَّاسَ إِذْ تُكْمُوا بَغْمَةً لَوْ لَمْ تُفَرِّجْ غُمُوا

وقيل: إن ذلك من: (الغم)، لأن الصدر يضيق به، ولا يتبين صاحبه لأمره مصدرًا يَصْدُرُهُ يَتَفَرِّجُ عليه ما بقلبه، ومنه قول خنساء:

وَذِي كُرْبَةٍ رَاخَى ابْنُ عَمْرِو خَنَاقَهُ وَغَمَّتْهُ عَنْ وَجْهِهِ فَتَجَلَّتْ

(١) انظر: تفصيل هذا في معاني القرآن للفراء ١: ٤٧٣.

وعن قتادة: ﴿أَمَرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَةً﴾، قال: لا يكبر عليكم أمركم.
وأما قوله: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾، فإن معناه: ثم امضوا إليّ ما في أنفسكم وأفرغوا
منه، فعن قتادة: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، قال: اقضوا إليّ ما كنتم قاضين.
وعن مجاهد، في قوله: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، قال: اقضوا إليّ ما في
أنفسكم.

واختلف أهل المعرفة بكلام العرب في معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾، فقال
بعضهم: معناه: امضوا إليّ، كما يقال: (قد قضى فلان)، يراد: قد مات ومضى، وقال
آخرون منهم: بل معناه: ثم افرغوا إليّ، وقالوا: (القضاء): الفراغ، والقضاء من ذلك،
قالوا: وكأنّ (قضى دينه) من ذلك، إنما هو فرغ منه.

وقد حُكي عن بعض القراء أنه قرأ ذلك: (ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ)، بمعنى: توجّهوا إليّ
حتى تصلوا إليّ، من قولهم: (قد أفضى إليّ الوجع وشبهه)^(١).

وقوله: ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، يقول: ولا تؤخرون، من قول القائل: (أنظرت فلاناً بما
لي عليه من الدين).

قال أبو جعفر: وإنما هذا خبر من الله تعالى ذكره عن قول نبيه نوح ﷺ لقومه:
إنه بنصرة الله له عليهم واثق، ومن كيدهم وبوائقهم غير خائف، وإعلام منه لهم أن
آلهتهم لا تضر ولا تنفع، يقول لهم: امضوا ما تحدثون أنفسكم به فيّ، على عزم منكم
صحيح، واستعينوا من شايِعكم عليّ بآلهتكم التي تدعون من دون الله، ولا تؤخروا
ذلك، فإني قد توكلت على الله، وأنا به واثق أنكم لا تضروني إلا أن يشاء ربي.

وهذا وإن كان خبراً من الله تعالى عن نوح ﷺ، فإنه حث من الله لنبيه محمد ﷺ
على التأسي به، وتعريف منه سبيل الرشاد فيما قلده من الرسالة والبلاغ عنه.

(١) انظر: بيان هذه القراءة في معاني القرآن للفراء ١: ٤٧٤.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَامِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل نبيه نوح عليه السلام لقومه: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾، أيها القوم، عني بعد دعائي إياكم، وتبليغ رسالة ربي إليكم، مدبرين، فأعرضتم عما دعوتكم إليه من الحق، والإقرار بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له، وترك إشراك الآلهة في عبادته، فتضييع منكم وتفريط في واجب حق الله عليكم، لا بسبب من قبلي، فإني لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجراً، ولا عوضاً أعتاضه منكم بإجابتكم إياي إلى ما دعوتكم إليه من الحق والهدى، ولا طلبت منكم عليه ثواباً ولا جزاءً، ﴿ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾، يقول جل ثناؤه: إن جزائي وأجر عملي وثوابه إلا على ربي، لا عليكم، أيها القوم، ولا على غيركم، ﴿ وَامِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾، وأمرني ربي أن أكون من المذعنين له بالطاعة، المنقادين لأمره ونهيه، المذللين له، ومن أجل ذلك أدعوكم إليه، وبأمره آمركم بترك عبادة الأوثان.

قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ ﴾، قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فكذب نوحاً عليه السلام قومه فيما أخبرهم به عن الله من الرسالة والوحي، ﴿ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾، ممن حمل معه، ﴿ فِي الْفُلْكِ ﴾، يعني: في السفينة، ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا ﴾، يقول: وجعلنا الذين نجينا مع نوح عليه السلام في السفينة خلائف في الأرض من قومه الذين كذبوه بعد أن أغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، يعني: حججنا وأدلتنا على توحيدنا، ورسالة رسولنا نوح عليه السلام.

يقول الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿ فَانْظُرْ ﴾، يا محمد، ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ ﴾، وهم الذين أنذرهم نوح عليه السلام عقاب الله على تكذيبهم إياه وعبادتهم الأصنام. يقول له جل ثناؤه: انظر ماذا أعقبهم تكذيبهم رسولهم، فإن عاقبة من كذبك

من قومك إن تمادوا في كفرهم وطغيانهم على ربهم، نحو الذي كان من عاقبة قوم نوح ﷺ حين كذبوه.

يقول جل ثناؤه: فليحذروا أن يحلّ بهم مثل الذي حلّ، بهم إن لم يتوبوا.

٢- وقال الإمام الماتريدي رحمه الله في تفسيره: (تأويلات أهل السنة): قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾، أي: خبره وحديثه، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِكَائِنَتِ إِلَهُ﴾، قَالَ بَعْضُهُمْ: إن كان كبر عليكم طول مقامي ومكثي فيكم ودعائي إياكم إلى عبادة الله، والطاعة له، وتذكيري إياكم بآياته، قَالَ بَعْضُهُمْ: وتذكيري بعذابه بترككم إجابتي ودعائي.

ويحتمل قوله: ﴿إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾، بما ادعى من الرسالة، ﴿وَتَذِكْرِي بِكَائِنَتِ إِلَهُ﴾، أي: بحجج الله على ما ادعيت من الرسالة.

وفي قوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾، وجوه:

أحدها: اتل منابذة نوح ﷺ قومه وما أرادوا به من الكيد والمكر به.

والثاني: اذكر عواقب قوم نوح ﷺ، وما حل بهم من سوء معاملتهم رسولهم.

والثالث: اذكر لهؤلاء عواقب متبعي قومه ومخالفيه.

قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾، قَالَ بَعْضُهُمْ: أي اجتمعوا أنتم وشركاءكم ثم كيدوني، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، أي: اجعلوا ما تسرون من الكيد والمكر بي ظاهراً غير ملتبس ولا مشبه.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قوله: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ أي: أعدوا أمركم وادعوا شركاءكم؛ وكذلك روي في حرف أبي: (فاجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم)، ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أي: اقضوا ما أنتم قاضون وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، أي: لا يكبر عليكم أمركم.

وقال الكسائي: هو من التغطية واللبس، أي: لا تغطوه ولا تلبسوه، اجعلوا كلمتكم ظاهرة واحدة.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (لا يكن أمركم اغتماً عليكم)، أي: فرجوا عن أنفسكم؛ كقوله: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾^(١).

وقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أي: اعملوا بي ما تريدون ولا تنظرون؛ وهو كقوله: ﴿فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾^(٢).

وقال الكسائي: هو من الإنهاء والإبلاغ؛ وهو كقوله: ﴿وَفَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلَمَنَّ عُلُوَّ كِبِيرَا﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾^(٤)، أي: أنهينا إليه وأبلغنا إليه.

وقال أبو عوسجة: إن شئت جعلتها ظلمة فلا يبصرون أمرهم، يعني: غمة، وإن شئت جعلتها شكا واشتقاق الغمة، من غم يغم غماً، أي: غطى يغطي، تقول: غممت رأسه، أي: غطيته، ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾، أي: افعلوا بي ما أردتم وفي قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، وقول هود: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾^(٥)، وقوله تعالى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾^(٦)، دلالة إثبات رسالتهم؛ لأنهم قالوا ذلك لقومهم

(١) الآية: رقم ١٥ من سورة الحج.

(٢) الآية: رقم ٧٢ من سورة طه.

(٣) الآية: رقم ٤ من سورة الإسراء.

(٤) الآية: رقم ٦٦ من سورة الحجر.

(٥) الآية: رقم ٥٥ من سورة هود.

(٦) الآية: رقم ١٩٥ من سورة الأعراف.

وهم بين أظهرهم، ولم يكن معهم أنصار ولا أعوان؛ دل أنهم إنما قالوا ذلك اعتماداً على الله واتكالا بمعونته ونصرته إياهم.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾، أي: فافرغوا إليّ، يقال: (قضى): فرغ، وهو قول أبي بكر الأصم، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾، أي: امضوا إليّ، كقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾^(١)، و﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِنَّ﴾^(٢)، ونحوه.

وقوله ﷺ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، التولي اسم لأمرين:

اسم للإعراض والإدبار؛ كقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(٣)، واسم للإقبال والقبول أيضاً؛ كقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٤)، ونحوه، فهاهنا يحتمل الأمرين جميعاً، أي: فإن توليتم أي: أقبلتم وقبلتم ما عرضه عليكم وأدعوكم إليه، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: ما أجري إلا على الله.

وإن كان في الإعراض فكأنه يقول: كيف عرضتم عن قبوله، ولم أسألكم على ذلك أجراً فيكون لكم عذر في الإعراض والرد؟! كقوله: ﴿أَمْ سَأَلْتَهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾^(٥)، أي: لم أسألكم على ما عرضه عليكم وأدعوكم إليه غرماً حتى يثقل عليكم ذلك الغرم، فيمنعكم ثقل الغرم عن الإجابة، ففي هذه الآية وغيرها دلالة منع أخذ الأجر على تعليم القرآن والعلم؛ لأنه لو جاز أخذ الأجر على ذلك

(١) الآية: رقم ٢٦ من سورة الذاريات.

(٢) الآية: رقم ٩١ من سورة الصافات.

(٣) الآية: رقم ٢٠٥ من سورة البقرة.

(٤) الآية: رقم ٥٦ من سورة المائدة.

(٥) الآية: رقم ٤٠ من سورة الطور.

لكان لهم عذر ألا يبدلوا ذلك ولا يتعلموا شيئاً من ذلك، وفي ذلك هدم شرائع الله وإسقاطها، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، أي: مسلماً نفسي إلى الله، أي: سالماً، لا أجعل لأحد سواه فيها حقاً ولا حظاً، أو أمرت أن أكون من المخلصين لله، والخاضعين له؛ هو يحتمل ذلك كله.

وقوله ﷺ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَنَنْظُرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾، يعني: نوحاً عليه السلام كذبه قومه فيما ادعى من الرسالة، أو ما آتاهم من الآيات، أو ما أوعدهم من العذاب بتكذيبهم إياه. ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾، يعني: نوحاً عليه السلام، ﴿وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي: من ركب معه الفلك من المؤمنين.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً﴾، يحتمل: خلائف خلفاء في الأرض وسكاناً يخلف بعضهم بعضاً، ويحتمل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً﴾، أي: خلف قوم أهلكوا واستؤصلوا بالتكذيب، ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، يحتمل: الآيات الحجج والبراهين التي أقامها على ما ادعى من الرسالة، ويحتمل قوله: ﴿كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، العذاب الذي أوعدهم بتكذيبهم إياه فيما وعد.

وقوله ﷺ: ﴿فَنَنْظُرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾، كان أنذر الفريقين جميعاً المؤمن والكافر جميعاً؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا نُنْذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَوَّيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾^(١)، فإذا كان ما ذكرنا فيكون تأويله: فانظر كيف كان عاقبة من أجاب ومن لم يجب: عاقبة من أجاب الثواب، وعاقبة من لم يجب العذاب.

ويحتمل: ﴿الْمُنْذَرِينَ﴾، الذين لم يقبلوا الإنذار ولم يحييوا، أي: انظر كيف كان عاقبتهم بالهلاك والاستئصال، ويكون تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا نُنْذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾،

(١) الآية: رقم ١١ من سورة يس.

أي: إنما يقبل الإنذار من أتبع الذكر، أو: إنما ينتفع بالإنذار من اتبع الذكر، أو: أما من لم يتبع الذكر لم ينتفع، والله أعلم.

٣- وقال الإمام السمرقندي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَأَنذَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾، فإن لم تعتبروا بذلك، فأنزل عليهم، يعني: اقرأ عليهم خبر نوح عليه السلام في القرآن، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾، يعني: عظم وثقل عليكم ﴿مَقَامِي﴾، يعني: طول مقامي فيكم، ﴿وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، يعني: وعظي لكم بالله تعالى، وهو ما قال الله تعالى في سورة نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾^(١)، إلى قوله: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾^(٢)، فلما وعظهم بذلك أرادوا قتله، حين قالوا: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾^(٣)، يعني: من المقتولين بالحجارة، فقال لهم نوح: إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي فِيكُمْ وَعَظَتِي لَكُمْ، ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يقول: وثقت وفوضت أمري إلى الله تعالى، ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾، يعني: كيدكم. ويقال: قولكم، وعملكم، (وَشُرَكَاءُكُمْ)، يعني: ادعوا شركاءكم، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، يقول: أظهروا أمركم فلا تكتموا، يعني: القتل.

وقال القسبي: الغم والغمة واحد كما يقال: كُرْبَةٌ وكرب، يعني: لا يكون أمركم غمًّا عليكم ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ يعني: امضوا إليّ ويقال: اعملوا ما تريدون، ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، يعني: ولا تمهلون، يعني: اقضوا إليّ ما أنتم قاضون، واستعينوا بأهتكم، ويقال: اعملوا بما في أنفسكم من الشر.

وروي عن نافع أنه قرأ: فَأَجْمِعُوا بالوصل وبالجزم، مِنْ جَمَعْتَ، وقرأ الباقون: فَأَجْمِعُوا بالقطع من الإجماع وقرأ الحسن البصري، ويعقوب الحضرمي: شركاؤكم بالرفع، يعني: أين شركاؤكم ليجمعوا أمرهم معكم، ويعينوكم؟ ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾،

(١) الآية: رقم ١٠ من سورة نوح.

(٢) الآية: رقم ١٥ من سورة نوح.

(٣) الآية: رقم ١١٦ من سورة الشعراء.

يعني: أعرضتم وأبيتُم عن الإيمان، وأبيتُم أن تقبلوا ما أتيتكم به، ونهيتكم عنه، ﴿فَمَا سَأَلْتُمْ مِّنْ أَجْرٍ﴾، يعني: ما سألتكم بذلك أجراً في الدنيا، ومعناه: إن أعرضتم عن الإيمان لا يضرني لأنِّي لا أطلب منكم بذلك أجراً في الدنيا، ﴿إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، يعني: وأُمِرْتُ أَنْ أَسْتَقِيم على التَّوْحِيد مع المسلمين.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بالعذاب، بأنَّه غير نازلٍ بهم، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلِّ﴾، من الغرق، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾، يعني: خلفاء من بعد هلاك كفارهم، ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، يعني: أهلكنا الذين كذبوا نوحاً ﷺ بما أتاهم به، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾، يعني: كيف كان آخر أمرٍ مَنْ أُنْذِرَهُم الرُّسُلُ فلم يؤمنوا.

٤- وقال الإمام القشيري رحمه الله: قال تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَهْدِيكُمْ اللَّهُ عَلَى سُبُلٍ مُّسْتَقِيمَةٍ وَتَذَكِّرُنِي فِي مَا كُنْتُ عَنْتُمْ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيَّ وَعَلَىٰ قَوْمِي لَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أنزل الله هذه الآية على وجه التسلية لنبيه ﷺ لما كان يمسه من مقاساة الشدة من قومه، فإنَّ أيام نوح ﷺ وإن طالَت فما لبثت كثيراً إلا وقد زالت، كما قيل:

وأحسن شيءٍ في النوائب أنها إذا هي نابت لم تكن خلداً

ثم بين أنه كان يتوكل على ربه مهما فعلوا، ولم يحتشم عبد ما وثق بربه من كل ما نزل به ثم إن نوحاً ﷺ قال: إني توكلت على الله، وهذا عين التفرقة، وقال لنبيه ﷺ: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّفْسُ الْكَافِرَةُ فَتَقُولُ لَا نَحْنُ بِأَعْيُنِنَا﴾، وهذا عين الجمع، فبانت المزية وظهرت الخصوصية.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ

أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١﴾، إذا كان عمله لله لم يطلب الأجر عليه من غير الله، وهكذا سنته في جميع أولياء الله.

قوله جل ذكره: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾^(١)، أغرق قومه بأمواج القطرة، وفي الحقيقة أغرقهم بأمواج الأحكام والقدرة، وحفظ نوحا ﷺ وقومه في السفينة، وفي الحقيقة نجّاهم في سفينة السلامة.

كان نوح ﷺ في سابق حكمه من المحروسين، وكان قومه في قديم قضائه من جملة المغرقين، فجرت الأحوال على ما جرت به القسمة في الأزل.

٥- وقال الإمام الزمخشري رحمه الله: قال تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾، عظم عليكم وشق وثقل، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٢)، ويقال: تعاضمه الأمر، ﴿مَقَامِي﴾: مكاني، يعني: نفسه، كما تقول: فعلت كذا المكان فلان: وفلان ثقل الظل، ومنه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾^(٣)، بمعنى: خاف ربه، أو: قياسي ومكثي بين أظهركم مدداً طويلاً، ألف سنة إلا خمسين عاماً، أو: مقامي وتذكيري، لأنهم كانوا إذا عطفوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم، ليكون مكانهم بيئاً وكلامهم مسموعاً، كما يحكى عن عيسى صلوات الله عليه أنه كان يعظ الحواريين قائماً وهم قعود، ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾، من أجمع الأمر وأزمعه، إذا نواه وعزم عليه، (والواو)، بمعنى: (مع)، يعني: فأجمعوا أمركم مع شركائكم.

وقرأ الحسن: وشركاؤكم بالرفع، عطفاً على الضمير المتصل، وجاز من غير تأكيد بالمنفصل لقيام الفاصل مقامه لطول الكلام، كما تقول: اضرب زيداً وعمرو، وقرئ:

(١) الآية: رقم ٧٣ من سورة يونس.

(٢) الآية: رقم ٤٥ من سورة البقرة.

(٣) الآية: رقم ٤٦ من سورة الرحمن.

فاجمعوا من الجمع، ﴿وَشُرَكَاءَكُمُ﴾: نصب للعطف على المفعول، أو لأنَّ: (الواو)، بمعنى: (مع)، وفي قراءة أبي: فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم.

فإن قلت: كيف جاز إسناد الإجماع إلى الشركاء؟ قلت: على وجه التهكم، كقوله: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمُ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ﴾^(١)، فإن قلت: ما معنى الأمرين؟ أمرهم الذي يجمعونه، وأمرهم الذي لا يكون عليهم غمة؟ قلت: أمّا الأمر الأول: فالقصد إلى إهلاكه، يعنى: فأجمعوا ما تريدون من إهلاكه واحتشدوا فيه وابدلوا وسعكم في كيدي، وإنما قال ذلك إظهاراً لقلّة مبالاته وثقته بما وعده.

وأما الأمر الثاني: ففيه وجهان، أحدهما: أن يراد مصاحبته له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم، يعنى: ثم أهلكوني لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة، أي: غما وهما.

والغم والغمة، كالكرب والكربة، والثاني: أن يراد به ما أريد بالأمر الأول، والغمة السترة من غمه إذا ستره، ومنها قوله ﷺ: (ولا غمة في فرائض الله)^(٢)، أي: لا تستر، ولكن يجاهر بها، يعنى: ولا يكن قصدكم إلى إهلاكه مستورا عليكم ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهروني به ثم أقضوا إليّ ذلك الأمر الذي تريدون بي، أي: أدوا إلى قطعه وتصحيحه، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ﴾^(٣)، أو: أدوا إلى ما هو حق عليكم عندكم من هلاكه كما يقضى الرجل غريمه، ﴿وَلَا تُنْظَرُونَ﴾: ولا تمهلوني.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾: فإن أعرضتم عن تذكيري ونصيحتي، ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾، فما كان عندي ما ينفركم عنى وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم، وطلب أجر على عظمتكم، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة،

(١) الآية: رقم ١٩٥ من سورة الأعراف.

(٢) الحديث: أخرجه ابن سعد في الطبقات في حديث طويل ج ١ ص ٢٨٧ بنحوه.

(٣) الآية: رقم ٦٦ من سورة الحجر.

أي: ما نصحتكم إلا لوجه الله، لا لغرض من أغراض الدنيا، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئاً ولا يطلبون به دنیا، يريد: أن ذلك مقتضى الإسلام، والذي كل مسلم مأمور به. والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم ويبرئ ساحته، فذكر أن توليهم لم يكن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه، وإنما ذلك لعنادهم وتمردهم لا غير، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، فتموا على تكذيبه وكان تكذيبهم له في آخر المدة المتطاولة كتكذيبهم في أولها، وذلك عند مشارفة الهلاك بالطوفان، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾، يخلفون الهالكين بالغرق، ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُُنْذِرِينَ﴾، تعظيم لما جرى عليهم، وتحذير لمن أنذرهم رسول الله ﷺ عن مثله، وتسليية له.

٦- وقال الإمام ابن عطية رحمه الله: المقام: بضم الميم إقامته ساكناً في موضع أو بلد، ولم يقرأ هنا بضم الميم وإنما بالنصب.

وتذكيره: وعظه وزجره، والمعنى: يا قوم إن كنتم تستضعفون حالي ودعائي لكم إلى الله فإني لا أبالي عنكم لتوكلي على الله تعالى، فافعلوا ما قدرتم عليه، وقرأ السبعة وجهور الناس وابن أبي إسحاق وعيسى: ﴿فَاجْمَعُوا﴾: من أجمع الرجل على الشيء إذا عزم عليه، وقرأ نافع فيما روى عنه الأصمعي وهي قراءة الأعرج وأبي رجاء وعاصم الجحدري والزهري والأعمش: (فاجمعوا): بفتح الميم من جمع إذا ضم شيئاً إلى شيء، و ﴿أَمَرَكُمْ﴾، يريد به: قدرتكم وحياتكم ويؤيد هذه القراءة قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾^(١)، وكل هؤلاء نصب: الشركاء، ونصب قوله: ﴿وَشُرَكَاءَكُمُ﴾، يحتمل أن: يعطف على قوله: ﴿أَمَرَكُمْ﴾، وهذا على قراءة: (فاجمعوا) بالوصل، وأما من قرأ: ﴿فَاجْمَعُوا﴾، بقطع الألف فنصب (الشركاء) بفعل مضمر، كأنه قال: وادعوا شركاءكم.

(١) الآية: رقم ٦٠ من سورة طه.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَقْصُوا إِلَيَّ﴾، ومعناه: أنفذوا قضاءكم نحوي.

وقوله: ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، أي: لا تؤخرون والنظرة التأخير.

٧- وقال الإمام ابن الجوزي^(١) رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾، فيه دليل على نبوته، حيث أخبر عن قصص الأنبياء ولم يكن يقرأ الكتاب، وتحريضاً على الصبر، وموعظة لقومه بذكر قوم نوح عليه السلام وما حل بهم من العقوبة بالكذيب.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ﴾ أي: عَظُمَ وَشَقَّ عَلَيْكُمْ، ﴿مَقَامِي﴾، أي: طول مكثي. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: (مقامي) برفع الميم، ﴿وَتَذَكِّرِي﴾: وعظي. ف ﴿نَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي ودفع شركم عني.

٨- وقال الإمام الرازي رحمه الله: قال تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه سبحانه لما بالغ في تقرير الدلائل والبيّنات، وفي الجواب عن الشبه والسرّالات، شرع بعد ذلك في بيان قصص الأنبياء عليه السلام لوجوه:

أحدها: أن الكلام إذا أطال في تقرير نوع من أنواع العلوم، فربما حصل نوع من أنواع الملالة فإذا انتقل الإنسان من ذلك الفن من العلم إلى فن آخر، انشرح صدره وطاب قلبه ووجد في نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلاً قويا.

وثانيها: ليكون للرسول ﷺ ولأصحابه رضوان الله عليهم أسوة بمن سلف من

(١) ابن الجوزي: هو الشيخ الإمام العلامة، الحافظ المفسر، شيخ الإسلام مفخر العراق، جمال الدين، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه القاسم بن محمد بن خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق، القرشي التيمي البكري البغدادي، الحنبلي، الواعظ، صاحب التصانيف، ولد سنة تسع أو عشر وخمسمائة، وأول شيء سمع في سنة ست عشرة، مات رحمه الله عن عمر ناهز الثمانين سنة. أنظر: سير أعلام النبلاء ج ٢١ ص ٣٦٦.

الأنبياء، فإن الرسول إذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ﷺ ما كانت إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه، كما يقال: المصيبة إذا عمت خفت.

وثالثها: أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص، وعلموا أن الجهال، وإن بالغوا في إيذاء الأنبياء المتقدمين إلا أن الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم، كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم، ووقوع الخوف والوجل في صدورهم، وحينئذ يقللون من أنواع الإيذاء والسفاهة.

ورابعها: أنا قد دللنا على أن محمدا ﷺ لما لم يتعلم علما، ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه الأقاويص من غير تفاوت، ومن غير زيادة ومن غير نقصان، دل ذلك على أنه ﷺ إنما عرفها بالوحي والتنزيل.

وفي قصة نوح ﷺ، وهي المذكورة في هذه الآية، وجهان من الفائدة:

الأول: أن قوم نوح ﷺ لما أصرّوا على الكفر والجحد عجل الله هلاكهم بالغرق فذكر الله تعالى قصتهم لتصير تلك القصة عبرة لهؤلاء الكفار، وداعية إلى مفارقة الجحد بالتوحيد والنبوة.

والثاني: أن كفار مكة كانوا يستعجلون العذاب الذي يذكره الرسول ﷺ لهم وكانوا يقولون له كذبت، فإنه ما جاءنا هذا العذاب، فالله تعالى ذكر لهم قصة نوح ﷺ لأنه ﷺ كان يخوفهم بهذا العذاب وكانوا يكذبونه فيه، ثم بالآخرة وقع كما أخبر فكذا هاهنا.

المسألة الثانية: أن نوحا ﷺ قال لقومه: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي إِيَّائِي﴾، وهذا: جملة من الشرط والجزاء، أما الشرط فهو مركب من قيدتين:

القبيل الأول: قوله: إن كان كبر عليكم مقامي قال الواحد في (البسيط): يقال: كبر يكبر كبرا في السن، وكبر الأمر والشيء إذا عظم يكبر كبرا وكبارا.

وقال ابن عباس: ثقل عليكم وشق عليكم وعظم أمره عنكم، والمقام بفتح الميم:

مصدر كالإقامة، يقال: أقام بين أظهرهم مقاما وإقامة، والمقام بضم الميم: الموضع الذي يُقام فيه، وأراد بالمقام هاهنا مكثه ولبثه فيهم وبالجملّة فقوله: ﴿كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾، جار مجرى قولهم: فلان ثقیل الظل.

واعلم أن سبب هذا الثقل أمران:

أحدهما: أنه ﷺ مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما.

والثاني: أن أولئك الكفار كانوا قد ألفوا تلك المذاهب الفاسدة والطرائق الباطلة والغالب أن من ألف طريقة في الدين فإنه يثقل عليه أن يدعى إلى خلافها، ويذكر له ركاكتها، فإن اقترن بذلك طول مدة الدعاء كان أثقل وأشد كراهية، فإن اقترن به إيراد الدلائل القاهرة على فساد تلك المذاهب كانت النفرة أشد فهذا هو السبب في حصول ذلك الثقل.

والقيد الثاني: هو قوله: ﴿وَتَذَكِّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

واعلم أن الطباع المشغولة بالدنيا الحريصة على طلب اللذات العاجلة تكون شديدة النفرة عن الأمر بالطاعات والنهي عن المعاصي والمنكرات، قوية الكراهة لسماع ذكر الموت وتقبيح صورة الدنيا ومن كان كذلك فإنه يستثقل الإنسان الذي يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون قوله: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، معناه: أنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم ظاهرا وكلامهم مسموعا، كما يحكى عن عيسى ﷺ أنه كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود.

واعلم أن هذا هو الشرط المذكور في هذه الآية، أما الجزء ففيه قولان:

القول الأول: أن الجزء هو قوله: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾، يعني: أن شدة بغضكم لي تحملكُم على الإقدام على إيذائي وأنا لا أقابل ذلك الشر إلا بالتوكل على الله.

واعلم أنه ﷺ كان أبدا متوكلا على الله تعالى، وهذا اللفظ يوهم أنه توكل على الله في هذه الساعة، لكن المعنى: أنه إنما توكل على الله في دفع هذا الشر في هذه الساعة.

والقول الثاني: وهو قول الأكثرين إن جواب الشرط هو قوله: ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾، وأما قوله: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فهو: كلام اعترض به بين الشرط وجوابه كما تقول في الكلام إن كنت أنكرت علي شيئا، فالله حسبي فاعمل ما تريد، واعلم أن جواب هذا الشرط مشتمل على قيود خمسة على الترتيب:

القيد الأول: قوله: ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ﴾، وفيه بحثان:

البحث الأول: قال الفراء: الإجماع: الإعداد والعزيمة على الأمر وأنشد:

يا ليت شعري والنتى لا ينفع هل أغدون يوما وأمرى مجمع

فإذا أردت جمع التفرق قلت: جمعت القوم فهم مجموعون، وقال أبو الهيثم: أجمع أمره، أي جعله جميعا بعد ما كان متفرقا، قال: وتفرقه، أي جعل يتدبره فيقول: مرة أفعل كذا ومرة أفعل كذا فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه، أي جعله جميعا فهذا هو الأصل في الإجماع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَكُفُّونَ﴾^(١)، ثم صار بمعنى: العزم حتى وُصل بعلی فقليل: أجمعت على الأمر، أي عزمت عليه، والأصل أجمعت الأمر.

البحث الثاني: روى الأصمعي عن نافع: ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ﴾، بوصل الألف من الجمع وفيه وجهان:

الأول: قال أبو علي الفارسي: فاجمعوا ذوي الأمر منكم فحذف المضاف، وجري على المضاف إليه ما كان يجري على المضاف لو ثبت.

(١) الآية: رقم ١٠٢ من سورة يوسف.

الثاني: قال ابن الأنباري: المراد من الأمر هاهنا وجوه كيدهم ومكرهم، فالتقدير: ولا تدعوا من أمركم شيئاً إلا أحضرتموه.

والقيد الثاني: قوله: ﴿وَشُرَكَاءَكُمُ﴾، وفيه أبحاث:

البحث الأول: الواو هاهنا بمعنى مع، والمعنى: فأجمعوا أمركم مع شركائكم، ونظيره قولهم: لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها، ولو خلعت نفسك والأسد لأكلك.

البحث الثاني: يحتمل أن: يكون المراد من الشركاء الأوثان التي سموها بالآلهة، ويحتمل أن يكون المراد منها من كان على مثل قولهم ودينهم، فإن كان المراد هو الأول فإنما حث الكفار على الاستعانة بالأوثان بناء على مذهبهم من أنها تضر وتنفع، وإن كان المراد هو الثاني فوجه الاستعانة بها ظاهر.

البحث الثالث: قرأ الحسن وجماعة من القراء: وشركاؤكم بالرفع عطفا على الضمير المرفوع، والتقدير: فأجمعوا أنتم وشركاؤكم، قال الواحدي: وجاز ذلك من غير تأكيد الضمير كقوله: اسكن أنت وزوجك الجنة لأن قوله: أمركم فصل بين الضمير وبين المنسوق، فكان كالعوض من التوكيد وكان الفراء يستقبح هذه القراءة، لأنها توجب أن يكتب وشركاؤكم بالواو وهذا الحرف غير موجود في المصاحف.

القيد الثالث: قوله: ثم لا يكن أمركم عليكم غمة قال أبو الهيثم: أي: مبهما من قولهم: غم علينا الهلال فهو مغموم إذا التبس قال طرفة:

لعمرى ما أمرى علي بغمة نهاري ولا ليلى علي بسرمد

وقال الليث: إنه لفي غمة من أمره إذا لم يهتد له، وقال الزجاج: أي ليكن أمركم ظاهرا منكشفا.

القيد الرابع: قوله: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾، وفيه بحثان:

البحث الأول: قال ابن الأنباري: معناه: ثم امضوا إلي بمكروهم وما توعدونني

به، تقول العرب: قضى فلان، يريدون مات ومضى، وقال بعضهم: قضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه وبه يسمى القاضي، لأنه إذا حكم فقد فرغ فقوله: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾، أي: أفرغوا من أمركم وامضوا ما في أنفسكم واقطعوا ما بيني وبينكم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾^(١)، أي: أعلمناهم إعلاما قاطعا، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾^(٢)، قال القفال رحمته الله تعالى: ومجاز دخول كلمة: ﴿إِلَيَّ﴾ في هذا الموضع من قولهم: برئت إليك، وخرجت إليك من العهد، وفيه معنى الإخبار فكأنه تعالى قال: ثم اقضوا ما يستقر رأيكم عليه محكما مفروغا منه.

البحث الثاني: قرئ: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾، بالفاء بمعنى: ثم انتهوا إلى بشركم، وقيل: هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء، أي أصحروا به إلي وأبرزوه إلي.

القيد الخامس: قوله: ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، معناه: لا تمهلون بعد إعلامكم إياي ما اتفقت عليه فهذا هو تفسير هذه الألفاظ، وقد نظم القاضي هذا الكلام على أحسن الوجوه، فقال إنه رحمته الله قال: في أول الأمر ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾، فإني واثق بوعد الله جازم بأنه لا يخلف الميعاد ولا تظنوا أن تهديدكم إياي بالقتل والإيذاء يمنعني من الدعاء إلى الله تعالى، ثم إنه رحمته الله أورد ما يدل على صحة دعوته فقال: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾، فكأنه يقول لهم: أجمعوا كل ما تقدرون عليه من الأسباب التي توجب حصول مطلوبكم ثم لم يقتصر على ذلك، بل أمرهم أن يضموا إلى أنفسهم شركائهم الذين كانوا يزعمون أن حالهم يقوى بمكانتهم وبالتقرب إليهم، فقال: ﴿وَشُرَكَاءَكُم﴾، ثم لم يقتصر على هذين بل ضم إليهما ثالثا وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، وأراد أن يبلغوا فيه كل غاية في المكاشفة والمجاهرة، ثم لم يقتصر على ذلك حتى ضم إليها رابعا فقال: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾، والمراد أن وجهوا كل تلك

(١) الآية: رقم ٤ من سورة الإسراء.

(٢) الآية: رقم ٦٦ من سورة الحجر.

الشرور إلي، ثم ضم إلى ذلك خامسا وهو قوله: ﴿ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾، أي: عجلوا ذلك بأشد ما تقدرون عليه من غير إنظار فهذا آخر هذا الكلام ومعلوم أن مثل هذا الكلام يدل على أنه ﷺ كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله تعالى وأنه كان قاطعا بأن كيدهم لا يصل إليه ومكرهم لا ينفذ فيه.

وأما قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجَرٍ ﴾، فقال المفسرون: هذا إشارة إلى أنه ما أخذ منهم مالا على دعوتهم إلى دين الله تعالى ومتى كان الإنسان فارغا من الطمع كان قوله أقوى تأثيرا في القلب.

قال وعندني فيه وجه آخر وهو أن يقال: إنه ﷺ بين أنه لا يخاف منهم بوجه من الوجوه وذلك لأن الخوف إنما يحصل بأحد شيئين إما بإيصال الشر أو بقطع المنافع، فبين فيما تقدم أنه لا يخاف شرهم وبين بهذه الآية أنه لا يخاف منهم بسبب أن يقطعوا عنه خيرا، لأنه ما أخذ منهم شيئا فكان يخاف أن يقطعوا منه خيرا.

ثم قال: ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾، وفيه قولان: الأول: أنكم سواء قبلتم دين الإسلام أو لم تقبلوا، فأنا مأمور بأن أكون على دين الإسلام.

والثاني: أني مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إلي لأجل هذه الدعوة وهذا الوجه أليق بهذا الموضع، لأنه لما قال: ﴿ ثُمَّ أَقْضَوْا إِلَيَّ ﴾، بين لهم أنه مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إليه في هذا الباب، والله أعلم.

قوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَتْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾.

اعلم أنه تعالى لما حكى الكلمات التي جرت بين نوح وبين أولئك الكفار، ذكر ما إليه رجعت عاقبة تلك الواقعة، أما في حق نوح وأصحابه فأمران: أحدهما: أنه تعالى

نجاههم من الكفار. الثاني: أنه جعلهم خلائف بمعنى أنهم يخلفون من هلك بالغرق، وأما في حق الكفار فهو أنه تعالى أغرقهم وأهلكهم.

وهذه القصة إذا سمعها من صدق الرسول ومن كذب به كانت زجرا للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح عليه السلام وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الإيمان، ليصلوا إلى مثل ما وصل إليه قوم نوح عليه السلام، وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير إذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ وعلى هذا الوجه ذكر تعالى أفاصيص الأنبياء عليهم السلام.

٩- وقال الإمام الخازن رحمته الله: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾، لما ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة أحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعد ذلك في بيان قصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم ليكون في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة بمن سلف من الأنبياء وتسلية له ليخف عليه ما يلقي من أذى قومه وأن الكفار من قومه إذا سمعوا هذه القصص وما جرى لكفار الأمم الماضية من العذاب والهلاك في الدنيا كان ذلك سببا لخوف قلوبهم وداعيا لهم إلى الإيمان.

ولما كان قوم نوح أول الأمم هلاكا وأعظمهم كفرا وجحودا ذكر الله قصتهم وأنه أهلكهم بالغرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾، يعني: واقرأ على قومك يا محمد خبر قوم نوح عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ﴾، وهو بنو قابيل، ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ﴾، يعني: ثقل، ﴿مَقَامِي﴾، يعني: فيكم، ﴿وَتَذَكِّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: ووعظي إياكم بآيات الله، وقيل: معناه: إن كان ثقل وشق عليكم طول مقامي فيكم وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله تعالى ويذكرهم بآيات الله وهو قوله: ﴿وَتَذَكِّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: ووعظي بآيات الله وحججه وبيناته، فعزمتهم على قتلي وطردي، ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾، يعني: فهو حسبي وثقتي فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ يعني فأحكموا أمركم واعزموا عليه، قال الفراء: الإجماع: الإعداد والعزيمة على الأمر، وقال ابن

الأنباري: المراد من الأمر هنا وجوه كيدهم ومكرهم، فالتقدير: لا تدعوا من أمركم شيئاً إلا أحضرتموه، ﴿ وَشُرَكَاءَكُم ﴾، يعني: وادعوا شركاءكم يعني آلهتكم فاستعينوا بها لتجتمع معكم وتعينكم على مطلوبكم، وإنما حثهم على الاستعانة بالأصنام بناء على مذهبهم واعتقادهم أنها تضر وتنفع، مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع، فهو كالتبكيك والتوبيخ لهم، ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾، يعني: لا يكن أمركم عليكم خفياً مبهماً، ولكن ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً من قولهم: (غُمَّ الهلال فهو مغموم) إذا خفي والتبس على الناس، ﴿ ثُمَّ أَقْضُوا ﴾، يعني: ثم امضوا إليّ بما في أنفسكم من مكروه وما توعدونني به من قتل وطرْد وافرغوا منه تقول العرب قضى فلان إذا مات ومضى، وقيل: معناه: ثم اقضوا ما أنتم قاضون، ﴿ وَلَا تُنْظَرُونَ ﴾، أي: ولا تؤخروني، ولا تمهلوني بعد إعلامكم إياي ما أنتم عليه وهذا الكلام من نوح ﷺ على طريق التعجيز لهم، فقد أخبر الله ﷻ عن نوح ﷺ أنه كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله تعالى وأنه كان واثقاً بنصره غير خائف من كيدهم، علماً منه بأنهم وآلهتهم ليس لهم نفع ولا ضرر، وإن مكرهم لا يصل إليه، ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾، يعني: فإن أعرضتم عن قولي وقبول نصحي، ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ يعني: من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فإذا لم يأخذ على تبليغ الدعوة إلى الله شيئاً؛ كان أقوى تأثيراً في النفس، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾، أي: ما ثوابي جزائي على تبليغ الرسالة إلا على الله، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾، يعني: أني أمرت بدين الإسلام وأنا ماض فيه غير تارك له سواء قبلتموه أم لم تقبلوه، وقيل: معناه: وأمرت أن أكون من المستسلمين لأمر الله ولكل مكروه يصل إلي منكم لأجل هذه الدعوة، ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾، يعني: فكذبوا نوحاً ﷺ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ يعني: في السفينة، ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾، يعني: وجعلنا الذين نجيناهم معه في الفلك سكان الأرض بعد الهالكين، ﴿ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾، أي: فانظر يا محمد، أو: يا أيها الإنسان كيف كان آخر أمر من أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا ولم يقبلوا ذلك.

إعراب آيات القصة الواردة في سورة: (يونس)

اللغة:

﴿فَأَجْمِعُوا﴾، يقال: أجمع الأمر وأزمعه إذا نواه وعزم عليه قال المؤرخ: أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه، وقال أبو الهيثم: أجمع أمره إذا جعله جمعا بعد ما كان متفرقا، والـ ﴿غَمَّةً﴾: ضيق الأمر من غمة إذا ستره ومنها قوله ﷺ: «ولا غمة في فرائض الله»، وغم الهلال إذا حال من دونه غيم يحجب رؤيته.

الإعراب:

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾، واتل: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله: أنت، وعليهم: متعلقان بـ ﴿وَأَتْلُ﴾، ونبأ: مفعول به، ونوح: مضاف إليه، وإذ: ظرف لما مضى من الزمن في محل نصب بدل من: ﴿نَبَأَ﴾؛ بدل اشتغال أو متعلق به، ولا معنى لقول أبي البقاء: انه حال من: ﴿نَبَأَ﴾؛ كما لا يجوز تعليقه بالفعل وهو: ﴿وَأَتْلُ﴾، لفساد المعنى لأن ﴿وَأَتْلُ﴾، مستقبل والظرف ماض وجملة: ﴿قَالَ لِقَوْمِهِ﴾: مضافة للظرف.

﴿يَقَوْمٍ إِنْ كَانْ كَبْرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِأَيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾، يا: حرف نداء، وقوم: منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة وقد تقدم بحثه، وإن شرطية، وكان: فعل الشرط واسمها ضمير الشأن المحذوف، وجملة: ﴿كَبْرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾: خبرها، والمراد بتكبير المقام: تعاضم الشقة، والمقام بالفتح المنزلة والمكانة، قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (؟)، والمقام بالضم الإقامة والقيام على الدعوة خلال مدة اللبث لأنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، وتذكيري:

عطف على: ﴿مَقَامِي﴾: وبآيات الله: متعلقان بـ ﴿وَتَذَكِّرِي﴾، فعلى الله، الفاء: رابطة والجار والمجرور متعلقان بـ ﴿تَوَكَّلْتُ﴾، ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾، الفاء: الفصيحة، وأجمعوا: فعل أمر، والواو: فاعل، وأمركم: مفعول به لأنه يتعدى بنفسه وبالحرف كما تقدم في باب اللغة، وشركاءكم: الواو، للمعية وشركاءكم: مفعول معه نص على ذلك سيبويه وأنشد:

فكونوا أنتم وبني أبيكم مكان الكليتين من الطحال

وقال النحاس: في نصب الشركاء على قراءة الجمهور ثلاثة أوجه:

الأول: بمعنى: وادعوا شركاءكم، قاله الكسائي والفراء، أي: ادعوهم لنصرتكم فهو على هذا منصوب بفعل مضمر.

الثاني: وقال محمد بن يزيد المبرد: هو معطوف على المعنى كما قال الشاعر:

يا ليت زوجك في الوغى متقلدا سيفاً ورمحاً

والرمح لا يتقلد به لكنه محمول كالسيف.

الثالث: وقال الزجاج: المعنى: مع شركائكم، ف (الواو)، على هذا: واو مع، وأما على قراءة أجمعوا بهمزة وصل: فالعطف ظاهر، أي: أجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم، وأما توجيهه قراءة الرفع: فعلى عطف الشركاء على: الضمير المرفوع في أجمعوا، وحسن هذا العطف مع عدم التأكيد بمنفصل كما هو المعتبر في ذلك، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، ثم: حرف عطف وتراخ، ولا: ناهية، ويكون: مجزومة بـ (لا) وأمركم: اسم ﴿يَكُنْ﴾، ويكون: حال لأنه كان صفة في الأصل وتقدمت، وغمة: خبر ﴿يَكُنْ﴾، ﴿ثُمَّ أَقْضَوْا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ ثم: حرف عطف كما تقدم، واقضوا: فعل أمر وفاعل، وإلي: متعلق به، ولا؛ الواو: عاطفة ولا: ناهية، وتنظرون: أصله تنظرونني مجزوم بلا، حذفت النون للجازم، وحذفت ياء المتكلم للفواصل أي لا تمهلوني.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾، الفاء: استئنافية، وإن: شرطية، وتوليتهم: فعل وفاعل في محل جزم فعل الشرط، والفاء: رابطة، وما: نافية، وسألتكم: فعل وفاعل، ومن: زائدة، وأجر: مفعول به محلا.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، إن: نافية، وأجري: مبتدأ، وإلا: أداة حصر وعلى الله: خبر، ﴿وَأُمِرْتُ﴾، الواو: عاطفة، وأمرت: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء: نائب فاعل، وأن أكون: أن وما في حيزها في تأويل: مصدر منصوب بنزع الخافض، أي: بأن أكون.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةً﴾، الفاء: عاطفة على ما تقدم، وكذبوه: فعل وفاعل ومفعول به، فنجيناه: عطف على: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، ومن: اسم موصول معطوف على: الهاء، والظرف: متعلق بمحذوف، هو: الصلة، أي: استقروا معه في السفينة، وفي الفلك: جار ومجرور متعلقان بـ (نجيناه)، أو: في الاستقرار الذي هو الصلة، أي: والذين استقروا معه في الفلك، وجعلناهم خلائف: فعل وفاعل ومفعولاه.

﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، وأغرقنا: عطف على: (نجيناه)، ونا: فاعل، والذين: مفعول به، وجملة: ﴿كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، صلة، وبآياتنا: متعلقان بـ ﴿كَذَبُوا﴾. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾، الفاء: استئنافية، وانظر: فعل أمر وفاعله مستتر، وكيف: اسم استفهام خبر كان مقدم، وعاقبة: اسمها، والمنذرين: مضاف إليه.

* * *

البلاغة فيه آيات القصة الواردة فيه سورة: (يونس)

١ - المجاز العقلي في قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾، فقد أسند الكبر الى المقام والمقام هو كناية عن النفس لأن المكان من لوازمه.

٢ - الاستعارة المكنية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾، أي: نفذوا ذلك الأمر أو أدوا الى ذلك الأمر، شبه الأمر المحذوف بالدين، ثم حذف المشبه به وأخذ شيئاً من خصائصه وهو القضاء، يقال: قضى فلان دينه أي أداه.

* * *

ثالثاً: ما قاله المفسرون وأصحاب التأويل فيه سياق القصة فيه
سورة (هود):

١ - ما قاله الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ، قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾، أيها القوم، نذير من الله، أنذركم بأسه على كفركم به، فأمنوا به وأطيعوا أمره. ويعني بقوله: ﴿مُبِينٌ﴾، يبين لكم عما أرسل به إليكم من أمر الله ونهيه.

واختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿إِنِّي﴾، فقرأ ذلك عامة قراء الكوفة وبعض المدنيين: بكسر (إِنَّ) على وجه الابتداء إذ كان في (الإرسال) معنى (القول).

وقرأ ذلك بعض قراء أهل المدينة والكوفة والبصرة: بفتح (أَنْ) على إعمال الإرسال فيها، كأن معنى الكلام عندهم: لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه بأني لكم نذير مبين.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي، أن يقال: إنها قراءتان متفقتا المعنى، قد قرأ بكل واحدة منهما جماعة من القراء، فبأيتها قرأ القارئ كان مصيباً للصواب في ذلك.

وقوله: ﴿أَنْ لَا نَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، فمن كسر الألف في قوله: ﴿إِنِّي﴾، جعل قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ عاملاً في (أَنْ) التي في قوله: ﴿أَنْ لَا نَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، ويصير المعنى حينئذ: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، أَنْ لا تعبدوا إلا الله، وقل لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ومن فتحها ردّ (أَنْ) في قوله: ﴿أَنْ لَا نَعْبُدُوا﴾ عليها، فيكون المعنى حينئذ: لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه بأنّي لكم نذير مبين، بأن لا تعبدوا إلا الله.

ويعني بقوله: (بأن لا تعبدوا إلا الله أيها الناس)، عبادة الآلهة والأوثان، وإشراكها في عبادته، وأفردوا الله بالتوحيد، وأخلصوا له العبادة، فإنه لا شريك له في خلقه.

وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، يقول: إني أيها القوم، إن لم تخلصوا الله بالعبادة، وتفردوه بالتوحيد، وتخلعوا ما دونه من الأنداد والأوثان، أخاف عليكم من الله عذاب يوم مؤلم عقابه وعذابه لمن عذب فيه.

وجعل: (الأليم) من صفة: (اليوم) وهو من صفة: (العذاب)، إذ كان العذاب فيه، كما قيل: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾^(١)، وإنما (السكن) من صفة: ما سكن فيه دون الليل.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَزَّلْنَا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَّلْنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾، فقال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فقال الكبراء من قوم نوح ﷺ وأشرفهم وهم (الملأ)، الذين كفروا بالله وجحدوا نبوة نبيهم نوح ﷺ: ﴿مَا نَزَّلْنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾، يعنون بذلك أنه آدمي مثلهم في الخلق والصورة والجنس، كأنهم كانوا منكبين أن يكون الله يرسل من البشر رسولا إلى خلقه.

(١) الآية: رقم ٩٦ من سورة الأنعام.

وقوله: ﴿وَمَا زِلْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَذِبُوا بِكَ﴾، يقول: وما نراك اتبعك إلا الذين هم سفلتنا من الناس، دون الكبراء والأشراف، فيما نرى ويظهر لنا، وقوله: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾، اختلفت القراء في قراءته.

فقرأته عامة قراء المدينة والعراق: (بَادِيَ الرَّأْيِ)، بغير همز (البادي)، وبهمز (الرأي)، بمعنى: ظاهر الرأي، من قولهم: (بدا الشيء يبدو)، إذا ظهر.

وقرأ ذلك بعض أهل البصرة: (بَادِي الرَّأْيِ)، مهموزاً أيضاً، بمعنى: مبتدأ الرأي، من قولهم: (بدأت بهذا الأمر)، إذا ابتدأت به قبل غيره.

قال أبو جعفر: وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندنا قراءة من قرأ: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾، بغير همز (البادي)، وبهمز (الرأي)، لأن معنى ذلك الكلام: ﴿إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَذِبُوا بِكَ﴾، في ظاهر الرأي، وفيما يظهر لنا.

وقوله: ﴿وَمَا زَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، يقول: وما نتبين لكم علينا من فضل نلتموه بمخالفتكم إيانا في عبادة الأوثان إلى عبادة الله وإخلاص العبادة له، فتبتعكم طلباً لذلك الفضل، وابتغاء ما أصبتموه بخلافكم إيانا، ﴿بَلْ نَقْضُكُم كَذِبًا﴾.

وهذا خطاب منهم لنوح عليه السلام، وذلك أنهم إنما كذبوا نوحاً عليه السلام دون أتباعه، لأن أتباعه لم يكونوا رؤسلاً.

وأخرج الخطاب وهو واحد مخرج خطاب الجميع، كما قيل: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾^(١).

قال أبو جعفر: وتأويل الكلام: بل نظنك، يا نوح، في دعواك أن الله ابتعثك إلينا رسولا كاذباً.

(١) الآية: رقم ١ من سورة الطلاق.

فعن ابن عباس رضي الله عنه قوله: ﴿وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَارِيكَ﴾، قال: فيما ظهر لنا.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي فَعِمَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل نوح عليه السلام لقومه إذ كذبوه، وردوا عليه ما جاءهم به من عند الله من النصيحة: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾، على علم ومعرفة وبيان من الله لي ما يلزمني له، ويجب علي من إخلاص العبادة له وترك إشراك الأوثان معه فيها، ﴿وَأَنْبِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي﴾، يقول: ورزقني منه التوفيق والنبوة والحكمة، فأمنت به وأطعته فيما أمرني ونهاني، ﴿فَعِمَّتْ عَلَيْكُمْ﴾، واختلقت القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء أهل المدينة وبعض أهل البصرة والكوفة: ﴿فَعِمَّتْ﴾ بفتح العين وتخفيف الميم، بمعنى: فعميت الرحمة عليكم فلم تهتدوا لها، فتقروا بها، وتصدقوا رسولكم عليها.

وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين: ﴿فَعِمَّتْ عَلَيْكُمْ﴾ بضم العين وتشديد الميم، اعتباراً منهم ذلك بقراءة عبد الله، وذلك أنها فيما ذكر في قراءة عبد الله: (فَعَمَّا عَلَيْكُمْ).

قال أبو جعفر: وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب قراءة من قرأه: ﴿فَعِمَّتْ عَلَيْكُمْ﴾ بضم العين وتشديد الميم للذي ذكروا من العلة لمن قرأ به، ولقربه من قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي﴾، فأضاف: (الرحمة) إلى الله، فكذاك: (تعميته على الآخرين)، بالإضافة إليه أولى.

وقوله: ﴿أَنْزِلُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾، يقول: أناخذكم بالدخول في الإسلام، وقد عماء الله عليكم ﴿أَنْزِلُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾، يقول: وأنتم لا لزامناكموها ﴿كَرِهُونَ﴾، يقول: لا نفعل ذلك، ولكن نكل أمركم إلى الله، حتى يكون هو الذي يقضي في أمركم ما يرى ويشاء.

فعن ابن جريج، قال نوح: ﴿يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾، قال: قد عرفتُها، وعرفتُ بها أمره، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَأَنَا لِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾، الإسلام والهدى والإيمان والحكم والنبوة.

وعن قتادة قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾، الآية، أما والله لو استطاع نبيُّ الله ﷺ لألزمها قومه، ولكن لم يستطع ذلك ولم يملكه.

وعن أبي العالية قال: في قراءة أبي ﷺ: (أَنْزَلِمْكُمْوَهَا مِنْ شَطْرِ أَنْفُسِنَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ).

وقرأ ابن عباس ﷺ: (أَنْزَلِمْكُمْوَهَا مِنْ شَطْرِ أَنْفُسِنَا)، قال عبد الله: (من شَطْرِ أَنْفُسِنَا)، من تلقاء أنفسنا.

وعن أبي العالية، عن أبي بن كعب ﷺ: (أَنْزَلِمْكُمْوَهَا مِنْ شَطْرِ قُلُوبِنَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ).

قوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبِّهِمْ وَلَكَئِنْ أَرْسَلْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

قال أبو جعفر: وهذا أيضاً خبرٌ من الله ﷻ عن قيل نوح ﷺ لقومه، أنه قال لهم: يا قوم لا أسألكم على نصيحتي لكم، ودعايتكم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، ما لا أجزأ على ذلك، فتتهموني في نصيحتي، وتظنون أن فعلي ذلك طلبٌ عرض من أعراض الدنيا، ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾، يقول: ما ثواب نصيحتي لكم، ودعايتكم إلى ما أدعوكم إليه، إلا على الله، فانه هو الذي يجازيني، ويشيني عليه، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وما أنا بمقص من آمن بالله وأقرّ بوحدانيته، وخلع الأوثان وتبرأ منها، بأن لم يكونوا من عليتكم وأشرافكم، ﴿إِنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبِّهِمْ﴾، يقول: إن هؤلاء الذين تسألوني طردهم، صائرون إلى الله، والله سائلهم عما كانوا في الدنيا يعملون، لا عن شرفهم وحسبهم.

فعن ابن جريج، قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ﴾، قال: قالوا له: يا نوح، إن أحببت أن نتبعك فاطردهم، وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم في الأمر سواء، فقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ﴾، فيسألهم عن أعمالهم.

وعن مجاهد قوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾، قال: جزائي.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّكُمْ أَزْكَرَ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾، يقول: ولكني، أيها القوم، أراكم قوماً تجهلون الواجب عليكم من حق الله، واللازم لكم من فرائضه، ولذلك من جهلكم سألتهموني أن أطرد الذين آمنوا بالله.

قوله تعالى: ﴿وَيَقْوَمَ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

قال أبو جعفر: يقول: ﴿وَيَقْوَمَ مَنْ يَنْصُرُنِي﴾، فيمنعني من الله إن هو عاقبني على طردي المؤمنين الموحدين الله إن طردتهم؟، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، يقول: أفلا تتفكرون فيما تقولون، فتعلمون خطأه، فتنتهوا عنه؟

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، قال أبو جعفر: وقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، عطف على قوله: ﴿وَيَقْوَمَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا﴾، ومعنى الكلام: (ويا قوم لا أسألكم عليه أجراً)، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، التي لا يفيها شيء، فأدعوكم إلى اتباعي عليها، ولا أعلم أيضاً الغيب، يعني: ما خفي من سرائر العباد، فإن ذلك لا يعلمه إلا الله، فأدعي الربوبية وأدعوكم إلى عبادتي، ولا أقول أيضاً: إني ملك من الملائكة، أرسلت إليكم، فأكون كاذباً في دعواي ذلك، بل أنا بشر مثلكم كما تقولون، أمرت بدعائكم إلى الله، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾، يقول: ولا أقول للذين اتبعوني وآمنوا بالله ووحدوه الذين

تستحققهم أعينكم، وقتلتم: إنهم أرادلكم، ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾، وذلك الإيمان بالله، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾، يقول: الله أعلم بضماير صدورهم، واعتقاد قلوبهم، وهو ولي أمرهم في ذلك، وإنما لي منهم ما ظهر وبدا، وقد أظهروا الإيمان بالله واتبعوني، فلا أطردهم ولا أستحل ذلك، ﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، يقول: إنني إن قلت لهؤلاء الذين أظهروا الإيمان بالله وتصديقي: ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾، وقضيت على سرائرهم بخلاف ما أبدته ألسنتهم لي على غير علم مني بما في نفوسهم، وطردهم بفعل ذلك، لمن الفاعلين ما ليس لهم فعله، المعتدين ما أمرهم الله به، وذلك هو: (الظلم).

فعن ابن جريج، قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، التي لا يفنيها شيء، فأكون إنما أَدْعُوكُم لتتبعوني عليها لأعطيك منها، ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ نزلت من السماء برسالة، ما أنا إلا بشر مثلكم، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، ولا أقول اتبعوني على علم الغيب.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَنْتُحُونَ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال قوم نوح لنوح ﷺ: قد خاصمتنا فأكثرت خصومتنا، فأتنا بما تعدنا من العذاب، إن كنت من الصادقين في عِدَاتِكَ ودَعَاكَ أنك الله رسول، يعني: بذلك أنه لن يقدر فعن مجاهد: ﴿جَدَلْتَنَا﴾، قال: مَارَيْتَنَا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٣٣) ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال نوح ﷺ لقومه حين استعجلوه العذاب: يا قوم، ليس الذي تستعجلون من العذاب إلي، إنما ذلك إلى الله لا إلى غيره، هو الذي يأتيكم به إن شاء، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾، يقول: ولستم إذا أراد تعذيبكم بمعجزيه، أي: بفائتيه هرباً منه، لأنكم حيث كنتم في ملكه وسلطانه وقدرته، حكمه عليكم

جار، ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾، يقول: ولا ينفعكم تحذيري عقوبته، ونزول سطوته بكم على كفركم به، ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾، في تحذيري إياكم ذلك، لأن نصحي لا ينفعكم، لأنكم لا تقبلونه، ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾، يقول: إن كان الله يريد أن يهلككم بعذابه، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، يقول: وإليه تردون بعد الهلاك. قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُخْتَرِمُونَ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أيقول يا محمد هؤلاء المشركون من قومك: افترى محمد هذا القرآن؟

وهذا الخبر عن نوح؟ قل لهم: ﴿إِنْ افْتَرَيْتُهُ﴾، فتخرصته واختلقته، ﴿فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ يقول: فعلي إثمي في افترائي ما افتريت على ربي دونكم، لا تؤاخذون بذنبي ولا إثمي، ولا أؤاخذ بذنبيكم، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُخْتَرِمُونَ﴾، يقول: وأنا بريء مما تذبنون وتأثمون بربكم، من افترائكم عليه.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأوحى الله ﷻ إلى نوح ﷺ، لما حق على قومه القول، وأظلم أمر الله، ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ﴾، يا نوح، بالله فيوحد، ويتبعك على ما تدعوه إليه، ﴿مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، فصدق بذلك واتبعك، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾، يقول: فلا تستكن ولا تحزن، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، فإني مهلكهم، ومنقذك منهم ومن اتباعك، وأوحى الله ذلك إليه، بعد ما دعا عليهم نوح بالهلاك فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَاكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأحي إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وأن اصنع الفلك، وهو السفينة، فعن مجاهد: الفلك: السفينة.

وقوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، يقول: بعين الله ووحيه كما يأمرك، فعن ابن عباس ؓ قوله: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ﴾ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا، وذلك أنه لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها على مثل جَوْجُو الطائر.

وعن مجاهد: ﴿وَوَحْيِنَا﴾، قال: كما نأمرك.

وقوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾، يقول تعالى ذكره: ولا تسألني في العفو عن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم من قومك، فأكسبوها تعدياً منهم عليها بكفرهم بالله الهلاك بالغرق، ﴿إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾، بالطوفان، فعن ابن جريج: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي﴾، قال: يقول: ولا تراجعني.

قال: تقدّم أن لا يشفع لهم عنده.

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ويصنع نوح ؑ السفينة، وكلما مرّ عليه جماعة من كبراء قومه ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾، يقول: هزئوا من نوح ؑ، ويقولون له: أتحوّلت نجاراً بعد النبوة، وتعمل السفينة في البر؟ فيقول لهم نوح ؑ: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾، إن تهزأوا منا اليوم، فإننا نهزأ منكم في الآخرة، كما تهزأون منا في الدنيا، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، إذا عايتم عذاب الله، من الذي كان إلى نفسه مُسِيئاً مَنّاً.

فعن عائشة زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم أم الصبي! قال رسول الله ﷺ: كان نوح ؑ مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة، فعظمت وذهبت كلّ مذهب، ثم قطعها، ثم جعل يعمل سفينة، ويمرّون فيسألونه، فيقول: أعملها

سفينة! فيسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة في البر فكيف تجري! فيقول: سوف تعلمون، فلما فرغ منها وفار التنور، وكثر الماء في السكك، خشيت أم الصبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثي الجبل، فلما بلغها الماء خرجت، حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بين يديها، حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي»^(١).

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣١﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل نوح لقومه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أيها القوم، إذا جاء أمر الله، من الهالك، ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، يقول: الذي يأتيه عذاب الله منا ومنكم يهينه ويذله، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾، يقول: وينزل به في الآخرة، مع ذلك، عذاب دائم لا انقطاع له، مقيم عليه أبداً.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، يقول: ويصنع نوح ﷺ الفلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، الذي وعدناه أن يجيء قومه من الطوفان الذي يغرقهم. وقوله: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾، اختلف أهل التأويل في معنى ذلك.

فقال بعضهم: معناه: انبجس الماء من وجه الأرض ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾، وهو وجه الأرض.

فعن ابن عباس ؓ أنه قال في قوله: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾، قال: ﴿التَّنُّورُ﴾، وجه الأرض.

(١) الحديث: أخرجه الحاكم ج ٢ ص ٣٤٢ وكذا الطبراني في الأوسط وابن أبي حاتم وابنة جرير في تفسيره وضعفه الإمام الألباني في السلسلة.

قال: قيل له: إذا رأيت الماء على وجه الأرض، فاركب أنت ومن معك.

قال: والعرب تسمى وجه الأرض: (تنور الأرض).

وقال آخرون: هو تنوير الصبح، من قولهم: (نور الصبح تنويراً).

فعن علي رضي الله عنه قوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾، قال: هو تنوير الصبح.

وقال آخرون: معنى ذلك: وفار أعلى الأرض وأشرف مكان فيها بالماء، وقال: (التنور) أشرف الأرض.

فعن قتادة، قوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾، كنا نحدث أنه أعلى الأرض وأشرفها، وكان علماً بين نوح وبين ربه.

وقال آخرون: هو التنور الذي يُخْتَبَزُ فيه.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾، قال: إذا رأيت تنور أهلِكَ يخرج منه الماء، فإنه هلاك قومك.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله: ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾، قال: نبع.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله: ﴿ التَّنُّورُ ﴾، قول من قال: (هو التنور الذي يخبز فيه)، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك فيسلم لها، وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به، لإفهامهم معنى ما خاطبهم به.

قوله: ﴿ قُلْنَا ﴾، لنوح عليه السلام حين جاء عذابنا قومه الذي وعدنا نوحاً عليه السلام أن نعذبهم به، وفار التنور الذي جعلنا فورانه بالماء آية مجيء عذابنا بيننا وبينه هلاك قومه، ﴿ أَحْمِلْ فِيهَا ﴾، يعني: في الفلك ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾، يقول: من كل ذكر وأنثى، فعن مجاهد: ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾، قال: ذكر وأنثى من كل صنف.

وقال بعض أهل العلم بكلام العرب من الكوفيين: (الزوجان) في كلام العرب: الاثنان.

قال: ويقال: (عليه زوجا نعال)، إذا كانت عليه نعلان، ولا يقال: (عليه زوج نعال)، وكذلك: (عنده زوجا حمام)، و(عليه زوجا قيود).

وقال: ألا تسمع إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾^(١)، فإنها هما اثنان.

وقال بعض البصريين من أهل العربية في قوله: ﴿قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، قال: فجعل (الزوجين): (الضريين)، الذكور والإناث.

وقال آخر منهم: (الزوج)، اللون، قال: وكل ضرب يدعى: (لوناً).

وذكر أن الحسن قال في قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢)، السماء زوج، والأرض زوج، والشتاء زوج، والصيف زوج، والليل زوج، والنهار زوج، حتى يصير الأمر إلى الله الفرد الذي لا يشبهه شيء.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، يقول: واحمل أهلك أيضاً في الفلك، يعني: بـ (الأهل)، ولده ونساءه وأزواجه ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، يقول: إلا من قلت فيهم إني مهلكه مع مَنْ أَهْلَكَ من قومك، ثم اختلفوا في الذي استثناه الله من أهله:

فقال بعضهم: هو بعض نساء نوح، قال ابن جريج: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، قال: العذاب، هي امرأته كانت في الغابرين في العذاب.

وقال آخرون: بل هو ابنه الذي غرق، فعن الضحاك في قوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، قال: ابنه، غرق فيمن غرق.

(١) الآية: رقم ٤٥ من سورة النجم.

(٢) الآية: رقم ٤٩ من سورة الذاريات.

وقوله: ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾، يقول: واحمل معهم من صدقك واتبعك من قومك، يقول الله: ﴿ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾، يقول: وما أقرّ بوحداية الله مع نوح ﷺ من قومه إلا قليل.

واختلفوا في عدد الذين كانوا آمنوا معه فحملهم معه في الفلك، فقال بعضهم في ذلك: كانوا ثمانية أنفس.

فمن قتادة قوله: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾، قال: ذكر لنا أنه لم يتم في السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة بنيه، ونسأؤهم، فجميعهم ثمانية.

وقال آخرون: بل كانوا سبعة أنفس، فعن الأعمش: ﴿ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾، قال: كانوا سبعة: نوح، وثلاث كنان له، وثلاثة بنين.

وقال آخرون: كانوا عشرة سوى نسائهم، فعن ابن إسحاق قال: لما فار التنور، حمل نوح في الفلك من أمره الله به، وكانوا قليلا كما قال الله، فحمل بنيه الثلاثة: سام، وحام، ويافث، ونساءهم، وستة أناسي ممن كان آمن، فكانوا عشرة نفر، بنوح ﷺ وبنيه وأزواجهم.

وقال آخرون: بل كانوا ثمانين نفسا، قال ابن عباس: حمل نوح معه في السفينة ثمانين إنسانا.

وعن ابن عباس يقول: كان في سفينة نوح ثمانون رجلا أحدهم جرهم.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله: ﴿ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾، يصفهم بأنهم كانوا قليلا ولم يُحَدَّدهم بمقدار، ولا خبر عن رسول الله ﷺ صحيح، فلا ينبغي أن يتجاوز في ذلك حدُّ الله، إذ لم يكن لمبلغ عدد ذلك حدٌّ من كتاب الله، أو أثر عن رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرُهَا وَمَرْسَهَا إِنْ رِئِيَ لَفُوقُ رَحِيمٍ ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وقال نوح: اركبوا في الفلك، ﴿بِسْمِ اللَّهِ
مَجْرِبَهَا وَمُرْسَهَا﴾، وفي الكلام محذوف قد استغني بدلالة ما ذكر من الخبر عليه عنه،
وهو قوله: ﴿قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
وَمَنْ أَمِنَ وَمَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، فحملهم نوح فيها وقال لهم: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا﴾،
فاستغني بدلالة قوله: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾، عن حمله إياهم فيها، فترك ذكره.

واختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَهَا﴾، فقرأته عامة قراء
أهل المدينة والبصرة وبعض الكوفيين: (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا)، بضم الميم في
الحرفين كليهما. وإذا قرئ كذلك كان من (أجرى) و(أرسى)، وكان فيه وجهان من
الإعراب:

أحدهما: الرفع، بمعنى: بسم الله إجراؤها وإرساؤها، فيكون: (المجرى)
و(المرسى) مرفوعين حينئذ بالباء التي في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾.

والثاني: النصب، بمعنى: بسم الله عند إجرائها وإرسائها، أو وقت إجرائها
وإرسائها، فيكون قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، كلاماً مكتفياً بنفسه، كقول القائل عند ابتدائه
في عمل يعمل: (بسم الله)، ثم يكون: (المجرى) و(المرسى) منصوبين على ما نصبت
العرب قولهم: (الحمد لله سرارك وإهلالك)، يعنون الهلال أوله وآخره، كأنهم قالوا:
(الحمد لله أول الهلال وآخره)، ومسموع منهم أيضاً: (الحمد لله ما إهلالك إلى
سرارك).

وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَهَا﴾، بفتح الميم من
﴿مَجْرِبَهَا﴾، وضمها من ﴿وَمُرْسَهَا﴾، فجعلوا: ﴿مَجْرِبَهَا﴾، مصدراً من (جري
يجري مجرى)، و﴿وَمُرْسَهَا﴾، من (أرسى يُرسي إرساءاً).

وإذا قرئ ذلك كذلك، كان في إعرابها من الوجهين، نحو الذي فيها إذا قرئ:
(مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا)، بضم الميم فيها، على ما بيئت.

وروي عن أبي رجاء العطاردي أنه كان يقرأ ذلك: (بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا)، بضم الميم فيهما، ويصيرهما نعتاً لله، وإذا قرئنا كذلك، كان فيهما أيضاً وجهان من الإعراب، غير أن أحدهما الخفض، وهو الأغلب عليهما من وجهي الإعراب، لأن معنى الكلام على هذه القراءة: بسم الله مُجْرِي الفلك ومرسيها، ف(المجري): نعت لاسم الله، وقد يحتمل أن يكون: نصباً، وهو الوجه الثاني، لأنه يحسن دخول الألف واللام في: (المجري) و(المرسي)، كقولك: (بسم الله المجريها والمرسيها)، وإذا حذفنا نصبتا على الحال، إذ كان فيهما معنى النكرة، وإن كانا مضافين إلى المعرفة.

وقد ذكر عن بعض الكوفيين أنه قرأ ذلك: (مَجْرَاهَا وَمَرَسَاهَا)، بفتح الميم فيهما جميعاً، من (جرى) و(رسا)، كأنه وجهه إلى أنه في حال جَرِيها وحال رُسُوها، وجعل كلتا الصفتين للفلك، كما قال عنتره:

فَصَبَرْتُ نَفْسًا عِنْدَ ذَلِكَ حُرَّةً تَرُسُو إِذَا نَفَسُ الْجَبَانِ تَطَلَّعُ

قال أبو جعفر: والقراءة التي نختارها في ذلك قراءة من قرأ: (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا)، بفتح الميم (وَمُرَسَاهَا)، بضم الميم، بمعنى: بسم الله حين تَجْرِي وحين تُرْسِي.

وإنما اخترت الفتح في ميم: (مجرها) لقرب ذلك من قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾، ولم يقل: (تُجْرِي بهم)، ومن قرأ: (بسم الله مُجْرَاهَا)، كان الصواب على قراءته أن يقرأ: (وهي تُجْرِي بهم).

وفي إجماعهم على قراءة: (تَجْرِي)، بفتح التاء دليل واضح على أن الوجه في: (مجرها) فتح الميم، وإنما اخترنا الضم في: (مرساها)، لإجماع الحجة من القراء على ضمها.

ومعنى قوله: (مجرها)، مسيرها، (ومرساها)، وقفها، من وقفها الله وأرساها.

وكان مجاهد يقرأ ذلك بضم الميم في الحرفين جميعاً.

فعن مجاهد: (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرَسَاهَا)، قال: حين يركبون ويمجرون ويرسون.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، يقول: إن ربي لساتر ذنوب من تاب وأتاب إليه، رحيم بهم أن يعذبهم بعد التوبة.

قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾.

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾، والفلك تجري بنوح ﷺ ومن معه فيها، ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾، يام، ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾، عنه، لم يركب معه الفلك: ﴿يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا﴾، الفلك، ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَآوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَّعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال ابن نوح لما دعاه نوح إلى أن يركب معه السفينة خوفاً عليه من الغرق: ﴿سَآوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَّعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، يقول: سأصير إلى جبل أتحصن به من الماء، فيمنعني منه أن يغرقني.

ويعني بقوله: ﴿يَّعْصِمُنِي﴾، أي: يمنعني، مثل: (عصام القربة)، الذي يشدُّ به رأسها، فيمنع الماء أن يسيل منها.

وقوله: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾، يقول: لا مانع اليوم من أمر الله الذي قد نزل بالخلق من الغرق والهلاك، إلا من رحمنا فأنقذنا منه، فإنه الذي يمنع من شاء من خلقه ويعصم، ف ﴿مَنْ﴾: في موضع رفع، لأن معنى الكلام: لا عاصم يعصم اليوم من أمر الله إلا الله.

وقد اختلف أهل العربية في موضع: ﴿مَنْ﴾ في هذا الموضع.

فقال بعض نحويي الكوفة: هو في موضع نصب، لأن المعصوم بخلاف العاصم، والمرحوم معصوم.

قال: كأن نصبه بمنزلة قوله: ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الظَّنِّ ﴾^(١)، قال: ومن استجاز:

﴿ أَنْبَاءَ الظَّنِّ ﴾، والرفع في قوله:

وَبَلَدَةٌ لَيْسَ بِهَا أَنْيْسٌ إِلَّا الْيَعَافِيرُ وَإِلَّا الْعِيسُ

لم يجوز له الرفع في: ﴿ مِنْ ﴾، لأن الذي قال: (إلا اليعافير)، جعل أنيس البر، اليعافير وما أشبهها.

وقال بعض نحويي البصرة: ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾، على: (لكن من رحم)، ويجوز أن يكون على: لا ذا عصمة: أي: معصوم، ويكون: ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾، رفعاً بدلاً من: (العاصم).

قال أبو جعفر: ولا وجه لهذه الأقوال التي حكيناها عن هؤلاء، لأن كلام الله تعالى إنما يُوجَّه إلى الأفصح الأشهر من كلام من نزل بلسانه، ما وُجد إلى ذلك سبيل. وقوله: ﴿ وَحَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾، يقول: وحال بين نوح وابنه موج الماء فغرق، فكان ممن أهلكه بالغرق من قوم نوح ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَتَّأَرِضْ أَبْلَعِ مَاءَكَ وَنَسَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

قال أبو جعفر: يقول الله تعالى ذكره: وقال الله للأرض بعد ما تناهى أمره في هلاك قوم نوح بما أهلكهم به من الغرق: ﴿ يَتَّأَرِضْ أَبْلَعِ مَاءَكَ ﴾، أي: تشربي، من قول القائل: (بلع فلان كذا يبلعه)، أو (بلعه يبلعه)، إذا ازدرده، ﴿ وَنَسَمَاءُ أَقْلَعِي ﴾، يقول: أقلعي عن المطر، أمسكي، ﴿ وَغِيضَ الْمَاءِ ﴾، ذهبت به الأرض ونشفت، ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾، يقول: قُضِيَ أمر الله، فمضى بهلاك قوم نوح، ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾، يعني: الفلك،

(١) الآية: رقم ١٥٧ من سورة النساء.

(استوت): أرسى ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾، وهو جبل، فيما ذكر بناحية الموصل أو الجزيرة، ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، يقول: قال الله: أبعد الله القوم الظالمين الذين كفروا بالله من قوم نوح ﷺ.

فعن مجاهد: ﴿وَعِصَ الْمَاءِ﴾، قال: نقص، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، قال: هلاك قوم نوح.

وعن مجاهد، مثله، قال: قال ابن جريج: ﴿وَعِصَ الْمَاءِ﴾، نَشَفَتْهُ الْأَرْضُ.

وعن ابن عباس قوله: ﴿وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي﴾، يقول: أمسكي، (وعِصَ الْمَاءِ)، يقول: ذهب الماء.

وعن قتادة: ﴿وَعِصَ الْمَاءِ﴾، والغِيُوضُ ذهاب الماء، ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، فعن مجاهد: ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، قال: جبل بالجزيرة، تشاخمت الجبال من الغرق، وتواضع هو لله فلم يغرق، فأرسيته عليه.

وعن مجاهد: ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، قال: الجودي جبل بالجزيرة، تشاخمت الجبال يومئذ من الغرق وتناولت، وتواضع هو لله فلم يغرق، وأرسيته سفينة نوح عليه.

وعن سفيان: ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، قال: جبل بالجزيرة، شمخت الجبال، وتواضع حين أرادت أن ترفأ عليه سفينة نوح.

وعن قتادة: ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، قال: أبقاها الله لنا بوادي أرض الجزيرة عبرة وآية.

وعن قتادة قال: ذكر لنا أن نوحاً ﷺ بعث الغراب لينظر إلى الماء، فوجد جيفة فوقع عليها، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون، فأعطيت الطوق الذي في عنقها، وخضاب رجليها.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ﴾: رب إنك وعدتني أن تنجيني من الغرق والهلاك وأهلي، وقد هلك ابني، وابني من أهلي، ﴿وَلِإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾، الذي لا خلف له، ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾، بالحق، فاحكم لي بأن تنجي بما وعدتني، من أن تنجي لي أهلي، وترجع إلي ابني.

قال ابن زيد في قوله: ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾، قال: أحكم الحاكمين بالحق. قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّخِذْ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

قال أبو جعفر: يقول الله تعالى ذكره: قال الله يا نوح إن الذي غرقته فأهلكته الذي تذكر أنه من أهلك ليس من أهلك، واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

فقال بعضهم: معناه: ليس من ولدك، هو من غيرك، وقالوا: كان ذلك من حنث. فعن الحسن، في قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، قال: لم يكن ابنه. وعن أبي جعفر: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾، قال: ابن امرأته. وعن الحسن قال: لا والله، ما هو بابنه.

وعن أبي جعفر: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾، قال: هذه بلغة طي لم يكن ابنه، كان ابن امرأته.

وعن الحسن في قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، قال: لم يكن ابنه، وكان يقرؤها: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾.

وعن قتادة قال: كنت عند الحسن فقال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾، لعمر الله ما هو

ابنه! قال: قلت: يا أبا سعيد يقول: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾، وتقول: ليس بابنه؟ قال: أفرأيت قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، قال: قلت إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك، ولا يختلف أهل الكتاب أنه ابنه، قال: إن أهل الكتاب يكذبون. وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، الذين وعدتك أن أنجيهم.

فعن ابن عباس في قوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾، قال: هو ابنه.

وعن الضحاك قال: قال ابن عباس: هو ابنه، ما بغت امرأة نبي قط.

وعن ابن عباس قال: ما بغت امرأة نبي قط، قال: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، الذين وعدتك أن أنجيهم معك.

وعن قتادة قال، كان عكرمة يقول: كان ابنه، ولكن كان مخالفاً له في النية والعمل، فمن ثم قيل له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، فعن ابن عباس رضي الله عنه: وقد سئل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾^(١)، قال: أما إنه لم يكن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل، على الأضياف، ثم قرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾^(٢)، قال ابن عيينة: وأخبرني عمار الدُّهني: أنه سأل سعيد بن جبير عن ذلك فقال: كان ابن نوح عليه السلام، إن الله لا يكذب! قال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾، قال: وقال بعض العلماء: ما فجرت امرأة نبي قط.

وعن سعيد بن جبير قال: قال الله، وهو الصادق، وهو ابنه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾.

وعن أبي بشر عن قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، قال: ليس من أهل دينك، وليس ممن وعدتك أن أنجيهم، قال يعقوب: قال هشيم: كان عامة ما كان يحدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير.

(١) الآية: رقم ١٠ من سورة التحريم.

(٢) الآية: رقم ٤٦ من سورة هود.

وعن يعقوب بن قيس قال: أتى سعيد بن جبير رجلٌ فقال: يا أبا عبد الله، الذي ذكر الله في كتابه (ابن نوح) أبنته هو؟ قال: نعم، والله إن نبيَّ الله أمره أن يركب معه في السفينة فعصى، فقال: ﴿سَاوِيَ إِلَى جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، قال: ﴿يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، لمعصية نبي الله.

وعن سعيد بن جبير: أنه جاء إليه رجل فسأله فقال: أرايتك ابن نوح أبنته؟ فسبح طويلاً ثم قال: لا إله إلا الله، يحدث الله محمداً: ﴿وَنَادَى نُوحٌ أَبْنَتَهُ﴾، وتقول ليس منه؟ ولكن خالفه في العمل، فليس منه من لم يؤمن، وعن عكرمة في قوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ أَبْنَتَهُ﴾، قال: أشهد أنه ابنه، قال الله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ أَبْنَتَهُ﴾.

وعن الضحاك في قوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، قال: ليس من أهل دينك، ولا ممن وعدتك أن أنجيته، وكان ابنه لصلبه.

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: إنه ليس من أهلِكَ الذين وعدتك أن أنجيهم، لأنه كان لدينك مخالفاً، وبى كافراً، وكان ابنه لأن الله تعالى ذكره قد أخبر نبيه محمداً ﷺ أنه ابنه فقال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ أَبْنَتَهُ﴾، وغير جائز أن يخبر أنه ابنه فيكون بخلاف ما أخبر، وليس في قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، دلالة على أنه ليس بابنه، إذ كان قوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، محتملاً من المعنى ما ذكرنا، ومحتملاً أنه ليس من أهل دينك، ثم يحذف (الدين) فيقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، كما قيل: ﴿وَسَّالِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾^(١).

وأما قوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، فإن القراء اختلفت في قراءته.

فقرأته عامة قراء الأمصار: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ بتنوين: ﴿عَمَلٌ﴾، ورفع: ﴿غَيْرٌ﴾.

(١) الآية: رقم ٨٢ من سورة يوسف.

واختلف الذين قرءوا ذلك كذلك في تأويله:

فقال بعضهم: معناه: إن مسألتك إياي هذه عمل غير صالح، فعن مغيرة، عن إبراهيم: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، قال: إن مسألتك إياي هذه عمل غير صالح. وعن سعيد، عن قتادة: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، أي: سوء، ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

وعن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، يقول: سؤالك عما ليس لك به علم.

وعن مجاهد قوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، قال: سؤالك إياي، عمل غير صالح، ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

وقال آخرون: بل معناه: إن الذي ذكرت أنه ابنك فسألتني أن أنجيّه، عمل غير صالح، أي: أنه لغير رشدة.

وقالوا: (الهاء)، في قوله: ﴿إِنَّهُ﴾: عائدة على (الابن).

فعن قتادة، عن الحسن أنه قرأ: ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، قال: ما هو والله بابه.

وروي عن جماعة من السلف أنهم قرءوا ذلك: (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) على وجه الخبر عن الفعل الماضي، وغير منصوبة، وممن روي عنه أنه قرأ ذلك كذلك، ابن عباس.

فعن سليمان بن قتة، عن ابن عباس أنه قرأ: (عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ).

وعن عكرمة، عن ابن عباس: (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)، قال: كان مخالفاً في النية والعمل.

وقوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، نهي من الله تعالى ذكره نبيه نوحاً ﷺ أن يسأله أسباب أفعاله التي قد طوى علمها عنه وعن غيره من البشر، يقول له تعالى

ذكره: إني يا نوح قد أخبرتك عن سؤالك سبب إهلاك ابنك الذي أهلكته، فلا تسألن بعدها عما قد طويت علمه عنك من أسباب أفعالي، وليس لك به علم، ﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، في مسألتك إياي عن ذلك.

وكان ابن زيد يقول في قوله: ﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، أن تبلغ الجهالة بك أن لا أفي لك بوعده وعدتك، حتى تسألني ما ليس لك به علم، ﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

واختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، فقرأ ذلك عامة قراء الأمصار: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، بكسر النون وتخفيفها، ونحوًا بكسرها إلى الدلالة على: (الياء) التي هي كناية اسم الله في: فلا تسألني.

وقرأ ذلك بعض المكيين وبعض أهل الشام: (فَلَا تَسْأَلْنَ)، بتشديد النون وفتحها بمعنى: فلا تسألن يا نوح ما ليس لك به علم.

قال أبو جعفر: والصواب من القراءة في ذلك عندنا، تخفيف النون وكسرها، لأن ذلك هو الفصح من كلام العرب المستعمل بينهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره مخبرًا نبيه محمدًا ﷺ، عن إنابة نوح عليه السلام بالتوبة إليه من زلته، في مسأله التي سألهما ربه في ابنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ﴾، أي: أستجير بك أن أتكلف مسألتك ما ليس لي به علم، مما قد استأثرت بعلمه، وطويت علمه عن خلقك، فاغفر لي زلتي في مسألي إياك ما سألتك في ابني، وإن أنت لم تغفرها لي وترحمني فتتقذني من غضبك، ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾، يقول: من الذين غبنوا أنفسهم حظوظها وهلكوا.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿يٰنُوحُ اهْبِطْ﴾ من الفلك إلى الأرض، ﴿بِسَلَامٍ مِنَّا﴾، يقول: بأمن منا أنت ومن معك من إهلاكنا، ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾، يقول: وبركات عليك، ﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾، يقول: وعلى قرون تحيى من ذرية من معك من ولدك، فهؤلاء المؤمنون من ذرية نوح ﷺ الذين سبقت لهم من الله السعادة، وبارك عليهم قبل أن يخلقهم في بطون أمهاتهم وأصلاص آبائهم.

ثم أخبر تعالى ذكره نوحاً ﷺ عما هو فاعل بأهل الشقاء من ذريته، فقال له: ﴿وَأُمَمٌ﴾، يقول: وقرون وجماعة، ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ في الحياة في الدنيا، يقول: نرزقهم فيها ما يتمتعون به إلى أن يبلغوا آجالهم، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يقول: ثم نذيقهم إذا وردوا علينا عذاباً مؤلماً موجعاً.

فعن محمد بن كعب القرظي: ﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال: دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة.

٢- وقال الإمام ابن أبي حاتم ﷺ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ فَعَنِ السُّدِّيِّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ: أَرْسَلَ: أَيُّ: بَعَثَ.

وَعَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَوَّلُ نَبِيٍّ أُرْسِلَ نُوحٌ ﷺ».

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

فَعَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: لَمَّا أُنْزِلَتْ نَذِيرٌ قَالَ: يَعْنِي: النَّبِيُّ ﷺ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ: ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١)، قال: نَذِيرًا مِنَ النَّارِ.

قوله تعالى: ﴿أَنْ لَا نَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، فعن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، قوله: اعبدوا، أي: وحدوا.

وعن محمد بن إسحاق قال: كان من حديث نوح عليه السلام وحديث قومه فيما يذكر أهل العلم أنه كان حليماً صبوراً لم يلق نبياً من قومه من البلاء أكثر مما لقي إلا نبياً قتل، وكان يدعوهم كما قال الله تعالى: ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً بالنصيحة لهم فلم يزداهم ذلك منه إلا فراراً حتى إنه ليكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه ويجعل أصابعه في أذنيه لكيلا يسمع شيئاً من قوله.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، فعن أبي العالية في قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، قال: الأليم: الموجه في القرآن كله، وكذلك فسرهُ سعيد، بن جبير والضحاك، وقتادة، وأبو مالك وأبو عمران النحوي ومقاتل بن حيان.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾، فعن السدي، عن أبي مالك قوله: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾، يعني: الأشراف من قومه.

وعن عبيد بن عمير الليثي: أنه كان يحدث أنه بلغه أنهم كانوا يبطشون به، يعني: نوحاً عليه السلام فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)، حتى إذا تمادوا في المعصية، وعظمت منهم في الأرض الخطيئة، وتطاول عليه وعليهم الشأن، واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر النجل بعد النجل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي قبله، حتى إن كان الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا ومع أجدادنا هذا مجنون لا يقبلون منه شيئاً حتى شكنا ذلك من أمرهم نوح عليه السلام إلى الله ﷻ وقال كما قص الله علينا في كتابه.

قوله تعالى: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾، فعن عثمان بن عطاء، عن أبيه قال: وأما ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾، فما ظهر لنا.

قوله: ﴿وَمَا زَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، فعن سعيد بن جبير، قوله: ﴿مِن فَضْلٍ﴾، يعني: فضيلة.

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ يَنبَغٍ مِّن رَّبِّي﴾، فعن جعفر بن سليمان، سمعت أبا عمران الجوني قرأ هذه الآية: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ يَنبَغٍ مِّن رَّبِّي﴾، قال: على ثقة.

وعن ابن جريج قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ يَنبَغٍ مِّن رَّبِّي﴾، عرفته بها وعرفت بها أمره أن لا إله إلا هو.

قوله تعالى: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزِلْكُمْ مَّوَاهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ﴾، فعن قتادة، قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ يَنبَغٍ مِّن رَّبِّي﴾، إلى قوله: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزِلْكُمْ مَّوَاهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ﴾، أما والله لو استطاع نبي الله لزماها قومه، ولكنه لم يملك تلك ولم يملكه. قوله: ﴿إِن أَجْرَىٰ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾، فعن مجاهد: ﴿إِن أَجْرَى﴾: جزائي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مُّلْكُوا رَبِّهِمْ وَلِكَيْتَ أَرْنَكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾، فعن سعيد، في قوله: ﴿إِنَّهُمْ مُّلْكُوا رَبِّهِمْ وَلِكَيْتَ أَرْنَكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾، قال: الذين شروا أنفسهم لله وطمنوها على الموت.

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، فعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قول الله: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾، قال: حقرتموهم. قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾، فعن مجاهد قوله: ﴿جَدَلْتَنَا﴾ ماديتنا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾، فعن ابن عباس ؓ في قوله: ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾، قال: بمسابقين.

قوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِن أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فعن أبي العالية ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، قال: إليه يرجعون بعد الحياة.

قوله تعالى: ﴿إِجْرَامِي﴾، فعن قتادة، في قوله تعالى: ﴿فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ يقول: فعلي عملي.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾، فعن قتادة، قوله: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾، أي: مما تعملون.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا نَبْتِيسَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، فعن قتادة قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، وذلك حين دعا عليهم نوح ﷺ فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾، فعن محمد بن كعب قال: لما استنقذ الله تعالى من أصلاب الرجال وأرحام النساء كل مؤمن ومؤمنة قال يا نوح: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا نَبْتِيسَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا نَبْتِيسَ﴾، فعن مجاهد قوله: ﴿فَلَا نَبْتِيسَ﴾: فلا تحزن، وعن ابن عباس ؓ قوله: ﴿فَلَا نَبْتِيسَ﴾، يقول: لا تحزن ولا تيأس.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعَ الْفُلْكَ﴾، فعن ابن عباس قوله: ﴿وَأَصْنَعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾، وذلك أنه لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله ﷻ إليه أن يصنعها على مثل جؤجؤ الطائر.

قوله تعالى: ﴿الْفُلْكَ﴾، فعن أبي صالح في قوله: ﴿الْفُلْكَ﴾، قال: سفينة نوح.

قوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، وعن ابن عباس: ﴿وَأَصْنَعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قال: بعين الله ووحيه.

قوله تعالى: ﴿وَوَحَيْنَا﴾، فعن مجاهد قوله: ﴿وَوَحَيْنَا﴾، كما نأمرك، وعن عطاء الخراساني في قوله: ﴿وَوَحَيْنَا﴾، أي: بوحى الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾، وعن قتادة قوله: ﴿وَلَا

تُخْطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَيْهِمْ مَغْرُقُونَ ﴿١٠٠﴾، قال: نهى الله ﷻ نوحا ﷺ أن يراجعه في أحد.

قوله تعالى: ﴿وَصَنَعَ الْفُلْكَ﴾، فعن كعب الأحبار أنه قال: لما استنفذ الله من في الأصلاب والأرحام من المؤمنين والكافرين أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فاصنع الفلك قال: يا رب ما أنا بنجار قال بلى فإن ذلك بعيني خذ القدوم فجعلت يده لا تخطئ فجعلوا يمرون به ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي قد صار نجارا فعملها أربعين سنة.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾، يقال: الذين يسخرون من الناس في الدنيا ادخلوا الجنة فإذا آتوها ردوا وقيل لهم: نسخر بكم كما كنتم تسخرون بالناس في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، فعن عكرمة، في قوله: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، قال: الغرق قوله تعالى: ﴿وَيَحُلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، عن أبي مالك قوله: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، يعني: دائما لا ينقطع، وعن عكرمة: ﴿وَيَحُلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، قال: جهنم.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، فعن مطرف بن عبد الله بن الشخير في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ﴾، قال: كانت علامة بينه وبين ربه إذا رأيت التنور يفور بالماء فاحمل فيها من كل زوجين اثنين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾، عن قتادة، قال: ركب في السفينة في عشر خلت من رجب ونزل عنها في عشر خلت من المحرم فصام هو وأهله من الليل إلى الليل.

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، عن أبي الشعثاء جابر بن زيد قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، قال: اسم الله الأعظم هو الله، ألا ترى أنه في جميع القرآن يبدأ قبل كل اسم.

قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ بَجَرِّهَا وَمُرْسِنَهَا ﴾، فعن الضحاك، في قوله: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ بَجَرِّهَا وَمُرْسِنَهَا ﴾، قال: كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله مجراها جرت، وإذا أراد أن تقف، قال: بسم الله مرساها وقفت.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، فعن سعيد، بن جبير، قوله: ﴿ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، لما كان منهم في الشرك، رحيم بهم بعد التوبة.

قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، فعن مقاتل بن حيان، قوله: الظالمين يعني: المشركين.

قوله تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾، فعن الحسن في قوله: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾، وإنك قد وعدتني أن تنجي لي أهلي وإن ابني من أهلي.

وعن عاصم الجحدري يقول في قول الله ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾، قال: كان ابن عباس يحلف بالله إنه لابنه.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾، فعن عبد الرحمن بن زيد يقول في قول الله: ﴿ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾، قال: بالحق.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَنْتُحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾، وفيها وجهان:

الوجه الأول: عن ابن عباس، قوله: ﴿ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾، ولو كان من أهلك لنجيته لك كما أنجيتك ولكنه عمل غير صالح.

وعن الضحاك: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾، يقول: ليس من أهلك ولا ابنك ولا بدينك ولا ممن وعدتك أن أنجي من أهلك.

والوجه الثاني: عن الحسن في قوله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾، قال: لم يكن أبيه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾، وفيها وجهان:

الوجه الأول: من قرأ: ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، فعن ابن عباس يعني عمل غير صالح قال: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية، قال عكرمة: في بعض الحروف: أنه عمل غير صالح قال: والخيانة تكون على غير باب، وعن سعيد، بن جبير يقرأ هذا الحرف آية: عمل غير صالح، قال: معصية نبي الله وإنه لأمه.

الوجه الثاني: عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، قال: إن نساء الأنبياء لا يزينن وكان يقرأها: ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، قال: يقول: مسألتك إياي يا نوح ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، لا أرضاه لك.

قوله: ﴿فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، وعن مجاهد قوله: ﴿فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، قال الله لنوح إنه ليس بابنه.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ﴾، فعن قتادة، قال: هبط إلى الأرض يوم عاشوراء وصام نوح ﷺ ومن معه من المغرب إلى المغرب.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول في قول الله: ﴿أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾، قال: هبطوا والله عنهم راض، هبطوا بسلام من الله، كانوا أهل رحمته من أهل ذلك الدهر. وعن الحسن يقول في قوله: ﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِ مِمَّنْ مَعَكَ﴾، قال: فأنجى الله نوحا ﷺ والذين معه وأهلك المتمرعين، ثم استقر الأنبياء هود وشعيب وصالح ﷺ وأهلك المتمرعين.

وعن الضحاك، في قوله: ﴿بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِ مِمَّنْ مَعَكَ﴾، يعني: أما ممن معك، يعني: ممن لم يولد قد مضى لمن سبق كلام الله السعادة وأما من سبق له في قضاء الله وكلمته الشقوة فيمتنعهم قليلا ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِ مِمَّنْ مَعَكَ﴾، فعن محمد بن كعب قال: ﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِ مِمَّنْ مَعَكَ﴾، قال: فما بقي مؤمن ولا مؤمنة إلا دخل في ذلك السلام وفي تلك البركات إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَأُمُّ سَنَمِيعَهُمْ﴾، وعن الضحاك، في قوله: ﴿وَأُمُّ سَنَمِيعَهُمْ﴾، يعني: متاع الحياة الدنيا.

عن السدي، قوله: ﴿وَأُمُّ سَنَمِيعَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال: هؤلاء الأمم من أبناء من كان في السفينة مثل عاد وثمود وتلك القرون.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قول الله: ﴿وَأُمُّ سَنَمِيعَهُمْ﴾، ثم أخرج منهم نسلا بعد ذلك أئما، منهم من رحم، ومنهم من عذب، قال: إنها افترت الأمم من العصاة التي أخرجت من الماء وسلمت.

وعن الحسن في قوله: ﴿يَنْفُخُ أَهْطَ بِسَلَمٍ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمُّ سَنَمِيعَهُمْ﴾، فما زال الله يأخذ لنا بسهمنا وحفظنا ويذكرنا من حيث لا نذكر أنفسنا كلما هلكت أمة خلصنا في أصلاب من نجوا بلطفه حتى جعلنا في خير أمة أخرجت للناس.

قوله: ﴿ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فعن محمد بن كعب، قوله: ﴿ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال: فدخل في ذلك البركة والسلام كل مؤمن ومؤمنة ودخل في ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة، وعن الضحاك، قوله: ﴿ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة.

قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، عن ابن عباس ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يقول: نكال موجه.

٣- وقال الإمام الماتريدي رحمته الله: وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ أخبر أنه أرسله إلى قومه، ولم يفهم منه الإرسال من مكان إلى مكان؛ وكذلك قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾^(١)، ولم يكن مجيئه من مكان إلى مكان، فهذا يدل أنه لا يفهم من ذكر المجيء الانتقال من مكان إلى مكان، وكذلك الإرسال.

(١) الآية: رقم ١٢٨ من سورة التوبة.

وقوله ﷺ: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: نذير لمن عصى بالنار وبعقابه بين الإنذار.
 وقوله ﷺ: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَمِّ﴾، أي: لا
 تجعلوا عبادتكم إلا لمعبود هو معبود بشهادة خلقتكم؛ لأن خلقتهم تشهد على أنه هو
 المستحق للعبادة، لا من تعبدون من الأصنام والأوثان.
 ويحتمل قوله: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، أي: وحدوا الله ولا تصرفوا الألوهية إلى
 غيره، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَمِّ﴾، أضاف الألم إلى اليوم واليوم
 ليس بمؤلم ولكنه والله أعلم أضاف إليه؛ لما فيه يؤلم، وهو كقوله: ﴿أَلَيْلَ سَكَنًا﴾^(١)،
 والليل لا يسكن ولا يوصف به، لكنه يسكن، فيه، وكذلك قال: ﴿وَالنَّهَارَ
 مُبْصِرًا﴾^(٢)، والنهار لا يبصر، لكنه يبصر فيه؛ فعلى ذلك قوله: ﴿يَوْمِ الْيَمِّ﴾، لما
 فيه يكون العذاب الأليم.

وقوله ﷺ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: الخوف في غيره لا يكون في الحقيقة خوفاً؛
 وكذلك الرجاء في غيره لا يكون في الحقيقة رجاء، وفي نفسه يكون في الحقيقة خوفاً
 ورجاء؛ لما يلحقه ضرر في نفسه أن جعل به ذلك لغيره، ويلحقه نفع فيكون الخوف
 في نفسه حقيقة خوف والرجاء حقيقة رجاء، وأما في غيره لما لا يلحقه ضرر وإن حل
 ذلك لغيره، ولا ينال من النفع في الرجاء إن نال ذلك الغير، لكنه يخرج على وجهين:
 أحدهما: على العلم، أي: إني أعلم أنه ينزل بكم العذاب؛ نحو قوله: ﴿وَإِنْ
 خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾^(٣)، أي: علمت، وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾، أي:
 فإن علمتم أن يضيعا حدود الله.

(١) الآية: رقم ٩٦ من سورة الأنعام.

(٢) الآية: رقم ٦٧ من سورة يونس.

(٣) الآية: رقم ٣٥ من سورة النساء.

والثاني: يخاف عليهم إشفاقاً منه؛ لأن الخلق جبلوا على أن يتألم بما يحل بغيره، حتى لا يكون في وسع بعض أن يروا ذلك في غيره، على هذين الوجهين: يخرج الخوف على غيره، وفي الخوف رجاء وفي الرجاء خوف؛ لأن الخوف إذا لم يكن فيه رجاء فهو إياس، وقال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١)، والرجاء إذا لم يكن فيه خوف فهو أمن قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢)، كذا.

وقوله ﷻ: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْزِلُوا بِأَدْبَارِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾، قيل: أشراف قومه وأئمتهم.

﴿مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾، وكذلك قال عامة القوم لرسولهم الذين بعثوا إليهم: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾^(٣)، أي: كان هذا احتجاجهم في رد الرسائل يحتجون على الرسل فيقولون والله أعلم: إن الرسل في الشاهد إنما يجيئون من عند المرسل، وأنتم نشأتم بين أظهرنا لم تأتونا من عند أحد في الظاهر، والرسول هو الذي يأتي من عند غير، ويكون للرسول خصوصية عند المرسل، ولا نرى لك خصوصية لا في الخلقة ولا في القدرة والمال وغيره، فكيف بعثتم إلينا رسلاً دون أن نبعث نحن إليكم رسلاً؛ إذ أنتم ونحن في الخلقة سواء وفي الأمور الظاهرة سواء؟! أو نحوه من الكلام، احتجاجوا على رسولهم في رد الرسالة؛ وكذلك كان عادة الكفرة يقولون للرسل إذا لم يأتهم بالحجة وأقيم عليهم نسبوا إلى السحر، ونسبوا الرسل أنهم بشر مثلهم، فجواب هذا كله ما ذكر: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ

(١) الآية: رقم ٨٧ من سورة يوسف.

(٢) الآية: رقم ٩٩ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ١٥ من سورة (يس).

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿١﴾، وما قال لهم نوح ﷺ: ﴿يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَيْتُكُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِي﴾ أي: آتاني رحمة من عنده، وجعل لي بينة وبرهانا على ما آتاني رحمة من عنده بمثل هذا يحتج عليهم.

ويقال أيضاً: إنكم لا تنكرون فضل الله وتخصيص بعض على بعض بما جعلكم أئمة ورؤساء بأمور الدنيا على غيرهم، فكيف تنكرون فضل الله وتخصيص بعض على بعض بفضل الدين والرسالة؟! وقوله: ﴿مَا نَزَّلْنَا إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَزَّلْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَبْذُوكَ بِالْأَرَائِ﴾: احتجوا أيضاً في رد الرسالة يقولون: إن الأراذل هم أتباع لكل من دعاهم وأهل طاعة لكل متبوع، فليس في اتباع الأراذل إياك والضعفاء دلالة ثبوت رسالتك؛ إذ هم يتبعون بلا دليل ولا حجة وهم فروع وأتباع للغير، ولم يتبعك أحد من الأصول.

لكن يقال: إن هؤلاء الأراذل لما اتبعوا الرسول ولم يتبعوا الأئمة والرؤساء الذين معهم الأموال والدنيا، ولم يكن في أيدي الرسل ذلك، ثم تركوا اتباع أولئك وفي أيديهم ما يدعوههم إليه واتبعوا الرسل دل أنهم إنما اتبعوا الرسل بالحجج والبراهين التي أقاموها عليهم أو نحوه.

والأراذل: قيل: هم السفهاء والضعفاء.

وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: أَرَادْنَا: شَرَارَنَا.

و﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾: قَالَ بَعْضُهُمْ: ظاهر الرأي، من قولك: بدالي ما كان خفياً.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾: خفيف الرأي لا يعرفون حقائق الأمور، إنما يعرفون ظواهرها، كأنهم يقولون: إنما اتبعك من كان خفيف الرأي وباده، لم يتبعك من يعرف حقائق الأمور والأصول.

وقد قرئ: ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾: بالهمز، وقد قرئ بغير همز، ومن قرأ بالهمز فهو: من الابتداء، أي: في أول الرأي وابتدائه لا ينظر في عواقب الأمور، ومن قرأ بغير همز فهو: من الظهور، أي: ظاهر الرأي على غير تفكر ونظر فيه.

وقوله ﷺ: ﴿ وَمَا نَزَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾، يحتمل هذا، أي: فضلا في الخلقة، أو في ملك أو مال ولا في شيء، لكن جواب هذا ما سبق.

وقوله ﷺ: ﴿ بَلْ نُنَظِّكُمُ كَذِبِينَ ﴾، هكذا كانت عادة الكفرة، يردون دلالات الرسل والحجج بالظن، ولم يردوا لحقيقة ظهرت.

وقوله ﷺ: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَعَائِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعِمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مَوَاهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾، أي: على بيان من ربي، أو على حجة من ربي وبرهان فيها آتاني من رحمته، والرحمة تحتمل: النبوة لأنهم كانوا ينكرون رسالته لما أنه بشر مثلهم، فكيف خص هو بها دونهم وهو مثلهم؟! فيقول: ﴿ وَعَائِنِي رَحْمَةً ﴾، أي: النبوة، وآتاني أيضًا على ذلك بينة وحجة.

وتحتمل الرحمة: الدين الذي كان يدعوهم إليه والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿ فَعِمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾، قرئ بالتخفيف والتشديد، أي: لبُست، أو التبس عليكم حيث أعرضتم عنه، ومن قرأ، بالتشديد: ﴿ فَعِمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾، يرجع إلى الأتباع والسفلة، أي: عميت عليهم القادة والرؤساء منهم ولُبُست، (فَعِمِّيَتْ) بالتخفيف، أي: التبس، وعمي على القادة والرؤساء.

وقوله ﷺ: ﴿ أَنْزِلُكُمْ مَوَاهَا ﴾، أي: أنوجبها عليكم، وهي التي ذكر أنه آتاها إياهم، أو: البينة التي ذكر أيضًا، أو: الدين الذي كان يدعوهم إليه، أي: لا نوجبها عليكم ولا نلزمها، وأنتم لها كارهون بلا حجة ولا برهان، (وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) أي: لا نلزمها لكم بلا حجة شتم أو أبيتهم ولكن بحجة، وفيه أن الدين لا يقبل بالإكراه.

وقوله ﷺ: ﴿ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجَرَىٰ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿١﴾، على تبليغ الرسالة إليكم، أو على إقامة الحجة على ما أدعي من الرسالة، أو على الدين الذي يدعوهم إليه، أي: لا أسألكم على ذلك أجراً، فلماذا تعرضون عما أدعوكم إليه وأقيم عليه عليكم ليكون لكم الاحتجاج أو الاعتذار؟! وكذلك يخرج قوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾^(١)، أي: لا تسألهم أجراً على ما تبليغه إليهم ويدعوهم إليه، فيمنعهم ثقل ذلك الغرم إجابته إياه، فعلى ذلك الأول: ذكر هذا؛ لأن ما يلحق الإنسان من الضرر إنما يمنعه عن الإذعان بالحق للخلق والإقبال إليه والقيام بوفائه، أو يمنع ذلك لما لا يتبين له الحق لئلا يكون لهم الاحتجاج والاعتلال عند الله وإن لم يكن لهم حجة؛ وكقوله: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^(٢)، ليس على أنه إذا سألهم على ذلك أجراً يكون لهم عذر في رد ذلك وترك الإجابة له؛ إذ الله أن يكلفهم الإجابة والطاعة له بالمال وبغير المال.

والثاني: بقوله: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه وأبلغكم إياه مالاً، مع حاجتي وقلة مالي، فيقع عندكم أنني أدعوكم إليه رغبة فيما في أيديكم من الأموال، أو لمنفعة نفسي، بل إنما أدعوكم إلى ما أدعوكم إليه لمنفعة أنفسكم.

وقوله ﷺ: ﴿إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾، أي: ما أجري إلا على الله في ذلك ليس عليكم. وقوله ﷺ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فيه دلالة أنهم كأنهم كانوا سألوا رسولهم أن يتخذ لهم مجلساً على حدة، ويفرد لهم ذلك دون الأراذل والضعفاء الذين اتبعوه ويطرد الضعفاء؛ وهو كقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾^(٣).

(١) الآية: رقم ٤٠ من سورة الطور.

(٢) الآية: رقم ١٦٥ من سورة النساء.

(٣) الآية: رقم ٥٢ من سورة الأنعام.

وقال أهل التأويل: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾، أي: ما أنا بالذي لا يقبل الإيمان من الأراذل والضعفاء عندهم؛ لقولهم حيث قالوا: ﴿ وَمَا نَزَلَكَ أَتَّبَعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ ﴾، لأنهم يقولون: اتبعوك الأراذل ظاهراً، وأما في الباطن فليسوا على ذلك؛ ولذلك قال: ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾، يعني: ما في قلوب السفلة فيقول: ما أنا بطارد الذين آمنوا ظاهراً الله أعلم بما في قلوبهم.

وقوله ﷺ: ﴿ إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ ﴾، يحتمل وجهين؛ الأول: أي: ملاقوا ربهم فيشكون مني إليه في رد إيمانهم، ويخاصمونني في ذلك ويطالبونني في طردى إياهم.

والثاني: أنهم ملاقوا ربهم بإيمانهم ظاهراً كان إيمانهم أو باطناً، أي: في أي حال هم يلاقون، ربهم فيجزئهم بما هم عليه؛ كقوله: ﴿ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾^(١).

وقوله ﷺ: ﴿ وَلَنِكَفَى أَرْبُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾، يحتمل: تجهلون ما أدعوكم إليه أو تجهلون في قولكم: إنهم إنما آمنوا واتبعوا في ظاهر الحال، وأما في السر فلا، أو تجهلون ما يلحقني في طردهم.

وقوله ﷺ: ﴿ وَيَقَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، أي: من يمنعني من عذاب الله، ﴿ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ﴾: على ما تدعونني إليه، أو: من يمنعني من عذاب الله إن لم أقبل منهم الإيمان ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾: أنه لا يسع لي ما تدعونني إليه من طرد هؤلاء أو رد إيمانهم، أو: أفلا تذكرون فتؤمنون.

وقوله ﷺ: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾، إِذْ لِمَنِ الظَّلِيمِينَ، يخرج على وجوه:

(١) الآية: رقم ١١٣ من سورة الشعراء.

أحدها: يقول: ليس عندي خزائن الله والسعة، فأبذل لكم لتؤمنوا رغبة في المال والسعة.

والثاني: يقول: ليس عندي سعة، فيقع عندكم أني أدعوكم إلى ما أدعوكم إليه افتعالا رغبة في المال على ما يفعل المفتعلون للرغبة في المال، ولكن لتعلموا أني مكلف في ذلك.

والثالث: يحتمل ما ذكرنا من أسئلة كانت منهم.

فقوله ﷺ: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾: هذا القول منه لهم يحتمل الوجهين:

أحدهما: أنه قال ذلك لهم على أثر أمور وأسئلة كانت منهم من نحو قولهم ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾^(١)، وقولهم لرسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ﴾^(٢) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٌ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ﴾^(٣) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۖ﴾^(٤) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِنَبًا نَقْرُوهُ ۖ﴾^(٥)، وأمثال ما كان منهم، فيقول لهم: ليس ذلك عندي وبيدي، إنما ذلك عند الله وبيده.

﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ يحتمل: أن يكونوا سألوه أن يخبرهم عن أمور تستقبلهم قبل أن تستقبلهم، إن كان شرا فيعدوا له في دفعه، وإن كان منافع فيستقبلوا لها ويتهيئوا، فيقول لهم: هذا غيبٌ وأنا لا أعلم الغيب إنما العلم في ذلك إلى الله، ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾: أعلم أخبار السماء والأمور التي فيها، إنما أنا بشر مثلكم.

(١) الآية: رقم ١٢ من سورة هود.

(٢) الآيات: رقم ٩٠-٩٣ من سورة الإسراء.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، أي: مفاتيح الله في الرزق، فهذا كأنهم سألوه السعة فيتبعونه، فيقول: ليس عندي ذلك.

ويحتمل أن: يكون قال لهم الرسول هذا لدفع الشبهة عنهم، وذلك أن من الكفار من اتخذ الرسول إلها فعبدوه بعدما عاينوا أنه من البشر، ومنهم من قال: إنه ابن الله، ومنهم من قال: إنه ملك، وكانوا يعبدون الملائكة وكانوا يخبرونهم عن أشياء غابت عنهم، فظنوا أنه إنما علم ذلك لأنه إله، فيقول لهم ذلك ليدفع عنهم تلك الشبهة ويتبرأ من ذلك؛ ولذلك قال عيسى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾^(١)، هو ﷺ كان يعلم في نفسه أنه عبد الله، ولكن يقول لهم لئلا ينسبوه إلى الألوهية والربوبية على ما نسبوا إليه، فأقر بالعبودية له، والله أعلم بذلك.

وقال بعض أهل التأويل: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، أي: مفاتيح الله بأنه يهدي السفلة دونكم، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، أي: لا أقول إن عندي علم ذلك؛ أن الله يهديهم وهم مؤمنون في السر؛ وذلك كقوله: ﴿وَمَا عَلِمَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢)، وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾، أي: من الصدق.

﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾، أي: إنما أنا بشر لقولهم: ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَزَّلَكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾، ثم قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾، قيل: الذين حقرتموهم يعني السفلة والأتباع، وقال ابن عباس رضي الله عنه: الذين لم تأخذهم أعينكم ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾، يعني: إيماناً الله أعلم بما في أنفسهم من الصدق، ﴿إِنِّي إِذْ أَلَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لهم إن لم أقبل منهم الإيمان، أو طردتهم، والله أعلم.

(١) الآيتان: رقم ٣٠-٣١ من سورة مريم.

(٢) الآية: رقم ١١٢ من سورة الشعراء.

وقوله ﷺ: ﴿ قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا ﴾، قالوا ذلك: لأنه قد كان طال عمره وهو بين أظهرهم ويدعوهم إلى الإيمان، فأكثر حجاجه ومجادلته إياهم، فقالوا: ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾، وكان يعدهم العذاب إن لم يحييهم؛ كقوله: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾، وما كان وعد لهم في غير آية من القرآن إن لم يحييهم فقالوا: ﴿ فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب، فقال: ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ﴾، أي: ليس لي إتيان ذلك إنما ذلك إلى الله، إن شاء عجل وإن شاء أخر إلى ما بعد الموت؛ وهو كقول رسول الله لقومه: ﴿ (١) ﴾، وقوله ﷺ: ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي: لا تعجزون الله عن تعذيبكم فتفتوتون عنه، وقيل: وما أنتم بسابقي الله بأعمالكم الخبيثة حتى يجزيكم بها؛ وهو واحد، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، تأويله والله أعلم: لا ينفعكم دعائي إلى ما به نجاتكم إن كان الله يريد أن يغويكم ثم اختلف في وقت ذلك: قَالَ بَعْضُهُمْ: لا ينفعكم نصحي عند إقبال العذاب عليكم؛ إن كان في حكم الله ألا تكونوا من الغاوين في ذلك الوقت. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قوله: ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾، أي: لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يعذبكم في نار جهنم، ويقول: الغي: العذاب؛ كقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾، أي: عذاب جهنم ونحوه من الكلام. وفي قوله: ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ دلالة تعليق الشرط على الشرط.

وقوله ﷺ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَخْتَرُمُونَ ﴾، أي: بل يقولون إنه افتراه من عند نفسه، قل: ﴿ إِنْ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي ﴾

(١) الآية: رقم ٥٨ من سورة الأنعام.

وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْحَرُمُونَ ﴿١﴾، اختلف فيه؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَالَ قَوْمُ نُوحٍ لِنُوحٍ ﷺ: إِنَّهُ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ رَسُولٌ إِلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ دَعَائِهِ قَوْمَهُ إِلَى دِينِ اللَّهِ، فَقَالُوا لَهُ: إِنَّهُ افْتَرَاهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ قَوْلُ قَوْمِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالُوا: افْتَرَى مُحَمَّدٌ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ نَفْسِهِ لَيْسَ هُوَ مِنَ اللَّهِ عَلَى مَا يَزْعَمُ، وَهُوَ مَا قَالَ فِي صَدْرِ السُّورَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١)، إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ، فَعَلَى ذَلِكَ هَذَا هُوَ قَوْلُهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّهُ افْتَرَى هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي يَقُولُ هُوَ مِنَ اللَّهِ مِنْ نَفْسِهِ فَقَالَ: ﴿ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ، فَعَلَى إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْحَرُمُونَ ﴾، أَي: إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَى جَرْمِ افْتِرَائِي وَجَزَائِهِ.

﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْحَرُمُونَ ﴾، معناه والله أعلم أَي: لَا تَتَوَاضَعُونَ أَنْتُمْ بِجَرْمِ افْتِرَائِي إِنْ افْتَرَيْتُهُ، وَأَنَا لَا أُؤَاخِذُ بِإِجْرَامِكُمْ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ (٢)، وَكَقَوْلِهِ: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٣)، فَعَلَى ذَلِكَ إِجْرَامِي، وَأَمَكُنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَوْلُ لَهُمْ لَمَّا أَيْسَ مِنْ إِيْمَانِهِمْ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ (٤)، لَمَّا أَيْسَ عَنْ إِيْمَانِهِمْ، وَانْقَطَعَ طَمَعُهُ وَرَجَاؤُهُ عَنْ إِسْلَامِهِمْ، قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ أَنْ لَا مُحَاجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ بَعْدَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله ﷺ: ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ ﴾، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنْ نُوحًا ﷺ لَمْ يَدْعُ عَلَى قَوْمِهِ بِالْهَلَاكِ مَا دَامَ يَرْجُو وَيَطْمَعُ مِنْ قَوْمِهِ الْإِيْمَانَ، فَإِذَا أَيْسَ وَانْقَطَعَ رَجَاؤُهُ وَطَمَعُهُ فَحِينَئِذٍ دَعَا عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ

(١) الآية: رقم ١٣ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٥٤ من سورة النور.

(٣) الآية: رقم ٥٢ من سورة الأنعام.

(٤) الآية: رقم ١٥ من سورة الشورى.

عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا^(١)، أي: أحداً، ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوكَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا^(٢)﴾، وعرف الإيلاس عن إيمانهم بقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، وكذلك سائر الأنبياء والرسل لم يؤذن لهم بالدعاء على قومهم بالهلاك والخروج من بين أظهرهم، ما داموا يرجون ويطمعون منهم الإيمان والإجابة لهم، فإذا أيسوا وانقطع رجاءهم وطمعهم عن ذلك، فعند ذلك أذن لهم بالدعاء عليهم بالهلاك والخروج من بين أظهرهم وعلى ذلك عوتب يونس عليه السلام بالخروج من بين أظهرهم قبل أن يؤذن له بالخروج من بينهم.

وقوله ﷺ: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، قيل: لا تحزن بما كانوا يفعلون، فهو يحتمل وجهين: أحدهما: لا تحزن بكفرهم بالله وتكذيبهم إياك، ليس على النهي عن الحزن في ذلك، بل على دفع الحزن عنه والتسلي به؛ لأن الأنبياء ﷺ كانوا يحزنون بكفر قومهم بالله وجعلهم أنفسهم أعداء له؛ كقوله لرسول الله ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ^(٣)﴾، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ^(٤)﴾، وأمثاله، كان الأنبياء ﷺ أشد الناس حزناً بكفر قومهم بالله وتكذيبهم آياته وأشدّهم رغبة في إيمانهم، وكان حزنهم لم يكن على هلاكهم ألا ترى أن نوحاً عليه السلام دعا عليهم بالهلاك وكذلك سائر الأنبياء ﷺ دل أن حزنهم كان لمكان كفرهم بالله وتكذيبهم آياته، لا لمكان هلاكهم إشفاقاً على أنفسهم.

والثاني: قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، يحتمل: أنهم كانوا هموا بقتله والمكر به، فقال: لا تحزن بما كانوا يسعون في هلاكك فإني كافيتهم، قال أبو عوسجة: قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ هو من الحزن، يقال: ابتأس يبتأس ابتئاساً.

(١) الآية: رقم ٢٦ من سورة نوح.

(٢) الآية: رقم ٢٧ من سورة نوح.

(٣) الآية: رقم ٣ من سورة الشعراء.

(٤) الآية: رقم ٨ من سورة فاطر.

قال الكسائي أيضاً: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾، أي: لا تحزن هو من البأس، يقال: لا تبتس بهذا الأمر.

وقوله ﷺ: ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾، قال بعض أهل التأويل: ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾، أي: بأمرنا ووحينا، وقال بعضهم: بمنظرنا ومرآنا، ولكن عندنا يحتمل وجهين: أحدهما: قوله: ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾، أي: بحفظنا ورعايتنا، يقال: عين الله عليك أي حفظه عليك، ثم لا يفهم من قوله: ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾، نفس العين على ما لا يفهم من قوله: ﴿ ذَلِكَ يَمَّا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ ﴾^(١)، و﴿ وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾^(٢)، ولكن ذكر الأيدي لما في الشاهد إنها يقدم باليد ويكتسب باليد؛ فعلى ذلك ذكر العين لما بالعين يحفظ في الشاهد.

والثاني: قوله: ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾، أي: بإعلامنا إياك؛ لأنه لو لا تعليم الله إياه اتخاذ السفينة ونجرتها لم يكن ليعرف أن كيف يتخذ وكيف ينجر، إنما عرف ذلك بتعليم الله إياه، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾: هذا يحتمل وجهين. يحتمل أي: لا تشفع إلي في نجاة الذين ظلموا فإنهم مغرقون في حكم الله.

والثاني: لا تخاطبني في هداية الذين هم في حكم الله أنهم يموتون ظلماً، أي: لا تسألني إيمان من في علم الله أنه لا يؤمن، وفيه نهي السؤال عما في علم الله أنه لا يكون؛ لأنه إذا أخبر أنه لا يكون أو لا يفعل فإذا سأله كان يسأله أن يكذب خبره الذي أخبر أنه لا يكون، وفيه أنه إذا أراد الله إيمان أحد آمن، ومن لم يرد إيمانه لم يؤمن.

وقوله ﷺ: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾، الملاءم: الأشراف والرؤساء من قومه.

(١) الآية: رقم ١٨٢ من سورة آل عمران.

(٢) الآية: رقم ٣٠ من سورة الشورى.

﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾: هم الذين سخروا منه، قَالَ بَعْضُهُمْ: سخرتهم منه أن قالوا: صار نجارا بعدما ادعى لنفسه الرسالة.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سخرتهم منه لما رأوه يتخذ الفلك، ولم يكن هنالك بحر ولا واد ولا مياه جارية، إنما هي آبار لهم فقالوا: يتخذوا السفينة ليسيرها في البراري والمفاوز ونحوه من الكلام.

وقال: ﴿إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ﴾ وقالوا: سخرته منهم أنه إذا ركبوا الفلك رأوهم يغرقون، قالوا: كنت على حق وعلى هدى ونحوه من الكلام، لكن هذا لا نعلمه ولا حاجة لنا إلى معرفة سخرتهم أن كيف كانت سوى أن فيه سخروا منه. ويحتمل قوله: ﴿فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ﴾ أي: نجزيهم جزاء سخرتهم.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، هو: وعيد، أي: سوف تعلمون أن حاصل سخرتكم رجع إليكم؛ كقوله: ﴿يُخْذِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾^(١)، أي: سوف تعلمون إذا نجونا نحن، وغرقتم أنتم من ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، أي: عذاب يفضحه ويهلكه وهو الغرق. وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، أي: عذاب يدوم.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، هو عذاب الآخرة؛ كقوله: (أَغْرَقُوا فَأُذِلُّوا نَارًا)^(٢).

وأما قول أهل التأويل: إن سفينة نوح ﷺ كان طولها كذا وعرضها كذا، فليس لنا بذلك علم ولا حاجة لنا إلى معرفة ذلك، فإن صح ذلك فهو ما قالوا، وقولهم كان لها ثلاثة أبواب وثلاثة أطباق، فذلك أيضًا لا نعرفه، ولا قوة إلا بالله.

(١) الآية: رقم ٩ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ٢٥ من سورة نوح.

فقوله ﷺ: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾، قوله: ﴿ جَاءَ أَمْرُنَا ﴾، أي: جاء وقت أمرنا بالعذاب الذي استعجلوه؛ كقولهم: ﴿ فَأَنبَأِي مَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾، وكذلك كانت عادة الأمم السالفة استعجال العذاب من رسلهم، وسمي العذاب أمر الله؛ لما لا صنع لأحد فيه، وكذلك المرض سمي أمر الله؛ لما لا صنع لأحد من الخلائق فيه، وسمى الصلاة أمر الله؛ لما بأمره يصلي.

وقوله ﷺ: ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾، قال أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾، يقال: فار الماء أي خرج يفور فوراً، أي: غلى كما تغلي القدر وتصديقه قوله: ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ (٧) تَكَادُ تَمِيزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴿ (١) ﴾، قالوا: فار، أي: خرج وظهر.

والتنور: اختلف فيه؛ قَالَ بَعْضُهُمْ: التنور هو وجه الأرض، قالوا: إذا رأيت الماء خرج ونبع وظهر على وجه الأرض فاركب.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: التنور: هو التنور الخابزة التي يخبز فيها، قالوا: إذا رأيت الماء نبع من تنورك فاركب، قالوا: كان الماء ينزل من السماء وينبع من الأرض؛ كقوله: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ﴾ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿ (٢) ﴾، لكن جعل علامة وقت ركوبه السفينة هو خروج الماء من الأرض ونبعه منها.

وقوله ﷺ: ﴿ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾، يحتمل هذا وجهين: يحتمل: إن كنا قلنا له إذا فار التنور: احمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ.

ويحتمل: إن قلنا له وقت فور الماء من التنور: احمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ.

ويحتمل وقوله ﷺ: ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾، الزوج هو اسم فرد لذي شفع ليس هو اسم جمع حتى يقال عند الاجتماع ذلك، ولكن ما ذكرنا أنه اسم فرد لذي

(١) الآيتان: رقم ٧-٨ من سورة الملك.

(٢) الآيتان: رقم ١١-١٢ من سورة القمر.

شفع كان الإناث صنفاً وزوجاً والذكور صنفاً وزوجاً، فيكون الذكر والأنثى زوجين، والله أعلم.

وقوله: ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، أي: من ذكر وأنثى ثم يحتمل زوجين من ذوي الأرواح التي تكون لهم النسل؛ لئلا ينقطع نسلهم، ويحتمل ذوي الأرواح وغيره، والله أعلم. وقوله ﷺ: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، قَالَ بَعْضُهُمْ: قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾، أراد أهله والذين آمنوا معه، يقول: احمل فيها من كل زوجين اثنين، واحمل أهلك أيضاً إلا من قد سبق عليه القول، أي: إلا من كان في علم الله أنه لا يؤمن، أو: إلا من كان في علم الله أنه يهلك.

قَالَ بَعْضُهُمْ: قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾، أراد أهله خاصة، ثم استثنى من سبق عليه القول، وهو ابنه وزوجته وهما من أهله، ألا ترى أنه ذكر من بعد من آمن معه وهو قوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ﴾، أي: احمل أهلك الذين آمنوا معك إلا من سبق عليه القول من أهلك وغيره أنه في الهالكين.

أو: يقول: إلا من سبق عليه القول أنه لا يؤمن، فهذا يدل أن في أهله من كان ظالماً كافراً حيث استثنى من أهله، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، يذكر هذا والله أعلم تذكيراً لرسول الله ﷺ مننه ونعمه التي أنعمها عليه؛ لأن نوحاً ﷺ مع طول مكثه بين أظهر قومه وكثرة دعائه قومه إلى دين الله ومواعظه لم يؤمن من قومه إلا القليل منهم؛ ورسول الله ﷺ مع قلة مكثه وقصر عمره آمن من قومه الكثير يعرفه نعمه عليه، وفيه دلالة رد قول من يقول: إن المواعظ إنما تنفع، الموعوظ على قدر استعمال المواعظ، وليس هكذا ولكن على قدر قبول الموعوظ إياها وقدر الإقبال إليها؛ لأن نوحاً ﷺ كان أشد الناس استعمالاً للمواعظ وأكثرهم دعاء، ثم لم يؤمن من قومه إلا القليل؛ دل أنه ليس لما فهموا، ولكن لما ذكرنا.

وأما ما ذكر أهل التأويل أنه حمل في السفينة حبات العنب، فأخذه إبليس فلم يعطه إلا أن أعطى له الشركة، فذلك شيء لا علم لنا به، فإن ثبت ذلك فيكون فيه دلالة أن ليس له في سائر الأنبذة والأشربة نصيب، إنما يكون له فيما يخرج من العنب، وتقدير الثلث والثلثين إنما يكون في عصير العنب خاصة ليس في غيره، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، يحتمل قوله: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبُهَا ﴾، أنه لما قال لهم نوح: ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا ﴾، قولوا: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبُهَا وَمُرْسَاهَا ﴾، وهو كقول الناس باسم الله من أوله على ما يقال، ويذكر اسم الله في افتتاح كل أمر وكل عمل من ركوب ونزول وغيره.

ويحتمل قوله: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبُهَا وَمُرْسَاهَا ﴾، أي: بالله مجراها ومرساها، أي: به تجري وبه ترسو، وأنه ليس كسائر السفن التي بأهلها تجري وبهم تقف، وهم الذين يتولون ويتكلفون إخراجها ووقوفها، وأما سفينة نوح كانت جريتها بالله وبه رسوها لا صنع لهم في ذلك، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، هو ظاهر لمن آمن به وصدق رسوله ينجيه من الغرق والهلاك.

وقوله ﷺ: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾، هذا يدل على ما ذكرنا أنها كانت بالله تجري وبه ترسو؛ حيث لم يخافوا الغرق مع ما كان من الأمواج، وأما سائر السفن فإن أهلها خافوا من أمواجها، لما كانوا هم الذين يتولون ويتكلفون إخراجها ووقفها، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾، هذا يدل على أنها كانت آية؛ لأن الأمواج تمنع من جريان السفينة وسيرها، فإذا أخبر أنها لم تمنع هذه من جريانها دل أنه أراد أن تصير آية لهم.

وقوله ﷻ: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾، يحتمل قوله: ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾، أي: بمعزل من نوح، أو كان بمعزل من السفينة، أو ما كان.

وقوله ﷻ: ﴿يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾، يحتمل: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾، لتغرق، أو لا تكن مع الكافرين لنعم الله.

وقوله ﷻ: ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾، أي: سأنضم إلى جبل، ﴿يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، ظن المسكين أن هذا الماء كغيره من المياه التي يسلم منها بالالتجاء إلى الجبال، فأخبر ﷻ أنه: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، أي: من عذاب الله، سمي عذابه أمر الله لما ذكرنا أمر الله أمر تكوين؛ لأنه هو النهاية في الاحتجاج لقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١)، وهو كما يسمى البعث لقاء الله لأنه هو النهاية في الاحتجاج على من ينكر البعث؛ فعلى ذلك سمي عذابه أمر الله وهو أمر تكوين؛ لأنه هو النهاية في الاحتجاج على من ينكر العذاب.

وقوله ﷻ: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ بهدايته إياه، أو إلا من سبقت له الرحمة من الله بالهداية له والنجاة.

وقوله: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾: يحتمل قوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ بين نوح وبين ابنه، ويحتمل: بينه وبين السفينة.

وقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾، يحتمل: صار من المغرقين، ويحتمل كان في علم الله أنه يغرق، وهذا يدل على أن قوله في إبليس: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢)، أنه يخرج على وجهين:

(١) الآية: رقم ٤٠ من سورة النحل.

(٢) الآية: رقم ٣٤ من سورة البقرة.

أحدهما: أنه كان في علم الله أنه يكفر، أو صار من الكافرين كما ذكر، وكان من المغرقين إذ لم يكن من المغرقين في الأزل.

فقوله: ﴿ وَقِيلَ يَتَّارُضْ أَبْلِغِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، قال بعضهم: عاد كل ماء إلى من حيث خرج، ما أرسل من السماء عاد إليها، وما خرج من الأرض غاض في الأرض وغار فيها. وقال بعضهم: لا ولكن أمسك السماء من إرساله، وأمسك الأرض من نبعه.

وقوله ﷺ: ﴿ وَقِيلَ يَتَّارُضْ أَبْلِغِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِي ﴾، ليس على القول لهم، ولكن الله أمسكهما من إرساله ونبعه، ويحتمل: على القول منه لهم باللطف جعل فيهم ما يفهم هذا.

﴿ وَغِيضَ الْمَاءِ ﴾، أي: غار الماء في الأرض.

﴿ وَفُضِيَ الْأَمْرُ ﴾: بهلاك قوم نوح، ويحتمل: على التكوين على ما ذكر، ﴿ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ أي: استقرت على الجودي وهو جبل، ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، أي: هلاكاً، ويحتمل: بعداً للقوم الظالمين من رحمة الله.

وقوله ﷺ: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾، فقال: ﴿ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَعْطَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾.

هذا والله أعلم كان عند نوح ﷺ أن ابنه كان على دينه لما لعله كان يظهر الموافقة له، وإلا لا يحتمل أن يقول: إن ابني من أهلي ويسأله نجاته، وقد سبق منه النهي في سؤال مثله حيث قال: ﴿ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَفُونَ ﴾، ولا يحتمل: أن يكون يعلم أنه على غير دينه، ثم يسأل له النجاة بعدما نهاه عن المخاطبة في الذين ظلموا، فقال: إنه ليس من أهلك في الباطن والسر، وإلا خرج هذا القول مخرج

تكذيب رسوله، لكن الوجه فيه ما ذكرنا أنه كان في الظاهر عنده أنه على دينه لما كان يظهر له الموافقة، وكان لا يعرف ما يضمرة فسأله على الظاهر الذي عنده؛ وكذلك أهل النفاق كانوا يظهرُونَ الموافقة لرسول الله ﷺ وأصحابه ويضمرون الخلاف له، وكانوا لا يعرفون نفاقهم إلا بعد إطلاع الله إياهم؛ فعلى ذلك نوح كان لا يعرف ما كان يضمرة هو لذلك خرج سؤاله فقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذي وعدت النجاة لهم، أو ليس من أهلك؛ لأنه لم يؤمن بي ولم يصدقك فيما أخبرت أنه عمل غير صالح.

روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرأ: (عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) بغير تنوين.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأه: (عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) بالتنوين.

فمن قرأ بالنصب: (عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)، أي: أن ابنك عمل غير صالح، ومن قرأه: (عَمَلٌ)، يكون معناه: والله أعلم أن سؤالك عمل غير صالح وكلا القراءتين يجوز أن يصرف إلى ابنه، أي: أنه عمل غير صالح وهو عمل الكفر، (عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)، أي: الذي كان عليه عمل غير صالح، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، هذا في الظاهر يخرج على التكذيب له، لكن الوجه فيه أنه من أهلك على ما عندك، وليس هو من أهلك فيما بشرتك من نجاة أهلك.

وقوله: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾: يحتمل وجهين:

الأول: يحتمل: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ﴾ بإغراق الظلمة (حق).

والثاني: يحتمل: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ﴾ بنجاة المؤمنين ﴿الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾.

وقوله ﷺ: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، يحتمل هذا: نهيا عن سؤال ما لم يؤذن له من بعد؛ لأن الأنبياء ﷺ كانوا لا يسألون شيئاً إلا بعد الإذن لهم في السؤال، وإن كان يسع لهم السؤال، أو أن يكون عتاباً لما سبق، والأنبياء ﷺ كانوا يعاتبون في أشياء

يجل لهم ذلك؛ نحو قوله لرسول الله ﷺ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾^(١)، وقد كان له ﷺ الأمر بالقعود والنهي عن الخروج بقوله: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾^(٢)، ونحوه.

وقوله ﷺ: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، هو كما نهى رسول الله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣)، وأمثاله، وإن كان معلوماً أنه لا يكون من الجاهلين، وهو ما ذكرنا أن العصمة لا تمنع النهي عن الشيء، بل بالنهي تظهر العصمة.

وقوله ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾، إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ولا أعلم بالإذن في السؤال هذا محتمل، وقوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾، أي: إن لم ترحمني بالعصمة من العود إلى مثله أكن من الخاسرين، هذا يشبه أن يكون، ويحتمل أن يكون ذكر هذا لما لا يستوجبون المغفرة والرحمة إلا برحمة الله وفضله، على ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله»، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾، هو طلب المغفرة بالكنية، وهو أبلغ وأكبر من قوله: اللهم اغفر لي؛ لأن في قوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾، قطع رجاء المغفرة من غيره، وإخبار ألا يملك أحد ذلك، وليس في قوله: اغفر لي قطع كون ذلك من غيره؛ لذلك كان ذلك أبلغ من هذا، وكذلك سؤال

(١) الآية: رقم ٤٣ من سورة التوبة.

(٢) الآية: رقم ٨٣ من سورة التوبة.

(٣) الآية: رقم ٣٥ من سورة الأنعام.

(٤) الحديث: رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المرضى باب تمنى الموت ج ١٠ ص ١٣٢ برقم ٥٦٧٣، والإمام مسلم بشرح النووي كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله ج ٩ ص ٣٩٣٥ ورقم ٦٩٨٣.

آدم وحواء ﷺ المغفرة حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١)، هو سؤال بالكنية فهو أبلغ في السؤال.

وقوله ﷺ: ﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَهْبِطِ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قَالَ بَعْضُهُمْ: أي: أنزل من الجودي إلى قرار الأرض، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قوله: ﴿أَهْبِطِ﴾، أي: انزل وأقم على المقام والمكث في المكان، ليس على الهبوط من مكان مرتفع إلى مكان منحدر.

وقوله ﷺ: ﴿أَهْبِطِ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾، السلام هو: أن يسلم عن الشرور والآفات، والبركة هي: نيل كل خير وبر على غير تبعة، ثم هما في التحصيل واحد؛ لأنه إذا سلم عن كل شر وآفة نال كل خير وبر، وإذا نال كل خير سلم عن كل شر وآفة، هما في الحقيقة واحد لكنهما في العبارة مختلف، وهو كالبر والتقوى من العبد، فالبر هو: كسب كل خير، والتقوى هي: اتقاء كل شر ومعصية، هما في العبارة مختلفان وفي الحقيقة واحد، لأنه إذا اتقى كل شر ومعصية عمل كل خير وبر، وإذا كسب كل خير وبر اتقى كل معصية وشر؛ وعلى ذلك يخرج الشكر والصبر، فالصبر هو: كف النفس عن كل مأثم، والشكر هو: استعمال النفس في كل طاعة، هما أيضًا في العبارة مختلفان وفي الحقيقة واحد؛ لأنه إذا كف نفسه من كل مأثم استعملها في الطاعة، وإذا استعملها في الطاعة كفها عن كل مأثم ومعصية؛ وعلى ذلك يخرج الإسلام والإيمان: فالإسلام هو: تسليم النفس لله خالصة سالمة لا يجعل لغيره فيها حقًا، والإيمان هو: أن يصدق الله بالربوبية في نفسه وفي كل شيء، وهما في الحقيقة واحد وفي العبارة مختلفان؛ لأنه إذا جعل نفسه وكل شيء سالما لله تعالى، أقر بالربوبية له في نفسه وفي كل شيء، وإذا صدقه وأقر له بالربوبية في نفسه وفي كل شيء جعلها لله، وكل شيء له، تلك أشياء في العبارة مختلفة وفي التحصيل واحد.

(١) الآية: رقم ٣٥ من سورة الأعراف.

ثم قوله: ﴿ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾، جائز أن يكون جواب قوله: ﴿ وَإِلَّا تَعْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي ﴾، آمنه عما خاف وطلب منه المغفرة والرحمة.

والثاني: السلام له منه هو الشاء الحسن؛ كقوله: ﴿ سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾^(١).

وقوله ﷺ: ﴿ وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ ﴾: يحتمل أن يكون جواب قوله: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا ﴾^(٢)، والبركة هي: اسم كل خير لا انقطاع له، أو اسم كل شيء لا تبعه له عليه فيه.

ثم قوله: ﴿ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمُّهُمْ سَمِعَتْهُمْ ﴾، على قول بعض أهل التأويل: ذلك السلام، وتلك البركات في الدنيا، السلام: لما سلموا من الغرق والبركات: ما نالوا في الدنيا من الخيرات والمنافع، وعلى قول بعضهم: السلام والبركات: جميعاً في الآخرة.

ثم جعل ﷺ المؤمن والكافر مشتركين في منافع الدنيا وبركاتها، وجعل منافع الآخرة وبركاتها للمؤمنين خاصة بقوله: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(٣)، وبقوله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ ثم قال: ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾^(٤)، أشرك المؤمن والكافر في زينة الدنيا، ثم جعل للمؤمنين خالصة يوم القيامة، فذلك قوله: ﴿ وَأُمُّهُمْ سَمِعَتْهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، أخبر أنه يمتنعهم ثم يصيبهم عذاب أليم، ويمتع المؤمن أيضاً في هذه الدنيا بأنواع المنافع، ثم أخبر أن العاقبة للمتقين ثم جعل العاقبة للمتقين بإزاء ما جعل لهم عذاباً أليماً أعني الكفرة، والله أعلم.

(١) الآية: رقم ٧٩ من سورة الصافات.

(٢) الآية: رقم ٢٩ من سورة المؤمنین.

(٣) الآية: رقم ١٢٨ من سورة الأعراف.

(٤) الآية: رقم ٣٢ من سورة الأعراف.

وقوله ﷺ: ﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾، ولم يكن مع نوح ﷺ أمم يومئذ، إنما كانوا معه نفرًا، لكنه أراد والله أعلم الأمم التي كانوا من بعده كأنه قال: وعلى أمم يكونون من بعدك، فهذا يدل أن دين الأنبياء والرسل جميعًا دين واحد، وإن اختلفت شرائعهم؛ لأن تلك الأمم لم يكونوا بأنفسهم مع نوح ﷺ، ولا كانوا معه في العبادات التي كان فيها مع نوح ﷺ؛ دل أنهم كانوا جميعًا على دينه وهو واحد، وعلى ذلك يخرج دعاؤه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^(١)، دعاء بالمغفرة له لكل مؤمن ومؤمنة يكون من بعده؛ وكذلك يحق على كل كافر دعاؤه: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾^(٢).

ع- وقال الإمام الزمخشري رحمه الله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(١٥) أَنَّ لَا نَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾^(١٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْزُقُكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرْزُقُكَ أَتُبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾، أي: أرسلنا نوحًا بأني لكم نذير، ومعناه: أرسلناه ملتبسًا بهذا الكلام، وهو قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، بالكسر، فلما اتصل به الجار فتح كما فتح في كَأَنَّ، والمعنى على الكسر وهو قولك: إن زيدا كالأسد، وقرئ بالكسر على إرادة القول: ﴿أَنَّ لَا نَعْبُدُوا﴾، بدل من: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾، أي: أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله، أو: تكون (أن) مفسرة متعلقة بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أو: بـ ﴿نَذِيرٌ﴾، وصف اليوم بأليم من الإسناد المجازي لوقوع الألم فيه، فإن قلت: فإذا وصف به العذاب؟ قلت: مجازى مثله، لأنَّ الأليم في الحقيقة هو المعذب، ونظيرهما قولك: نهارك صائم، وجدَّ جدّه.

(١) الآية: رقم ٢٨ من سورة نوح.

(٢) الآية: رقم ٢٨ من سورة نوح.

قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾، الملاء: الأشراف من قوهم: فلان مليء بكذا، إذا كان مطيقاً له، وقد ملؤوا بالأمر، لأنهم ملؤوا بكفايات الأمور واضطلعوا بها وتبديرها، أو: لأنهم يتمثلون، أي: يتظاهرون ويتساندون، أو: لأنهم يملئون القلوب هيبة والمجالس أهبة، أو: لأنهم ملاء بالأحلام والآراء الصائبة، ﴿ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾، تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملاء وموازلهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم؟ ألا ترى إلى قوهم: ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾، أو: أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً لا بشر، والأراذل: جمع الأراذل، كقوله تعالى: ﴿ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا ﴾^(١)، وقوله ﷺ: (أحسنكم أخلاقاً)^(٢).

وَقُرئ: ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾، بالهمز وغير الهمز، بمعنى: اتبعوك أول الرأي أو ظاهر الرأي، وانتصابه على الظرف، أصله: وقت حدوث أول رأيهم، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم فحذف ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه.

أرادوا: أن اتباعهم لك إنما هو شيء عنّ لهم بديهة من غير روية ونظر، وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية، لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكان الأشراف عندهم من له جاه ومال، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ويننون عليه إكرامهم وإهانتهم، ولقد زلّ عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده، ولا يرفعه بل يضعه، فضلاً أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوة والتأهيل لها، على أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا مرغبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا، مزهدين فيها، مصغرين لشأنها وشأن

(١) الآية: رقم ١٢٣ من سورة الأنعام.

(٢) الحديث: رواه الإمام الترمذي وصححه الإمام الألباني من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

من أخلد إليها، فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله، والتشرف بما هو ضعة عند الله من فضل من زيادة شرف علينا تؤهلكم للنبوّة، ﴿بَلْ نُنَظِّكُمْ كِذِّيبِينَ﴾، فيما تدعون.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَانِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهُ فَمَكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهِرُونَ﴾ (٢٨) وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلِنَكْفِيَ بَأْسَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَنَّا بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: أخبروني ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ﴾، على برهان من ربّي وشاهد منه يشهد بصحة دعواي ﴿وَءَانِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾، بإتياء البينة على أن البينة في نفسها هي الرحمة، ويجوز أن يريد بالبينة: المعجزة، وبالرحمة: النبوّة. فإن قلت: فقوله: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾، ظاهر على الوجه الأول، فما وجهه على الوجه الثاني؟ وحقه أن يقال فعميتا؟ قلت: الوجه أن يقدر فعميت بعد البينة، وأن يكون حذفه للاقتصار على ذكره مرة: ومعنى عميت: خفيت. وقرئ: فعميت: بمعنى أخفيت.

وفي قراءة أبي: فعماها عليكم، فإن قلت: فما حقيقته؟ قلت: حقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء، لأنّ الأعمى لا يهتدى ولا يهتدى غيره، فمعنى: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾: البينة فلم تهديكم، كما لو عمى على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغير هاد.

فإن قلت: فما معنى قراءة أبي؟ قلت: المعنى: أنهم صمموا على الإعراض عنها فخلاهم الله وتصميمهم، فجعلت تلك التخلية تعمية منه، والدليل عليه قوله:

﴿ أَنْزَلْنَاهُ مَكِّمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴾، يعني: أنكرهكم على قبولها ونقسر كم على الاهتداء بها، وأنتم تكرهونها ولا تختارونها، ولا إكراه في الدين؟ وقد جيء بضمير المفعولين متصلين جميعاً.

ويجوز أن يكون الثاني منفصلاً كقولك: أنزل منكم إياها، ونحوه: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾^(١)، ويجوز: فسيفيك إياهم، وحكى عن أبي عمرو: إسكان الميم، ووجهه أن الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة، فظنها الراوي سكونا، والإسكان الصريح: لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين، لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر، والضمير في قوله: ﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ راجع إلى قوله لهم: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾^(٢) أن لا تعبدوا إلا الله، وقرئ: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾، بالتثنية على الأصل، فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ ﴾؟ قلت: معناه: أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم، أو: يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم، أو: على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بناء إيمانهم على ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ من غير نظر وتفكر، وما على أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما ترعمون،

ونحوه: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾^(٣)، أو: هم مصدقون بقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة، تجهلون وتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل، من قوله:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَ أَحَدُ عَلَيْنَا

أو: تجهلون بقاء ربكم، أو: تجهلون أنهم خير منكم، وقوله: ﴿ مَنْ يَنْصُرْنِي مِنْ اللَّهِ ﴾، أي: من يمنعني من انتقامه ﴿ إِنَّ طَرْدَهُمْ ﴾، وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا

(١) الآية: رقم ١٣٧ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ٥٢ من سورة الأنعام.

به، أنفة من أن يكونوا معهم على سواء، ﴿أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾، معطوف على: ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، أي: لا أقول: ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، ولا أقول: أنا ﴿أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾، ومعناه: لا أقول لكم: ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، فأدعى فضلاً عليكم في الغنى، حتى تجحدوا فضلي بقولكم: ﴿وَمَا زَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، ولا أدعى علم الغيب حتى تنسبوني إلى الكذب والافتراء، أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضماير قلوبهم، ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾، حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلاً، ولا أحكم على من استرذلتهم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيراً في الدنيا والآخرة لهُوانهم عليه، كما تقولون، مساعدة لكم ونزولاً على هواكم، ﴿إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، إن قلت شيئاً من ذلك، والازدراء: افتعال من زري عليه إذا عابه.

وأزرى به: قصر به، يقال: ازدرته عينه، واقتحمته عينه، ﴿جَدَلْنَا فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا﴾، معناه: أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته، كقولك: جاد فلان فأكثر وأطاب، ﴿فَأَنَّا بِمَا تَعْدُنَا﴾ من العذاب المعجل.

قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٢٣) ولا ينفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنُصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤) أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرَاهُ قُلٌّ إِنْ أَفْتَرَيْنَاهُ فَعَلَىٰ إِرْجَائِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُنْحَرِمُونَ﴾، ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾، أي: ليس الإتيان بالعذاب إلي، إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه إِنْ شَاءَ، يعني: إِنْ اقتضت حكمته أن يعجله لكم، وقرأ ابن عباس (رضي الله عنهما): (فأكثرت جدلنا)، فإن قلت: ما وجه ترادف هذين الشرطين؟ قلت: قوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾، جزاؤه ما دلَّ عليه قوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾، وهذا الدال في حكم ما دلَّ عليه، فوصل بشرط كما وصل الجزاء بالشرط في قولك: إِنْ أَحْسَنْتَ إِلَيَّ أَحْسَنْتَ إِلَيْكَ إِنْ أُمَكَّنِي.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾، قلت: إذا عرف الله من الكافر الإصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه، سمى ذلك: إغواء وإضلالاً، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوى فلفظ به سمى ذلك: إرشاداً وهداية، وقيل: ﴿أَنْ

يُغْوِيَكُمْ﴾، أن يهلككم من غوى الفصيل غوى، إذا بشم فهللك، ومعناه: أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح الله ومواعظه وسائر ألطافه، كيف ينفعكم نصحي؟ ف﴿فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ وإجرامي بلفظ المصدر والجمع، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾^(١)، وأسرارهم ونحوه: جرم وأجرام قفل وأقفال. وينصر الجمع أن فسرهُ الأولون بآثامي، والمعنى: إن صح وثبت أني افتريته، فعلى عقوبة إجرامي، أي: افترائي، وكان حقي حينئذ أن تعرضوا عني وتتألبوا عليّ، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ﴾، يعني: ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه، ومعنى: ﴿مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾، من إجرامكم في إسناد الافتراء إلى فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا نَبْتِيسَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾.

قوله: ﴿لَن يُؤْمِنَ﴾، إقناط من إيمانهم، وأنه كالمحال الذي لا تعلق به للتوقع، ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه، و﴿قَدْ﴾ للتوقع وقد أصابت محزها، ﴿فَلَا نَبْتِيسَ﴾، فلا تحزن حزن بائس مستكين. قال:

مَا يَقْسِمُ اللَّهُ فَأَقْبَلْ غَيْرَ مُبْتِيسٍ مِنْهُ وَأَقْعُدْ كَرِيماً نَاعِمَ الْبَالِ

والمعنى: فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعاداتك، فقد حان وقت الانتقام لك منهم ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، في موضع الحال، بمعنى: اصنعها محفوظاً، وحقيقته: ملتبساً بأعيننا، كأن الله معه أعينا تكلؤه أن يزيغ في صنعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه، ﴿وَوَحَيْنَا﴾، وأنا نوحى إليك ولنهمك كيف تصنع.

عن ابن عباس ؓ: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جوجو الطائر، ﴿وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، ولا تدعني في شأن قومك واستدفاع

(١) الآية: رقم ٢٦ من سورة محمد.

العذاب عنهم بشفاعتك إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ إنهم محكوم عليهم بالإغراق، وقد وجب ذلك وقضى به القضاء وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه، كقوله: ﴿يَا بَرِّهَيْمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا بِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾^(١).

قوله: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلُوكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾^(٢٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿﴾، ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلُوكَ﴾ حكاية حال ماضية، ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ ومن عمله السفينة، وكان يعملها في برية بهاء، في أبعد موضع من الماء، وفي وقت عز الماء فيه عزة شديدة، فكانوا يتضحكون ويقولون له: يا نوح، صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً، ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾، يعني: في المستقبل كما تَسْخَرُونَ منا الساعة، أي: نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة، وقيل: إن تستجهلونا فيما نصنع فإننا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه، فأنتم أولى بالاستجهال منا، أو: إن تستجهلونا فإننا نستجهلكم في استجهالكم، لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق.

قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، الذي ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، ويعنى به إياهم، ويريد بالعذاب: عذاب الدنيا وهو الغرق، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾، حلول الدين والحق اللازم الذي لا انفكاك له عنه، ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾، وهو عذاب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٢٩) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرُدَهَا وَمُرْسَتْهَا إِنْ رِئِيَ لُغْفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿﴾.

قوله: ﴿حَتَّىٰ﴾، هي: التي يتبدأ بعدها الكلام، دخلت على الجملة من الشرط

(١) الآية: رقم ٧٦ من سورة هود.

والجزاء، فإن قلت: وقعت غاية لماذا؟ قلت: لقوله: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾، أي: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد.

فإن قلت: فإذا اتصلت ﴿ حَتَّى ﴾ بـ ﴿ وَيَصْنَعُ ﴾، فما تصنع بها بينهما من الكلام؟ قلت: هو حال من يصنع، كأنه قال: يصنعها والحال أنه: ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾، فإن قلت: فما جواب كلما؟

قلت: أنت بين أمرين: إما أن: تجعل ﴿ سَخِرُوا ﴾ جواباً، و ﴿ قَالَ ﴾ استئنافاً، على تقدير سؤال سائل، أو: تجعل ﴿ سَخِرُوا ﴾ بدلاً من: ﴿ مَرَّ ﴾، أو: صفة لـ ﴿ مَلَأُ ﴾، و ﴿ قَالَ ﴾: جواباً، ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾، عطف على: ﴿ اثْنَيْنِ ﴾، وكذلك ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾، يعنى: واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم، واستثنى من أهله ﴿ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ أنه من أهل النار، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر، لا لتقديره عليه وإرادته به، تعالى الله عن ذلك، قال الضحاك: أراد ابنه وامراته ﴿ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾، روى عن النبي ﷺ أنه قال: «كانوا ثمانية: نوح وأهله، وبنوه الثلاثة، ونساؤهم»، وعن محمد بن إسحاق: (كانوا عشرة: خمسة رجال وخمس نسوة)، وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وأولاد نوح ﷺ: سام وحام وياث، ونساؤهم، فالجميع ثمانية وسبعون: نصفهم رجال ونصفهم نساء.

ويجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين، فالكلام الواحد: أن يتصل بِسْمِ اللَّهِ بركبوا حالاً من الواو، بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله، أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنها مصدران كالإجراء والإرساء، حذف منهما الوقت المضاف، كقولهم خفوق النجم، ومقدم الحاج.

ويجوز أن: يراد مكانا الإجراء والإرساء، وانتصابهما بما في بِسْمِ اللَّهِ من معنى الفعل، أو بما فيه من إرادة القول، والكلامان: أن يكون بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَمُرْسَاهَا جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة، أي: بسم الله إجراؤها وإرساؤها، يروى أنه كان إذا أراد أن تجرى قال: بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله فرست.

ويجوز أن يقحم الاسم، كقوله: ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا، ويراد: بالله إجراؤها وإرساؤها، أي: بقدرته وأمره.

وَقُرِئَ: جَرَّاهَا وَمُرَّسَاهَا بفتح الميم، من جرى ورسى، إما مصدرين أو وقتين أو مكانين، وقرأ مجاهد: مجريها ومرسيها، بلفظ اسم الفاعل، مجروري المحل، صفتين لله تعالى، فإن قلت: ما معنى قولك: جملة مقتضية؟ قلت: معناه: أن نوحا ﷺ أمرهم بالركوب، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته، ويحتمل أن: تكون غير مقتضية بأن تكون في موضع الحال كقوله: وَجَاؤُنَا بِهِمْ سَكَرٌ عَلَيْنَا.

فلا تكون كلاماً برأسه، ولكن فضلة من فضلات الكلام الأول، وانتصاب هذه الحال عن ضمير الفلك، كأنه قيل: اركبوا فيها مجرة ومرساة بسم الله بمعنى التقدير، كقوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾^(١).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم لما نجاكم.

وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِئْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢) قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ﴾، فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾؟ قلت: بمحذوف دل عليه: ﴿أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ﴾، كأنه قيل: فركبوا فيها يقولون: بسم الله، ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾؟ أي: تجرى وهم فيها ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾، يريد: موج الطوفان، شبه كل موجة منه بالجل في تراكمها وارتفاعها، فإن قلت: الموج: ما يرتفع فوق الماء عند اضطرابه وزخيره، وكان الماء قد التقى وطبق ما بين السماء والأرض، وكانت الفلك تجرى في جوف الماء كما تسبح السمكة، فما معنى جريها في الموج؟ قلت: كان ذلك قبل التطبيق، وقبل أن يغمر الطوفان الجبال، ألا ترى إلى قول ابنه: ﴿قَالَ سَأَوِي إِلَى

(١) الآية: رقم ٤٦ من سورة الحجر.

جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴿١﴾، قيل: كان اسم ابنه: كنعان، وقيل: يام، وقرأ على ﷺ: ابنها، والضمير لامرأته، وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير: ابنه، بفتح الهاء، يريدان ابنها، فاكْتَفِيَا بِالْفَتْحَةِ عَنِ الْأَلْفِ، وبه ينصر مذهب الحسن.

قال قتادة: سألتَه فقال: والله ما كان ابنه، فقلت: إِنَّ اللَّهَ حَكِي عَنْهُ: ﴿إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِي﴾، وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه، فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب، واستدل بقوله: ﴿مِنْ أَهْلِي﴾، ولم يقل: مني، ولنسبته إلى أمه وجهان:

أحدهما: أن يكون ربيّاً له، كعمر بن أبي سلمة لرسول الله ﷺ، وأن يكون لغير رشدة، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء ﷺ.

وقرأ السدي: ونادى نوح ابنه، على الندبة والترثي، أي: قال: يا ابنه.

والمعزل: مفعّل، من عزله عنه إذا نحاه وأبعده، يعني: وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين، وقيل: كان في معزل عن دين أبيه، ﴿يَبُئِّي﴾: قرئ: بكسر الياء اقتصاراً عليه: من ياء الإضافة، وبالفتح اقتصاراً عليه: من الألف المبدلة من ياء الإضافة في قولك: (يا بنيا)، أو سقطت الياء والألف لالتقاء الساكنين، لأنّ الراء بعدهما ساكنة ﴿إِلَّا مَنْ رَّحِمَ﴾، إلا الراحم وهو الله تعالى، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله، أي: إلا مكان من رحم الله من المؤمنين، وكان لهم غفورا رحيمًا في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وذلك أنه لما جعل الجبل عاصما من الماء قال له: لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم يعني السفينة، وقيل: ﴿لَا عَاصِمَ﴾، بمعنى: لا ذا عصمة إلا من رحمه الله، كقوله: ماء دافق وعيشة راضية وقيل: ﴿إِلَّا مَنْ رَّحِمَ﴾، استثناء منقطع، كأنه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم، كقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءُ الظَّنِّ﴾^(١)، وقرئ: ﴿إِلَّا مَنْ رَّحِمَ﴾، على البناء للمفعول.

(١) الآية: رقم ١٥٧ من سورة النساء.

وقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْأَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله: ﴿يَا أَرْضُ﴾، و﴿وَيَسْأَمَاءُ﴾، ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله: ﴿ابْلَعِي مَاءَكِ﴾، و﴿أَقْلَعِي﴾ من الدلالة على الاقتدار العظيم، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه، كأنها عقلاء مميزون قد عرفوا عظمتهم وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور، وتبينوا تحت طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولا لا حبس ولا إبطاء، والبلع: عبارة عن النشف، والإقلاع: الإمساك، يقال: أقلع المطر وأقلعت الحمى، ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾، من غاضه إذا نقضه، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، وأنجز ما وعد الله نوحا من هلاك قومه، ﴿وَاسْتَوَتْ السَّفِينَةُ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، وهو جبل بالموصل، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾، يقال: بعد بعدا وبعدا، إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك، ولذلك اختص بدعاء السوء ومحجيء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكون قاهر، وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلي ماءك يا سماء أقلعي، ولا أن يقضى ذلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره، ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم، لا لتجانس الكلمتين، وهما قوله (ابلي وأقلعي)، وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور.

وعن قتادة: استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم، واستقرت بهم على الجودي شهراً، وهبط بهم يوم عاشوراء.

وروى أنها: مرت بالبيت فطافت به سبعا، وقد أعتقه الله من الغرق.

وروى أن نوحاً ﷺ: صام يوم الهبوط وأمر من معه فصاموا شكراً لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. ﴿

نداءه ربه: دعاؤه له، وهو قوله: ﴿رَبِّ﴾ مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله.

فإن قلت: فإذا كان النداء هو قوله: ﴿رَبِّ﴾، فكيف عطف ﴿فَقَالَ رَبِّ﴾ على نادى بالفاء؟

قلت: أريد بالنداء إرادة النداء، ولو أريد النداء نفسه لجاء، كما جاء قوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (٢) قَالَ رَبِّ ﴿١﴾، بغير فاء، ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، أي: بعض أهلي، لأنه كان ابنه من صلبه، أو كان ربيبا له فهو بعض أهله، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾، وأن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي، فما بال ولدي؟ ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾، أي: أعلم الحكام وأعدلهم، لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل، ورب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زمانك قد لقب أفضى القضاة، ومعناه: أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر.

ويجوز أن: يكون من الحكمة، على أن يبنى من الحكمة حاكم بمعنى النسبة كما قيل

دارع من الدرع، وحائض وطالق على مذهب الخليل، ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، تعليل لانتفاء كونه من أهله، وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب، وأن نسيبك في دينك ومعتقدك من الأبعد في المنصب وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقك وخصيصك، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحماً فهو أبعد بعيد منك، وجعلت ذاته عملاً غير صالح، مبالغة في ذمّه، كقولها:

فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ

وقيل: الضمير لنداء نوح، أي: إن نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذاك، فإن قلت: فهلا قيل: إنه عمل فاسد؟ قلت: لما نفاه عن أهله، نفى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقى معها لفظ المنفي، وأذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصالحهم، لا لأنهم أهلك وأقاربك، وإن هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوتك، كقوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾^(١)، وقرأ: (عَمَلٌ غَيْرَ صَالِحٍ)، أي: عمل عملاً غير صالح، وقرأ: (فلا تسألن)، بكسر النون بغير ياء الإضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء، يعني: فلا تلتمس منى ملتماً أو التماساً لا تعلم أصواباً هو أم غير صواب، حتى تقف على كنهه.

وذكر المسألة دليل على أن النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه، فإن قلت: لم سمى نداؤه سؤالاً ولا سؤال فيه؟ قلت: قد تضمن دعاؤه معنى السؤال، وإن لم يصرح به، لأنه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشاركة ولده الغرق فقد استنجز وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلاً وغباً، ووعظه أن لا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين، فإن قلت: قد وعده أن ينجي أهله، وما كان عنده أن ابنه ليس منهم ديناً، فلما أشفى على الغرق تشابه عليه الأمر، لأن العدة قد سبقت له، وقد عرف الله

(١) الآية: رقم ١٠ من سورة التحريم.

حكيمًا لا يجوز عليه فعل القبيح وخُلف الميعاد، فطلب إمطة الشبهة، وطلب إمطة الشبهة واجب، فلم زُجر وُسُمي سؤاله جهلاً؟ قلت: إن الله عز وعلا قدّم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب لكونه غير صالح، وأن كلهم ليسوا بناجين، وأن لا تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من المستثنى لا من المستثنى منهم، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب أن لا يشته.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾، قوله: ﴿ أَنْ أَسْأَلَكَ ﴾، من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته، تأدباً بأدبك واتعاضاً بموعظتك، وقوله: ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ ﴾ ما فرط مني من ذلك، ﴿ وَتَرْحَمْنِي ﴾ بالتوبة على ﴿ أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ أعملاً.

وقوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، وقرئ: يا نوح اهبط، بضم الباء، ﴿ بِسَلَامٍ مِّنَّا ﴾ مسلماً محفوظاً من جهتنا أو مسلماً عليك مكرماً، ﴿ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾، ومباركا عليك، والبركات الخيرات النامية. وقرئ: وبركة، على التوحيد، ﴿ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴾، يحتمل: أن تكون من للبيان، فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة، لأنهم كانوا جماعات، أو: قيل لهم أمم، لأن الأمم تتشعب منهم، وأن تكون لإبداء الغاية، أي: على أمم ناشئة ممن معك، وهي الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه، وقوله: ﴿ وَأُمَمٌ ﴾: رفع بالابتداء، و﴿ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾: صفة، والخبر محذوف تقديره: وممن معك أمم ستمتعهم، وإنما حُذف لأن قوله: ﴿ وَمِمَّنْ مَعَكَ ﴾ يدل عليه، والمعنى: أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشئون ممن معك، وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار، وكان نوح ﷺ أبا الأنبياء، والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه في السفينة.

وعن كعب بن محمد القرظي: دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر.

وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلا، منهم من رحم ومنهم من عذب.

وقيل: المراد بالأمم الممتعة: قوم هود وصالح ولوط وشعيب.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قوله: ﴿تِلْكَ﴾: إشارة إلى قصة نوح عليه السلام، ومحلها الرفع على الابتداء، والجمل بعدها أخبار، أي: تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك، مجهولة عندك وعند قومك من قبل هذا من قبل إيجائي إليك وإخبارك بها، أو: من قبل هذا العلم الذي كسبته بالوحي، أو: من قبل هذا الوقت، ﴿فَاصْبِرْ﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومك، كما صبر نوح عليه السلام وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما قيض لنوح عليه السلام ولقومه، ﴿إِنَّ الْعَقِيبَ﴾ في الفوز والنصر والغلبة لِلْمُتَّقِينَ، وقوله: ﴿وَلَا قَوْمُكَ﴾ معناه: إن قومك الذين أنت منهم على كثرتهم ووفور عددهم إذا لم يكن ذلك شأنهم ولا سمعوه ولا عرفوه، فكيف برجل منهم كما تقول لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده.

هـ - وقال الإمام الرازي رحمته الله:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، اعلم أنه تعالى قد بدأ بذكر هذه القصة في سورة يونس وقد أعادها في هذه السورة أيضا لما فيها من زوائد الفوائد وبدائع الحكم، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: (أني) بفتح الهمزة، والمعنى: أرسلنا نوحا بأني لكم نذير مبين، ومعناه: أرسلناه ملتبسا بهذا الكلام وهو قوله: (أني لكم نذير مبين) فلما اتصل به حرف الجر وهو الباء فتح كما فتح في كان، وأما سائر القراء فقرءوا: (إني) بالكسر على معنى: (قال إني لكم نذير مبين).

المسألة الثانية: قال بعضهم: المراد من النذير كونه مهددا للعصاة بالعقاب، ومن المبين كونه مبينا ما أعد الله للمطيعين من الثواب، والأولى أن يكون المعنى: أنه نذير للعصاة من العقاب وأنه مبين بمعنى أنه بين ذلك الإنذار إنما حصل في النهي عن عبادة غير الله وفي الأمر بعبادة الله لأن قوله: ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾، استثناء من النفي وهو يوجب نفي غير المستثنى.

واعلم أن تقدير الآية كأنه تعالى قال: ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه بهذا الكلام وهو قوله: ﴿ إِنْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾، ثم قال: ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾، فقوله: ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾: بدل من قوله: ﴿ إِنْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾، ثم إنه أكد ذلك بقوله: ﴿ إِنْ أَحَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾، والمعنى: أنه لما حصل الألم العظيم في ذلك اليوم أسند ذلك الألم إلى اليوم، كقولهم: نهارك صائم، وليلك قائم.

وقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَذِبِينَ ﴾، اعلم أنه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا في نبوته بثلاثة أنواع من الشبهات:

فالشبهة الأولى: أنه بشر مثلهم، والتفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع انتهاؤه إلى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة لجميع العالمين.

والشبهة الثانية: كونه ما اتبعه إلا أراذل من القوم كالحياكة وأهل الصنائع الخسيسة،

قالوا ولو كنت صادقا لاتبعك الأكياس من الناس والأشراف منهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾^(١).

والشبهة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، والمعنى: لا نرى لكم علينا من فضل لا في العقل ولا في رعاية المصالح العاجلة ولا في قوة الجدل فإذا لم نشاهد فضلك علينا في شيء من هذه الأحوال الظاهرة فكيف نعتز بفضلك علينا في أشرف الدرجات وأعلى المقامات، فهذا خلاصة الكلام في تقرير هذه الشبهات.

واعلم أن الشبهة الأولى: لا تليق إلا بالبراهمة الذين ينكرون نبوة البشر على الإطلاق، وأما الشبهتان الباقيتان: فيمكن أن يتمسك بهما من أقر بنبوة سائر الأنبياء، وفي لفظ الآية مسائل:

المسألة الأولى: الملاء: الأشراف، وفي اشتقاقه وجوه:

الأول: أنه مأخوذ من قولهم مليء بكذا إذا كان مطبقا له وقد ملئوا بالأمر، والسبب في إطلاق هذا اللفظ عليهم أنهم ملئوا بترتيب المهمات، وأحسنوا في تدبيرها.

الثاني: أنهم وصفوا بذلك لأنهم يتماثلون أي: يتظاهرون عليه.

الثالث: وصفوا بذلك لأنهم يملؤون القلوب هيبة والمجالس أبهة.

الرابع: وصفوا به لأنهم ملئوا العقول الراجحة والآراء الصائبة.

ثم حكى الله تعالى عنهم الشبهة الأولى، وهي قولهم: ﴿مَا نَزَلْنَا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾، وهو مثل ما حكى الله تعالى عن بعض العرب أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾^(٢)، وهذا جهل، لأن من حق الرسول أن يباشر الأمة بالدليل والبرهان والتثبت والحجة، لا بالصورة والخلقة، بل نقول: إن الله تعالى لو بعث إلى البشر ملكا لكانت الشبهة

(١) الآية: رقم ١١١ من سورة الشعراء.

(٢) الآية: رقم ٨ من سورة الأنعام.

أقوى في الطعن عليه في رسالته لأنه يخطر بالبال أن هذه المعجزات التي ظهرت لعل هذا الملك هو الذي أتى بها من عند نفسه بسبب أن قوته أكمل وقدرته أقوى، فلهذه الحكمة ما بعث الله إلى البشر رسولا إلا من البشر.

ثم حكى الشبهة الثانية وهي قولهم: ﴿وَمَا نَزَّلَكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ﴾، والمراد منه: قلة ما لهم وقلة جاههم ودناءة حرفهم وصناعتهم هذا أيضا جهل، لأن الرفعة في الدين لا تكون بالحسب والمال والمناصب العالية، بل الفقر أهون على الدين من الغنى، بل نقول: الأنبياء ما بعثوا إلا لترك الدنيا والإقبال على الآخرة فكيف تجعل قلة المال في الدنيا طعنا في النبوة والرسالة.

ثم حكى الله تعالى الشبهة الثالثة وهي قولهم: ﴿وَمَا نَزَّلَكَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، وهذا أيضا جهل، لأن الفضيلة المعتبرة عند الله ليست إلا بالعلم والعمل، فكيف اطلعوا على بواطن الخلق حتى عرفوا نفي هذه الفضيلة، ثم قالوا بعد ذكر هذه الشبهات لنوح ﷺ ومن اتبعه: ﴿بَلْ نُنَبِّئُكُمْ كَذِبِينَ﴾، وفيه وجهان:

الأول: أن يكون هذا خطابا مع نوح ﷺ ومع قومه، والمراد منه تكذيب نوح ﷺ في دعوى الرسالة.

والثاني: أن يكون هذا خطابا مع الأراذل فنسبواهم إلى أنهم كذبوا في أن آمنوا به واتبعوه.

المسألة الثانية: قال الواحدي: الأراذل: جمع رذل وهو الدون من كل شيء في منظره وحالاته ورجل رذل

التياب والفعل، والأراذل: جمع الأراذل، كقوله: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا﴾، وقوله عليه الصلاة والسلام: (أحسنكم أخلاقا)، فعلى هذا: فالأراذل: جمع الجمع، وقال بعضهم: الأصل فيه أن يقال: هو أرذل من كذا ثم كثر حتى قالوا: هو الأراذل فصارت الألف واللام عوضا عن الإضافة، وقوله: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾، البادي: هو الظاهر، من

قولك: بدا الشيء إذا ظهر، ومنه يقال: بادية، لظهورها وبروزها للنظر، واختلفوا في ﴿بَادَى الرَّأْيَ﴾، وذكروا فيه وجوها:

الأول: اتبعوك في الظاهر وباطنهم بخلافه.

والثاني: يجوز أن يكون المراد اتبعوك في ابتداء حدوث الرأي وما احتاطوا في ذلك الرأي وما أعطوه حقه من الفكر الصائب والتدبر الوافي.

الثالث: أنهم لما وصفوا القوم بالردالة، قالوا: كونهم كذلك بادي الرأي أمر ظاهر لكل من يراهم، والرأي على هذا المعنى من رأي العين لا من رأي القلب، ويتأكد هذا التأويل بما نقل عن مجاهد: أنه كان يقرأ إلا الذين هم أراذلنا بادي رأي العين.

المسألة الثالثة: قرأ أبو عمرو ونصير عن الكسائي: بادئ بالهمزة، والباقون: بالياء غير مهموز، فمن قرأ: بادئ بالهمزة، فالمعنى: أول الرأي وابتدأؤه، ومن قرأ: بالياء غير مهموز، كان من بدا يبدو أي ظهر وبادي نُصِبَ على المصدر، كقولك: ضربت أول الضرب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ يَدَيْكُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِيتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهُمْ مَّا كَانُوا عَلَيْكُمْ﴾، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما حكى شبهات منكري نبوة نوح عليه الصلاة والسلام حكى بعده ما يكون جواباً عن تلك الشبهات.

فالشبهة الأولى: قولهم: ﴿مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، فقال نوح ﷺ حصول المساواة في البشرية لا يمنع من حصول المفارقة في صفة النبوة والرسالة، ثم ذكر الطريق الدال على إمكانه، فقال: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ يَدَيْكُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِيتْ عَلَيْكُمْ﴾، والمراد بتلك الرحمة: إما النبوة وإما المعجزة الدالة على النبوة، ﴿فَعُمِيتْ عَلَيْكُمْ﴾، أي: صارت مظنة مشبهة ملتبسة في عقولكم، فهل أقدر على أن أجعلكم

بحيث تصلون إلى معرفتها شئتم أم أبيتم؟ والمراد أني لا أقدر على ذلك البتة، وعن قتادة: والله لو استطاع نبي الله لألزمها ولكنه لم يقدر عليه، وحاصل الكلام أنهم لما قالوا: ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾، ذكر نوح ﷺ أن ذلك بسبب أن الحجة عميت عليكم واشتبهت، فأما لو تركتم العناد واللجاج ونظرتم في الدليل لظهر المقصود، وتبين أن الله تعالى آتانا عليكم فضلا عظيما.

المسألة الثانية: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمُ ﴾، بضم العين وتشديد الميم على ما لم يسم فاعله، بمعنى: ألبست وشبهت والباقون بفتح العين مخففة الميم، أي: التبست واشتبهت، واعلم أن الشيء إذا بقي مجهولا محضا أشبه المعنى، لأن العلم نور البصيرة الباطنة والأبصار نور البصر الظاهر فحسن جعل كل واحد منها مجازا عن الآخر، وتحقيقه أن البينة توصف بالأبصار، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً ﴾^(١)، وكذلك توصف بالعمى، قال تعالى: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ ﴾^(٢)، وقال في هذه الآية: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمُ ﴾.

المسألة الثالثة: ﴿ أَنْزَلْنَاهُ مَكْمُوهًا ﴾، فيه ثلاث مضمرات: ضمير المتكلم وضمير الغائب وضمير المخاطب، وأجاز الفراء: إسكان الميم الأولى، وروي ذلك عن أبي عمرو قال: وذلك أن الحركات توالى فسكنت الميم وهي أيضا مرفوعة وقبلها كسرة والحركة التي بعدها ضمة ثقيلة، قال الزجاج: جميع النحويين البصريين لا يجيزون إسكان حرف الإعراب إلا في ضرورة الشعر وما يروى عن أبي عمرو فلم يضبطه عنه الفراء، وروي عن سيويه: أنه كان يخفف الحركة ويختلسها، وهذا هو الحق وإنما يجوز الإسكان في الشعر كقول امرئ القيس:

فاليوم أشرب غير مستحقب

(١) الآية: رقم ١٣ من سورة النمل.

(٢) الآية: رقم ٦٦ من سورة القصص.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢١﴾ وَيَقُولُ مَنْ يُنْصِرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ خَزَائِنِ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾، في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذا هو الجواب عن الشبهة الثانية وهي قولهم لا يتبعك إلا الأراذل من الناس وتقرير هذا الجواب من وجوه:

الوجه الأول: أنه ﷺ قال: أنا لا أطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالا حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيرا أو غنيا وإنما أجري على هذه الطاعة الشاقة على رب العالمين، وإذا كان الأمر كذلك فسواء كانوا فقراء أو أغنياء لم يتفاوت الحال في ذلك.

الوجه الثاني: كانه ﷺ قال لهم: إنكم لما نظرتم إلى ظواهر الأمور وجدتموني فقيرا وظننتم أني إنما اشتغلت بهذه الحرفة لأتوسل بها إلى أخذ أموالكم وهذا الظن منكم خطأ، فإني لا أسئلكم على تبليغ الرسالة أجرا إن أجري إلا على رب العالمين، فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد.

والوجه الثالث: في تقرير هذا الجواب أنهم قالوا: ﴿مَا نَرْبِكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، إلى قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، فهو ﷺ بين أنه تعالى أعطاه أنواعا كثيرة توجب فضله عليهم ولذلك لم يسع في طلب الدنيا، وإنما يسعى في طلب الدين، والإعراض عن الدنيا من أمهات الفضائل باتفاق الكل، فلعل المراد تقرير حصول الفضيلة من هذا الوجه.

فأما قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فهذا كالدليل على أن القوم سألوهم طردهم رفعا لأنفسهم عن مشاركة أولئك الفقراء.

روى ابن جريج أنهم قالوا: إن أحببت يا نوح أن نتبعك فاطردهم فإننا لا نرضى بمشاركتهم، فقال ﷺ: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾، وقوله تعالى حكاية عنهم أنهم قالوا: ﴿ وَمَا زَيْنَكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُطْرِدُوا ﴾، كالدليل على أنهم طلبوا منه طردهم لأنه كالدليل على أنهم كانوا يقولون: لو اتبعك أشرف القوم لوافقناهم، ثم إنه تعالى حكى عنه أنه ما طردهم، وذكر في بيان ما يوجب الامتناع من هذا الطرد أموراً:

الأول: ﴿ إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ ﴾، وهذا الكلام يحتمل وجوهاً:

منها: أنهم قالوا هم منافقون فيما أظهروا فلا تغتر بهم فأجاب بأن هذا الأمر ينكشف عند لقاء ربهم في الآخرة.

ومنها: أنه جعله علة في الامتناع من الطرد وأراد أنهم ملاقوا ما وعدهم ربهم، فإن طردتهم استخصموني في الآخرة.

ومنها: أنه نبه بذلك الأمر على أننا نجتمع في الآخرة فأعاقب على طردهم فلا أجد من ينصري، ثم بين أنهم يبنون أمرهم على الجهل بالعواقب والاعتذار بالظواهر فقال: ﴿ وَلَنِكَفَىٰ أَرْبَاكُم مَّا تَجْهَلُونَ ﴾.

ثم قال بعده: ﴿ وَيَقْوِمَنَّ مِنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، والمعنى: أن العقل والشرع تطابقا على أنه لا بد من تعظيم المؤمن البر التقي ومن إهانة الفاجر الكافر، فلو قلبت القصة وعكست القضية وقربت الكافر الفاجر على سبيل التعظيم، وطردت المؤمن التقي على سبيل الإهانة كنت على ضد أمر الله تعالى، وعلى عكس حكمه وكنت في هذا الحكم على ضد ما أمر الله تعالى من إيصال الثواب إلى المحقين، والعقاب إلى المبطلين وحينئذ أصير مستوجبا للعقاب العظيم فمن ذا الذي ينصري من الله تعالى ومن الذي يخلصني من عذاب الله أفلا تذكرون فتعلمون أن ذلك لا يصح، ثم أكد هذا البيان بوجه ثالث فقال: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾، أي:

كما لا أسألكم فكذلك لا أدعي أنني أملك مالا ولا لي غرض في المال لا أخذا ولا دفعا، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، حتى أصل به إلى ما أريد لنفسي ولا أتباعي، ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾، حتى أعظم بذلك عليكم، بل طريقي الخضوع والتواضع ومن كان هذا شأنه وطريقه فإنه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين، ولا يطلب مجالسة الأمراء والسلاطين وإنما شأنه طلب الدين وسيرته مخالطة الخاضعين والخاشعين، فلما كانت طريقتي توجب مخالطة الفقراء فكيف جعلتم ذلك عيبا علي، ثم إنه أكد هذا البيان بطريق رابع فقال: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾، وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون أتباعه مع الفقر والذلة إلى النفاق فقال: إني لا أقول ذلك، لأنه من باب الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، فربما كان باطنهم كظواهرهم فيؤتيهم الله ملك الآخرة فأكون كاذبا فيما أخبرت به، فإني إن فعلت ذلك كنت من الظالمين لنفسي ومن الظالمين لهم في وصفهم بأنهم لا خير لهم مع أن الله تعالى آتاهم الخير في الآخرة.

المسألة الثانية: احتج قوم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء وقالوا: إن الإنسان إذا قال: أنا لا أدعي كذا وكذا، فهذا إنما يحسن إذا كان ذلك الشيء أشرف من أحوال ذلك القائل فلما كان قائل هذا القول هو نوح ﷺ وجب أن تكون درجة الملائكة أعلى وأشرف من درجات الأنبياء، ثم قالوا: وكيف لا يكون الأمر كذلك والملائكة داوموا على عبادة الله تعالى طول الدنيا مذ خلقوا إلى أن تقوم الساعة، وتمام التقرير أن الفضائل الحقيقية الروحانية ليست إلا ثلاثة أشياء:

أولها: الاستغناء المطلق وجرت العادة في الدنيا أن من ملك المال الكثير فإنه يوصف بكونه غنيا فقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، إشارة إلى أنني لا أدعي الاستغناء المطلق.

وثانيها: العلم التام وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾.

وثالثها: القدرة التامة الكاملة، وقد تقرر في الخواطر أن أكمل المخلوقات في القدرة والقوة هم الملائكة وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾، والمقصود من ذكر هذه الأمور الثلاثة بيان أنه ما حصل عندي من هذه المراتب الثلاثة إلا ما يليق بالقوة البشرية والطاقة الإنسانية، فأما الكمال المطلق فأنا لا أدعيه وإذا كان الأمر كذلك فقد ظهر أن قوله: ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾، يدل على أنهم أكمل من البشر، وأيضا يمكن جعل هذا الكلام جوابا عما ذكره من الشبهة فإنهم طعنوا في أتباعه بالفقر فقال: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾، حتى أجعلهم أغنياء وطعنوا فيهم أيضا بأنهم منافقون فقال: ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾، حتى أعرف كيفية باطنهم وإنما أجري الأحوال على الظواهر وطعنوا فيهم بأنهم قد يأتون بأفعال لا كما ينبغي فقال: ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾، حتى أكون مبرا عن جميع الدواعي الشهوانية والبواعث النفسانية.

المسألة الثالثة: احتج قوم بهذه الآية على صدور الذنب من الأنبياء فقالوا: إن هذه الآية دلت على أن طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصي، ثم إن محمدا ﷺ طرد فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الكفار حتى عاتبه الله تعالى في قوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾^(١)، وذلك يدل على إقدام محمد ﷺ على الذنب.

والجواب: يحمل الطرد المذكور في هذه الآية على الطرد المطلق على سبيل التأييد، والطرد المذكور في واقعة محمد ﷺ، على التقليل في أوقات معينة لرعاية المصالح.

المسألة الرابعة: احتج الجبائي على أنه لا تجوز الشفاعة عند الله في دفع العقاب بقول نوح ﷺ: ﴿ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ﴾، معناه: إن كان هذا الطرد محرما فمن ذا الذي ينصرني من الله، أي من الذي يخلصني من عقابه ولو كانت الشفاعة جائزة لكانت في حق نوح ﷺ أيضا جائزة وحينئذ يبطل قوله: من ينصرني من الله واعلم أن

(١) الآية: رقم ٥٢ من سورة الأنعام.

هذا الاستدلال يشبه استدلالهم في هذه المسألة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(١)، والجواب المذكور هناك هو الجواب عن هذا الكلام.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ^(٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الكفار لما أوردوا تلك الشبهات وأجاب نوح ﷺ عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة أورد الكفار على نوح كلامين:

الأول: أنهم وصفوه بكثرة المجادلة، فقالوا: ﴿يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾، وهذا يدل على أنه ﷺ كان قد أكثر في الجدل معهم، وذلك الجدل ما كان إلا في إثبات التوحيد والنبوة والمعاد، وهذا يدل على أن الجدل في تقرير الدلائل وفي إزالة الشبهات حرفة الأنبياء، وعلى أن التقليد والجهل والإصرار على الباطل حرفة الكفار.

والثاني: أنهم استعجلوا العذاب الذي كان يتوعدهم به، فقالوا: ﴿فَأَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، ثم إنه ﷺ أجاب عنه بجواب صحيح فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾، والمعنى أن: إنزال العذاب ليس إليّ وإنما هو خلق الله تعالى فيفعله إن شاء كما شاء، وإذا أراد إنزال العذاب فإن أحدا لا يعجزه، أي: لا يمنعه منه، والمعجز: هو الذي يفعل ما عنده لتعذر مراد الغير فيوصف بأنه أعجزه، فقلوه: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾، أي: لا سبيل لكم إلى فعل ما عنده، فلا يمتنع على الله تعالى ما يشاء من العذاب إن أراد إنزاله بكم، وقد قيل معناه: وما أنتم بمانعين، وقيل: وما أنتم بمصونين، وقيل: وما أنتم بسابقين إلى الخلاص، وهذه الأقوال متقاربة.

(١) الآية: رقم ٤٨ من سورة البقرة.

واعلم أن نوحا ﷺ لما أجاب عن شبهاتهم ختم الكلام بخاتمة قاطعة، فقال: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾، فإنه لا ينفعكم نصحي البتة.

قال الإمام الرازي: واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يريد الكفر من العبد، وأنه إذا أراد منه ذلك فإنه يمتنع صدور الإيمان منه، وقالوا: إن نوحا ﷺ قال: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾، والتقدير: لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يغويكم ويضلحكم، قال الرازي: وهذا صريح في مذهبنا، أما المعتزلة فإنهم قالوا: ظاهر الآية يدل على أن الله تعالى إن أراد إغواء القوم لم ينتفعوا بنصح الرسول، وهذا مسلم، فإننا نعرف أن الله تعالى لو أراد إغواء عبد فإنه لا ينفعه نصح الناصحين، لكن لم قلتم إنه تعالى أراد هذا الإغواء فإن النزاع ما وقع إلا فيه، بل نقول إن نوحا ﷺ إنما ذكر هذا الكلام ليدل على أنه تعالى ما أغواهم، بل فوض الاختيار إليهم وبيانه من وجهين:

الأول: أنه ﷺ بين أنه تعالى لو أراد إغواءهم لما بقي في النصح فائدة فلو لم يكن فيه فائدة لما أمره بأن ينصح الكفار، وأجمع المسلمون على أنه ﷺ مأمور بدعوة الكفار ونصيحتهم، فعلمنا أن هذا النصح غير خال عن الفائدة، وإذا لم يكن خاليا عن الفائدة وجب القطع بأنه تعالى ما أغواهم، فهذا صار حجة لنا من هذا الوجه.

الثاني: أنه لو ثبت الحكم عليهم بأن الله تعالى أغواهم لصار هذا عذرا لهم في عدم إتيانهم بالإيمان ولصار نوع منقطعا في مناظرتهم، لأنهم يقولون له: إنك سلمت أن الله إذا أغوانا فإنه لا يبقى في نصحك ولا في جدنا واجتهادنا فائدة، فإذا ادعيت بأن الله تعالى قد أغوانا فقد جعلتنا معذورين فلم يلزمنا قبول هذه الدعوة، فثبت أن الأمر لو كان كما قاله الخصم، لصار هذا حجة للكفار على نوح ﷺ، ومعلوم أن نوحا ﷺ لا يجوز أن يذكر كلاما يصير بسببه مفحما ملزما عاجزا عن تقرير حجة الله تعالى، فثبت بما ذكرنا أن هذه الآية لا تدل على قول المجبرة، ثم إنهم ذكروا وجوها من التأويلات:

الأول: أولئك الكفار كانوا مجبرة، وكانوا يقولون إن كفرهم بإرادة الله تعالى، فعند هذا قال نوح عليه السلام: إن نصحه لا ينفعهم إن كان الأمر كما قالوا، ومثاله أن يعاقب الرجل ولده على ذنبه فيقول الولد: لا أقدر على غير ما أنا عليه، فيقول الوالد: فلن ينفعك إذا نصحي ولا زجري، وليس المراد أنه يصدقه على ما ذكره بل على وجه الإنكار لذلك.

الثاني: قال الحسن: معنى: يغويكم أي: يعذبكم، والمعنى: لا ينفعكم نصحي اليوم إذا نزل بكم العذاب فآمتتم في ذلك الوقت، لأن الإيمان عند نزول العذاب لا يقبل، وإنما ينفعكم نصحي إذا آمتتم قبل مشاهدة العذاب.

الثالث: قال الجبائي: الغواية: هي الخيبة من الطلب بدليل قوله تعالى: (فسوف يلقون غيا)^(١)، أي: خيبة من خير الآخرة قال الشاعر:

ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾، جزاء معلق على شرط بعده شرط آخر، وهذا يقتضي أن يكون الشرط المؤخر في اللفظ مقدما في الوجود وذلك لأن الرجل إذا قال لامرأته أنت طالق إن دخلت الدار، كان المفهوم كون ذلك الطلاق من لوازم ذلك الدخول، فإذا ذكر بعده شرطا آخر، مثل أن يقول: إن أكلت الخبز كان المعنى: أن تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الأول مشروط بحصول هذا الشرط الثاني والشرط مقدم على المشروط في الوجود فعلى هذا إن حصل الشرط الثاني تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الأول، أما إن لم يوجد الشرط المذكور ثانيا لم يتعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الأول، هذا هو التحقيق في هذا التركيب، فلهذا المعنى قال الفقهاء: إن الشرط المؤخر في اللفظ مقدم في المعنى، والمقدم في اللفظ مؤخر في المعنى.

(١) الآية: رقم ٥٩ من سورة مريم.

واعلم أن نوحاً ﷺ لما قرر هذه المعاني قال: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وهذا نهاية الوعيد، أي: هو إلهكم الذي خلقكم ورباكم ويملك التصرف في ذواتكم وفي صفاتكم قبل الموت وعند الموت وبعد الموت مرجعكم إليه وهذا يفيد نهاية التحذير. وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُخْتَرُمُونَ﴾.

اعلم أن معنى افتراه: اختلقه وافتعله وجاء به من عند نفسه، والهاء: ترجع إلى الوحي الذي بلغه إليهم، وقوله: فعلي إجرامي، الإجماع: اقتراح المحظورات واكتسابها، وهذا من باب حذف المضاف، لأن المعنى: فعلي عقاب إجرامي، وفي الآية محذوف آخر وهو أن المعنى: إن كنت افتريته فعلي عقاب جرمي، وإن كنت صادقا وكذبتهم فعلي عقاب ذلك التكذيب، إلا أنه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليه، كقوله: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ فَنِتْءَانَاءَ الْيَلِ﴾^(١)، ولم يذكر البقية، وقوله: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُخْتَرُمُونَ﴾، أي: أنا بريء من عقاب جرمكم، وأكثر المفسرين على أن هذا من بقية كلام نوح ﷺ، وهذه الآية وقعت في قصة محمد ﷺ في أثناء حكاية نوح، وقولهم بعيد جدا، وأيضا قوله: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ لا يدل على أنه كان شاكا، إلا أنه قول يقال على وجه الإنكار عند اليأس من القبول.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، قال ابن عباس ﷺ: لما جاء هذا من عند الله تعالى دعا على قومه فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٢)، وقوله: (فلا تبتئس)، أي: لا تحزن، قال أبو زيد: ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه، وأنشد أبو عبيدة:

ما يقسم الله أقبل غير مبتئس به وأقعد كريما ناعما بال

(١) الآية: رقم ٩ من سورة الزمر.

(٢) الآية: رقم ٢٦ من سورة نوح.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمَرَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، يقتضي تعريف نوح ﷺ أنه معذبهم ومهلكهم، فكان يحتمل أن يعذبهم بوجوه التعذيب، فعرفه الله تعالى أنه يعذبهم بهذا الجنس الذي هو الغرق، ولما كان السبيل الذي به يحصل النجاة من الغرق تكوين السفينة، لا جرم أمر الله تعالى بإصلاح السفينة وإعدادها، فأوحى الله تعالى إليه أن يصنعها على مثال جؤ جؤ الطائر.

وأما قوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾، ففيه وجوه:

الأول: يعني لا تطلب مني تأخير العذاب عنهم فإني قد حكمت عليهم بهذا الحكم، فلما علم نوح ﷺ ذلك دعا عليهم بعد ذلك وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

الثاني: ولا تخاطبني في تعجيل ذلك العقاب على الذين ظلموا، فإني لما قضيت إنزال ذلك العذاب في وقت معين كان تعجيله ممتنعا.

الثالث: المراد بالذين ظلموا امرأته وابنه كنعان.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٣٨) ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، أما قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ﴾، ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ﴾، قولان:

الأول: أنه حكاية حال ماضية، أي: في ذلك الوقت كان يصدق عليه أنه يصنع الفلك.

الثاني: التقدير: وأقبل يصنع الفلك فاقصر على قوله: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ﴾.

المسألة الثانية: ذكروا في صفة السفينة أقوالاً كثيرة:

فأحدها: أن نوحاً ﷺ اتخذ السفينة في سنتين، وقيل في أربع سنين وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاث بطون فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام، وفي البطن الأعلى جلس هو ومن كان معه مع ما احتاجوا إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم ﷺ.

وثانيها: قال الحسن: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع.

قال صاحب التفسير وهو الإمام الرازي: واعلم أن أمثال هذه المباحث لا تعجبني لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها البتة، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلاً، وكان الخوض فيها من باب الفضول لا سيما مع القطع بأنه ليس هاهنا ما يدل على الجانب الصحيح، والذي نعلمه أنه كان في السعة بحيث يتسع للمؤمنين من قومه ولما يحتاجون إليه ولحصول زوجين من كل حيوان، لأن هذا القدر مذكور في القرآن، فأما غير ذلك القدر فغير مذكور.

أما قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾، ففي تفسير الملائ وجاهان:

قيل: جماعة، وقيل: طبقة من أشرافهم وكبرائهم واختلفوا فيما لأجله كانوا يسخرون وفيه وجوه:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: يا نوح كنت تدعي رسالة الله تعالى فصرت بعد ذلك نجاراً.

وثانيها: أنهم كانوا يقولون له: لو كنت صادقاً في دعواك لكان إلهك يغنيك عن هذا العمل الشاق.

وثالثها: أنهم ما رأوا السفينة قبل ذلك وما عرفوا كيفية الانتفاع بها وكانوا يتعجبون منه ويسخرون.

ورابعها: أن تلك السفينة كانت كبيرة وهو كان يصنعها في موضع بعيد عن الماء جدا وكانوا يقولون: ليس هاهنا ماء ولا يمكنك نقلها إلى الأنهار العظيمة وإلى البحار، فكانوا يعدون ذلك من باب السفه والجنون.

وخامسها: أنه لما طالت مدته مع القوم وكان ينذرهم بالغرق وما شاهدوا من ذلك المعنى خبرا ولا أثرا غلب على ظنونهم كونه كاذبا في ذلك المقال فلما اشتغل بعمل السفينة، لا جرم سخروا منه وكل هذه الوجوه محتملة، ثم إنه تعالى حكى عنه أنه كان يقول: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾، وفيه وجوه:

الأول: التقدير: إن تسخروا منا في هذه الساعة فإننا نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا والحزى في الآخرة.

الثاني: إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع، فإننا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله تعالى وعذابه فأنتم أولى بالسخرية منا.

الثالث: إن تستجهلونا فإننا نستجهلكم واستجهالكم أقبح وأشد، لأنكم لا تستجهلون إلا لأجل الجهل بحقيقة الأمر والاعتراض بظاهر الحال كما هو عادة الأطفال والجهال.

فإن قيل: السخرية من آثار المعاصي فكيف يليق ذلك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قلنا: إنه تعالى سمى المقابلة سخرية كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ مِّثْلُهَا﴾^(١).

(١) الآية: رقم ٤٠ من سورة الشورى.

أما قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ نَعْلَمُوتُ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾، أي: فسوف تعلمون من هو أحق بالسخرية ومن هو أحمد عاقبة، وفي قوله: ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ ﴾، وجهان: أحدهما: أن يكون استفهاما، بمعنى: أي، كأنه قيل: فسوف تعلمون أينما يأتيه عذاب، وعلى هذا الوجه فمحل ﴿ مَنْ ﴾: رفع بالابتداء.

والثاني: أن يكون بمعنى: الذي، ويكون في محل: النصب وقوله تعالى: ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾، أي: يجب عليه وينزل به.

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾.

وفي قوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب الكشف: ﴿ حَتَّىٰ ﴾: هي التي يبتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء ووقعت غاية لقوله: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلُكُ ﴾، أي: فكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد.

المسألة الثانية: الأمر في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾، يحتمل وجهين:

الأول: أنه تعالى بين أنه لا يحدث شيء إلا بأمر الله تعالى كما قال: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(١)، فكان المراد هذا.

والثاني: أن يكون المراد من الأمر هاهنا هو العذاب الموعد به.

المسألة الثالثة: في التنور قولان:

أحدهما: أنه التنور الذي يخبز فيه.

(١) الآية: رقم ٤٠ من سورة النحل.

والثاني: أنه غيره، أما الأول: وهو أنه التنور الذي يخبز فيه فهو قول جماعة عظيمة من المفسرين كابن عباس والحسن ومجاهد، وهؤلاء اختلفوا، فمنهم من قال: إنه تنور لنوح عليه السلام، وقيل: كان لآدم عليه السلام، قال الحسن: كان تنورا من حجارة، وكان لحواء حتى صار لنوح عليه السلام، واختلفوا في موضعه فقال الشعبي: إنه كان بناحية الكوفة، وعن علي عليه السلام: أنه في مسجد الكوفة، قال: وقد صلى فيه سبعون نبيا، وقيل بالشام بموضع يقال له: عين ووردان وهو قول مقاتل، وقيل: فار التنور بالهند، وقيل: إن امرأته كانت تخبز في ذلك التنور فأخبرته بخروج الماء من ذلك التنور فاشتغل في الحال بوضع تلك الأشياء في السفينة.

القول الثاني: ليس المراد من التنور تنور الخبز، وعلى هذا التقدير ففيه أقوال:

الأول: أنه انفجر الماء من وجه الأرض كما قال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۖ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۗ﴾^(١)، والعرب تسمي وجه الأرض تنورا.

الثاني: أن التنور أشرف موضع في الأرض وأعلى مكان فيها وقد أخرج إليه الماء من ذلك الموضع ليكون ذلك معجزة له، وأيضا المعنى: أنه لما نبع الماء من أعالي الأرض، ومن الأمكنة المرتفعة فشبهت لارتفاعها بالتناير.

الثالث: ﴿وَفَارَ النَّتُّورُ﴾، أي: طلع الصبح وهو منقول عن علي عليه السلام.

الرابع: ﴿وَفَارَ النَّتُّورُ﴾، يحتمل: أن يكون معناه: اشتد الأمر كما يقال: حمي الوطيس ومعنى الآية: إذا رأيت الأمر يشتد والماء يكثر فانج بنفسك ومن معك إلى السفينة.

فإن قيل: فما الأصح من هذه اقوال؟

قلنا: الأصل حمل الكلام على حقيقته، ولفظ التنور حقيقة في الموضع الذي يخبز

(١) الآيتان: رقم ١١-١٢ من سورة القمر.

فيه فوجب حمل اللفظ عليه، ولا امتناع في العقل في أن يقال: إن الماء نبع أولا من موضع معين وكان ذلك الموضع تنورا.

فإن قيل: ذكر التنور بالألف واللام، وهذا إنما يكون معهود سابق معين معلوم عند السامع وليس في الأرض تنور هذا شأنه، فوجب أن يحمل ذلك على أن المراد إذا رأيت الماء يشتد نبوعه والأمر يقوى فانج بنفسك وبمن معك.

قلنا: لا يبعد أن يقال: إن ذلك التنور كان لنوح ﷺ، بأن كان تنور آدم أو حواء أو كان تنورا عينه الله تعالى لنوح ﷺ وعرفه أنك إذا رأيت الماء يفور فاعلم أن الأمر قد وقع، وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى صرف الكلام عن ظاهره.

المسألة الرابعة: معنى فار: نبع على قوة وشدة تشبيها بغليان القدر عند قوة النار ولا شبهة في أن نفس التنور لا يفور فالمراد فار الماء من التنور، والذي روي أن فور التنور كان علامة لهلاك القوم لا يمتنع لأن هذه واقعة عظيمة، وقد وعد الله تعالى المؤمنين النجاة فلا بد وأن يجعل لهم علامة بها يعرفون الوقت المعين، فلا يبعد جعل هذه الحالة علامة لحدوث هذه الواقعة.

المسألة الخامسة: قال الليث: التنور: لفظة عمت بكل لسان وصاحبه تنار، قال الأزهري: وهذا يدل على أن الاسم قد يكون أعجميا فتعربه العرب فيصير عربيا، والدليل على ذلك أن الأصل تنار ولا يعرف في كلام العرب تنور قبل هذا، ونظيره ما دخل في كلام العرب من كلام العجم الديباج والدينار والسندس والإستبرق فإن العرب لما تكلموا بهذه الألفاظ صارت عربية.

واعلم أنه لما فار التنور فعند ذلك أمره الله تعالى بأن يحمل في السفينة ثلاثة أنواع من الأشياء. فالأول:

قوله: ﴿ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾، قال الأخفش: تقول الاثنان هما

زوجان قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١)، فالسمااء زوج والأرض زوج والشتاء زوج والصيف زوج والنهار زوج والليل زوج، وتقول للمرأة هي زوج وهو زوجها، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾^(٢)، يعني المرأة، وقال: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾^(٣)، فثبت أن الواحد قد يقال له: زوج ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبِّئِ أَزْوَاجَهُمْ مِنَ الضَّكَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ﴾^(٤)، وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾^(٥).

إذا عرفت هذا فنقول: الزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكراً والآخر أنثى، والتقدير: كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما في السفينة اثنين واحد ذكر والآخر أنثى، ولذلك قرأ حفص: من كل بالتثنية وأرادوا حمل من كل شيء زوجين اثنين، الذكر زوج، والأنثى زوج، ولا يقال عليه: إن الزوجين لا يكونان إلا اثنين فما الفائدة في قوله: (زوجين اثنين)، لأننا نقول هذا على مثال قوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾^(٦)، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾^(٧)، وأما على القراءة المشهورة، فهذا السؤال غير وأرادوا اختلفوا في أنه هل دخل في قوله: ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، غير الحيوان أم لا؟ فنقول: أما الحيوان فداخل لأن قوله: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، يدخل فيه كل الحيوانات، وأما النبات فاللفظ لا يدل عليه، إلا أنه بحسب قرينة الحال لا يبعد بسبب أن الناس محتاجون إلى النبات بجميع أقسامه.

الثاني: من الأشياء التي أمر الله تعالى نوحاً ﷺ بحملها في السفينة.

(١) الآية: رقم ٤٩ من سورة الذاريات.

(٢) الآية: رقم ١ من سورة النساء.

(٣) الآية: رقم ٤٥ من سورة النجم.

(٤) الآية: رقم ١٤٣ من سورة الأنعام.

(٥) الآية: رقم ١٤٤ من سورة الأنعام.

(٦) الآية: رقم ٥١ من سورة النحل.

(٧) الآية: رقم ١٣ من سورة الحاقة.

قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، قالوا: كانوا سبعة نوح ﷺ وثلاثة أبناء له وهم سام وحام ويافث، ولكل واحد منهم زوجة، وقيل: أيضا كانوا ثمانية، هؤلاء وزوجة نوح ﷺ.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، فالمراد: ابنه وامراته وكانا كافرين، حكم الله تعالى عليهم بالهلاك، فإن قيل: الإنسان أشرف من جميع الحيوانات فما السبب أنه وقع الابتداء بذكر الحيوانات؟

قلنا: الإنسان عاقل وهو لعقله كالمضطر إلى دفع أسباب الهلاك عن نفسه، فلا حاجة فيه إلى المبالغة في الترغيب، بخلاف السعي في تخليص سائر الحيوانات، فلهذا السبب وقع الابتداء به.

واعلم أن أصحابنا احتجوا بقوله: إلا من سبق عليه القول في إثبات القضاء اللازم والقدر الواجب، قالوا: لأن قوله: ﴿سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، مشعر بأن كل من سبق عليه القول فإنه لا يتغير عن حاله وهو كقوله عليه الصلاة والسلام: (السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

النوع الثالث: من تلك الأشياء قوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾، قالوا: كانوا ثمانين.

قال مقاتل: في ناحية الموصل قرية يقال لها قرية الثمانين سميت بذلك، لأن هؤلاء لما خرجوا من السفينة بنوها، فسميت بهذا الاسم وذكروا ما هو أزيد منه وما هو أنقص منه وذلك مما لا سبيل إلى معرفته إلا أن الله تعالى وصفهم بالقلة وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

فإن قيل: لما كان الذين آمنوا معه ودخلوا في السفينة كانوا جماعة فلم لم يقل قليلون كما في قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾^(١).

(١) الآية: رقم ٥٤ من سورة الشعراء.

قلنا: كلا اللفظين جائز، والتقدير هاهنا: وما آمن معه إلا نفر قليل، فأما الذي يروى أن إبليس دخل السفينة فبعيد، لأنه من الجن وهو جسم ناري أو هوائي وكيف يؤثر الغرق فيه، وأيضا كتاب الله تعالى لم يدل عليه وخبر صحيح ما ورد فيه، فالأولى ترك الخوض فيه. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أما قوله: وقال يعني نوح عليه السلام لقومه: ﴿ارْكَبُوا﴾، والركوب: العلو على ظهر الشيء ومنه ركوب الدابة وركوب السفينة وركوب البحر وكل شيء علا شيئا فقد ركه، يقال: ركه الدين، قال الليث: وتسمي العرب من يركب السفينة راكب السفينة، وأما الركبان والركب: فهم: من ركبوا الدواب والإبل.

قال الواحدي: ولفظة (في)، في قوله: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا﴾ لا يجوز أن تكون من صلة الركوب، لأنه يقال: ركبت السفينة ولا يقال: ركبت في السفينة، بل الوجه أن يقال: مفعول اركبوا محذوف، والتقدير: اركبوا الماء في السفينة، وأيضا يجوز أن يكون فائدة هذه الزيادة، أنه أمرهم أن يكونوا في جوف الفلك لا على ظهرها فلو قال: (اركبوها) لتوهموا أنه أمرهم أن يكونوا على ظهر السفينة.

أما قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا﴾، ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: مجريها بفتح الميم، وقرأ الباقون: بضم الميم واتفقوا في مرساها أنه: بضم الميم، وقال صاحب (الكشاف): قرأ مجاهد مجراها ومرساها بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل صفتين لله تعالى.

قال الواحدي: المجري مصدر كالإجراء، ومثله قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾^(٢)، وأما من قرأ مجراها بفتح الميم، فهو أيضا مصدر، مثل الجري.

(١) الآية: رقم ٢٩ من سورة المؤمنون.

(٢) الآية: رقم ٨٠ من سورة الإسراء.

واحتج صاحب هذه القراءة بقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾، ولو كان مجراها لكان وهي تجريهم، وحجة من ضم الميم أن جرت بهم وأجرتهم يتقاربان في المعنى، فإذا قال: تجري بهم فكأنه قال: تجريهم، وأما المرسى فهو أيضا مصدر كالإرساء، يقال: رسا الشيء يرسو إذا ثبت وأرساه غيره، قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾^(١)، قال ابن عباس: يريد تجري بسم الله وقدرته، وترسو بسم الله وقدرته، وقيل: كان إذا أراد أن تجري بهم قال: بسم الله مجراها فتجري، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله مرساها فترسو.

المسألة الثانية: ذكروا في عامل الإعراب في بسم الله وجوها:

الأول: اركبوا بسم الله، والثاني: ابدأوا بسم الله، والثالث: بسم الله إجراؤها وإرساؤها، وقيل: إنها سارت لأول يوم من رجب، وقيل: لعشر مضي من رجب، فصارت ستة أشهر، واستوت يوم العاشر من المحرم على الجودي.

المسألة الثالثة: في الآية احتمالان:

الاحتمال الأول: أن يكون مجموع قوله: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّدَهَا وَمُرْسَتْهَا﴾ كلاما واحدا، والتقدير: وقال اركبوا فيها بسم مجريها ومرساها، يعني ينبغي أن يكون الركوب مقرونا بهذا الذكر.

والاحتمال الثاني: أن يكونا كلامين، والتقدير: أن نوحا ﷺ أمرهم بالركوب، ثم أخبرهم بأن مجريها ومرساها ليس إلا بسم الله وأمره وقدرته.

فالمعنى الأول: يشير إلى أن الإنسان لا ينبغي أن يشرع في أمر من الأمور إلا ويكون في وقت الشروع فيه ذاكرة لاسم الله تعالى بالأذكار المقدسة حتى يكون ببركة ذلك الذكر سببا لتمام ذلك المقصود.

والمعنى الثاني: يدل على أنه لما ركب السفينة أخبر القوم بأن السفينة ليست سببا

(١) الآية: رقم ٣٢ من سورة النازعات.

لحصول النجاة بل الواجب ربط المهمة وتعليق القلب بفضل الله تعالى، وأخبرهم أنه تعالى هو المجري والمرسي للسفينة، فإياكم أن تعولوا على السفينة، بل يجب أن يكون تعويلكم على فضل الله فإنه هو المجري والمرسي لها، فعلى التقدير الأول: كان نوح ﷺ وقت ركوب السفينة في مقام الذكر، وعلى التقدير الثاني: كان في مقام الكفر والبراءة عن الحول والقوة وقطع النظر عن الأسباب واستغراق القلب في نور جلال مسبب الأسباب.

وأما قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ففيه سؤال: وهو أن ذلك الوقت وقت الإهلاك وإظهار القهر فكيف يليق به هذا الذكر؟

وجوابه: لعل القوم الذين ركبوا السفينة اعتقدوا في أنفسهم أنا إنما نجونا ببركة علمنا فالله تعالى نبههم بهذا الكلام لإزالة ذلك العجب منهم، فإن الإنسان لا ينفك عن أنواع الزلات وظلمات الشهوات، وفي جميع الأحوال فهو محتاج إلى إعانة الله وفضله وإحسانه، وأن يكون رحيماً لعقوبته غفوراً لذنوبه.

وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ أَرَكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤٢) قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١٤٣﴾.

واعلم أن قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ﴾: متعلق بمحذوف، والتقدير: وقال اركبوا فيها، فركبوا فيها يقولون: بسم الله وهي تجري بهم في موج كالجبال.

المسألة الثانية: الأمواج العظيمة إنما تحدث عند حصول الرياح القوية الشديدة العاصفة فهذا يدل على أنه حصل في ذلك الوقت رياح عاصفة شديدة، والمقصود منه: بيان شدة الهول والفرع.

المسألة الثالثة: الجريان في الموج، هو أن تجري السفينة داخل الموج، وذلك يوجب

الغرق، فالمراد أن الأمواج لما أحاطت بالسفينة من الجوانب، شبهت تلك السفينة بما إذا جرت في داخل تلك الأمواج.

قوله تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾، ثم حكى الله تعالى عنه أنه نادى ابنه، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أنه كان ابنا له، وفيه أقوال:

- القول الأول: أنه ابنه في الحقيقة، والدليل عليه: أنه تعالى نص عليه فقال: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾، ونوح عليه السلام أيضا نص عليه فقال: ﴿ يَبْنَى ﴾، وصرف هذا اللفظ إلى أنه ربه، فأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقة إلى مجازه من غير ضرورة وأنه لا يجوز، والذين خالفوا هذا الظاهر إنما خالفوه لأنهم استبعدوا أن يكون ولد الرسول المعصوم كافرا، وهذا بعيد، فإنه ثبت أن والد رسولنا ﷺ كان كافرا، ووالد إبراهيم عليه السلام كان كافرا بنص القرآن، فكذلك هاهنا، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام لما قال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾^(١)، فكيف ناداه مع كفره؟

فأجابوا عنه من وجوه:

الأول: أنه كان ينافق أباه فظن نوح أنه مؤمن فلذلك ناداه ولولا ذلك لما أحب نجاته.

والثاني: أنه عليه السلام كان يعلم أنه كافر، لكنه ظن أنه لما شاهد الغرق والأهوال العظيمة فإنه يقبل الإيمان.

فصار قوله: ﴿ يَبْنَى أَرْكَبَ مَعَنَا ﴾، كالدلالة على أنه طلب منه الإيمان وتأكد هذا بقوله: ﴿ وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾، أي: تابعهم في الكفر واركب معنا.

(١) الآية: رقم ٢٦ من سورة نوح.

والثالث: أن شفقة الأبوة لعلها حملته على ذلك النداء، والذي تقدم من قوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، كان كالمجمل فلعله ﷺ جَوَّزَ أن لا يكون هو داخلا فيه.

- القول الثاني: أنه كان ابن امرأته وهو قول محمد بن علي الباقر وقول الحسن البصري ويروى أن عليا ﷺ قرأ: (ونادى نوح ابنها)، والضمير لامرأته.

وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير: (ابنه) بفتح الهاء يريدان أنه ابنها، إلا أنهما اكتفيا بالفتحة عن الألف.

وقال قتادة سألت الحسن عنه فقال: والله ما كان ابنه، فقلت: إن الله حكى عنه أنه قال: ﴿إِنَّ أَبْنَىَّ مِنْ أَهْلِي﴾، وأنت تقول: ما كان ابنا له، فقال: لم يقل: إنه مني ولكنه قال من أهلي وهذا يدل على قولي.

- القول الثالث: أنه ولد على فراشه لغير رشدة، والقائلون بهذا القول احتجوا بقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾^(١)، وهذا قول خبيث يجب صون منصب الأنبياء عن هذه الفضيحة لا سيما وهو على خلاف نص القرآن، أما قوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، فليس فيه أن تلك الخيانة إنما حصلت بالسبب الذي ذكره، فقد قيل لابن عباس ﷺ: ما كانت تلك الخيانة، فقال: كانت امرأة نوح تقول: زوجي مجنون، وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذا نزلوا به.

ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى: ﴿الْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِينَ وَالْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾^(٢)، وأيضا قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، وبالجمله فقد دللنا على أن الحق هو مقول الأول.

(١) الآية: رقم ١٠ من سورة التحريم.

(٢) الآية: رقم ٢٦ من سورة النور.

(٣) الآية: رقم ٣ من سورة النور.

وأما قوله: ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾، فاعلم أن المعزل في اللغة معناه: موضع منقطع عن غيره، وأصله من العزل، وهو التنحية والإبعاد، تقول: كنت بمعزل عن كذا، أي بموضع قد عزل منه.

واعلم أن قوله: ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾، لا يدل على أنه في معزل من أي شيء فلهذا السبب ذكروا وجوها:

الأول: أنه كان في معزل من السفينة لأنه كان يظن أن الجبل يمنعه من الغرق.

الثاني: أنه كان في معزل عن أبيه وإخوته وقومه.

الثالث: أنه كان في معزل من الكفار كأنه انفرد عنهم فظن نوح ﷺ أن ذلك إنما كان لأنه أحب مفارقتهم.

أما قوله: ﴿يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾، فنقول: قرأ حفص عن عاصم: يا بني بفتح الياء في جميع القرآن والباقون بالكسر.

قال أبو علي: الوجه الكسر وذلك أن اللام من ابن ياء أو واو فإذا صغرت ألحقت ياء التحقير، فلزم أن ترد اللام المحذوفة وإلا لزم أن تحرك ياء التحقير بحركات الإعراب لكنها لا تحرك لأنها لو حركت لزم أن تنقلب كما تنقلب سائر حروف المد واللين إذا كانت حروف إعراب، نحو عصا وقفوا ولو انقلبت بطلت دلالتها على التحقير ثم أضفت إلى نفسك اجتمعت ثلاث آيات.

الأولى: منها للتحقير، والثانية: لام الفعل، والثالثة: التي للإضافة، تقول: هذا بني فإذا ناديته صار فيه وجهان: إثبات الياء وحذفها، والاختيار حذف الياء التي للإضافة وإبقاء الكسرة دلالة عليه نحو يا غلام، ومن قرأ: ﴿يَبْنَىٰ﴾ بفتح الياء فإنه أراد الإضافة أيضا كما أرادها من قرأ بالكسر لكنه أبدل من الكسرة الفتحة ومن الياء الألف تخفيفا فصار يا بنيا، كما قال: يا ابنة عما لا تلومي واهجعي، ثم حذف الألف للتخفيف.

واعلم أنه تعالى لما حكى عن نوح ﷺ أنه دعاه إلى أن يركب السفينة حكى عن ابنه أنه قال: ﴿سَأَوِّى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، وهذا يدل على أن الابن كان متماديا في الكفر مصرا عليه مكذبا لأبيه فيما أخبر عنه، فعند هذا قال نوح ﷺ: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾، وفيه سؤال: وهو أن الذي رحمه الله معصوم، فكيف يحسن استثناء المعصوم من العاصم وهو قوله: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وذكروا في الجواب طرقا كثيرة:

الوجه الأول: أنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فبين أنه تعالى رحيم وأنه برحمته يخلص هؤلاء الذين ركبو السفينة من آفة الغرق.

إذا عرفت هذا فنقول: إن ابن نوح ﷺ لما قال: ﴿سَأَوِّى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، قال نوح ﷺ: أخطأت، ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾، والمعنى: إلا ذلك الذي ذكرت أنه برحمته يخلص هؤلاء من الغرق فصار تقدير الآية: لا عاصم اليوم من عذاب الله إلا الله الرحيم وتقديره: لا فرار من الله إلا إلى الله، وهو نظير قوله ﷺ في دعائه: (وأعوذ بك منك)، وهذا تأويل في غاية الحسن.

الوجه الثاني: في التأويل وهو الذي ذكره صاحب (حل العقد) أن هذا الاستثناء وقع من مضممر هو في حكم الملفوظ لظهور دلالة اللفظ عليه، والتقدير: لا عاصم اليوم لأحد من أمر الله إلا من رحم وهو كقولك: لا تضرب اليوم إلا زيدا، فإن تقديره: لا تضرب أحدا إلا زيدا، إلا أنه ترك التصريح به لدلالة اللفظ عليه فكذا هاهنا.

الوجه الثالث: في التأويل أن قوله: لا عاصم أي لا ذا عصمة كما قالوا: (رامح ولابن) ومعناه: ذو رمح، وذو لبن، وقال تعالى: ﴿مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾^(١)، ﴿فِي عَيْشَةٍ

(١) الآية: رقم ٦ من سورة الطارق.

رَاضِيَةً ﴿١﴾، ومعناه: ما ذكرنا فكذا ها هنا، وعلى هذا التقدير: العاصم هو ذو العصمة، فيدخل فيه المعصوم، وحينئذ يصح استثناء قوله: إلا من رحم منه.

الوجه الرابع: قوله: ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾، عنى بقوله: إلا من رحم نفسه، لأن نوحا ﷺ وطائفته هم الذين خصهم الله تعالى برحمته، والمراد: لا عاصم لك إلا الله بمعنى: أن بسببه تحصل رحمة الله، كما أضيف الإحياء إلى عيسى ﷺ في قوله: ﴿ وَأُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ ﴿٢﴾، لأجل أن الإحياء حصل بدعائه.

الوجه الخامس: أن قوله: ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾، استثناء منقطع، والمعنى: لكن من رحم الله معصوم ونظيره قوله تعالى: ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الظَّنِّ ﴾ ﴿٣﴾، ثم إنه تعالى بين بقوله: ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ﴾، أي: بسبب هذه الحيلولة خرج من أن يخاطبه نوح ﷺ ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِقِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلَغِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

اعلم أن المقصود من هذا الكلام وصف آخر لواقعة الطوفان، فكان التقدير: أنه لما انتهى أمر الطوفان قيل كذا وكذا، ﴿ يَتَّارِضْ أَبْلَغِي مَاءَكِ ﴾، يقال: بلع الماء يبلعه بلعا إذا شربه وابتلع الطعام ابتلاعا إذا لم يمضغه، وقال أهل اللغة: الفصيح بلع بكسر اللام يبلع بفتحها، ﴿ وَنَسَمَاءُ أَقْلَعِي ﴾، يقال: أقلع الرجل عن عمله إذا كف عنه، وأقلعت السماء بعد ما مطرت إذا أمسكت، ﴿ وَغِيصَ الْمَاءِ ﴾، يقال: غاض الماء يغيض غيضا ومغاضا إذا نقص، وغضته أنا وهذا من باب فعل الشيء وفعلته أنا ومثله جبر العظم وجبرته وفغر الفم وفغرته، ودلع اللسان ودلعته، ونقص الشيء ونقصته، فقوله:

(١) الآية: رقم ١١ من سورة الحاقة.

(٢) الآية: رقم ٤٩ من سورة آل عمران.

(٣) الآية: رقم ١٥٧ من سورة النساء.

﴿وَعِضَ الْمَاءِ﴾، أي: نقص وما بقي منه شيء، واعلم أن هذه الآية مشتملة على ألفاظ كثيرة كل واحد منها دال على عظمة الله تعالى وعلو كبريائه:

فأولها: قوله: ﴿وَقِيلَ﴾، وذلك لأن هذا يدل على أنه سبحانه في الجلال والعلو والعظمة، بحيث أنه متى قيل ﴿وَقِيلَ﴾، لم ينصرف العقل إلا إليه ولم يتوجه الفكر إلا إلى أن ذلك القائل هو: (هو) وهذا تنبيه من هذا الوجه، على أنه تقرر في العقول أنه لا حاكم في العالمين ولا متصرف في العالم العلوي والعالم السفلي إلا هو.

وثانيها: قوله: ﴿يَتَأَرَضُ أَبْلَغَ مَاءٍ لِكَ وَسَمَاءٍ أَقْلَغَ﴾، فإن الحس يدل على عظمة هذه الأجسام وشدتها وقوتها، فإذا شعر العقل بوجود موجود قاهر لهذه الأجسام مستولٍ عليها متصرفٍ فيها كيف شاء وأراد، صار ذلك سببا لوقوف القوة العقلية على كمال جلال الله تعالى وعلو قهره، وكمال قدرته ومشيتته.

وثالثها: أن السماء والأرض من الجمادات فقوله: يا أرض ويا سماء مشعر بحسب الظاهر، على أن أمره وتكليفه نافذ في الجمادات فعند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الأمر كذلك فلا أن يكون أمره نافذا على العقلاء كان أولى، وليس مرادي منه أنه تعالى يأمر الجمادات فإن ذلك باطل بل المراد أن توجيه صيغة الأمر بحسب الظاهر على هذه الجمادات القوية الشديدة يقرر في الوهم نوع عظمتته وجلاله تقريراً كاملاً.

وأما قوله: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، فالمراد: أن الذي قضى به وقدره في الأزل قضاء جزماً حتماً فقد وقع تنبيهها على أن كل ما قضى الله تعالى فهو واقع في وقته، وأنه لا دافع لقضائه ولا مانع من نفاذ حكمه في أرضه وسماؤه، فإن قيل: كيف يليق بحكمة الله تعالى أن يغرق الأطفال بسبب جرم الكفار؟

قلنا: الجواب عنه من وجهين:

الأول: أن كثيراً من المفسرين يقولون: إن الله تعالى أعقم أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة فلم يغرق إلا من بلغ سنه إلى الأربعين.

ولقائل أن يقول: لو كان الأمر على ما ذكرتم، لكان ذلك آية عجيبة قاهرة، ويبعد مع ظهورها استمرارهم على الكفر، وأيضا فهب أنكم ذكرتم ما ذكرتم فما قولكم في إهلاك الطير والوحش مع أنه لا تكليف عليها البتة.

والجواب الثاني: وهو الحق أنه لا اعتراض على الله تعالى في أفعاله لا يُسئل عما يفعل وهم يسئلون وأما المعتزلة فهم يقولون: إنه تعالى أغرق الأطفال والحيوانات، وذلك يجري مجرى إذنه تعالى في ذبح هذه البهائم وفي استعمالها في الأعمال الشاقة الشديدة، وأما قوله تعالى: ﴿ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ فالمعنى: واستوت السفينة على جبل بالجزيرة يقال له الجودي، وكان ذلك الجبل جبلا منخفضا، فكان استواء السفينة عليه دليلا على انقطاع مادة ذلك الماء وكان ذلك الاستواء يوم عاشوراء.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ بَعْدَ لَاقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، ففيه وجهان:

الأول: أنه من كلام الله تعالى: قال لهم ذلك على سبيل اللعن والطرده.

والثاني: أن يكون ذلك من كلام نوح عليه السلام وأصحابه: لأن الغالب ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فإذا هلكوا ونجا منهم قال مثل هذا الكلام ولأنه جار مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق.

وقوله تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٥٥) قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْمَعْ لَهُ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطَيْتُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٥٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾، وفيه مسألتان:

في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾، المسألة الأولى: اعلم أن قوله: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾، فقد ذكرنا الخلاف في أنه هل كان ابنا له أم لا فلا نعيده، ثم إنه تعالى ذكر أنه قال: ﴿ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾، واعلم أنه لما ثبت بالدليل أنه كان ابنا له وجب حمل قوله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾، على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون المراد أنه ليس من أهل دينك.

والثاني: المراد أنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك والقولان متقاربان.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن العبرة بقراءة الدين لا بقراءة النسب فإن في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ولكن لما انتفت قرابة الدين لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو قوله:

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، قرأ الكسائي: عَمِلَ على صيغة الفعل الماضي، وغير بالنصب، والمعنى: أن ابنك عمل عملا غير صالح يعني أشرك وكذب، وكلمة غير نصب، لأنها نعت لمصدر محذوف، وقرأ الباقون: عمل بالرفع والتنوين، وفيه وجهان:

الأول: أن الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ﴾ عائد إلى السؤال، يعني أن هذا السؤال عمل وهو قوله: ﴿إِنَّ أَبْنِيَّ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾، غير صالح، لأن طلب نجاة الكافر بعد أن سبق الحكم، الجزم بأنه لا ينجي أحدا منهم سؤال باطل.

الثاني: أن يكون هذا الضمير عائدا إلى الابن، وعلى هذا التقدير ففي وصفه بكونه عملا غير صالح وجوه:

الأول: أن الرجل إذا كثّر عمله وإحسانه يقال له: إنه علم وكرم وجود، فكذا هاهنا لما كثّر إقدام ابن نوح على الأعمال الباطلة حكم عليه بأنه في نفسه عمل باطل.

الثاني: أن يكون المراد أنه ذو عمل باطل، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه.

الثالث: قال بعضهم معنى قوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، أي: إنه ولد زنا وهذا القول باطل قطعاً ثم إنه تعالى قال لنوح ﷺ: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: احتج بهذه الآية من قدح في عصمة الأنبياء عليهم السلام من وجوه:
 الوجه الأول: أن قراءة عمل بالرفع والتنوين قراءة متواترة فهي محكمة، وهذا يقتضي عود الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، إما إلى ابن نوح وإما إلى ذلك السؤال، فالقول بأنه عائد إلى ابن نوح لا يتم إلا بإضمار وهو خلاف الظاهر، ولا يجوز المصير إليه إلا عند الضرورة ولا ضرورة هاهنا، لأننا إذا حكمنا بعود الضمير إلى السؤال المتقدم فقد استغنيا عن هذا الضمير، فثبت أن هذا الضمير عائد إلى هذا السؤال، فكان التقدير: أن هذا السؤال عمل غير صالح، أي قولك: ﴿إِنَّ أَبْنِيَّ مِنْ أَهْلِي﴾، لطلب نجاته ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، وذلك يدل على أن هذا السؤال كان ذنبا ومعصية.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ﴾، نهي له عن السؤال، والمذكور السابق هو قوله: ﴿إِنَّ أَبْنِيَّ مِنْ أَهْلِي﴾، فدل هذا على أنه تعالى نهاه عن ذلك السؤال فكان ذلك السؤال ذنبا ومعصية.

الوجه الثالث: أن قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، يدل على أن ذلك السؤال كان قد صدر لا عن العلم، والقول بغير العلم ذنب لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾^(١).

الوجه الرابع: أن قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، يدل على أن ذلك السؤال كان محض الجهل، وهذا يدل على غاية التقريع ونهاية الزجر، وأيضا جعل الجهل كناية عن الذنب مشهور في القرآن، قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾^(٢)، وقال تعالى حكاية عن موسى ﷺ: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣).

(١) الآية: رقم ١٦٩ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ١٧ من سورة النساء.

(٣) الآية: رقم ٦٧ من سورة البقرة.

الوجه الخامس: أن نوحاً ﷺ اعترف بإقدامه على الذنب والمعصية في هذا المقام فإنه قال: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾، واعترافه بذلك يدل على أنه كان مذنباً.

الوجه السادس: في التمسك بهذه الآية، أن هذه الآية تدل على أن نوحاً نادى ربه لطلب تخليص ولده من الغرق، والآية المتقدمة وهي قوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾، وقوله: (يا بني اركب معنا)، تدل على أنه ﷺ طلب من ابنه الموافقة، فنقول: إما أن يقال إن طلب هذا المعنى من الله كان سابقاً على طلبه من الولد أو كان بالعكس، والأول باطل لأن بتقدير أن يكون طلب هذا المعنى من الله تعالى سابقاً على طلبه من الابن لكان قد سمع من الله أنه تعالى لا يخلص ذلك الابن من الغرق، وأنه تعالى نهاه عن ذلك الطلب، وبعد هذا كيف قال له: ﴿يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾، وأما إن قلنا: إن هذا الطلب من الابن كان متقدماً فكان قد سمع من الابن قوله: ﴿سَآوِئَ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، وظهر بذلك كفره، فكيف طلب من الله تخليصه، وأيضاً أنه تعالى أخبر أن نوحاً لما طلب ذلك منه وامتنع هو صار من المغرقين، فكيف يطلب من الله تخليصه من الغرق بعد أن صار من المغرقين، فهذه الآية من هذه الوجوه الستة تدل على صدور المعصية من نوح ﷺ.

واعلم أنه لما دلت الدلائل الكثيرة على وجوب تنزيه الله تعالى الأنبياء ﷺ من المعاصي، وجب حمل هذه الوجوه المذكورة على ترك الأفضل والأكمل، وحسنات الأبرار سيئات المقربين، فلهذا السبب حصل هذا العتاب والأمر بالاستغفار، ولا يدل على سابقة الذنب كما قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾^(١)، ومعلوم أن مجيء نصر الله والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجا ليست

(١) الآيات: رقم ١-٣ من سورة النصر.

بذنوب يوجب الاستغفار وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^(١)، وليس جميعهم مذنبين، فدل ذلك على أن الاستغفار قد يكون بسبب ترك لأفضل.

المسألة الثانية: قرأ نافع برواية ورش وإسماعيل بتشديد النون وإثبات الياء: (تسألني) وقرأ ابن عامر ونافع برواية قالون بتشديد النون وكسرها من غير إثبات الياء، (تسألن)، وقرأ أبو عمرو بتخفيف النون وكسرها وحذف الياء، (تسألن) أما التشديد فللتأكيد، وأما إثبات الياء فعلى الأصل، وأما ترك التشديد والحذف فللتخفيف من غير إخلال.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾، واعلم أنه تعالى لما نهاه عن ذلك السؤال حكى عنه أنه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾، والمعنى أنه تعالى لما قال له: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، فقال عند ذلك: قبلت يا رب هذا التكليف، ولا أعود إليه إلا أني لا أقدر على الاحتراز منه إلا بإعانتك وهدايتك، فلهذا بدأ أولاً بقوله: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ﴾.

واعلم أن قوله: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾، إخبار عما في المستقبل، أي لا أعود إلى هذا العمل، ثم اشتغل بالاعتذار عما مضى، فقال: ﴿وَاللَّهِ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾، وحقيقة التوبة تقتضي أمرين:

أحدهما: في المستقبل، وهو العزم على الترك وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾.

والثاني: في الماضي وهو الندم على ما مضى وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَاللَّهِ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾، ونختم هذا الكلام بالبحث عن الزلة التي صدرت عن نوح ﷺ في هذا المقام.

فنقول: إن أمة نوح ﷺ كانوا على ثلاثة أقسام: كافر يظهر كفره، ومؤمن يعلم إيمانه، وجمع من المنافقين، وقد كان حكم المؤمنين هو: النجاة، وحكم الكافرين هو: الغرق، وكان ذلك معلوماً، وأما أهل النفاق فبقي حكمهم مخفياً، وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمناً، وكانت الشفقة المفرطة التي تكون من الأب في حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافراً، بل على الوجوه الصحيحة، فلما رآه بمعزل عن القوم طلب منه أن يدخل السفينة فقال: ﴿سَآوَىٰ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، وذلك لا يدل على كفره لجواز أن يكون قد ظن أن الصعود على الجبل يجري مجرى الركوب في السفينة في أنه يصونه عن الغرق، وقول نوح ﷺ: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾، لا يدل إلا على أنه ﷺ كان يقرر عند ابنه أنه لا ينفعه إلا الإيمان والعمل الصالح، وهذا أيضاً لا يدل على أنه علم من ابنه أنه كان كافراً فعند هذه الحالة كان قد بقي في قلبه ظن أن ذلك الابن مؤمن، فطلب من الله تعالى تخليصه بطريق من الطرق إما بأن يمكنه من الدخول في السفينة، وإما أن يحفظه على قمة جبل، فعند ذلك أخبره الله تعالى بأنه منافق وأنه ليس من أهل دينه، فالزلة الصادرة عن نوح ﷺ هو أنه لم يستقص في تعريف ما يدل على نفاقه وكفره، بل اجتهد في ذلك وكان يظن أنه مؤمن، مع أنه أخطأ في ذلك الاجتهاد، لأنه كان كافراً فلم يصدر عنه إلا الخطأ في هذا الاجتهاد، كما قررنا ذلك في أن آدم ﷺ لم تصدر عنه تلك الزلة إلا لأنه أخطأ في هذا الاجتهاد.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى أخبر عن السفينة أنها استوت على الجودي، فهناك قد خرج نوح وقومه من

السفينة لا محالة، ثم إنهم نزلوا من ذلك الجبل إلى الأرض فقوله: ﴿اهْبِطْ﴾،

يحتمل: أن يكون أمرا بالخروج من السفينة إلى أرض الجبل وأن يكون: أمرا بالهبوط من الجبل إلى الأرض المستوية.

المسألة الثانية: أنه تعالى وعده عند الخروج بالسلامة أولا، ثم بالبركة ثانيا، أما الوعد بالسلامة فيحتمل وجهين:

الأول: أنه تعالى أخبر في الآية المتقدمة أن نوحا ﷺ تاب عن زلته وتضرع إلى الله تعالى بقوله: ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾، وهذا التضرع هو عين التضرع الذي حكاه الله تعالى عن آدم ﷺ عند توبته من زلته وهو قوله: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾^(١)، فكان نوح ﷺ محتاجا إلى أن بشره الله تعالى بالسلامة من التهديد والوعيد، فلما قيل له: ﴿يَنْوُحْ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾، حصل له الأمن من جميع المكاهرة المتعلقة بالدين.

والثاني: أن ذلك الغرق لما كان عاما في جميع الأرض فعند ما خرج نوح ﷺ من السفينة علم أنه ليس في الأرض شيء مما ينتفع به من النبات والحيوان، فكان كالحائف في أنه كيف يعيش وكيف يدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكل والمشروب، فلما قال الله تعالى: ﴿أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾، زال عنه ذلك الخوف، لأن ذلك يدل على حصول السلامة من الآفات ولا يكون ذلك إلا مع الأمن وسعة الرزق، ثم إنه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بأن وعده بالبركة هي عبارة عن الدوام والبقاء، والثبات، ونيل الأمل، ومنه بروتك الإبل، ومنه البركة لثبوت الماء فيها، ومنه تبارك وتعالى، أي ثبت تعظيمه، ثم اختلف المفسرون في تفسير هذا الثبات والبقاء.

فالقول الأول: أنه تعالى صير نوحا ﷺ أبا البشر، لأن جميع من بقي كانوا من نسله وعند هذا قال هذا القائل: إنه لما خرج نوح ﷺ من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل إلا من ذريته، فالخلق كلهم من نسله وذريته،

(١) الآية: رقم ٢٣ من سورة الأعراف.

وقال آخرون: لم يكن في سفينة نوح ﷺ إلا من كان من نسله وذريته، وعلى التقديرين فالخلق كلهم إنما تولدوا منه ومن أولاده، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ﴾^(١)، فثبت أن نوحا ﷺ كان آدم الأصغر، فهذا هو المراد من البركات التي وعده الله بها.

والقول الثاني: أنه تعالى لما وعده بالسلامة من الآفات، وعده بأن موجبات السلامة، والراحة والفراغة يكون في التزايد والثبات والاستقرار، ثم إنه تعالى لما شرفه بالسلامة والبركة شرح بعده حال أولئك الذين كانوا معه فقال: ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾، واختلفوا في المراد منه على ثلاثة أقوال:

- منهم من حمله على أولئك الأقوام الذين نجوا معه وجعلهم أئمة وجماعات، لأنه ما كان في ذلك الوقت في جميع الأرض أحد من البشر إلا هم، فلهذا السبب جعلهم أئمة.

- ومنهم من قال: بل المراد ممن معك نسلا وتولدا قالوا: ودليل ذلك أنه ما كان معه إلا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

- ومنهم من قال: المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك، والمختار هو القول الثاني: ومن في قوله: ﴿مِّمَّنْ مَعَكَ﴾، لابتداء الغاية، والمعنى: وعلى أئمة ناشئة من الذين معك.

واعلم أنه تعالى جعل تلك الأمم الناشئة من الذين معه على قسمين:

أحدهما: الذين عطفهم على نوح ﷺ في وصول سلام الله وبركاته إليهم وهم أهل الإيمان.

(١) الآية: رقم ٧٧ من سورة الصافات.

والثاني: أمم وصفهم بأنه تعالى سيمتعهم مدة في الدنيا ثم في الآخرة يمسهم عذاب أليم، فحكم تعالى بأن الأمم الناشئة من الذين كانوا مع نوح ﷺ لا بد وأن ينقسموا إلى مؤمن وإلى كافر.

قال المفسرون: دخل في تلك السلامة كل مؤمن وكل مؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك المتاع وفي ذلك العذاب كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة، ثم قال أهل التحقيق: إنه تعالى إنما عظم شأن نوح ﷺ بإيصال السلامة والبركات منه إليه، لأنه قال: ﴿سَلِّمْ مِنَّا﴾، وهذا يدل على أن الصديقين لا يفرحون بالنعمة من حيث إنها نعمة ولكنهم إنما يفرحون بالنعمة من حيث إنها من الحق، وفي التحقيق يكون فرحهم بالحق وطلبهم للحق وتوجههم إلى الحق، وهذا مقام شريف لا يعرفه إلا خواص الله تعالى، فإن الفرح بالسلامة والبركة من حيث هما سلامة وبركة غير، والفرح بالسلامة والبركة من حيث إنها من الحق غير، والأول: نصيب عامة الخلق، والثاني: نصيب المقربين، ولهذا السبب قال بعضهم: من أثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني، ومن أثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول، وأما أهل العقاب فقد قال في شرح أحوالهم: ﴿وَأُمُّ سَنَمِيعَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مَمَاتٌ أَلِيمٌ﴾، فحكم بأنه تعالى يعطيهم نصيبا من متاع الدنيا فدل ذلك على خساسة الدنيا، فإنه تعالى لما ذكر أحوال المؤمنين لم يذكر ألبتة أنه يعطيهم الدنيا أم لا.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، واعلم أنه تعالى لما شرح قصة نوح ﷺ على التفصيل قال: ﴿تِلْكَ﴾، أي: تلك الآيات التي ذكرناها، وتلك التفاصيل التي شرحناها من أنباء الغيب، أي من الأخبار التي كانت غائبة عن الخلق فقوله: ﴿تِلْكَ﴾، في محل الرفع على الابتداء، و﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾: الخبر و﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾: خبر ثان، وما بعده أيضا: خبر ثالث.

ثم قال تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾، والمعنى: إنك ما كنت تعرف هذه

القصة، بل قومك ما كانوا يعرفونها أيضا، ونظيره: أن تقول لإنسان لا تعرف هذه المسألة لا أنت ولا أهل بلدك. فإن قيل: أليس قد كانت قصة طوفان نوح ﷺ مشهورة عند أهل العلم؟

قلنا: تلك القصة بحسب الإجمال كانت مشهورة، أما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة.

ثم قال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقَبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، والمعنى: يا محمد اصبر أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح ﷺ وقومه على أذى أولئك الكفار، وفيه تنبيه على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح ﷺ ولقومه، فإن قال قائل: إنه تعالى ذكر هذه القصة في سورة يونس ثم إنه أعادها هاهنا مرة أخرى، فما الفائدة في هذا التكرير؟ قلنا: إن القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه: ففي السورة الأولى: كان الكفار يستعجلون نزول العذاب، فذكر تعالى قصة نوح ﷺ في بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر ثم في العاقبة ظهر فكذا في واقعة محمد ﷺ، وفي هذه السورة: ذكر هذه القصة لأجل أن الكفار كانوا يبالغون في الإيحاء، فذكر الله تعالى هذه القصة لبيان أن إقدام الكفار على الإيذاء والإيحاء كان حاصلا في زمان نوح ﷺ، إلا أنه ﷺ لما صبر نال الفتح والظفر، فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود، ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا عن الفائدة.

إعراب آيات القصة

الواردة في سورة: (هود)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: جملة مستأنفة مسوقة للشروع في ذكر عدد من القصص تسلية للنبي ﷺ واعتبارا بها، وتأسيا بما لاقاه أصحابها وقد احتوت هذه السورة على سبع قصص، واللام: موطئة للقسم، وقد: حرف تحقيق وأرسلنا: فعل وفاعل، ونوحا: مفعول به، والى قومه: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، وإني: بكسر الهمزة على إرادة القول؛ وكثيرا ما يضمّر وهو غني عن الشواهد، وإن واسمها ولكم: متعلقان بـ ﴿نَذِيرٌ﴾، ونذير: خبر إن، ومبين: صفته.

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِيمِ﴾، أن: مفسرة، ولا: ناهية، وتعبدوا: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾، والواو: فاعل، وإلا: أداة حصر، ولفظ الجلالة: في محل مفعول به، وإن واسمها وجملة، ﴿أَخَافُ﴾: خبرها، وعليكم: متعلقان بـ ﴿أَخَافُ﴾، وعذاب يوم: مفعول ﴿أَخَافُ﴾، وأليم: صفة ليوم. ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾، الفاء: عاطفة، وقال الملأ: فعل وفاعل، والذين: صفة للملأ، وجملة، ﴿كَفَرُوا﴾: صلة، ومن قومه: حال.

﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَزَّلَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ﴾، الجملة مقول القول، وما: نافية، ونراك: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، وإلا: أداة حصر، والرؤية: تحتمل القلبية والبصرية، فبشرا: مفعول به ثان على الأولى؛ وحال على الثانية، ومثلنا: صفة، وما نراك: عطف على: ﴿مَا نَزَّلَكَ﴾ الأولى، وهي أيضا تحتمل القلبية والبصرية، فجملة: ﴿أَتْبَعَكَ﴾، إما: مفعول به ثان، وأما: حال، وإلا: أداة حصر، والذين: فاعل ﴿أَتْبَعَكَ﴾، وهم أرادونا: مبتدأ وخبر، والجملة صلة، وبإدي الرأي: منصوب على الظرفية، أي: أول الرأي، والعامل

فيه: ﴿أَتَّبَعَكَ﴾، وقد تقدم القول مسهبا فيه، وقيل: انتصب حالا من ضمير نوح في: ﴿أَتَّبَعَكَ﴾، أي: وأنت مكشوف الرأي لا حصافة لك.

﴿وَمَا زَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾، وما نرى: عطف على ما تقدم، ولكم: متعلقان بـ ﴿زَرَىٰ﴾، وعلينا: متعلقان بـ ﴿فَضْلٍ﴾، ومن: حرف جر زائد، وفصل: مجرور لفظا، مفعول به منصوب محلا، وبـ: حرف إضراب وعطف، ونظنكم: عطف على: ﴿وَمَا زَرَىٰ﴾، والكاف: مفعول به أول، وكاذبين: مفعول به ثان.

﴿قَالَ يَقْوَرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَءَاَنِنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ﴾، الجملة: مستأنفة مسوقة للتلطف بهم في الخطاب ومنا صفتهم، ويا قوم: منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة، وأرأيتم: تقدم الكلام عليه مفصلا ورأيتم: فعل وفاعل، أي: أخبروني وهنا يتطلب البينة مفعولا به، وكنت تتطلب البينة مجرورة بـ ﴿عَلَىٰ﴾، فأعمل الثاني؛ وأضمر في الأول، والتقدير: أرأيتم البينة من ربي إن كنت عليها أنلزمكموها فحذف المفعول الأول؛ والجملة الاستفهامية هي المفعول الثاني؛ وجواب الشرط محذوف للدلالة عليه، وإن: شرطية، وكنت: فعل الشرط؛ والتاء: اسمها، وعلى بينة: خبر ﴿كُنْتُ﴾، ومن ربي: صفة، ومعنى: ﴿عَلَىٰ﴾ هنا الاستعلاء لأنصاحب البينة يكون مستعليا على سواه، وقيل: هي للمصاحبة بمعنى: مع وليس بعيد، وآتاني: الواو: عاطفة وآتاني: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ورحمة: مفعول به ثان، ومنعده: صفة لرحمة.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهُ لَكُمْ وَمَا أُنزِلُكُمْ وَمَا أَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ﴾، الفاء: عاطفة، وعميت: فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره: هي، وعليكم: جار ومجرور متعلقان بـ (عميت) وسيأتي بيان حقيقة هذا التعبير في باب البلاغة وأنلزمكموها، الهمزة: للاستفهام، أي: أنكرهم عليها، وفي هذا الفعل ثلاثة ضمائر: الأول: مستتر تقديره: نحن وهو الفاعل، والثاني: ضمير المخاطب، أي: الكاف وهو

المفعول الأول، والثالث: ضمير الغائب، أي: الهاء وهو المفعول الثاني، والميم: علامة جمع الذكور، والواو: لإشباع حركة الضم على الميم وليست ضميرا، وقد روعي الترتيب فيها لأن المتكلم أخص بالفعل، ثم ضمير المخاطب، ثم ضمير الغائب، ﴿وَأَنْتُمْ﴾، الواو: للحال، وأنتم: مبتدأ، ولها: متعلقان بـ ﴿كَرِهُونَ﴾، وكارهون: خبر، والجملة: حالية، وتقدم القول في جملة أنلزمكموها.

﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا﴾، عطف على: ما تقدم، ولا نافية، وأسألکم: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، وعليه: حال، وما لا: مفعول به ثان.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ إن: نافية، وأجري: مبتدأ، وياء المتكلم: مضافة، وإلا: أداة حصر، وعلى الله: خبر.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الواو: عاطفة وما: حجازية تعمل عمل ليس، وأنا: اسمها، والباء: حرف جر زائد، وطارد: مجرور لفظا منصوب محلا؛ على أنه: خبر ﴿مَا﴾، والذين: مضاف إليه، وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾: صلة.

﴿إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾، إن واسمها وملاقوا: خبرها، وربهم: مضاف إليه، ﴿وَلَكِنِّي﴾ الواو: حالية، أو: عاطفة، ولكن واسمها وجملة ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: خبرها، والكاف: مفعول أول لـ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾، وقوما: مفعول به ثان، وجملة ﴿تَجْهَلُونَ﴾: صفة.

﴿وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، عطف على: ما قبله، ومن: اسم استفهام مبتدأ، وجملة ﴿يَنْصُرُنِي﴾: خبر، من الله: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿يَنْصُرُنِي﴾، وإن: شرطية، وطردتهم: فعل الشرط، وهو: فعل ماض وفاعل ومفعول به؛ والجواب محذوف دل عليه ما قبله، أي: فمن ينصرنني، و﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، الهمزة: للاستفهام الانكاري، وهي إما: داخلية على مقدر تقديره: أناأمروني بطردهم فلا تذكرون، وإما: مقدمة من تأخير، والأصل: فألا تذكرون؛

وقد تمت الهمزة على الفاء؛ لأن لها الصدارة؛ وقد تقدم تقرير ذلك، وتذكرون: مضارع حذفته منه إحدى التاءين وأصله تتذكرون.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ الواو: عاطفة، ولا: نافية، وأقول: فعل مضارع فاعله: أنا، ولكم: متعلقان بـ ﴿أَقُولُ﴾، وعندى: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم، وخزائن الله: مبتدأ مؤخر، ولا أعلم الغيب: معطوف على: ﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾، أي: ولا أقول لكم إني أعلم الغيب؛ ولكن يشكل على هذا العطف أنه يترتب عليه أن يكون معمولاً: لـ ﴿أَقُولُ﴾، المنفية في صير التقدير: ولا أقول لا أعلم الغيب وهو غير صحيح، والأحوط أن يكون معطوفاً على: ﴿وَلَا أَقُولُ﴾، لا على: مقولها؛ في زول الاشكال، ولا أعلم كيف غرب هذا عن الزمخشري وغيره من كبار المعربين.

﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ نسق على: ﴿وَلَا أَقُولُ﴾ الأولى أيضاً، وإن واسمها وخبرها: مقول القول.

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾، عطف أيضاً: وللذين: متعلقان بـ ﴿أَقُولُ﴾، وجملة (تزدري أعينكم): صلة، ولن: حرف نفي ونصب واستقبال، ويؤتيهم: منصوب بها، والهاء: مفعول يؤتي الأول، والله: فاعل، وخيرا: مفعول يؤتي الثاني.

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ، الله: مبتدأ: وأعلم: خبر، وبما: متعلقان بـ ﴿أَعْلَمُ﴾، وفي أنفسهم: صلة الموصول وإن واسمها واذن: حرف جواب وجزاء مهملة، واللام المزحلقة ومن الظالمين: خبر إن، والجملة: تعليلية لا محل لها. ﴿قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾، قالوا: فعل وفاعل، ويا: أداة نداء، ونوح: منادى مفرد علم مبني على الضم، وقد: حرف تحقيق، وجادلنا: فعل وفاعل ومفعول به، فأكثر: عطف على: ﴿جَدَلْتَنَا﴾ و﴿جَدَلْنَا﴾، مفعول به.

﴿ فَأَيْنَا يَمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾، الفاء: الفصيحة، أي: ان كنت صادقاً فأنتنا، وبما: متعلقان بالفعل، وجملة ﴿ تَعِدُنَا ﴾: صلة؛ والعائد محذوف، ويصح أن تكون ما: مصدرية، أي: بوعدك إيانا وان كنت من الصادقين: شرط جوابه دل عليه ما قبله، أي: فأنتنا ومن الصادقين: خبر كنت.

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾، إنما: كافة ومكفوفة، ويأتيكم: فعل مضارع ومفعول به، وبه متعلقان بـ ﴿ يَأْتِيكُمْ ﴾، والله: فاعل، وإن شاء: شرط وفعله؛ والجواب: محذوف، ﴿ وَمَا ﴾، الواو: حالية وما: حجازيه، وأنتم: اسمها وبمعجزين: خبرها منصوب محلاً بسبب حرف الجر الزائد.

﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾، الواو: عاطفة، ولا: نافية، وينفعكم نصحي: فعل ومفعول به وفاعل، وإن أردت: شرط وفعله، وأن وما في حيزها: مفعول ﴿ أَرَدْتُ ﴾، ولكم: متعلقان بـ ﴿ أَنْصَحَ ﴾، وإن كان: شرط وفعله أيضاً، والله: لفظ الجلالة اسم كان، وجملة ﴿ يُرِيدُ ﴾: خبر كان، و﴿ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾، أن وما في حيزها: مفعول ﴿ يُرِيدُ ﴾، ووجه ترادف الشرطين أن جواب الشرط الثاني وهو: ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾، جوابه ما دل عليه قوله: ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي ﴾، ويكون الشرط الثاني وجوابه: جواب الأول، وسيأتي تفصيل ذلك ومعناه في باب الفوائد.

﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، هو: مبتدأ، وربكم: خبر، واليه: متعلقان بـ ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾، وترجعون: بالبناء للمجهول، والواو: نائب فاعل.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ ﴾، أم: منقطعة، ويقولون: فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، وجملة ﴿ افْتَرَيْنَاهُ ﴾: مقول القول.

﴿ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُخْبِرُونَ ﴾، إن: شرطية، وافتريته: فعل وفاعل ومفعول به، وهو: فعل الشرط، والفاء: رابطة، وعلي: خبر مقدم،

واجرامي: مبتدأ مؤخر، وأنا: مبتدأ، وبريء: خبر، ومما: متعلقان بـ ﴿بَرِئْتُ﴾، وجملة ﴿تُحَرِّمُونَ﴾: صلة.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، الواو: عاطفة، واوحي: فعل ماض مبني للمجهول، وأن وما في حيزها: نائب الفاعل، وجملة ﴿لَن يُؤْمِنَ﴾: خبر أن، وإلا: أداة حصر ومن: فاعل ﴿يُؤْمِنَ﴾، وجملة ﴿قَدْ ءَامَنَ﴾: صلة.

﴿فَلَا يَنْتَهِسُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، الفاء: عاطفة، ولا: ناهية، وتنتس: مجزوم بـ (لا)، وبما: متعلقان بـ ﴿يَنْتَهِسُ﴾، وجملة ﴿كَانُوا﴾: صلة، وجملة ﴿يَفْعَلُونَ﴾: خبر ﴿كَانُوا﴾.

﴿وَأَصْنَعَ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾، واصنع: عطف على ما تقدم، والفلك: مفعول به، وبأعيننا: في موضع نصب على الحال، أي: مكلوءاً بأعيننا، ووحينا: عطف على أعيننا.

﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾، لا: ناهية، وتخاطبني: مجزوم بها، والياء: مفعول به وفي الذين: متعلقان بـ ﴿تُخَاطِبُنِي﴾، وجملة ﴿ظَلَمُوا﴾: صلة، وانهم مغرقون: ان واسمها وخبرها والجملة: تعليلية لعدم الخطاب.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ مَرَّةً﴾، حكاية حال ماضية، فالجملة: ابتدائية مسوقة لهذا الغرض، والتقدير: وجعل يصنع الفلك، والفلك: مفعول به، والواو: حالية، وكلما: ظرف زمان متضمن معنى الشرط متعلق بـ ﴿سَخَرُوا مِنْهُ﴾، وقد مر القول في كلما، ومر عليه ملاً: فعل وفاعل وعليه: متعلقان بـ ﴿مَرَّةً﴾، وجملة ﴿مَرَّةً﴾: لا محل لها، لأنها: جواب شرط غير جازم. ﴿قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ﴾، قال: فعل ماض، وإن: شرطية وتسخروا: فعل الشرط، ومنا: متعلقان بـ ﴿تَسَخَرُوا﴾، والفاء: رابطة،

وان واسمها وجملة ﴿ تَسَخَّرُ مِنْكُمْ ﴾: خبر ان، و ﴿ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾، الكاف: صفة لمصدر محذوف.

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴿، الفاء: استئنافية، وسوف: حرف ينقل الفعل من الحال الى الاستقبال؛ والفرق بينها وبين السين: ان في سوف معنى من التسويف؛ وهو تعليق النفس بما يكون من الأمور التي يمكن أن تحدث، وتعلمون: فعل مضارع وفاعل ومن: يجوز أن تكون: موصولة في محل نصب بـ ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾، وتعلمون: بمعنى العرفان فت نصب مفعولا واحدا، ويجوز أن تكون: استفهامية وتكون أيضا: مفعولا به، ويجوز أن تكون: ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ يقينية، في كون: المفعول الثاني محذوف، ويأتيه: فعل ومفعول به، وعذاب: فاعل، وجملة ﴿ يُخْزِيهِ ﴾: صفة عذاب.

﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾، ويحل: معطوف على: ﴿ يَأْتِيهِ ﴾، وعليه: متعلقان بـ ﴿ وَيَحِلُّ ﴾، وعذاب: فاعل، ومقيم: صفة.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾، حتى: متعلقة بقوله: ﴿ وَأَصْنَعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾، أي: الى هذا الوقت فهي حرف غاية وجر، وإذا: ظرف لما يستقبل من الزمن، وجملة ﴿ جَاءَ أَمْرُنَا ﴾: في محل جر بالإضافة، وجملة ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾: معطوفة على: جملة ﴿ جَاءَ أَمْرُنَا ﴾.

﴿ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾، الجملة: لا محل لها لأنها جواب إذا، واحمل: فعل أمر، وفيها: متعلقان بـ ﴿ أَحْمِلْ ﴾، ومن كل: حال من ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾، لأنه: كان في الأصل صفة له، وزوجين: مفعول به، واثنين: صفة للتأكيد والتشديد كما قال: (لا تتخذوا إلهين اثنين).

﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾، وأهلك: عطف على: ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾، وإلا: أداة استثناء ومن: مستثنى متصل، وجملة ﴿ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾: صلة.

﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ومن آمن: عطف على أهلك وما الواو عاطفة وما نافية وآمن فعل ماض ومعه ظرف متعلق بآمن والا أداة حصر وقليل فاعل آمن.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحِّدْنَهَا وُمرَّسَهَا﴾، الواو: عاطفة، وقال: فعل ماض، وجملة ﴿ارْكَبُوا فِيهَا﴾: مقول القول، وفيها: متعلقان بـ ﴿ارْكَبُوا﴾، باسم الله: خبر مقدم، ومجرها: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: حال من (الواو)، أو: (الهاء)، أي: اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين باسم الله، ومرساها: عطف على: ﴿جَحِّدْنَهَا﴾، وهما مصدران ميميّان، الأول: من جرى ولذلك جاء مجرى، والثاني: من أرسى ولذلك جاء مُرسى بضم الميم، وقُرى: الاثنان بالضم على أنهما: مصدران ميميّان أيضاً، ويجوز أن يكونا: اسمين للزمان أو المكان، أي: وقت جريانها وارسائها، وبسم الله: حال، أي: متبركين باسم الله ويتعلق الظرفان بهذا المحذوف.

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، إن واسمها واللام المزحلقة وغفور: خبر إن الأول، ورحيم: خبر إن الثاني.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾، حال: من محذوف، أي: فركبوا فيها والحال انها تجري بهم ويجوز أن تكون مستأنفة، وهي: مبتدأ، وجملة ﴿تَجْرِي﴾: خبر، وبهم: متعلقان بمحذوف حال، وفي موج: متعلقان بـ ﴿تَجْرِي﴾، والكاف: صفة لموج.

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ الواو: عاطفة، ونادى نوح ابنه: فعل وفاعل ومفعول، ﴿وَكَانَ﴾، الواو: حالية، وكان: فعل ماض ناقص واسمها مستتر تقديره: هو يعود على الابن وهو كنعان وفي معزل خبر كان.

﴿يَبْتَئَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾، يا: حرف نداء، وبُنيّ: منادى مضاف لياء المتكلم وأصله بثلاث ياءات: الأولى: ياء التصغير، والثانية: ياء

الكلمة، والثالثة: ياء المتكلم فحذفت ياء المتكلم تخفي فا وأدغمت ياء التصغير في لام الكلمة؛ في قرأ بكسر الياء وفتحها، فمن قرأ بالكسر: جعل الكسرة دالة على الياء المحذوفة، ومن فتح: فقد أراد الاضافة كما أرادها في قوله: ﴿يَبْنِي﴾ إذا كسر الياء التي هي لام الفعل كأنه قال: (يا بني) بإثبات باء الاضافة ثم أبدل من الكسرة الفتحة؛ ومن الياء الألف؛ فصار يا بنيا ثم حذف الألف كما كان حذف الياء، والقراءتان سبعيتان، واركب: فعل أمر، ومعنا: ظرف متعلق بـ ﴿أَرْكَب﴾، ولا: ناهية، وتكن: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ ﴿لَا﴾، واسمها مستتر تقديره: أنت، ومع الكافرين: ظرف متعلق بمحذوف خبر.

﴿قَالَ سَآوَىٰ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، جملة ﴿سَآوَىٰ﴾: مقول القول، والى جبل: جار ومجرور متعلقان بـ (آوي)، وجملة ﴿يَعْصِمُنِي﴾: صفة لجبل، ومن الماء: متعلقان بـ ﴿يَعْصِمُنِي﴾.

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾، لا: نافية للجنس، وعاصم: اسمها مبني على الفتح، واليوم: ظرف متعلق بـ ﴿أَمْرٍ اللَّهِ﴾، لأنه بمعنى المصدر، وأحسن من ذلك أن يكون: خبر ﴿لَا﴾ محذوفا لأنه إذا علم كهذا الموضع؛ التزم حذفه بنو تميم وكثر حذفه عند أهل الحجاز؛ لأنه لما قال: ﴿سَآوَىٰ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، قال له نوح: ﴿لَا عَاصِمَ﴾، أي: لا عاصم موجود، ويكون اليوم منصوبا على إضمار فعل يدل عليه: ﴿عَاصِمَ﴾، أي: لا عاصم يعصم اليوم من أمر الله، ومن أمر: جار ومجرور متعلقان بذلك الفعل المحذوف، ولا يجوز أن يكون: اليوم منصوبا بقوله: ﴿لَا عَاصِمَ﴾، ولا أن يكون: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ متعلقا به؛ لأن اسم: ﴿لَا﴾ إذا كان يكون مطولا، وإذا كان مطولا لزم تنوينه وإعرابه، ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: خبر ﴿لَا﴾، وإلا: أداة استثناء أو حصر؛ والاستثناء إما: متصل في كون من مستثنى، وجملة ﴿رَحِمَ﴾: صلة، وإما: منقطع، وإلا: بمعنى: لكن، ومن: مبتدأ، وجملة ﴿رَحِمَ﴾: صلة، والخبر: محذوف تقديره: هو المعصوم.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾، الواو: عاطفة، وحال: فعل ماضٍ، وبينهما: متعلقان بـ ﴿حَالَ﴾، والموج: فاعل، فكان: عطف على: ﴿حَالَ﴾، واسم كان: مستتر، ومن المغرقين: خبر كان.

﴿وَقِيلَ يَتَّزِئُ آبُلْعَى مَاءُكَ وَيَسْمَأُ أَقْلَعَى﴾، الواو: عاطفة، وقيل: فعل ماضٍ مبني للمجهول، ويا: حرف نداء، وأرض: منادى نكرة مقصودة مبني على الضم، وابلعي: فعل أمر، والياء: فاعل، وماءك: مفعول به، ويا سماء: أقلعي، عطف على: ﴿يَتَّزِئُ آبُلْعَى﴾.

﴿وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، جمل معطوفة: بعضها على بعضها الآخر وسيأتي في البلاغة من أسرارها ما يدهش العقول.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، بعدا: منصوب على: المصدر بفعل مقدر، أي: وقيل بعدوا بعدا؛ فهو مصدر بمعنى: الدعاء عليهم، وللقوم: جار ومجرور متعلقان بمحذوف؛ والتقدير: إرادتي ونحوه، أو: بـ ﴿قِيلَ﴾، أي: قيل لأجلهم هذا القول، والظالمين: صفة للقوم.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، الواو: استئنافية، والنداء على ما يبدو كان قبل سير السفينة لأنه سؤال فينجاة ابنه، ولا معنى للسؤال إلا عند إمكان النجاة، ونادى نوح: فعل وفاعل، ورب: لفظ الجلالة في محل مفعول به، ﴿فَقَالَ﴾، الفاء: حرف عطف، وقال: فعل ماضٍ معطوف على: ﴿نَادَى﴾ عطف تفسير؛ لأن القول المذكور هو عين النداء، ورب: منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة، وإن واسمها ومن أهلي: خبرها؛ وإنما أورد ذلك لأن الله تعالى وعده بنجاة أهله.

﴿وَلِإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾، الواو: عاطفة، وإن واسمها وخبرها وأنت أحكم الحاكمين: مبتدأ وخبر، والجملة: معطوفة أيضا.

﴿قَالَ يَنْفُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ قال: فعل ماضٍ، وضمير الله فاعله المستتر وإن واسمها وجملة ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: خبر إن، و ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾: خبر ليس.

﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾، ان واسمها والضمير: يعود الى ابنه.

﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ الفاء: الفصيحة، ولا: ناهية، وتساءل فعل مضارع مجزوم بلا والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة للتخفيف مفعول به وما مفعول به ثان وجملة ليس صلة واسم ليس علم ولك خبرها المقدم وبه جار ومجرور متعلقان بعلم.

﴿ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾، إن واسمها وجملة أعطك: خبرها، وان وما في حيزها: في محل نصب بنزع الخافض، أي: أخوفك من أن تكون، والجار والمجرور: متعلقان بـ ﴿ أَعْطُكَ ﴾، واسم تكون مستتر تقديره: أنت، ومن الجاهلين خبر تكون وسيأتي في باب الفوائد معنى تسمية سؤال نوح جهلاً ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾، إن واسمها وجملة أعوذ: خبرها، وبك: متعلقان بـ ﴿ أَعُوذُ ﴾، وأن وما في حيزها: منصوب بنزع الخافض.

﴿ وَلَا تَعْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾، الواو: عاطفة، وإن: شرطية، ولا: نافية، وتغفر: فعل الشرط، ولي: جار ومجرور متعلقان به، وترحمني: عطف على: ﴿ تَعْفِرْ ﴾، وأكن: جواب الشرط، واسمها مستتر تقديره: أنا، ومن الخاسرين: خبرها.

﴿ قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾، اهبط: فعل أمر: وبسلام: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل ﴿ اهْبِطْ ﴾، أي: متلبسا بسلام، ومنا: صفة لسلام، أو: بنفس سلام وبركات، عطف على: سلام، وعليك: صفة.

﴿ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴾، وعلى أمم: عطف على: عليك، وممن: صفة لـ ﴿ أُمَمٍ ﴾، وممعك: ظرف مكان صلة الموصول.

﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، الواو: استئنافية، وأمم: مبتدأ؛ وساغ الابتداء به لأنه موصوف، تقديره: أي: وأمم ممن معك وجملة

﴿سَمِعْتَهُمْ﴾ : خبرها؛ أو: تجعل ﴿سَمِعْتَهُمْ﴾ : صفة، والمحذوف هو الخبر،
 وإنما حذف لأن قوله: ﴿يَمَّنْ مَعَكَ﴾ يدل عليه، ثم حرف عطف للتراخي
 ويمسهم: فعل مضارع ومفعول به، ومنا: حال لأنه كان صفة لعذاب، وعذاب:
 فاعل، وأليم: صفة ثانية.

* * *

البلاغة في آيات القصة الواردة في سورة: (هود)

١ - في إسناد العمى الى البيئة مجاز عقلي: تنزيلا لها منزلة من يعقل، وحقيقته أن الحجة والبيئة جعلت بصيرة؛ ومبصرة جعلت عميا؛ لأن الأعمى لا يهتدي ولا يهدي غيره ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾، البيئة فلم تهدكم كما لو عمي على القوم رائدهم الذي يسير بهم في المتاهات المظلمة والبوادي المتشعبة فبقوا حائرين يتخبطون ويلتمسون النجاة من حيرتهم، وجملة بعضهم من باب القلب، أي: أنهم هم الذين عموا في كون من باب أدخلت الخاتم في إصبعي وأدخلت القلنسوة في رأسي.

٢ - التعريض في قوله: ﴿فَقَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِادِي الرَّأْيِ﴾، وقد تقدم القول في التعريض وغرضهم هنا منه التعريض بأنهم أحق منه بالنبوة وأن الله تعالى لو أراد أن يجعلها في أحد لجعلها فيهم، وقد زعم هؤلاء أن يحجوا نوحا ﷺ من وجهين: أحدهما: أن المتبعين أراذل ليسوا قدوة ولا أسوة.

والثاني: أنهم مع ذلك لم يترووا في اتباعه ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به وإنما بادروا الى ذلك ارتجالا ومن غير فكر ولا روية.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾، الى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ إِنْ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿﴾.

ففي هذه الآيات فن رفي ع من فنون البديع وهو الجمع مع التقسيم؛ وهو أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر ثم يقسم ما جمع، وفيهذه الآيات رد على ما أوردوه من شبه حيث قالوا: ﴿وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَذِبِينَ﴾، فرد عليهم ردا يمكن

ارجاعه الى ما أوردوه من شبه فكأنه يقول: إن كان نفي كم الفضل عني متعلقا بفضل المال والجاه؛ فأنا لم أدعه، ولم أقل لكم إن خزائن الله عندي حتى تنازعوني في ذلك وتنكروه.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾، مجيء الخبر إنكاريا مؤكدا بأنه تأكيداً للكلام وتنزيلاً للسامع منزلة المتردد؛ لأنه للنفس اليقظى مظنة التردد في حكم الخبر ومؤونة الطلب له فقال أولاً: ﴿وَلَا تُخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي: لا تدعني يا نوح في استدفاع العذاب عنهم ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾، لأن الكلام مظنة أن يتردد نوح ﷺ بأنه هل يصيبهم بأس؛ بل بأنهم هل هم مغرقون بملاحظة ما تقدم من قوله: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ﴾، فأورد الخبر مؤكداً فقال: انهم محكوم عليهم بالإغراق وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَّزِئُ آبُلَى مَاءٍكِ وَيَسْمَاءُ أَقْلَى وَغِيصَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

في هذه الآية من أفانين البلاغة وبدائع الفصاحة ما يذهل اللب ويشده العقول وسنورد أهم الفنون التي تلفت النظر وتستهوى الموهوب ليحذو حذوها وينسج على منوالها:

١ - المساواة: ونبدأ بالفن الذي يتناول الآية عموماً وقد عرفوه بأن يكون: اللفظ مساوياً للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه؛ وهو من أعظم أبواب البلاغة؛ بل هو البلاغة عينها كما وصف بعض الوصاف بعض البلغاء فقال: كانت أوصافه قوالب لمعانيه، وكما قال العتابي: الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وهو ميزة كل لغة، والآية التي نحن بصددتها خير مثال لهذه المساواة فإنه سبحانه أراد اقتصاص من هذه القصة بأوجز لفظ وأبلغه فجاء بها مرتبة الألفاظ والجمل على حسب ما وقع في صور لا تفصل عن معانيها، لا وتقتصر عنها فإن قيل: لفظة (القوم) زائدة تمنع الآية من أن توصف بالمساواة لأنها إذا طرحت استقلّ الكلام بدونها بحيث يقال: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، قلت: لا يستغني الكلام عنها وذلك انه لما قال في أول القصة:

﴿وَكُلَّمَا مَرَ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾، وقال بعد ذلك: ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، جاءت لفظة: (القوم) في آخر القصة، ووصفهم بالظلم ليرتد عجز الكلام على صدره.

٢ - رد العجز على الصدر: وهو الفن الثاني من فنون هذه الآية، وليعلم أن القوم الذين هلكوا بالطوفان هم الذين كانوا يسخرون من نبي الله نوح ﷺ فهم مستحقون للعقاب لثلاثتهم ضعيف أن الطوفان لعمومه ربما أهلك من لا يستحق الهلاك؛ فأخبر الله سبحانه أن الهالكين هم الذين تقدم ذكرهم وما كانوا يفعلونه مع نبيه ﷺ من السخرية التي استحقوا بها الهلاك، وانهم الذين وصفهم بالظلم ووعد نبيه ﷺ بإغراقهم ونهاه عن مخاطبته فيهم ليرفع ذلك الاحتمال؛ في علم أن الله سبحانه قد أنجز نبيه ما وعده وأهلك القوم الظالمين الذين قدم ذكرهم ووصفهم ووعد بإغراقهم.

٣ - الإشارة: الفن الثالث من فنون هذه الآية فن الإشارة وقد تقدم بحثه وعرفه ابن قدامة فقال: هو أن يكون اللفظ القليل دالا على الكثير من المعاني؛ حتى تكون دلالة اللفظ بمثابة الإشارة باليد أو الإيماء بالحاجب والعين؛ فإنها تشير بحركة واحدة سريعة الى أشياء كثيرة تستوعب العبارات الطويلة، ومن أمثلتها في الآية التينحن بصدها قوله تعالى: ﴿وَعِصَ الْمَاءُ﴾، فإن غيض الماء يشير الى انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ومطر السماء ولولا ذلك لما غاض الماء.

٤ - الارداف: أما الفن الرابع فهو فن عجب في بابه، وهو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، ولا بلفظ الإشارة الدال على المعاني الكثيرة؛ بل بلفظ هو ردف المعنى الخاص وتابعه قريب من لفظ المعنى؛ قرب الرديف من الردف؛ وهو هنا في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾: وحقيقة ذلك: وهلك من قضى الله هلاكه ونجا من قضى نجاته؛ وانما عدل عن هذه الحقيقة الى لفظ الارداف من الإيجاز والتنبيه على أن هلاك الهالك ونجاة الناجي كان بأمر آمر مطاع، وقضاء من

لا يرد قضاؤه، والأمر يستلزم أمرا وقضاؤه يدل على قدرة الأمر به وطاعة المأمور تدل على قدرة الأمر وقهره، وإن الخوف من عقابه ورجاء ثوابه يحضّان على طاعة الأمر، ولا يحصل ذلك كله من اللفظ الخاص.

هذا ومن أمثلة الازداف في الشعر قول أبي الطيب المتنبي:

لو كنت حشوقميصي فوق نمرقها سمعت للجن في غيظانها زجلا

ومرادُه نفسه بقوله: (حشوقميصي)، يقول: لو كنت بدلي تحت ثيابي وفوق نمرق ناقتي وهو الذي يلقي عليه الراكب فخذه للاستراحة، لسمعت جلبة الجن وأصواتهم في منخفض هذه المفاوز البعيدة لأنها مأوى الجن لبعدها عن الإنس، والعرب تجعل المكان البعيد مسكنا للجن تهويلا له واستيحاشا منه.

٥ - الاحتراس: والفن الخامس في هذه الآية هو الاحتراس وتعريفه، أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه فيه دخل في فطن لذلك حال العمل فيأتي في أصل الكلام بما يخلصه من ذلك، ومن أمثلته قوله تعالى فيها: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فإنه سبحانه لما أخبر بهلاك من هلك بالطوفان أعقبه بالدعاء على الهالكين؛ ووصفهم بالظلم ليعلم أن جميع من هلك كان مستحقا للعذاب مستأهلا له؛ احتراسا من ضعيف يتوهم أن الهلاك بعمومه قد شمل من لا يستحق العذاب، فلما دعا على الهالكين علم أن كل من هلك كان مستحقا للهلاك، لأنه قد ثبت بالبرهان أنه عادل فلا يدعو إلا على من يستحق الدعاء؛ وقد وصفهم بعد الدعاء عليهم بالظلم؛ فإن لم يكونوا ظالمين فقد دخل خبره الخلف، وخبره منزّه عن ذلك فوقع هذا الدعاء وهذا الوصف احتراسا من ذلك الذي قدر توهمه، والاحتراس يبدو جملا في الشعر ومنه قول طرفة المشهور:

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي

فقوله: (غير مفسدها)، احتراس من محو معالمها وطمس آثارها، وقد جنح أبو الطيب اليه كثيرا فقال:

ويحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل ما فيها، وحاشاك، فانيا

فقوله: (وحاشاك)، احتراس من دخوله في كل من فيها، وقوله أيضا:

إذا خلت منك حمص لا خلت أبدا فلا سقاها من الوسمي باكره

فقوله: (لا خلت أبدا)، احتراس من توهم الدعاء عليه.

٦ - حسن النسق: والفن السادس من فنون هذه الآية العجيبة هو: فن النسق وهو عبارة عن أن يأتي المتكلم بالكلمات من النثر والأبيات من الشعر متتاليات متلاحمات تلاحما سليما مستحسنا لا معيبا مستهجنا، والآية من أولها الى آخرها من شواهد هذا الفن فقد ترادفت الجمل منسوقة بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة لأنه سبحانه بدأ بالأهم؛ إذ كان المراد إطلاق أهل السفينة من سجنها ولا يحصل ذلك ولا يتأتى إلا بانحسار الماء عن الأرض، فلذلك بدأ بالأرض فأمرها بالابتلاع، وثنى بالسماء فأمرها بالإقلاع؛ لئلا يتأذى بذلك أهل السفينة، ثم أخبر بغيض الماء عند ما ذهب ماء الأرض وانقطع ماء السماء ثم قال: ﴿ وَفُضِيَ الْأَمْرُ ﴾، أي: هلك من جفّ القلم بهلاكه، ونجا من سبق العلم بنجاته، وهذه حقيقة المعجزة وكُنْه الآية؛ ولا بد أن تكون معلومة لأهل السفينة ولا يتسنى علمهم بها إلا بعد خروجهم منها وخروجهم موقوف على ما تقدم، فلذلك اقتضت البلاغة أن تأتي هذه الجملة رابعة الجمل وكذلك استقرار السفينة على الجودي، أي: استقرارها على المكان الذي استقرت عليه استقرارا لا حركة معه؛ لتبقى آثارها آية لمن يأتي بعد أهلها، وعدل عن لفظة استقرت الى لفظة استوت؛ لما يحتمله الاستقرار من الزيف والميل ويدل عليه الاستواء من استقامة وعدم انحراف؛ وفي هذا طمأنينة أهل السفينة وأمنهم بعد المخافة وأفراخ

روعهم؛ إذا كان استقرارها استقراراً فقط بحيث لا تؤمن معه الحركة لكانت حالهم في مكابدة الحركة واضطراب القلوب ووجيفها واحدة في حال سيرها ووقوفها، ثم قال أخيراً: ﴿بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وهذا دعاء أوجبه الاحتراس ممن يظن أن الغرق لشموله الأرض ربما أودى بمن لا يستحق العذاب؛ فدعا على الهالكين ووصفهم بالظلم؛ ليعلم أن الهلاك إنما شمل من يستحق العذاب دون سواهم؛ احتراساً من هذا الاحتمال.

٧ - التنظير: والفن السابع فيها هو فن التنظير وقد تكلم عنه ابن الأثير في كتابه الاستدراك تحت اسم المفاضلة بين الشعراء ليظهر الأفضل منهما وهو إلى النقد أقرب منه إلى فنون البديع، وحده أن ينظر الإنسان بين كلامين إما متفقي المعاني أو مختلفي المعاني ليظهر الأفضل منهما، والآية التي نحن بصددنا تناولت قصة الطوفان التي انطوت على الكثير من العقد والحلول والعبر فإذا نظرناها بغيرها من القصص وجدتها سامية عليها جميعاً باستقصاء جميع ما اتفق فيها وما سنع.

٨ - المناسبة اللفظية: بين ﴿أَبْلَى﴾ و ﴿أَقْلَى﴾، وهي تشبه المناسبة التي مرت في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٩ - الجناس الناقص: بين ﴿أَبْلَى﴾ و ﴿أَقْلَى﴾، ويسميه بعضهم: المضارعة؛ ويكون أنواعاً منها: أن يختلف حرف في الكلمتين بعد أن تتفق بقية الأحرف، ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾.

١٠ - الطباق: والفن العاشر هو الطباق فقد طابق بين السماء والأرض.

١١ - الاستعارة: والفن الحادي عشر هو الاستعارة المكنية الكائنة فينداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التحضيض والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله يا أرض ويا سماء ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله ابلي ماءك واقلي من الدلالة على الاقتدار العظيم والبلع

عبارة عن تغدير الماء وشربه في بطنها؛ مستعار لهذا المعنى من بلع الحيوان أي ازدراده لطعامه وشرابه؛ والبلع هو أثر القوة الجاذبة في المطعوم لكمال الشبه بينهما وهو الذهاب الى مقر خفي ومع هذا فهي قرينة للاستعارة الممكنة التي في الماء أي استعارة الماء للغذاء لجامع تقوي الأرض بالماء في النباتات تقوي الأكل بالطعام.

١٢ - المجاز المرسل: وذلك في قوله: ﴿وَنَسَمَاءُ﴾، فإن الحقيقة: ويا مطر السماء اقلعي، والعلاقة في هذا المجاز السببية؛ لأن الماء سبب المطر أو المحلية؛ لأنها محلها بما يتجمع فيها من سحب وإضافة الماء الى الأرض مجاز أيضا تشبيها لاتصاله بها باتصال الملك بالمالك، وفيها نكتة أخرى وهي التنبيه على حدوث هذا الماء من الأرض أيضا لا من السماء فقط كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَفَارَ النَّتُّورُ﴾.

١٣ - التمثيل: وهو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الخاص ولا بلفظي الإشارة والارداف بل بلفظ هو أبعد من لفظ الارداف قليلا يصلح أن يكون مثلا للفظ الخاص؛ لأن المثل لا يشبه المثل من جميع الوجوه ولو تماثل المثلان من كل الوجوه لاتحدا، وقد تقدم تفصيل هذا الفن في قوله تعالى: ﴿وَأَسْوَتَ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، فإن حقيقة ذلك: وجلست على ذلك المكان فعدل عن الحقيقة الى التمثيل لما في الاستواء من الاشعار بجلوس متمكن لا زيف فيه ولا ميل ولا حركة معه ولا اضطراب.

رابعاً: ما قاله المفسرون وأصحاب التأويل في سياق القصة في سورة (الأنبياء): قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَهْلَهُ، مِنْ أَلْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

١ - ما قاله الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله: قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَئَيْنَاهُ وَآهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾.

يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمد عليه السلام نوحا عليه السلام إذ نادى ربه من قبلك، ومن قبل إبراهيم ولوط عليهم السلام وسألنا أن نهلك قومه الذين كذبوا الله في ما توعدهم به من وعيده، وكذبوا نوحا عليه السلام في ما أتاهم به من الحق من عند ربه، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(١)، فاستجبنا له دعاءه: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ يعني بأهله: أهل الإيمان من ولده وحلائلهم عليهم السلام مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ، يعني بالكرب العظيم: العذاب الذي أحل بالمكذبين من الطوفان والغرق، والكرب: شدة الغم، يقال منه: قد كربني هذا الأمر فهو يكربني كربا، وقوله: ﴿وَضَرَبْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا﴾، يقول: ونصرنا نوحا عليه السلام على القوم الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا، فأنجيناه منهم، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾، يقول تعالى ذكره: إن قوم نوح الذين كذبوا بآياتنا كانوا قوم سوء، يسيئون الأعمال، في عصون الله ويخالفون أمره.

الآية: رقم ٢٦ من سورة نوح.

٢ - وقال الإمام الماتريدي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾، قَالَ بَعْضُهُمْ: من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام؛ لأنه ذكر هؤلاء على أثره، ثم اختلف فيندائه: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نداؤه هو قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾^(٢). وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نداؤه هو قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۖ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾^(٣)، أو أن يكون ذلك قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٤).

(١) الآية: رقم ٢٦ من سورة نوح.

(٢) الآية: رقم ١٠ من سورة القمر.

(٣) الآيتان: رقم ٥ - ٦ من سورة نوح.

(٤) الآية: رقم ٢٦ من سورة نوح.

وقوله: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ﴾^(١)، وأمثاله.

وقوله ﷺ: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَاجَنَّهُ وَاهْلُهُ ﴾، أهله: أتباعه من أهله ومن غيرهم.

وقوله: ﴿ مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴾، قال عامة أهل التأويل: ﴿ مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴾، هو الغرق والهول الشديد الذي كان به.

وجائز أن يكون: ﴿ مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴾: هو ما قاسى من قومه ولقي منهم بدعائه إياهم إلى دين الله في تسعمائة وخمسين عامًا، وما كانوا يسخرون به ويؤذونه من أنواع الأذى؛ كقوله: ﴿ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾^(٢)، ونحو ذلك من الأذى الذي قاساه منهم، فأنجاه من ذلك الكرب، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿ وَنَصَرْتُهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، وفي حرف أبي بن كعب: ﴿ وَنَصَرْتُهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾، والنصر: هو اسم لأمرين: اسم للمنع، واسم للظفر، فمن قرأه: ﴿ وَنَصَرْتُهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾، أي: منعه من أن يقتله قومه ويهلكوه، والنصر: المنع؛ كقوله: ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾^(٣)، أي: لا مانع لهم.

ومن قرأه: (على القوم الذين كذبوا بآياتنا) أي: أظفرناه على قومه؛ كقوله: ﴿ وَمَا أَلْتَصِرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾^(٤)، وقد كان له الأمران جميعًا: المنع، والظفر، وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ ﴾، ما ذكرنا من أفعالهم وأعمالهم، وقوله: ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، حتى لم ينج منهم أحد.

(١) الآية: رقم ٢٨ من سورة نوح.

(٢) الآية: رقم ٣٨ من سورة هود.

(٣) الآية: رقم ١٣ من سورة محمد.

(٤) الآية: رقم ١٢٦ من سورة آل عمران.

قال أَبُو عَوْسَجَةَ: الكرب: واحد، وجمعه كروب، وهو الهموم والشدائد، والكربة واحدة، والكُرْب جمع، وهو مثل الكروب، قال: والأكراب تكون للدلاء، وهي جماعة الكرب، وهو حبل يشد في عراقي الدلو، وعراقي الدلو: خشبات الدلو، الواحدة: عرقوة، قال: والكراب: الحراث.

٣ - وقال الإمام مكي بن أبي طالب^(١) في تفسيره الهداية إلى بلوغ النهاية: ثم قال تعالى ذكره: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: واذكر نوحاً إذ نادى ربه من قبلك، ومن قبل إبراهيم ولوط، وسأل أن يهلك قومه الذين كذبوه فاستجبنا له دعاءه، ونجيناه وأهله، يعني: أهل الإيمان من ولده وحلائله من الكرب العظيم، وهو الغرق الذي حل بقومه، وبجميع من في الأرض.

ثم قال: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أي: ونصرناه على القوم المكذبين، فأنجيناه منهم وأغرقناهم أجمعين، لأنهم كانوا قوم سوء، يعصون الله، ويكذبون رسوله، ف ﴿مِنْ﴾، بمعنى: (على).

٤ - وقال الإمام الماوردي^(٢) رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾، يعني: إذ دعانا على قومه من قبل إبراهيم عليه السلام، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَاهِلَةً مِنْ أَلْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، ويحتمل وجهاً آخر: إذ نجيناه من أذية قومه حين أغرقهم الله، ويحتمل وجهاً ثالثاً: نجاته من مشاهدة المعاصي في الأرض بعد أن طهرها الله بالعذاب.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، فيه وجهان:

(١) الإمام مكي: هو أبو محمد مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ)، أنظر: معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ، محمد سالم محيسن الجزء الثاني صفحة ٤٠٦، سير أعلام النبلاء ج ١٩ ص ٥٩١.

(٢) الماوردي: الإمام العلامة، أفضى القضاة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، الماوردي، الشافعي، أنظر: سير أعلام النبلاء ج ١٨ ص ٦٤.

أحدهما: نصرناه عليهم بإجابة دعائه فيهم.

الثاني: معناه: خلصناه منهم بسلامته دونهم.

٥ - وقال الإمام القشيري رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَاهْلَهُ مِنْ أَلْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٦١) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٢﴾.

كان نوح عليه السلام أطولهم عمرا، وأكثرهم بلاء، ففي القصة أنه كان يضرب سبعين مرة، وكان الرجل الهرم يحمل حفي ده إليه ويقول: لا تقبل قول هذا الشيخ وكان يوصيه بمخالفته.

وكان نوح عليه السلام يصبر على مقاساة الأذى، ويدعوهم إلى الله، فلما أيس من إيمانهم، وأوحى إليه: ﴿أَنْتَ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، دعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾، فقال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾، فأزهق الشرك وأغرق أهله.

٦ - وقال الإمام الكرمانى رحمه الله (١) في تفسيره: (غرائب التفسير): قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾، دعا الله على قومه بالهلاك، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، قبل قوم لوط، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾، أي: أجاب الله دعاءه، يعني قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ وَاهْلَهُ مِنْ أَلْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾، أي: أهل بيته.

والكرب: أقصى الغم الآخذ بالنفس وهو هاهنا الغرق.

وقيل: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾، قومه، ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أي: على القوم.

(١) الإمام الكرمانى: هو محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرمانى، ويعرف بتاج القراء (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ)، أنظر: خير الدين الزركلى (٢٠٠٢). الأعلام. الجزء السابع. لبنان: دار العلم للملايين. صفحة ١٦٨.

وقيل: منعناه منهم، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾، شرار، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾، أهلكناهم بالماء.

﴿أَجْمَعِينَ﴾، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

٧ - وقال الإمام ابن عطية رحمته الله: وقوله تعالى: فينوح ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، بالإضافة إلى إبراهيم ولوط، و﴿الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾: الغرق وما نال قومه من الهلكة بدعائه عليهم الذي استجيب، وقوله تعالى: ﴿وَنَصَرْتُهُ﴾، لما كان جل نصرته النجاة وكانت غلبة قومه بغير يديه، بل بأمر أجنبي منه حسن أن يكون: ﴿وَنَصَرْتُهُ مِنْ﴾، ولا يتمكن هنا: (على) كما يتمكن في أمر محمد صلوات الله عليه، مع قومه، وذكر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ضرب مثل لقصة محمد صلوات الله عليه، مع قومه ونجاة الأنبياء وهلاك مكذبيهم ضمنها توعد للكفار من قريش.

٨ - وقال الإمام الرازي رحمته الله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ^(٧٦) وَنَصَرْتُهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أما قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ﴾، ففيه مسألتان: المسألة الأولى: لا شبهة في أن المراد من هذا النداء دعاؤه على قومه بالعذاب ويؤكد حكاية الله تعالى عنه ذلك تارة على الإجمال وهو قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾، وتارة على التفصيل وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾، ويدل عليه أيضا أن الله تعالى أجابه بقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، وهذا الجواب يدل على أن الإنجاء المذكور فيه كان هو المطلوب في السؤال، فدل هذا على أن نداءه ودعائه كان بأن ينجيه مما يلحقه من جهتهم من ضروب الأذى بالتكذيب والرد عليه وبأن ينصره عليهم وأن يهلكهم.

فلذلك قال بعده: ﴿وَنَصَرْتُهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

المسألة الثانية: أجمع المحققون على أن ذلك النداء كان بأمر الله تعالى لأنه لو

لم يكن بأمره لم يؤمن أن يكون الصلاح أن لا يجاب إليه في صير ذلك سببا لنقصان حال الأنبياء، ولأن الإقدام على أمثال هذه المطالب لو لم يكن بالأمر لكان ذلك مبالغة في الإضرار، وقال آخرون: إنه ﷺ لم يكن مأذونا له في ذلك.

وقال أبو أمامة: لم يتحسر أحد من خلق الله تعالى كحسرة آدم ونوح عليهما السلام، فحسرة آدم على قبول وسوسة إبليس، وحسرة نوح على دعائه على قومه، فأوحى الله تعالى إليه أن لا تتحسر فإن دعوتك وافقت قدرياً ما قوله تعالى: ﴿فَجِئْتُكَ وَاهِلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، فالمراد بالأهل هاهنا: أهل دينه، أنه وفي تفسير الكرب وجوه: أحدها: العذاب النازل بالكفار وهو الغرق وهو قول أكثر المفسرين.

وثانيها: أنه تكذيب قومه إياه وما لقي منهم من الأذى.

وثالثها: أنه مجموع الأمرين وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وهو الأقرب لأنه ﷺ كان قد دعاهم إلى الله تعالى مدة طويلة وكان قد ينال منهم كل مكروه، وكان الغم يتزايد بسبب ذلك وعند إعلام الله تعالى إياه أنه يغرقهم وأمره باتخاذ الفلك، كان أيضاً على غم وخوف من حيث لم يعلم من الذي يتخلص من الغرق ومن الذي يغرق، فأزال الله تعالى عنه الكرب العظيم بأن خلصه من جميع ذلك وخلص جميع من آمن به معه.

أما قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْتُهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾، فقراءة أبي بن كعب رضي الله عنه ونصرناه على القوم ثم قال المبرد: تقديره: ونصرناه من مكروه القوم، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾^(١)، أي: يعصمنا من عذابه، قال أبو عبيدة: ﴿مِنْ﴾، بمعنى: (على).

وقال صاحب (الكشاف): إنه نصر الذي مطاوعه انتصر وسمعت هذليا يدعو على سارق: اللهم انصرهم منه، أي اجعلهم منتصرين منه.

(١) الآية: رقم ٢٩ من سورة غافر.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾، فالمعنى: أنهم كانوا قوم سوء لأجل ردهم عليه وتكذيبهم له ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فبين ذلك الوجه الذي به خلصه منهم.

٩ - وقال الإمام السمين الحلبي^(١) في تفسيره: (الدر المصون): قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا﴾، فيه وجهان:

أحدهما: أنه منصوبٌ عطفاً على، ﴿وَلُوطًا﴾^(٢)، في كون: مشترِكاً معه في عامِلِهِ الذي هو: ﴿ءَايَاتِنَا﴾^(٣)، المفسَّر: (آتيناه) الظاهر، وكذلك: ﴿دَاوُدَ وَسَلَيْمَانَ﴾^(٤)، والتقدير: ونوحاً آتيناه حُكْماً، وداود وسليمان آتيانها حُكْماً، وعلى هذا: ف ﴿إِذْ﴾، بدلٌ مِنْ: ﴿وَنُوحًا﴾، وَمِنْ: ﴿دَاوُدَ وَسَلَيْمَانَ﴾ بدلٌ اشتمالٍ.

الثاني: أنه منصوبٌ بإضمار: (اذكُرْ)، أي: اذكر نوحاً وداود وسليمان، أي: اذكر خبرهم وقصتهم، وعلى هذا فتكون: ﴿إِذْ﴾، منصوبةً بنفسِ المضافِ المقدَّر، أي: خبرهم الواقع في وقتٍ كان كَيْتٌ وكَيْتٌ.

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، أي: مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ المذكورين قوله: ﴿مِنْ الْقَوْمِ﴾، فيه أوجهٌ:

أحدها: أَنْ يُضْمَنَ ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾ معنى: مَنَعْنَاهُ وَعَصَمْنَاهُ.

الثاني: أَنْ نَصَرَ مَطَاوَعُهُ انتصر، فتعدى تعديةً ما طاوَعه.

الثالث: أَنْ ﴿مِنْ﴾، بمعنى: (على)، أي: على القوم.

(١) السمين الحلبي: هو أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين المعروف بالسمين، أنظر: كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي ج ١ ص ٢٧٤، نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار لحامد حسين اللكهنوي ج ٨ ص ٥٧، غاية النهاية في طبقات القراء لمحمد بن محمد الجزري ج ١ ص ١٥٧.

١٠ - وقال الإمام ابن كثير^(١) رحمه الله في تفسيره: (تفسير القرآن العظيم): قوله تعالى: ﴿ مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴾، أي: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله ﷻ فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يتصدون لأذاه ويتواصون قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل على خلافه، وقوله: ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ ﴾، أي: ونجيناه وخلصناه منتصرا من القوم ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، أي: أهلكهم الله بعامه، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد، كما دعا عليهم نبيهم.

١١ - وقال الإمام ابن عادل^(٢) رحمه الله في تفسيره: (اللباب في علوم الكتاب): قوله تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ ﴾، المراد من هذا النداء: دعاؤه على قومه بالعذاب، ويدل على ذلك قوله: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴾^(٣)، وقوله: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾^(٤)، ويؤكد قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾، ﴿ فَجَعَلْنَاهُ ﴾، يدل على ذلك أن نداءه ودعائه كان بأن ينجيه مما يلحقه من جهتهم من الأذى بسبب تكذيبهم وردهم عليه، واتفق المحققون على أن ذلك النداء كان

(١) ابن كثير: هو الإمام الحافظ، المحدث، المؤرخ، عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشي الدمشقي الشافعي، أنظر: ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ص ٥٨، وعمدة التفسير لأحمد شاکر ج ١ ص ٢٦، النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٢٣، شذرات الذهب لابن العماد ج ٦ ص ٢٣٢.

(٢) ابن عادل الحنبلي: هو أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، عالم وفقه ومفسر حنبلي، وصاحب كتاب اللباب في علوم الكتاب، أما مولده فلم تذكر أي من كتب التراجم تاريخاً محدداً لولادته، ومن خلال تراجم شيوخ ابن عادل يتبين أنه ولد في أواخر القرن السابع الهجري، وعلى وجه أقرب بعد سنة ٦٧٥ هـ، ولم تذكر كتب التراجم أي تاريخ محدد لوفاته ابن عادل، ولكن تشير أحد الدراسات أن حياة ابن عادل الحنبلي محصورة بين عام ٦٧٥ هـ وعام ٧٧٥ هـ، أنظر: البداية والنهاية الجزء ١٤ صفحة ١٥٠.

(٣) الآية: رقم ١٠ من سورة القمر.

(٤) الآية: رقم ٢٦ من سورة نوح.

بأمر الله، لأنه لو لم يكن بإذنه لم يؤمن أن يكون المصلحة أن لا يجاب إليه، في صير ذلك سبباً لنقصان حال الأنبياء، وقال آخرون: لم يكن مأذوناً له في ذلك.

وقوله: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، المراد بالأهل هنا أهل دينه قال ابن عباس: المراد ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، من الغرق وتكذيبه قومه، وقيل: لأنه كان أطول الأنبياء عمراً وأشدَّهم بلاءً، والكرب أشد الغم.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾^(١)، والمعنى: منعناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا أن يصلوا إليه بسوء، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾، لتكذيبهم له وردهم عليه ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فخلصه منهم بذلك.

١٢ - وقال الإمام ابن عرفة^(٢) في تفسيره: (تفسير ابن عرفة): قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾، قال ابن عطية: ذكر القصص في القرآن إما تسليية للنبي ﷺ، وإما تخويف لقومه، وذلك بحسب الواقع.

قال بعضهم: ولذلك لم تتكرر قصة يوسف عليه الصلاة والسلام؛ لأنها خارجة عن القسمين.

قال ابن عرفة: أو يقال: إن الأصل عدم التكرار؛ فهي واردة على الأصل ولشهرتها؛ فلذلك لم يتكرر بخلاف غيرها من القصص لأنها لم تشتهر كشهرتها والعامل في: ﴿وَنُوحًا﴾ مضمّر تقديره: اذكر، أي: واذكر قصة نوح ﷺ، أو: ﴿ءَايَاتِنَا﴾ نوحاً، ورده أبو حيان.

(١) الآية: رقم ٢٩ من سورة غافر.

(٢) ابن عرفة: إمام تونس وعالمها وخطيبها في عصره. مولده ووفاته فيها. تولى إمامة الجامع الأعظم سنة ٧٥٠ هـ، وهو محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله (المتوفى: ٨٠٣ هـ)، أنظر: المعيار العرب (٣٣/١)، مواهب الجليل (١٦/١)، توشيح الديباج (ص: ٢٣٩)، نيل الابتهاج (١٢٨/٢)، كفاية المحتاج (١٠٠/٢)، شجرة النور (ص: ٢٢٧)، العمر (ص: ٧٦٢)، هدية العارفين (١٧٧/٢).

وأجاب ابن عرفة: بأن هذا الإتيان خاص.

وكذلك: (اذكُرْ)، ورده بعض الطلبة؛ بأن آتينا الأول أعم، وليس فيه خصوصية عما تقدم، في كف تكون هنا خاصة.

فأجاب ابن عرفة: بأنه لا مانع بأن يكون تقولاً بالتشكيك، فهو (خاص) وأخص ونادى بالدعاء في قومه، فقال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَجَئْتَهُ ﴾: تفسيراً لما وقعت به الإجابة.

فإن قلت: لم قال: ﴿ وَنَصَرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ ﴾، ولم يقل: ولم ﴿ وَنَصَرْتَهُ ﴾ على القوم؟ قلت: أجيب بثلاثة أوجه:

الأول: لابن عطية: نحن نصرناه، يعني: خلصناه وعصمناه؛ لأن هذا الأمر ليس من سببه ولا له تكسب بوجه ولا قدرة على إغراقهم، بل لا قدرة له على تخليص نفسه منهم.

الجواب الثاني: قال الزمخشري: نصر مطاوع النصر، وسمعت هذلي يدعو على سارق يقول: اللهم انصره منه، أين تقديره عُدِّي ب ﴿ مِنْ ﴾ كما عُدِّي انتصر بها.

قال ابن عرفة: ويراد بأنه لا يلزم من تعدي فعل بحرف تعدي فعل بحرف تعدي غيره به، والصواب تقديره: بأن فعل المطاوعة لازم للفعل الذي جعل مطاوعاً له، فانتصر لازم لنصر، وما عرض للآزم فهو عارض لملزومه، واستدلال الزمخشري بما سمعه وتركه الاستدلال بالقرآن ضعيف بجواز كون الهذلي ممن لا يوثق بعربيته، ولفظ القرآن أوثق من شعر الأحاد، وهو في القرآن كذلك: ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصَرَ مِنْهُمْ ﴾^(١)، قلت: وقال ابن عرفة: كلام الزمخشري مردود بوجهين: الأول: أن كلام الله ﴿ لَأُنْصَرَ مِنْهُمْ ﴾، لا إشكال فيه كما في الآية.

(١) الآية: رقم ٤ من سورة محمد.

الثاني: أنه ترك الاحتجاج بالقرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصَرَ مِنْهُمْ﴾، قال: تقدير كلامه أنه يقول: نصر مطاوعه أن يتعدى بـ على ومن، فكذاك يتعدى، إذ كل ما لزم الأعم لزم الأخص.

ورده بعض الطلبة: بأن نصر يتعدى بنفسه، والنصر قاصر، فبطل قولهم كل ما لزم المطاوع لزم مطاوعه.

وأجاب ابن عرفة: بأن عدم التعدي أمر عادي، وكل ما انتفى عن الأعم لا يلزم أن ينتفي عن الأخص، إنما اللزوم بينهما في الثبوت لا في العدم.

قال: وكان بعضهم يقدر كلام الزمخشري بأن الأعم الأغلب فينصر، إنما يرد في من عاقب من ناوَاه من غير أن يتقدم له عليه ذنب يستحق به العقوبة، قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ﴾^(١)، قال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾^(٢)، وقد وقعت هنا نصر فدل بمعنى أنها انتصر فهذا الذي حمل الزمخشري على ذلك الجواب

قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قال ابن مالك: أكثر ما يقع أجمعين تابعا لغيرها عن ألفاظ التوكيد.

ورده الصفاقسي بهذه الآية؛ مع أن ابن مالك لم يقل: أنها لم تقع إلا معها؛ بل قال إنه الأكثر فيها، ويحتمل أن يكون: ﴿أَجْمَعِينَ﴾، هنا حالا، فلا يكون بينهما دليلا عليه.

(١) الآية: رقم ٤١ من سورة الشورى.

(٢) الآية: رقم ١٠ من سورة القمر.

١٣ - وقال الإمام البقاعي^(١) في تفسيره: (نظم الدرر): ولما أتم سبحانه قصة لوط المناسبة لقصة الخليل عليه السلام بحجارة الكبريت، ولقصة نوح عليه السلام بالماء الذي غمرت به قراه السبع، أتبع ذلك قصة نوح عليه السلام الذي سخر له من الماء ما لم يسخره لغيره لغمره جميع الأرض دانيها وقاصيها، واطيها وعاليها، فقال: ﴿ وَنُوحًا إِذْ ذُكِّرَ ﴾، أي: اذكره حين ﴿ نَادَى ﴾، أي: دعا ربه ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴾، و﴿ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾، ونحوه من الدعاء.

ولما كان دعاؤه لم يستغرق الأزمنة الماضية، أثبت الجار فقال: ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾، أي: من قبل لوط عليه السلام ومن تقدمه، ﴿ فَاسْتَجَبْنَا ﴾، أي: أردنا الإجابة وأوجدناها بعظمتنا، ﴿ لَهُ ﴾، في ذلك النداء؛ ثم سبب عن ذلك قوله: ﴿ فَجَنَّبَكُهَا ﴾، أي: بعظمتنا تنجية عظيمة، ﴿ وَأَهْلَهُ ﴾ الذين أدام ثباتهم على الإسلام وصلتهم به، ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾، من الأذى والغرق؛ قال أبو حيان: والكرْب: أقصى الغم، والأخذ بالنفس، وهو هنا الغرق، عبر عنه بأول أحوال ما يأخذ الغريق، ﴿ وَنَصَرْتَهُ ﴾، أي: مخلصين له ومانعين ومنتقمين ﴿ مِنَ الْقَوْمِ ﴾، أي المتصفين بالقوة، ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا ﴾، أي: أوقعوا التكذيب له، ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾، أي: بسبب إتيانه بها، وهي من العظمة على أمر لا يخفى.

ولما كان التقدير: ثم أهلكناهم، علله بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ ﴾، لا عمل لهم إلا ما يسوء ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ ﴾، أي: بعظمتنا التي أتت عليهم كلهم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾، حتى من قطع الكفر بين نوح عليه السلام وبينه من أهله فصار لا يعد من أهله، لاختلاف الانتساب بالدين.

(١) البقاعي: هو إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط — بضم الراء وتخفيف الباء — بن علي بن أبي بكر البقاعي، ومن الأئمة المتقين المتبحرين في جميع المعارف، أنظر كتاب: برهان الدين البقاعي ومنهجه في تفسيره: (دلالة البرهان القويم على تناسب آي القرآن العظيم) للدكتور: عبد الله عبد الرحمن الخطيب فقد أورد ترجمة الإمام البقاعي بتوسع.

ولما كان ربما قيل: لم قدم إبراهيم ﷺ ومن معه على نوح ﷺ وهو أبوهم ومن أولي العزم، وموسى وهارون على إبراهيم وهو كذلك، أشار بقصة داود وسليمان على جميعهم الصلاة والسلام إلى أنه ربما يفضل الابن الأب في أمر، فربما قدم لأجله وإن كان لا يلزم منه تقديمه مطلقاً، مع ما فيها من أمر الحرث الذي هو أنسب شيء لما بعد غيض الماء في قصة نوح ﷺ، هذا في أوله وأما في آخره فما ينبته مثال للدنيا في بهجتها وغرورها، وانقراضها ومرورها، ومن تصريف داود ﷺ في الجبال وهي أشد التراب الذي هو أقوى من الماء، وفي الحديد وهو أقوى من تراب الجبال، وسليمان ﷺ في الريح وهي أقوى من التراب.

١٤ - وقال الإمام أبو السعود ﷺ^(١) في تفسيره: (إرشاد العقل السليم): ﴿وَنُوحًا﴾، أي: اذكر نوحاً أي خبره، وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى﴾، أي: دعا الله تعالى على قومه بالهلاك: ظرف للمضاف المقدر، أي: اذكر نبأه الواقع وقت دعائه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، أي: من قبل هؤلاء المذكورين ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾، أي: دعاءه الذي من جملته قوله: ﴿أَنَا مَغْلُوبٌ فَأَنْتَظِرُ﴾، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، وهو الطوفان، وقيل: أدية قومه، وأصل الكرب: الغم الشديد ﴿وَوَصَرْنَاهُ﴾، نصراً مستتبِعاً للانتقام والانتصار ولذلك قيل: ﴿مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنًا﴾، وحمله على فانتصر ياباه ما ذكر من دعائه ﷺ فإن ظاهره يوجب إسناد الانتصار إليه تعالى مع ما فيه من تهويل الأمر وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾، تعليل لما قبله وتمهيد لما بعده من قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فإن الإصرار على تكذيب الحق والانهماك في الشر والفساد مما يوجب الإهلاك قطعاً.

(١) أبو السعود: هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المفتي والمفسر، انظر: العقد المنظوم ص ٧٠، الكواكب السائرة ج ٣ ص ٣١، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع "للشوكاني ت (١٢٥٠هـ)، نشر: دار المعرفة بيروت، ج ١ ص ٢٦١.

١٥ - وقال الإمام المظهري^(١) في تفسيره: (التفسير المظهري): قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا﴾: عطف على ﴿وَلُوطًا﴾، يعني: آتينا لوطا ونوحا ﷺ حكما وعلماء، وعلى هذا: ﴿إِذْ نَادَى﴾: منصوب بأذكر، أي: اذكر وقت ندائه، وهي: جملة معترضة، أو التقدير: اذكر لوطا ونوحا، وعلى هذا: الظرف بدل اشتمال منه، يعني: اذكر وقت نداء نوح، أي: دعائه على قومه بالهلاك، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: ظرف لـ ﴿نَادَى﴾، أي: ﴿نَادَى﴾ قبل المذكورين، ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ﴾، دعائه ﴿فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾، الذين كانوا في السفينة ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، أي: الغم الشديد، قال ابن عباس: من الغرق وتكذيب قومه وكان نوح ﷺ أطول الأنبياء عمر أو أشدهم بلاءً، روى الضحاك عن ابن عباس ﷺ: ان قوم نوح كانوا يضربون نوحا ﷺ حتى يسقط في لقونه في لبد ويلقونه في بيت يزعمون انه قد مات في خرج في اليوم الثاني في دعوهم الى الله سبحانه، وحكى محمد بن اسحق عن عبيد بن عمير الليثاني بلغة: انهم كانوا يبطشون نوحا في خنقونه حتى يغشى عليه، فاذا أفاق قال: رب اغفر لقومي فانهم لا يعلمون.

﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾، فانتصر ونجى ﴿مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، الدالة على رسالته، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قال البيضاوي: لاجتماع الامرين تكذيب الحق والانهماك في الشر ولعلهما لم يجتمعا في قوم الا واهلكهم.

١٦ - وقال الإمام الألوسي^(٢) في كتابه: (روح المعاني): قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا﴾، أي: واذكر نوحا، أي: نبأه ﷺ، وزعم ابن عطية: أن نوحا عطف على:

(١) الإمام المظهري: هو القاضي مولوي محمد ثناء الله الهندي الفاني فتي النقشبندی الحنفي العثماني المظهري، أنظر: المكتبة الشاملة، موقع مشروع دين الإسلام، وانظر كذلك تفسير المظهري.

(٢) الإمام الألوسي: هو شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني فقيه ومفسر ومحدث، أنظر: الدر المنثور ص ٣٨ لب الأبواب ج ٢ ص ٣١٨، محمود شكري وآراؤه اللغوية ص ٢٨، أعلام العراق ص ٨٥، ٣٤١ أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث لأحمد تيمور باشا ص ٣١١.

﴿وَلَوْطًا﴾، المفعول (لآتيننا) على معنى: وآتيننا نوحا، ولم يستبعد ذلك أبو حيان وليس بشيء، قيل: ولما ذكر سبحانه: (قصة إبراهيم) ﴿﴾ وهو أبو العرب أردفها جل شأنه بقصة أبي البشر وهو الأب الثاني كما أن آدم ﴿﴾ الأب الأول بناء على المشهور من أن جميع الناس الباقيين بعد الطوفان من ذريته ﴿﴾ وهو ابن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس ﴿﴾ في ما يقال، وهو أطول الأنبياء ﴿﴾ على ما في التهذيب عمرا، وذكر الحاكم في المستدرک: أن اسمه عبد الغفار وأنه قيل له: نوح لكثرة بكائه على نفسه، وقال الجواليقي: إن لفظ نوح أعجمي معرب زاد الكرمانى ومعناه بالسريانية الساكن، ﴿إِذْ نَادَى﴾، أي: دعا الله تعالى، ﴿وَإِذْ﴾: ظرف للمضاف المقدر كما أشرنا إليه، ومن لم يقدر يجعله بدل اشتمال من نوح.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾، أي: من قبل هؤلاء المذكورين، وذكرنا قبل قولنا آخر، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾، دعاءه، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، وهو الطوفان، أو: أذية قومه وأصل الكرب: الغم الشديد وكأنه على ما قيل من كرب الأرض وهو قلبها بالحفر، إذ الغم يثير النفس إثارة ذلك، أو: من كربت الشمس إذا دنت للمغيب، فإن الغم الشديد تكاد شمس الروح تغرب منه، أو: من الكرب وهو عقد غليظ في رشاء الدلو، فإن الغم كعقدة على القلب، وفي وصفه بالعظيم تأكيد لما يدل هو عليه، ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أي: منعناه وحميناه منهم بإهلاكهم وتخليصه، وقيل: أي: نصرناه عليهم ف ﴿مِنْ﴾، بمعنى: (على)، وقال بعضهم: إن النصر يتعدى ب (على) و (من)، ففي الأساس نصره الله تعالى على عدوه ونصره من عدوه، وفرق بينهما بأن المتعدي ب (على)، يدل على: مجرد الإعانة، والمتعدي ب (من) يدل على: استتباع ذلك للانتقام من العدو والانتصار، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾، منهمكين في الشر، والجملة تعليل لما قبلها وتمهيد لما بعد من قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فإن تكذيب الحق

والانهماك في الشر مما يترتب عليه الإهلاك قطعاً في الأمم السابقة، ونصب: (أَجْمَعِينَ)، قيل: على الحالية من الضمير المنصوب وهو كما ترى، وقال أبو حيان: على أنه تأكيد له وقد كثر التأكيد بـ (أجمعين) غير تابع لكل في القرآن، فكان ذلك حجة على ابن مالك في زعمه أن التأكيد به، كذلك: قليل والكثير استعماله تابعا لكل انتهى

* * *

إعراب آيات القصة الواردة في سورة: (الأنبياء)

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَاهِلَةً مِنْ
الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ
فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾، ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَاهِلَةً مِنْ
الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٨﴾، ونوحا: عطف على: لوطا؛ في كون مشتركا معه في عامله
الذي هو: ﴿ءَايَاتِنَا﴾ المفسر بآيتنا الظاهر، وكذلك داود وسليمان، والتقدير: ونوحا
آتيناه حكما وداود وسليمان آتيناهما حكما، ف ﴿إِذْ﴾: بدل اشتمال من نوحا وداود
وسليمان؛ ولك أن تعربه: مفعولا به لفعل محذوف، أي: واذكر نوحا وداود وسليمان،
أي: اذكر خبرهم وقصتهم؛ فتكون ﴿إِذْ﴾: منصوبة بنفس المضاف المقدر، أي:
خبرهم الواقع في وقت كذا، وجملة ﴿نَادَى﴾: مضاف إليها ومن قبل: متعلقان
بـ ﴿نَادَى﴾، فاستجبنا: عطف على ﴿نَادَى﴾، وله متعلقان بـ ﴿فَاسْتَجَبْنَا﴾،
فنجيناها: عطف على: ﴿فَاسْتَجَبْنَا﴾ ومن الكرب متعلقان بـ ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾،
والعظيم: صفة. ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ
فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ونصرناه: فعل وفاعل ومفعول به، ومن القوم: متعلقان
بـ ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾، والذين: صفة للقوم، وجملة ﴿كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾: صلة، وان واسمها
وجملة ﴿كَانُوا﴾: خبرها، وجملة ﴿إِنَّهُمْ﴾: تعليلية لا محل لها، وقوم سوء: خبر
﴿كَانُوا﴾، فأغرقناهم: عطف على ما تقدم، وأجمعين: تأكيد للهاء.

البلاغة فيه آيات القصة الواردة فيه سورة: (الأنبياء)

الفرق بين: ﴿فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ في سورة: (الأنبياء)، و ﴿وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ في سورة: (الصفات).

فالفاء: تفي د الترتيب والتعقيب فيها سرعة، والواو: لمطلق الجمع.

ففي الصفات: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْنَعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، ننظر في السياقين والموقف: الموقف في الأنبياء أشد بدليل ما جاء بعدها: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كأنه كان في حالة حرب، نصرناه على خصمه أو عدوه، ولم يقل في الصفات نصرناه.

وصف القوم: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ في الأنبياء ولم يصفهم في الصفات ولم يذكر القوم أصلاً.

وصفهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾، في الأنبياء ولم يصفهم في الصفات.
ذكر عاقبتهم في الأنبياء: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

خامساً: ما قاله المفسرون وأصحاب التأويل في سياق القصة في سورة (المؤمنون):

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٢٣) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٤) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَنَرَبُّوهُ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ (٢٦) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ

كُلَّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَجَّعَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

١ - ما قاله الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٧﴾، يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ داعيهم إلى طاعتنا وتوحيدها، والبراءة من كل معبود سوانا، ﴿فَقَالَ﴾ لهم نوح ﴿يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ﴾، يقول: قال لهم: ذلوا يا قوم لله بالطاعة ﴿لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، يقول: ما لكم من معبود يجوز لكم أن تعبدوه غيره، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، يقول: أفلا تخشون بعبادتكم غيره عقابه أن يحل بكم.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾.

يقول تعالى ذكره: فقالت جماعة أشراف قوم نوح، الذين جحدوا توحيد الله، وكذبوه لقومهم: مانوح أيها القوم إلا بشر مثلكم، إنما هو إنسان مثلكم وكبعضكم ﴿يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾، يقول: يريد أن يصير له الفضل عليكم، في كون متبوعا وأنتم له تبع، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ يقول: ولو شاء الله أن لا نعبد شيئا سواه؛ لأنزل ملائكة، يقول: لأرسل بالدعاء إلى ما يدعوكم إليه نوح ملائكة تؤدّي إليكم رسالته.

وقوله: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ الذي يدعوننا إليه نوح، من أنه لا إله لنا غير الله في القرون الماضية، وهي آباؤهم الأولون.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَنَرِيصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٦﴾، يعني تعالى ذكره: مخبرا عن قيل الملائكة الذين كفروا من

قوم نوح: ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ ما نوح إلا رجل به جنون، وقد يقال أيضا للجن: جنة، في تفق الاسم والمصدر، وهو من قوله: ﴿ إِنَّ هُوَ ﴾ كناية اسم نوح، وقوله: ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾، يقول: فتلبثوا به، وتنظروا به حتى حين، يقول: إلى وقت ما، ولم يعنوا بذلك وقتا معلوما، إنما هو كقول القائل: دعه إلى يوم ما، أو إلى وقت ما، وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾، يقول: قال نوح داعيا ربه، مستنصرا به على قومه؛ لما طال أمره وأمرهم، وتمادوا في غيهم: ﴿ رَبِّ انصُرْنِي ﴾ على قومي ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾، يعني: بتكذيبهم إياي، في ما بلغتهم من رسالتك، ودعوتهم إليه من توحيدك.

وقوله: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ يقول: فقلنا له حين استنصرنا على كفره قومه: ﴿ اصْنَعْ الْفُلْكَ ﴾، وهي السفينة؛ ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾، يقول: بمرأى منا، ومنظر، ووحينا، يقول: وتعليمنا إياك صنعتها، ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾، يقول: فإذا جاء قضاؤنا في قومك، بعدابهم وهلاكهم ﴿ وَفَكَارَ التَّنُورُ ﴾، قوله: ﴿ فَاسْأَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾، يقول: فادخل في الفلك واحمل، والهاء والألف في قوله: ﴿ فِيهَا ﴾ من ذكر الفلك ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾، يقال: سلكته في كذا، وأسلكته فيه.

فعن ابن عباس ؓ قوله: ﴿ فَاسْأَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾، يقول لنوح: اجعل في السفينة من كل زوجين اثنين ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾، وهم ولده ونساؤهم، ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ من الله بأنه هالك، في من يهلك من قومك، فلا تحمله معك، وهو يام الذي غرق.

ويعني بقوله: ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من أهلك، والهاء والميم في قوله: ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من ذكر الأهل.

وقوله: ﴿ وَلَا تَخْطِبْنِي ﴾ الآية، يقول: ولا تسألني في الذين كفروا بالله أن أنجيهم.

﴿إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾، يقول: فإني قد حتمت عليهم أن أغرق جميعهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أُنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أُنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ﴾، فإذا اعتدلت في السفينة أنت ومن معك، ممن حملته معك من أهلك، راكبا فيها عاليا فوقها، ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، يعني: من المشركين.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٢١) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، يقول تعالى ذكره لنبيه نوح ﷺ: وقل إذا سلمك الله، وأخرجك من الفلك، فنزلت عنها: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا﴾ من الأرض ﴿مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ من أنزل عباده المنازل.

فعن مجاهد في قوله: ﴿مُنْزَلًا مُّبَارَكًا﴾، قال: لنوح ﷺ حين نزل من السفينة. واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الأمصار: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا﴾، بضم الميم وفتح الزاي، بمعنى: أنزلني إنزالا مباركا. وقرأه عاصم: (منزلا) بفتح الميم وكسر الزاي، بمعنى: أنزلني مكانا مباركا وموضعا.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾، يقول تعالى ذكره: إن في ما فعلنا بقوم نوح يا محمد، من إهلاكناهم إذ كذبوا رسلنا، وجحدوا وحدانيتنا وعبدوا الآلهة والأصنام، لعبرا لقومك من مشركي قريش، وعظمت وحججنا لنا، يستدلون بها على ستننا في أمثالهم، فينزعوا عن كفرهم، ويرتدعوا عن تكذيبك، حذرا أن يصيبهم مثل الذي أصابهم من العذاب.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، يقول تعالى ذكره: وكنا مختبريهم بتذكيرنا إياهم بآياتنا، لننظر ما هم عاملون قبل نزول عقوبتنا بهم.

٢ - وقال الإمام الماتريدي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ ﴾، يردد ﷺ أنباء أولي العزم من الرسل وأخبارهم، ويكررها على رسول الله؛ ليكون أبدًا يقظانًا متنبهاً، ويعرف أن كيف عامل أولو العزم قومهم، وكيف صبر أولو العزم من الرسل على أذى قومهم وتكذيبهم إياهم؛ ليعامل هو قومه مثل معاملتهم، ويصبر هو على أذى قومه؛ على ما صبر أولئك على أذى قومهم وتكذيبهم إياهم؛ لهذا ما يردد ويكرر أنباءهم عليه، ويعرف قومه أيضاً ألا يظفروا بما يأملون من تكذيبهم العاقبة؛ بل العاقبة تصير له على ما صارت لأولي العزم من الرسل لا لقومهم، والله أعلم.

وقوله: ﴿ أَفَلَا نُنْقِوْنَ ﴾، يحتمل وجوهاً:

أحدها: ﴿ أَفَلَا نُنْقِوْنَ ﴾ مخالفة الله ومخالفة رسوله.

أو: ﴿ أَفَلَا نُنْقِوْنَ ﴾ عذابه ونقمته ووعيده.

أو: ﴿ أَفَلَا نُنْقِوْنَ ﴾ عبادة غير الله.

وقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾.

هذا الذي قالوا: هو تناقض؛ لأنهم قالوا: إنه بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم بما ادعى من الرسالة والإجابة له إلى ما دعاهم، ثم هم أعني: الرؤساء منهم والقادة ادعوا لأنفسهم الفضل بما استتبعوا هم السفلة، وطلبوا منهم الموافقة لهم والإجابة، وهم بشر أمثالهم؛ فذلك تناقض في القول، ثم أقروا بتفضيل بعض الخلق على بعض، وعرفوا قدرة الله على ذلك؛ حيث قالوا: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾، فإن قدر على تفضيل الملائكة على البشر، قدر على تفضيل بعض البشر على بعض، ثم أخبر عن نوح ﷺ أنه لا يريد بما ادعى من الرسالة التفضل عليهم؛ ولكن يريد النصح لهم والإشفاق عليهم؛ حيث قال: ﴿ وَلَا يَفْعَلُكُمْ نِصْحِي إِنْ أَرَدْتُ

أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴿١﴾، وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢﴾، وقال سبحانه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ ﴿٣﴾، ونحو ما قال؛ أخبر أنه إنما أراد النصيحة والشفقة لا التفضل الذي قالوا هم.

وقوله: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، هذا قولهم، وقد كذبوا في قولهم.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَتَّبُوا بِهِ حَتَّى جِئَ﴾، قد عرفوا أن ليس به جنون؛ ولكن أرادوا التلبس والتمويه على قومهم؛ حيث خالفهم في جميع أمورهم، وعادى الرؤساء منهم والقادة، ويقولون: ما يفعل هذا إلا لجنون فيه وآفة أصابته في عقله، وإلا عرفوا هم في أنفسهم أعني: القادة أنه ليس بجنون؛ ولكن أرادوا التمويه على قومهم، ثم قالوا: ﴿فَتَرَتَّبُوا بِهِ حَتَّى جِئَ﴾.

لسنا ندري ما أرادوا بالحين: أرادوا الموت؟ أو وقت ارتفاع ما قالوا فيه من الجنون؟ أو أرادوا وقتا آخر.

قال مقاتل: يريد أن يتفضل عليهم بالرسالة، وليس له عليكم فضل في شيء فتتبعونه.

وقوله: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾.

قَالَ بَعْضُهُمْ: أَي: بالعذاب في آبائنا الأولين.

ويقال: ما سمعنا التوحيد في آبائنا الأولين، كما يدعو نوح.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، لم يدع عليهم بأول ما كذبوه؛ ولكن

(١) الآية: رقم ٣٤ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٥٩ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ١٨٩ من سورة الشعراء.

إنما دعا عليهم بعد ما أيس من عودهم إلى تصديقه، وهو ما قال: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرُ ﴾.

وقال أهل التأويل: ﴿ أَنْصُرْنِي ﴾: بتحقيق ما وعدت لهم من العذاب؛ فإنه نازل بهم في الدنيا وعذابهم ﴿ يَمَّا كَذَّبُونِ ﴾، في قلبي بأن العذاب نازل بهم في الدنيا. أو أن يكون قوله: ﴿ أَنْصُرْنِي يَمَّا كَذَّبُونِ ﴾، أي: اجعل لي الظفر عليهم بالتكذيب، ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾، قال بعضهم: بمنظر منا، وقال بعضهم: بمرأى منا.

وجائز أن يكون صلوات الله عليه ظن لما أمر باتخاذ الفلك: أنهم لا يتركونه أن يتخذ الفلك؛ فأخبره ﷺ: أنك تتخذ به حيث تراه، وننصرك عليهم بحيث لا يملكون منعك عن اتخاذها.

وقوله: ﴿ وَوَحِّينَا ﴾، أي: بأمرنا، وقوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾، أي: إذا جاء الموعد بأمرنا وفار التنور، أو أن يقول: إذا جاء وقت أمرنا بالعذاب وفار ما ذكر، أي: خرج الماء من التنور وظهر.

وقوله: ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا ﴾، قيل: أدخل فيها، يقال: سلكت، وهو الإدخال؛ كقوله: ﴿ أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ يَبْضَاءَ ﴾^(١)، أي: أدخل، وتفسير: ﴿ أَسْلُكْ ﴾: ما ذكر في آية أخرى: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا ﴾^(٢).

(١) الآية: رقم ٢٣ من سورة القصص.

(٢) الآية: رقم ٤٠ من سورة هود.

وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، يحتمل أن يكون قوله: ﴿اثْنَيْنِ﴾، نعتاً؛ لقوله: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾: من الذكور والأنثى، وجائز أن يكون قوله: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾، أي: من كل زوجين عددين لونين: أبيض، وأسود، وطيب وخبث.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾، أي: احمل أهلكاًيضاً في السفينة.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾، بالعذاب والهلاك، وقد ذكرنا هذا في سورة هود.

وقوله: ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَفُونَ﴾، اختلف فيه.

قال قائلون: إنما نهاه عن مخاطبته الذين ظلموا؛ حيث قال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، أنهاه، أن يسأله؛ فإن كان على هذا فقوله: ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي﴾، أي: لا تراجعني الكلام في الذين ظلموا.

وقال قائلون: قوله: ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي﴾ في الذين ظلموا في جميع ظلمة قومه؛ ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَفُونَ﴾، وإن كان على هذا فهو نهى عن ابتداء السؤال فينجاتهم، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الصَّلَاةُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، هكذا الواجب على كل من أنجاه الله من الظلمة أن يحمده ربه على ذلك ويسأله النجاة إذا ابتلي بهم؛ كما علم نوحاً عليه السلام أن يقول ما ذكر ويحمده على النجاة منهم، وكما قال موسى عليه السلام حين خرج من عندهم خائفاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١)، وكما سألت امرأة فرعون النجاة من فرعون وقومه حين قالت: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

(١) الآية: رقم ٢١ من سورة القصص.

(٢) الآية: رقم ١١ من سورة التحريم.

ثم علّمه ربه أن يسأله الإنزال في منزل مبارك؛ حيث قال: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾، ثم يحتمل سؤاله المنزل المبارك: جميع الخيرات والحسنات وعمل الصالحات.

ويحتمل سؤاله المنزل المبارك: الموضع الذي فيه السعة والخصب؛ على ما قاله بعض أهل التأويل، المبارك بالماء والشجر وغيره؛ فإن كان هذا ففيه دلالة إباحة سؤال السعة والخصب، والله أعلم.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾، قال قائلون: قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾، أي: فيهلك قوم نوح وإغراقهم آيات لمن بعدهم، ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾، بآيات؛ تفضلاً منا وإحساناً سوى ذلك.

ويحتمل وجهاً آخر، وهو أن قوله: ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾، بسور الآيات التي كانت؛ وجائز في اللغة ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ بمعنى (ما).

ويحتمل وجهاً آخر: وهو أن قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾، أي: وقد كنا لمبتلين، أي: قد ابتلاهم قبل إهلاكه إياهم، ولسنا نعرف ما حقيقة هذا الكلام وما مراده، والله أعلم.

وقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: ﴿ فَاسْأَلْ فِيهَا ﴾، أي: أدخل فيها، يقال: سلك الخيط في الإبرة وأسلكته، وقال أبو عبيدة كذلك، وقال أَبُو عَوْسَجَةَ: ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾، هذا من الابتلاء، أي: اختبار، ومن البلاء: مبلون.

٣ - وقال الإمام السمرقندي رحمته الله:

قوله ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾، يعني: أرسلناه إلى قومه كما أرسلناك إلى قومك.

فإن قيل: إيش الحكمة في تكرار القصص؟ قيل له: لأن في كل قصة كررها ألفاظاً وفوائد ونكتاً ما ليس في الأخرى، ونظمها سوى نظم الأخرى.

وقال الحسن: للقصة ظهر وبطن، فالظهر خبر يخبرهم، والبطن عظة تعظهم.
ويقال: إنما كررها تأكيداً للحجة والعظة، كما أنه كرر الدلائل، ويكفي دليل واحد لمن يستدل به تفضلاً من الله تعالى ورحمة منه.

فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ﴾، يعني: أطيعوا الله ﷻ ووحده، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، يعني: ليس لكم رب سواه، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عبادة غير الله تعالى فتوحدونه؟ يعني: اتقوه ووحده.

قوله ﷻ: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: الأشراف الذين كفروا ﴿مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، يعني: خلقاً آدمياً مثلكم، ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ﴾ بالرسالة، ويقال: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ﴾، يعني: يريد أن يجعل لنفسه فضلاً عليكم بالرسالة، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾، أي: لو شاء أن يرسل إلينا رسولاً، لأنزل ملائكة، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾، يعني: ما يدعوننا إليه من التوحيد. ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾، أي: الجنون، ﴿فَرَبِّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، يعني: انتظروا به حتى يتبين لكم أمره وصدقه من كذبه، ويقال: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾، يعني: حتى يموت فتتجوا منه.

فلما أبوا على نوح ﷺ، دعا عليهم: ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي﴾ يعني: أعني عليهم بالعذاب، ﴿يَمَّا كَذَبُوا﴾، يعني: بتحقيق قولي في العذاب، لأنه أنذر قومه بالعذاب، فكذبوه.

قوله ﷻ: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَ﴾، يعني: اعمل السفينة بأعيننا، يعني: بمنظر منا وبعلمنا، ثم قال: ﴿وَوَحَيْنَا﴾، يعني: بوحينا إليك وأمرنا، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، يعني: عذابنا، ﴿وَفَكَارَ الْتَوُّورُ﴾، يعني: بنبع الماء من أسفل التتور، ﴿فَأَسْلَكَ فِيهَا﴾، يعني: فأدخل في السفينة ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ مِثْلَيْنِ﴾، يعني: من كل حيوان صنفين ولونين ذكراً وأنثى، ﴿وَأَهْلَكَ﴾ يعني: وأدخل فيها أهلك،

﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ يعني: إلا من وجب عليه العذاب، وهو ابنه كنعان، ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، يعني: ولا تراجعني بالدعاء في الذين كفروا وهو ابنه، ﴿إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾، بالطوفان.

قرأ عاصم في رواية حفص: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾، بتنوين اللام، وقرأ الباقر بغير تنوين.

ثم قال ﷺ: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ﴾، يعني: ركبت السفينة ﴿أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكَ﴾، يعني: في السفينة، ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، يعني: الشكر لله ﴿الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، يعني: المشركين.

قوله ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي﴾، يعني: إذا نزلت من السفينة إلى البر، فقل: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا﴾.

قرأ عاصم في رواية أبي بكر: مُنْزَلًا بنصب الميم وكسر الزاي، يعني: موضع النزول.

وقرأ الباقر: ﴿مُنْزَلًا﴾، بضم الميم ونصب الزاي، وهو اختيار أبي عبيد، وهو المصدر من أنزل ينزل، فصار بمعنى أنزلني إنزالاً مباركاً، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ من غيرك.

ثم قال ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، يعني: في إهلاك قوم نوح، ﴿لَآيَاتٍ﴾، يعني: لعبراً لمن بعدهم، ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، يعني: وقد كنا لمختبرين بالغرق، ويقال: بالطاعة والمعصية، ﴿وَإِنْ﴾، بمعنى: قد، كقوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾^(١)، يعني: وقد كان مكرهم.

(١) الآية: رقم ٦٤ من سورة إبراهيم.

٤ - وقال الإمام القشيري رحمه الله:

قوله عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾.

كرّر قصة نوح عليه السلام لما فيها من عظيم الآيات من طول مقامه في قومه، وشدة مقاساة البلاء منهم، وتمام صبره على ما استقبله في طول عمره، ثم إهلاك الله تعالى جميع من أصرّ على كفرانه، ثم لم يغادر منهم أحداً، ولم يبال سبحانه بأن أهلك جملتهم.

ولقد ذكر في القصص أن امرأة من قومه لما أخذهم الطوفان كان لها مولود، فحملته وقامت حاملة له ترفعه عن الطوفان، فلما بلغ الماء إلى يدها رفعته إلى ما فوق رأسها قدر ما أمكنها إبقاء على ولدها، وإشفاقاً عليه من الهلاك، إلى أن غلبها الماء وتلفت وولدها، فأوحى الله إلى نوح عليه السلام لو أنى كنت أرحم واحداً منهم لرحمت تلك المرأة وولدها.

وفى الخبر أن نوحاً كان اسمه يشكر ولكثرة ما كان يبكي أوحى الله إليه: يا نوح إلى كم تنوح؟ فسماه نوحاً، وكان قومه يلاحظونه بعين الجنون، وما زاد لهم دعوة إلا ازدادوا عن إجابته نبوة، وما زاد لهم صفوة إلا ازدادوا على طول المدة قسوة على قسوة.

ولما عمل السفينة ظهر الطوفان، وأدخل في السفينة أهله، تعرّض له إبليس كما جاء في القصة وقال: احملني معك فب السفينة، فأبى نوح عليه السلام وقال: يا شقى تطمع في حملي إياك وأنت رأس الكفرة؟! فقال إبليس: أما علمت يا نوح أن الله أنظرني إلى يوم القيامة، وليس ينجو اليوم أحد إلا في هذه السفينة؟

فأوحى الله إلى نوح أن احمله فكان إبليس مع نوح في السفينة، ولم يكن لابنه معه مكان في السفينة، (وفى هذا ظهور عين التوحيد وأن الحكم من الله غير معلول)، لأنه إن كان المعنى في أن ابنه لم يكن معه له مكان لكفره في إبليس يشكل،

ولكنها أحكام غير معلولة، وجاز له سبحانه أن يفعل ما يريد: يصل من شاء ويرد من شاء.

وقوله: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾، الإنزال المبارك أن يكون بالله ولله، وعلى شهود الله من غير غفلة عن الله، ولا مخالفا لأمر الله، ويقال: الإنزال المبارك الاستيعاب بشهود الوصف عنك، ثم الاستغراق باستيلاء سلطان القرب عليك.

٥ - وقال الإمام الزخشي رحمه الله:

قوله ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾، غَيْرُهُ بالرفع على المحل، وبالجر على اللفظ، والجملة استئناف تجرى مجرى التعليل للأمر بالعبادة، ﴿ أَفَلَا نُنْقِزُ ﴾، أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذي هو ربكم وخالقكم ورازقكم، وشكر نعمته التي لا تحصى أنها واجب عليكم، ثم تذهبوا فتعبدوا غيره مما ليس من استحقاق العبادة في شيء ﴿ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ ﴾، أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم، كقوله تعالى: ﴿ وَتَكُونُ لَكُمْ أَلْكَبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ﴾^(١)، بهذا إشارة إلى نوح ﷺ، أو إلى ما كلهم به من الحث على عبادة الله، أي: ما سمعنا بمثل هذا الكلام، أو بمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول الله، وما أعجب شأن الضلال: (لم يرضوا للنبوّة ببشر، وقد رضوا للإلهية بحجر)،

وقولهم: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾، يدل على أنهم وآباؤهم كانوا في فترة متطاولة، أو: تكذبوا في ذلك لانهماكهم في الغي، وتشمرهم لأن يدفعوا الحق بما أمكنهم وبما عنّ لهم، من غير تمييز منهم بين صدق وكذب.

ألا تراهم: كيف جننوه وقد علموا أنه أرجح الناس عقلا وأوزنهم قولاً.

والجنّة: الجنون أو الجن، أي: به جنّ يخلونه، ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾، أي: احتملوه

(١) الآية: رقم ٧٨ من سورة يونس.

واصبروا عليه إلى زمان، حتى ينجلي أمره عن عاقبة، فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، فینصرتہ إهلاكهم، فكأنه قال: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي، أو انصُرني بدل ما كذبوني، كما تقول: هذا بذاك، أي: بدل ذاك ومكانه، والمعنى: أبدلني من غمّ تكذيبهم، سلوة النصر عليهم، أو انصُرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب، وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، بحفظنا وكلاءتنا، كأن معه من الله حفاظا يكلثونه بعيونهم، لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه مفسد عمله، ومنه قولهم: عليه من الله عين كائلة ﴿وَوَحَيْنَا﴾، أي: نأمرك كيف تصنع ونعلمك.

روى أنه أوحى إليه: أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر، روى أنه قيل لنوح ﷺ: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك في السفينة، فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب.

وقيل: كان تنور آدم ﷺ، وكان من حجارة، فصار إلى نوح ﷺ.

واختلف في مكانه، فعن الشعبي: في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان نوح ﷺ عمل السفينة وسط المسجد، وقيل: بالشام بموضع يقال له عين وردة.

٦ - وقال الإمام ابن عطية ﷺ:

قوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، هذا ابتداء تمثيل لكفار قريش بأمم كفرت بأنبيائها فأهلكوا، ففي ضمن ذلك الوعيد بأن يحل بهؤلاء نحو ما حل بأولئك، ونوح ﷺ أول نبي أرسل إلى الناس وإدريس ﷺ أول من نبى ولم يرسل، والمَلَأُ: الأشراف لأنهم عندهم يصدر المَلَأ وهو جمع القوم، وفي قوله: (هؤلاء)

استبعاد بعثة البشر وهم قوم مقرون بالملائكة وذلك لا شك متقرر عندهم من بقايا نبوءة آدم وإدريس وغيرهما، ولم يكن عن علم صحيح ولا معرفة بأخبار نبوءة.

والجنة: الجنون، ﴿ فَتَرَيَّصُورًا ﴾، معناه: فاصبروا وانتظروا هلاكه، و﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾، معناه: إلى وقت ولم يعينوه وإنما أرادوا إلى وقت يريحكم القدر منه، ثم إن نوحا ﷺ دعا على قومه حين يئس منهم وإن كان دعاؤه في هذه الآية ليس بنص وإنما هو ظاهر من قوله: ﴿ يَمَّا كَذَّبُونِ ﴾، فهذا يقتضي طلبه العقوبة وأما النصره بمجرد ما فكانت تكون بردهم إلى الإيمان.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾، خطاب لمحمد ﷺ، أي: أن في ما جرى على هذه الأمم لعبرا ودلائل لمن له نظر وعقل، ثم أخبر أنه تعالى يبتلي عباده الزمن بعد الزمن على جهة الوعيد لكفار قريش بهذا الإخبار، و﴿ إِنَّ ﴾: عند سيئويه هي المخففة من الثقيلة واللام لام تأكيد، والفراء يقول إِنَّ نافية واللام بمعنى: (إلا) و﴿ لَمُبْتَلِينَ ﴾، معناه: لمصيبين ببلاء ومختبرين اختبارا يؤدي إلى ذلك.

٧ - وقال الإمام الرازي رحمه الله: واعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد أَرَدَ فِهَا بِالْقَصَصِ كَمَا هُوَ الْعَادَةُ فِي سَائِرِ السُّورِ وَهِيَ هَاهُنَا: الْقِصَّةُ الْأُولَى قِصَّةُ نُوحٍ ﷺ: قَالَ قَوْمٌ: إِنَّ نُوحًا كَانَ اسْمُهُ يَشْكُرُ، ثُمَّ سَمِينُوحًا لَوْجُوه: أَحَدُهَا: لِكثْرَةِ مَا نَاحَ عَلَى نَفْسِهِ حِينَ دَعَا عَلَى قَوْمِهِ بِالْهَلَاكِ، فَأَهْلَكَهُمُ بِالطُّوفَانِ فَندَمَ عَلَى ذَلِكَ. وثانيها: لمراجعة ربه في شأن ابنه.

وثالثها: أنه مر بكلب مجذوم، فقال له: اخسأ يا قبيح، فعوتب على ذلك، فقال الله له: أعبتني إذ خلقتك، أم عبت الكلب، وهذه الوجوه مشكلة لما ثبت أن الأعلام لا تفي دصفة في المسمى.

أما قوله: ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾، فالمعنى: أنه سبحانه أرسله بالدعاء إلى عبادة الله

تعالى وحده، ولا يجوز أن يدعوهم إلى ذلك إلا وقد دعاهم إلى معرفته أولاً، لأن عبادة من لا يكون معلوماً غير جائزة وإنما يجوز ويجب بعد المعرفة.

وأما قوله: ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾، فالمراد: أن عبادة غير الله لا تجوز إذ لا إله سواه.

ومن حق العبادة أن تحسن لمن أنعم بالخلق والإحياء وما بعدهما، فإذا لم يصح ذلك إلا منه تعالى فكيف يعبد ما لا يضر ولا ينفع؟ وقرئ غيره بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ.

ثم إنه لما لم ينفع فيهم هذا الدعاء واستمروا على عبادة غير الله تعالى حذرهم بقوله: ﴿ أَفَلَا نُنْقِوْنَ ﴾، لأن ذلك زجر ووعيد باتقاء العقوبة لينصرفوا عما هم عليه.

ثم إنه سبحانه حكى عنهم شبههم في إنكار نبوة نوح ﷺ: الشبهة الأولى: قولهم: ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾، وهذه الشبهة تحتمل وجهين: أحدهما: أن يقال إنه لما كان مساوياً لسائر الناس في القوة والفهم والعلم والغنى والفقر والصحة والمرض امتنع كونه رسولاً لله، لأن الرسول لا بد وأن يكون عظيماً عند الله تعالى وحبيباً له، والحبيب لا بد وأن يختص عن غير الحبيب بمزيد الدرجة والمعزة، فلما فقدت هذه الأشياء علمنا انتفاء الرسالة.

والثاني: أن يقال هذا الإنسان مشارك لكم في جميع الأمور، ولكنه أحب الرياسة والمتبوعة فلم يجد إليهما سبيلاً إلا بادعاء النبوة، فصار ذلك شبهة لهم في القدح فينبوته، فهذا الاحتمال متأكد بقوله تعالى خبراً عنهم: ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُفْضَلَ عَلَيْكُمْ ﴾، أي: يريد أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم.

الشبهة الثانية: قولهم: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ وشرحه أن الله تعالى: لو شاء إرشاد البشر لوجب أن يسلك الطريق الذي يكون أشد إفضاءً إلى المقصود، ومعلوم أن بعثة الملائكة أشد إفضاءً إلى هذا المقصود من بعثة البشر، لأن الملائكة

لعلو شأنهم وشدة سطوتهم وكثرة علومهم، فالخلق ينقادون إليهم، ولا يشكون في رسالتهم، فلما لم يفعل ذلك علمنا أنه ما أرسل رسولا البتة.

الشبهة الثالثة: قولهم: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾، وقوله: ﴿ بِهَذَا ﴾، إشارة إلى نوح عليه السلام، أو إلى ما كلمهم به من الحث على عبادة الله تعالى، أي ما سمعنا بمثل هذا الكلام، أو بمثل هذا الذي يدعي وهو بشر أنه رسول الله، وشرح هذا الشبهة: أنهم كانوا أقواما لا يعولون في شيء من مذاهبهم إلا على التقليد والرجوع إلى قول الآباء، فلما لم يجدوا فينبوة نوح عليه السلام هذه الطريقة حكموا بفسادها.

قال القاضي: يحتمل أن: يريدوا بذلك كونه رسولا مبعوثا، لأنه لا يمتنع في ما تقدم من زمان آبائهم أنه كان زمان فترة، ويحتمل أن: يريدوا بذلك دعاءهم إلى عبادة الله تعالى وحده، لأن آباءهم كانوا على عبادة الأوثان.

الشبهة الرابعة: قولهم: ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾، والجنة: الجنون أو الجن، فإن جهال العوام يقولون في المجنون: زال عقله بعمل الجن، وهذه الشبهة: من باب الترويج على العوام، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يفعل أفعالا على خلاف عاداتهم، فأولئك الرؤساء كانوا يقولون للعوام إنه مجنون، ومن كان مجنونا فكيف يجوز أن يكون رسولا.

الشبهة الخامسة: قولهم: ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾، وهذا يحتمل أن: يكون متعلقا بما قبله أي أنه مجنون فاصبروا إلى زمان حتى يظهر عاقبة أمره فإن أفاق وإلا قتلتموه، ويحتمل أن: يكون كلاما مستأنفا وهو أن يقولوا لقومهم: اصبروا فإنه إن كان نبيا حقا فالله ينصره ويقوي أمره فنحن حيثنذ نتبعه وإن كان كاذبا فالله يخذله ويبطل أمره، فحينئذ نستريح منه، فهذه مجموع الشبه التي حكاها الله تعالى عنهم، واعلم أنه سبحانه ما ذكر الجواب عنها لركاكتها ووضوح فسادها، وذلك لأن كل عاقل يعلم أن الرسول لا يصير رسولا إلا لأنه من جنس الملك وإنما يصير

كذلك بأن يتميز من غيره بالمعجزات فسواء كان من جنس الملك أو من جنس البشر فعند ظهور المعجز عليه يجب أن يكون رسولا، بل جعل الرسول من جملة البشر أولى لما مر بيانه في السور المتقدمة وهو أن الجنسية مظنة الألفة والمؤانسة، وأما قولهم: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ﴾، فإن أرادوا به إرادته لإظهار فضله حتى يلزمهم الانقياد لطاعته فهذا واجب على الرسول، وإن أرادوا به أن يرتفع عليهم على سبيل التجبر والتكبر والانقياد فالأنبياء منزهون عن ذلك، وأما قولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾، فهو استدلال بعدم التقليد على عدم وجود الشيء، وهو في غاية السقوط لأن وجود التقليد لا يدل على وجود الشيء، فعدمه من أين يدل على عدمه، وأما قولهم: ﴿بِهِ حِجَّةٌ﴾، فقد كذبوا لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله، وأما قولهم: ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾، فضعيف لأنه إن ظهرت الدولة على نبوته وهي المعجزة وجب عليهم قبول قوله في الحال، ولا يجوز توقيف ذلك إلى ظهور دولته لأن الدولة لا تدل على الحقيقة، وإن لم يظهر المعجز لم يجز قبول قوله سواء ظهرت الدولة أو لم تظهر، ولما كانت هذه الأجوبة فينهاية الظهور لا جرم تركها الله سبحانه.

أما قوله: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي﴾ ففيه وجوه: أحدها: أن فينصره إهلاكهم فكأنه قال: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي.

وثانيها: انصُرني بدل ما كذبوني كما تقول: هذا بذاك أي بدل ذاك ومكانه، والمعنى: أبدلني من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم.

وثالثها: انصُرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ولما أجاب الله دعاءه قال: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: بحفظنا وكلنا كأن معه من الله حافظا يكلؤه بعينه لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه مفسد عمله.

واختلفوا في أنه ﷺ كيف صنع الفلك ف قيل: إنه كان نجارا وكان عالما بكيفية اتخاذها، وقيل إن جبريل ﷺ علمه عمل السفينة ووصف له كيفية اتخاذها، وهذا هو الأقرب لقوله: ﴿بَاعِثْنَا وَوَحِّينَا﴾، أما قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، فاعلم أن لفظ الأمر: كما هو حقيقة في طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء، فكذا هو حقيقة في الشأن العظيم، والدليل عليه أنك إذا قلت هذا أمر بقي الذهن يتردد بين المفهومين وذلك يدل على كونه حقيقة فيهما وتماثل تقريره مذكور في كتاب المحصول في الأصول، ومن الناس من قال: إنما سماه أمرا على سبيل التعظيم والتفخيم، مثل قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(١).

أما قوله: ﴿وَفَكَارَ التَّنُورُ﴾، فاختلفوا في التنور، فالأكثر على أنه هو التنور المعروف.

روي أنه قيل لنوح ﷺ: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك في السفينة، فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب، وقيل: كان تنور آدم ﷺ وكان من حجارة فصار إلى نوح ﷺ، واختلف في مكانه، فعن الشعبي: أنه في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان نوح ﷺ عمل السفينة في وسط المسجد، وقيل: بالشام بموضع يقال له عين وردة وقيل: بالهند.

أما قوله: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾، أي: أدخل فيها يقال سلك فيه أي دخل فيه وسلك غيره وأسلكه، ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، أي: من كل زوجين من الحيوان الذي يحضره في الوقت اثنين الذكر والأنثى لكي لا ينقطع نسل ذلك الحيوان، وكل واحد منهما زوج لا كما تقوله العامة من أن الزوج هو الاثنان، روي أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض، وقرئ: ﴿مِنْ كُلِّ﴾ بالتثنية، أي من كل أمة زوجين، واثنين تأكيد وزيادة بيان.

(١) الآية: رقم ١١ من سورة فصلت.

أما قوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي: وأدخل أهلك ولفظ على إنما يستعمل في المضار.

قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(١)، واعلم أن هذه الآية تدل على أمرين: أحدهما: أنه سبحانه أمره بإدخال سائر من آمن به وإن لم يكن من أهله، وقيل: المراد بأهله من آمن دون من يتصل به نسبا أو سببا وهذا ضعيف، وإلا لما جاز استثناء قوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾.

والثاني: أنه قال: ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، يعني: كنعان فإنه سبحانه لما أخبر بإهلاكهم وجب أن ينهاه عن أن يسأله في بعضهم لأنه إن أجابه إليه، فقد صير خبره الصدق كذبا، وإن لم يجبه إليه كان ذلك تحقيرا لشأن نوح ﷺ فلذلك قال: ﴿إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾، أي: الغرق نازل بهم لا محالة.

أما قوله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَجَّحَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، قال ابن عباس ﷺ: كان في السفينة ثمانون إنسانا، نوح ﷺ وامرأته سوى التي غرقت، وثلاثة بنين: سام وحام ويافث، وثلاث نسوة لهم، واثنان وسبعون إنسانا فكل الخلائق نسل من كان في السفينة.

أما قوله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ﴾ ففيه مسائل: المسألة الأولى: إنما قال: ﴿فَقُلْ﴾، ولم يقل: فقولوا لأن نوحا ﷺ كان نبيا لهم وإماما لهم، فكان قوله قولاً لهم مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة وإظهار كبرياء الربوبية، وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى إليها إلا ملك أو نبي.

المسألة الثانية: قال قتادة: علمكم الله أن تقولوا عند ركوب السفينة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا﴾^(٢)، وعند ركوب الدابة: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا

(١) الآية: رقم ١٣٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية: رقم ٤١ من سورة هود.

هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقَرَّنِينَ ﴿١﴾، وعند النزول: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ﴿٢﴾، قال الأنصاري: وقال لنبينا ﷺ: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ ﴿٣﴾، وقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ﴿٤﴾، كأنه سبحانه أمرهم أن لا يكونوا عن ذكره وعن الاستعاذة به في جميع أحوالهم غافلين.

المسألة الثالثة: هذه مبالغة عظيمة في تقييح صورتهم حيث أتبع النهي عن الدعاء لهم الأمر بالحمد على إهلاكهم والنجاة منهم كقوله تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٥﴾.

وإنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق لأنه سبحانه كان عرفه أنه بذلك ينجيه ومن تبعه، في صح أن يقول: نجانا من حيث جعله آمنا بهذا الفعل ووصف قومه بأنهم الظالمون لأن الكفر منهم ظلم لأنفسهم لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ﴿٦﴾، ثم إنه سبحانه بعد أن أمره بالحمد على إهلاكهم أمره بأن يدعو لنفسه فقال: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا ﴾ وقرئ منزلا بمعنى إنزالا أو موضع إنزال كقوله ليدخلهم مدخلا يرضونه، واختلفوا في المنزل على قولين: أحدهما: أن المراد هو نفس السفينة فمن ركبها خلصته مما جرى على قومه من الهلاك.

والثاني: أن المراد أن ينزله الله بعد خروجه من السفينة من الأرض منزلا مباركا.

(١) الآية: رقم ١٣ من سورة الزخرف.

(٢) الآية: رقم ٢٩ من سورة المؤمنون.

(٣) الآية: رقم ٨٠ من سورة الإسراء.

(٤) الآية: رقم ٩٨ من سورة النحل.

(٥) الآية: رقم ٤٥ من سورة الأنعام.

(٦) الآية: رقم ١٣ من سورة لقمان.

والأول أقرب لأنه أمر بهذا الدعاء في حال استقراره في السفينة، في جب أن يكون المنزل ذلك دون غيره.

ثم بين سبحانه بقوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ أن الإنزال في الأمكنة قد يقع من غير الله كما يقع من الله تعالى، وإن كان هو سبحانه خير من أنزل، لأنه يحفظ من أنزله في سائر أحواله ويدفع عنه المكروه بحسب ما يقتضيه الحكم والحكمة، ثم بين سبحانه أن في ما ذكره من قصة نوح ﷺ وقومه آيات ودلالات وعبرا في الدعاء إلى الإيمان والزجر عن الكفر فإن إظهار تلك المياه العظيمة ثم الإذهاب بها لا يقدر عليه إلا القادر على كل المقدورات، وظهور تلك الواقعة على وفق قول نوح ﷺ يدل على المعجز العظيم وإفناء الكفار وبقاء الأرض لأهل الدين والطاعة من أعظم أنواع العبر.

أما قوله: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، فيمكن أن يكون المراد، ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ في ما قبل، ويحتمل أن: يكون ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، في ما بعد، وهذا هو الأقرب لأنه كالحقيقة في الاستقبال.

٨ - وقال الإمام البيضاوي^(١) في تفسيره: (أنوار التنزيل): قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، إلى آخر القصص مسوق لبيان كفران الناس ما عدد عليهم من النعم المتلاحقة وما حاق بهم من زوالها، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، استئناف لتعليل الأمر بالعبادة، وقرأ الكسائي غَيْرُهُ بالجر

(١) البيضاوي: هو العلامة المفسر قاضي القضاة، ناصر الدين، أبو الخير، عبد الله بن عمر بن علي البيضاوي الشيرازي، الشافعي، وهذه النسبة إلى بيضاء وهي بلدة من بلاد فارس، كان إماما علامة، عارفا بالفقه والأصلين والعربية والمنطق، نظارا صالحا، متعبدا، شافعيًا.

أنظر: سلم الوصول لشرح نهاية السؤل لمحمد بخت المطيعي الحنفي، الجزء ١، طبقات المفسرين للحافظ شمس الدين الداودي، طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب السبكي، التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي الجزء ١.

على اللفظ، ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾، أفلا تخافون أن يزيل عنكم نعمه فيهلككم ويعذبكم برفضكم عبادته إلى عبادة غيره وكفرانكم نعمه التي لا تحصونها.

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُوا ﴾، الأشراف: الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِعَوامهم، ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ ﴾، أن يطلب الفضل عليكم ويسودكم، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾، أن يرسل رسولا، ﴿ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ رسلا، ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ يعنون: نوحاً عليه السلام، أي: ما سمعنا به أنه نبي، أو ما كلمهم به من الحث على عبادة الله سبحانه وتعالى ونفي إله غيره، أو من دعوى النبوة وذلك إما لفرط عنادهم أو لأنهم كانوا في فترة متطاولة، ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾، أي: جنون ولأجله يقول ذلك، ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ ﴾، فاحتملوه وانتظروا، ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ لعله يفني ق من جنونه.

قال بعد ما أيس من إيمانهم: ﴿ رَبِّ أَنْصُرْنِي ﴾ بإهلاكهم، أو: بإنجاز ما وعدتهم من العذاب، ﴿ بِمَا كَذَبُونِ ﴾، بدل تكذيبهم إياي أو بسببه.

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾، بحفظنا نحفظه أن تخطئ فيه أو يفسده عليك مفسد ﴿ وَوَحَّيْنَا ﴾، وأمرنا وتعليمنا كيف تصنع، ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾، بالركوب أو نزول العذاب، ﴿ وَفَكَارَ التَّنُورُ ﴾، ﴿ فَأَسْلُفَ فِيهَا ﴾، فادخل فيها يقال: سلك فيه وسلك غيره، قال تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾^(١)، ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾، من كل أمتي الذكر والأنثى واحد من مزدوجين، وقرأ حفص: ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾، أي: من كل نوع زوجين، و﴿ اثْنَيْنِ ﴾: تأكيد، ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ وأهل بيتك، أو: من آمن معك، ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾، أي: القول من الله تعالى بإهلاكه لكفره، وإنما جيء بعلی لأن السابق ضار كما جيء باللام حيث كان نافعاً في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾^(٢)، وقوله: ﴿ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالدعاء لهم بالإنجاء، ﴿ إِنَّهُمْ

(١) الآية: رقم ٤٢ من سورة المدثر.

(٢) الآية: رقم ١٠١ من سورة الأنبياء.

مُغْرَقُونَ ﴿١﴾، لا محالة لظلمهم بالإشراك والمعاصي، ومن هذا شأنه لا يشفع له ولا يشفع فيه كيف وقد أمره بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله: ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَاحِ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كقوله: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي فِي السَّفِينَةِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿مُنْزِلًا مُبَارَكًا﴾ يتسبب لمزيد الخير في الدارين على قراءة أبي بكر، وقرئ: (منزلاً)، بمعنى إنزالاً أو موضع إنزال، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، ثناء مطابق لدعائه أمره بأن يشفعه به مبالغة فيه وتوسلاً به إلى الإجابة، وإنما أفرد به بالأمر والمعلق به أن يستوي هو ومن معه إظهاراً لفضله وإشعاراً بأن في دعائه مندوحة عن دعائهم فإنه يحيط بهم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، في ما فعل بنوح وقومه، آيات يستدل بها ويعتبر أولو الاستبصار والاعتبار، ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، لمصيبين قوم نوح ببلاء عظيم، أو ممتحنين عبادنا بهذه الآيات وإن هي المخففة واللام هي الفارقة.

٩ - وقال الإمام ابن جزى^(٢) في تفسيره:

(التسهيل لعلوم التنزيل): قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ﴾، استبعدوا أن تكون النبوة لبشر في أعجبا منهم إذ أثبتوا الربوبية لحجر! وقوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ﴾، أي: يطلب الفضل والرياسة عليكم، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾، أي: بمثل ما دعاهم إليه من عبادة الله، أو بمثل الكلام الذي قال لهم، وهذا يدل على أنه كان قبل نوح ﷺ فترة

(١) الآية: رقم ٤٥ من سورة الأنعام.

(٢) ابن جزى: هو الإمام الفقيه المفسر الأصولي الحافظ المحدث اللغوي الأديب الحافظ محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزى، ويكنى بأبي القاسم الكلبي الغرناطي المالكي، وهو معروف بمحمد بن جزى بالتصغير ويقال له: محمد الكلبي، ولد الإمام ابن جزى الكلبي في يوم الخميس، تاسع ربيع الثاني، عام ثلاثة وتسعين وستمائة بعد الهجرة، في مدينة العلم والمعرفة في ذلك الزمان مدينة غرناطة، عاصمة الأندلس، أنظر: فتح الطيب للمقري ٢٨/٨، والإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب ٣/٢٠، وطبقات القراء لابن الجزري ٨٣/٢، والديباج المذهب لابن فرحون ١٣٩/٢.

طويلة، ﴿ بِهِ حِجَّةٌ ﴾، أي: جنون، فانظر اختلاف قولهم فيه، فتارة: نسبوه إلى طلب الرئاسة، وتارة: إلى الجنون.

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾، أي: إلى وقت لم يعينوه، ولكن أرادوا وقت زوال جنونه على قولهم، أو وقت موته وقوله: ﴿ أَنْصُرْفِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾، تضمن هذا دعاء عليهم، لأن نصرته إنما هي بإهلاكهم.

١٠ - وقال الإمام أثير الدين الأندلسي^(١) رحمه الله في تفسيره: (البحر المحيط): لما ذكر أولا بدء الإنسان وتطوره في تلك الأطوار، وما امتن به عليه مما جعله تعالى سببا لحياتهم، وإدراك مقاصدهم، ذكر أمثالا لكفار قريش من الأمم السابقة المنكرة لإرسال الله رسلا المكذبة بما جاءتهم به الأنبياء عن الله، فابتدأ قصة نوح عليه السلام لأنه أبو البشر الثاني كما ذكر أولا آدم في قوله من سلالة من طين ولقصته أيضا مناسبة بما قبلها إذ قبلها: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾^(٢).

فذكر قصة من صنع الفلك أولا وأنه كان سبب نجاة من آمن وهلك من لم يكن فيه الفلك من نعمة الله، كل هذه القصص يحذر بها قريشا نقم الله ويذكرهم نعمه. ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾: جملة مستأنفة منبهة على أن يفرد بالعبادة من كان منفردا بالإلهية فكانها تعليل لقوله: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ أَفَلَا نُنْقِوْنَ، أي: أفلا تخافون عقوبته إذا عبدتم غيره فقال الملائكة أي كبراء الناس وعظمائهم، وهم الذين هم أعصى الناس وأبعدهم لقبول الخير، ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾، أي: مساويكم في البشرية، فأني تؤفكون له اختصاص بالرسالة.

(١) أثير الدين الأندلسي: هو الإمام أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، الغرناطي الأندلسي الجياني. أنظر: شذرات الذهب ج ٦ ص ١٤٥، الدرر الكامنة ج ٥ ص ٧٠، فوات الوفيات لابن شاكراً ج ٢ ص ٥٥٦، طبقات الشافعية للأسنوي ج ٩ ص ٢٧٧، بغية الوعاة للسيوطي ج ١ ص ٢٦٦.

(٢) الآية: رقم ٢٢ من سورة المؤمنون.

وقوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: يطلب الفضل عليكم ويرأسكم كقوله: ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ أَلِكَبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾^(١).

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾، هذا يدل: على أنهم كانوا مقرين بالملائكة وهذه شنشنة قريش ودأبها في استبعاد إرسال الله البشر، والإشارة في هذا تحتل أن: تكون لنوح ﷺ، وأن تكون إلى ما كلمهم به من الأمر بعبادة الله ورفض أصنامهم، وأن يكون إلى ما أتى به من أنه رسول الله وهو بشر، وأعجب بضلال هؤلاء استبعدوا رسالة البشر واعتقدوا إلهية الحجر.

وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾، الظاهر أنهم كانوا مباهتين وإلا فنبوة إدريس وأدمعليهما السلام لم تكن المدة بينها وبينهم متطاوله بحيث تنسى فدافعوا الحق بما أمكنهم دفاعه، ولهذا قالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بَدِئَ جَنَّةً﴾، ومعلوم عندهم أنه ليس بمجنون، ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾، أي: انتظروا حاله حتى يجلى أمره وعاقبة خبره، فدعا ربه تعالى بأن ينصره ويظفره بهم بسبب ما كذبوه.

١١ - وقال الإمام ابن عادل رحمه الله: قوله:

﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: وحّدوه، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، أي: أن عبادة غير الله لا تجوز إذ لا إله سواه، وقرئ: ﴿غَيْرُهُ﴾، بالرفع على المحل، وبالجر على اللفظ.

ثم إنه لما لم ينفع فيهم الدعاء واستمروا على عبادة غير الله حذرهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَنْقَوْنَ﴾، زجرهم وتوعدهم باتقاء العقوبة لينصرفوا عما هم عليه ثم إنه تعالى حكى عنهم شبههم في إنكار نبوة نوح ﷺ: وهي قولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، وهذه الشبهة تحتل وجهين: أحدهما: أن يقال: إنه لما كان سائر الناس في القوة والفهم والعلم والغنى والفقر والصحة والمرض سواء، امتنع كونه رسولا لله، لأن

(١) الآية: رقم ٧٨ من سورة (يونس).

الرسول لا بُدَّ وأن يكون معظماً عند الله وحبیباً له، والحبیب لا بد وأن يختص عن غير الحبیب بمزيد الدرجة والعزة، فلما انتفتت هذه الأشياء علمنا انتفاء الرسالة.

والثاني: أن يقال: إن هذه الإنسان مشارك لكم في جميع الأمور، ولكنه أحب الرياسة والمتبوعية فلم يجد إليهما سبيلاً إلا بادعاء النبوة، فصار ذلك شبهة لهم في القدح فينبوته، ويؤكد هذا الاحتمال قولهم: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: يطلب الفضل عليكم ويرأسكم.

الشبهة الثانية: قولهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾، أي: ولو شاء الله أن لا يتعبد سواه لأنزل ملائكة بإبلاغ الوحي، لأن بعثة الملائكة أشد إفضاء إلى المقصود من بعثة البشر، لأن الملائكة لعلو شأنهم وشدة سطوتهم، وكثرة علومهم ينقاد الخلق إليهم، ولا يشكون في رسالتهم فلما لم يفعل ذلك علمنا أنه ما أرسل رسولاً.

الشبهة الثالثة: قولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، فقولهم: ﴿بِهَذَا﴾، إشارة إلى نوح عليه السلام أي: بإرسال بشر رسولاً، أو: ﴿بِهَذَا﴾، الذي يدعو إليه نوح وهو عبادة الله وحده، لأن آباءهم كانوا يعبدون الأوثان، وذلك أنهم كانوا لا يعولون في شيء من مذاهبهم إلا على التقليد والرجوع إلى قول الآباء، فلما لم يجدوا فينبوة نوح عليه السلام هذه الطريقة حكموا بفسادها.

الشبهة الرابعة: قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾، أي: جنون، وهذه الشبهة من باب الترويج على العوام، لأنه عليه السلام كان يفعل أفعالا على خلاف عاداتهم، فكان الرؤساء يقولون للعوام إنه مجنون، فكيف يجوز أن يكون رسولاً؟

الشبهة الخامسة: قولهم: ﴿فَرْتَضُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾، وهذا يحتمل أن: يكون متعلقاً بما قبله، أي: أنه مجنون فاصبروا إلى زمان يظهر عاقبة أمره فإن أفاق وإلا فاقتلوه، ويحتمل أن: يكون كلاماً مستأنفاً، وهو أن يقولوا لقومهم: اصبروا فإنه إنه كان نبياً حقاً فالله ينصره ويقوي أمره فتنبه حينئذ، وإن كان كاذباً فالله يخذله ويبطل أمره فحينئذ نستريح منه.

واعلم أنه تعالى لم يذكر الجواب على هذه الشبهة لركاكتها ووضح فسادها لأن كل عاقل يعلم أن الرسول لا يصير رسولا لكونه من جنس الملك وإنما يصير رسولا بتمييزه عن غيره بالمعجزات، فسواء كان من جنس الملك أو من جنس البشر فعند ظهور المعجز عليه يجب أن يكون رسولا، بل جعل الرسول من البشر أولى لما تقدم من أن الجنسية مظنة الألفة والمؤانسة.

وأما قولهم: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ﴾، فإن أرادوا إرادته لإظهار فضله حتى يلزمهم الانقياد لطاعته فهذا واجب في الرسول، وإن أرادوا أنه يترفع عليهم على سبيل التكبر فالأنبياء منزهون عن ذلك.

وأما قولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، فهو استدلال بعدم التقليد (على عدم وجود الشيء، وهو في غاية السقوط، لأن وجود التقليد) لا يدل على وجود الشيء، فعدمه من أين يدل على عدمه.

وأما قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَهْدِيهِ جَنَّةٌ﴾، فكذبوا لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله.

وأما قولهم: ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾، فضعيف، لأنه إن ظهرت الدلالة على نبوته، وهي المعجزة وجب عليهم قبول قوله في الحال، ولا يجوز توقيف ذلك إلى ظهور دولته، لأن الدولة لا تدل على الحقيقة، وإن لم يظهر المعجز لم يجز قبول قوله سواء ظهرت الدولة أو لم تظهر.

١٢ - وقال الإمام ابن عرفة رحمته الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾، قال ابن عرفة: هذا تناقض منهم؛ لأنه أول رسول بعث، فلم يتقدم قبله رسول، فلم يعلموا الملائكة إلا من قوله وهم قد كذبوه، قيل له: قد قيل: إن آدم عليه السلام أرسل إلى بنيهِ فلعلهم علموا بالسماع منه، وخلق الله لهم علما ضروريا أو خاطبوه على تقدير صحة قوله.

قوله تعالى: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾، مفهومة أنهم لو سمعوا ذلك لقتلوه في وُخذ منه أن خبر التواتر تقييد العلم، وقوله تعالى قبل هذا: ﴿ فَقَالَ يَقُومُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾.

قال ابن عرفة: هذه مثالية لا معدولة؛ لأن موضعها غير موجود بوجه؛ لأن وجود غير الله محال بل الموضع موجود تقديره: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾، فالموضع هو أنتم فهي معدولة وليس موضعها الله غيره.

قوله تعالى: ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾، قال ابن عرفة: هو انتظار لأمر مؤلم.

قوله تعالى: ﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، قال ابن عرفة: الألف واللام للجنس، قيل لابن عرفة: حكى الشيخ النواوي ﷺ تعالى في الأذكار أن الحافظ أبا عمرو بن الصلاح، سئل عمن حلف أنه يحمد بجميع محامده، فأجاب: بأنه ليس بقوله الحمد لله، وإنما يريد بقوله: (الحمد لله حمدا طيبا مباركا فيه)، ويقول: (الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده)، ونقله حديثاً عن النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ ﴾، إن قلت: قد خاطبه بقوله: ﴿ إِنْ أَيْتَنِي مِنْ أَهْلِي ﴾، قلنا: سأله عن سبب نزوله، ولم يطلب منه رفع العذاب، وإنما سأله ليعرف موجب قدرته؛ لأنه كان وعده تنجية أهله وهو يعتقد أنه منهم وعطف: (قال) الأولى: بالفاء، لأنها في قضية نوح ﷺ، وهو أول من بعث فناسب مبادرة قومه بالتكذيب لعقب الرسالة؛ لأنه لم يتقدم له نظر في ذلك، فجاءهم بأمر غير معهود لهم، وأما الثاني فهي قضية هود وصالح ﷺ، وقد تقدم قبله إرسال نوح ﷺ بزمان متناول وغيره، فعطفه بالواو التي تقتضي الترتيب والتعقيب ولا تنفيهما، في حتمل أنهم قالوا ذلك عقب إرساله أو بعده بزمان طويل، وإن قلت: لم قال أولاً: ﴿ فَقَالَ أَلَمَلُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾، وقال تعالى ثانياً: ﴿ وَقَالَ أَلَمَلُوا مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، قلنا: الجواب كالجواب المتقدم، فإن القضية الأولى: من قوم

لم يعهدوا الرسالة بالكفر فيهم متصل ثابت فبدأ به تنبيهها على أنه حاصل لهم على هذه المقالة، وأما الثانية: فابتدأ فيها بالقوم إشارة إلى أن كفرهم غير عام فيهم، وأن القائل بعض القوم لا كلهم، ويحتمل أن يجاب بأنه قدم القول وهنا العطف على وصفهم بالكفر غيره من الصفات.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا﴾، عطف على جواب الشرط فظاهره أنه يقول: تعقب الاستواء على الفلك مع أنه إنما يقول ذلك حين تركه في الفلك في الأرض، إما أن: يكون اكتفى بدلالة القرائن على ذلك أو: يكون أمر أن يدعوا بذلك حين الاستواء لينزل إلى الأرض مطمئناً، أو: المراد أنزل على الذي أنا فيه في كون دعاء بأن ينزل السفينة في محل يصلح لها خشية أن ينزل في محل يفسدها في صادف حينئذ بكسرها.

١٣ - وقال الإمام الخطيب رحمه الله (١) في تفسيره: (السراج المنير):

ولما بين سبحانه وتعالى دلائل التوحيد أردفها بذكر القصص كما هو العادة في سائر السور مبتدئاً بقصة نوح عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾، أي: بما لنا من العظمة ﴿نُوحًا﴾، وهو الأب الثاني بعد آدم عليهما الصلاة والسلام، وكان اسمه يشكر، وسمي نوحاً لوجوه: أحدها: لكثرة ما ناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك، فأهلكهم الله تعالى بالطوفان، فندم على ذلك.

ثانيها: لمراجعته ربه في شأن ابنه، ثالثها: أنه مرّ بكل مجذوم فقال له: احسأ يا قبيح فعوتب على ذلك.

﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾، وهم جميع أهل الأرض لتواصل ما بينهم لكونهم على لغة واحدة

(١) الخطيب: هو الشيخ الإمام العالم العلامة الهمام شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي القاهري الفقيه المفسر المتكلم، النحوي، أنظر: الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ١٢٧، ١٢٨، شذرات الذهب ج ١٠ ص ٥٦١، ٥٦٢، الكواكب السائرة ج ٣ ص ٧٢، ٧٣، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ج ٢ ص ١١٣٩.

محصورين لا أنه أرسل إلى الخلق كافة؛ لأن ذلك من خصائص نبينا محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء، ﴿ فَقَالَ ﴾، أي: فتسبب عن ذلك أن قال: ﴿ يَقُومُوا ﴾، ترفقاً بهم ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحده لأنه إلهكم وحده لاستحقاقه لجميع خلال الكمال، واستأنف على سبيل التعليل قوله: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ ﴾، أي: معبود بحق ﴿ غَيْرُهُ ﴾، فلا تعبدوا سواه ﴿ أَفَلَا نُنْقِزُ ﴾، أي: أفلا تخافون عقوبته إن عبدتم غيره، وقرأ الكسائي بكسر الراء والهاء، والباقون بضمهما.

﴿ فَقَالَ ﴾، أي: فتسبب عن ذلك أن كذبه بأن قال: ﴿ أَلَمْ لَوْ ﴾، أي: الأشراف الذي تملأ رؤيتهم الصدور عظمة ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ لعوامهم ﴿ مَا هَذَا ﴾، أي: نوح عليه السلام ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾، أي: فلا يعلم ما لا تعلمون فأنكروا أن يكون بعض البشر نبياً، ولم ينكروا أن يكون بعض الطين إنساناً، وبعض الماء علقه، وبعض العلقه مضغة إلى آخره، فكانه قيل: ما حمله على ذلك فقالوا: ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُفْضَلَ ﴾، يتكلف الفضل بادعاء مثل هذا ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾، لتكونوا أتباعاً له ولا خصوصية له دونكم، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾، أي: الملك الأعلى الإرسال إليكم وعدم عبادة غيره، ﴿ لَأَنْزَلَ ﴾ كذلك ﴿ مَلَكًا ﴾ رسلاً بإبلاغ الوحي إلينا قال الزمخشري: وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوّة ببشر، وقد رضوا للألوهية بحجر، ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾، أي: الذي دعا إليه نوح عليه السلام من التوحيد، ﴿ فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾، أي: الأمم الماضية. ﴿ إِنْ ﴾، أي: ما ﴿ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ ﴾، أي: جنون ولأجله يقول ما يدعيه، ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ ﴾، أي: فتسبب عن الحكم بجنونه إنا نأمركم بالكف عنه لأنه لا حرج على جنونه، ﴿ حَتَّى ﴾، أي: إلى ﴿ حِينٍ ﴾، لعله يفي ق أو يموت، فكانه قيل: فما قال؟ فقيل: ﴿ قَالَ ﴾، عندما أيس من فلاحهم ﴿ رَبِّ أَضُرِّني ﴾، أي: أعني عليهم ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾، أي: بسبب تكذيبهم لي فإن تكذيب الرسول استخفاف بالمرسل.

﴿ فَأَوْحَيْنَا ﴾، أي: فتسبب عن دعائه أن أوحينا ﴿ إِلَيْهِ أَنْ أَصْنَعِ الْفُلَّكَ ﴾، أي:

السفينة، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: إنه لا يغيب عنا شيء من أمرك ولا من أمرهم، وأن تعرف قدرتنا على كل شيء، فتق بحفظنا ولا تخف شيئاً من أمرهم، روي أنه لما أوحى إليه: أن يصنعها على مثال جَوْجُ الطائر؛ قال الجوهري: جَوْجُ الطائر والسفينة صدرهما والجمع الجأجىء.

ولما كان لا يعلم الصنعة قال تعالى: ﴿وَوَحَّيْنَا﴾، أي: وأمرنا وتعليمنا كيف تصنع، فإن جبريل عليه السلام علمه عمل السفينة، ووصف كيفية اتخاذها له، وقد تقدم الكلام عليها مستوفى في (سورة هود).

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، أي: بالهلاك عقب فراغك منها أو بالركوب، ﴿وَفَكَارَ النَّتُورُ﴾، قال ابن عباس عليه السلام: وجه الأرض، وفي القاموس: التنور الكانون يخبز فيه، ووجه الأرض، وعن قتادة: أنه أشرف موضع في الأرض، أي: أعلاه، وعن علي عليه السلام: طلع الفجر، وعن الحسن عليه السلام: أنه الموضع المنخفض من السفينة الذي يسيل الماء إليه، وقيل: هو مثل كقولهم: حمي الوطيس، والأقرب كما قال الرازي، وعليه أكثر المفسرين، هو: التنور المعروف بتنور الخباز، في كون له فيه آية، روي أنه قيل لنوح عليه السلام: إذا رأيت الماء يفور في التنور فاركب أنت ومن معك في السفينة، فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته، فركب وقيل: كان تنور آدم عليه السلام، وكان من حجارة، فصار إلى نوح عليه السلام، واختلف في مكانه، فعن الشعبي عليه السلام: أنه في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان نوح عليه السلام عمل السفينة وسط المسجد، وقيل: بالشام بموضع يقال له عين وردة، وقيل: بالهند.

وقرأ قالون والبري وأبو عمرو: بإسقاط الهمزة الأولى من الهمزتين المفتوحتين من كلمتين، وحقق الأولى وسهل الثانية ورش وقبل، ﴿فَاسْلُكْ﴾، أي: أدخل ﴿فِيهَا﴾، أي: السفينة؛ ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾؛ من الحيوان ﴿اثنَيْنِ﴾ ذكرًا وأنثى، وقرأ حفص بتنوين اللام ﴿مِنْ كُلِّ﴾، أي: من كل نوع زوجين، فزوجين مفعول واثنين تأكيد، والباقون بغير تنوين، ف ﴿اثنَيْنِ﴾ مفعول، و ﴿مِنْ﴾ متعلق

بـ ﴿فَأَسْلَفْتُ﴾، وفي القصة إن الله تعالى حشر لنوح السباع والطيور وغيرهما، فجعل يضرب يده في كل جمع، فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى في حملهما في السفينة، وروي أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض ﴿وَأَهْلَكَ﴾، أي: وأهل بيتك من زوجك وأولادك ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ﴾ لا له ﴿الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ بالهلاك وهو زوجته وولده كنعان بخلاف سام وحام ويافث، فحملهم وزوجاتهم الثلاثة، وفي سورة هود: ﴿وَمَنْ أَمِنَ وَمَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، قيل: كانوا ستة رجال ونساءهم، وقيل: جميع من كان في السفينة ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء، ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي﴾، أي: بالسؤال في النجاة ﴿فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي: كفروا، ثم علل ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾، أي: قد حتم القضاء عليهم لظلمهم بالإشراك والمعاصي، ومن هذا شأنه لا يشفع له، فإنه تعالى بعد أن أملى لهم الدهر المتطاوّل فلم يزيدوا إلا ضلالاً ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق إلا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين ونحن نكرمك عن سؤال لا يقبل، ولقد بالغ سبحانه وتعالى حيث اتبع النهي عنه الأمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ﴾ أي: اعتدلت ﴿أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ﴾، أي: من البشر وغيرهم ﴿عَلَى الْفُلِّ﴾ ففرغت من امتثال الأمر بالحمل، ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الذي لا كفء له؛ لأنه مختص بصفات الحمد، ﴿الَّذِي بَخَّسَنَا بِحَمْلِنَا فِيهِ﴾ من القوم، أي: الأعداء الأغبياء ﴿الظَّالِمِينَ﴾، أي: الكافرين لقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

تنبيه: إنما قال تعالى: ﴿فَقُلِ﴾، ولم يقل: قولوا؛ لأنّ نوحاً ﷺ كان لهم نبياً وإماماً فكان قوله قولاً لهم مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة وإظهار كبرياء الربوبية، وإن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى إليها إلا ملك أو نبي، ولما أشار له بهذا القول إلى السلامة بالحمل أتبعه بالإشارة إلى الوعد بإسكان الأرض بقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي﴾ في الفلك ثم في الأرض، وفي كل منزل تنزلني به وتورثني إياه، ﴿مُنْزَلاً

مُبَارَكًا، أي: يبارك له فيه ويعطيه الزيادة في خير الدارين، وقرأ أبو بكر: بفتح الميم وكسر الزاي، أي: مكان النزول، والباقون بضم الميم وفتح الزاي مصدر، أو: اسم مكان، ثم إن الله تعالى أمره أن يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسألته وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، ما ذكر لأنك تكفي نزيلك كل ملم وتعطيه كل أمر، ولما كانت هذه القصة من أغرب القصص حث على تدبرها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، أي: الأمر العظيم من أمر نوح ﷺ والسفينة وإهلاك الكفار، ﴿لَا يَتَّبِعُكَ﴾، أي: دلالات على قدرة الله تعالى وصدق الأنبياء في أن المؤمنين هم المفلحون وأنهم الوارثون للأرض بعد الظالمين، وإن عظمت شوكتهم واشتدت صولتهم، ﴿وَلِإِنْ كُنَّا لَمِنَ الْعَظُمَةِ وَالْوَصَفِ الثَّابِتِ الدَّالِّ عَلَى تَمَامِ الْقُدْرَةِ لَمُبْتَلِينَ﴾، أي: فاعلين فعل الخير المختبر لعبادنا بإرسال الرسل ليظهر في عالم الشهادة الصالح منهم من غيره، ثم نبلي الصالحين منهم بما يزيد حسناتهم وينقص سيئاتهم ويعلي درجاتهم، ثم نجعل لهم العاقبة كما قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

تنبيه: ﴿إِنَّ﴾، هي: المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن واللام هي الفارقة.

١٤ - وقال الإمام ابن عجيبة^(٢) في تفسيره: (البحر المديد):

يقول الحق جلّ جلاله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، وتالله لقد أرسلنا، ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾، وقد مرّ في الأعراف نسبه وكيفية بعثته، فقال لقومه حين أرسل إليهم، متعطفاً عليهم، ومستميلاً لهم إلى الحق، ﴿يَقْوُوا عِبَادُوا اللَّهَ﴾، وحده إذ العبادة

(١) الآية: رقم ١٢٨ من سورة الأعراف.

(٢) ابن عجيبة: هو العلامة المشارك الفقيه المفسر الصوفي الزاهد المطلع الحجة أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الحسني الأنجري التطواني، أنظر: ترجمته من أعلام الزركلي: ابن عجيبة (١١٦٠ - ١٢٢٤ هـ / ١٧٤٧ - ١٨٠٩ م)، وترجمته من فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمسلسلات ج ٢/ ص ٨٥٤.

مع الإِشْرَاق لا عبرة بها، فلذلك لم يقيدَها هنا، وقيدَها في (هود)، بقوله: ﴿أَنْ لَا نَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾^(١)، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، أي: مالكم في الوجود إله يستحق أن يُعبد غيرَه، فالرفع على المحل، والجر على اللفظ، ﴿أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾، أفلا تخافون عقوبة الله، الذي هو ربكم وخالقكم، إذا عبدتم غيره مما ليس من استحقاق العبادة في شيء، أو: أفلا تخافون عذابه الذي يستوجه ما أنتم عليه، كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٢).

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾، أي: أشرافهم لعوامهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، في الجنس والوصف، يأكل ويشرب مثلكم، من غير فرق بينكم وبينه، ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: يطلب الفضل عليكم، ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم، والعجب منهم أنهم رضوا بالألوهية والخضوع للحَجَر، ولم يرضوا بنبوّة البشر.

ثم قالوا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾، أي: لو شاء الله إرسال الرسل لأرسل رسلاً من الملائكة.

وإنما قال: ﴿لَأَنْزَلَ﴾ ولم يقل: لأرسل لأنَّ إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال، فمفعول المشيئة مطلق الإنزال، أي: لو شاء ربنا إنزال شيء من الوحي لأنزل ملائكة يرسلهم إلينا، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾، أي: بمثل هذا الكلام، الذي هو الأمر بعبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، أو: ما سمعنا بأنَّ البشر يكون رسولاً، أو بمثل نوح ﷺ في دعوى النبوة، ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، أي: الماضين قبل بعثة نوح ﷺ. وإنما قالوا ذلك: إما من فرط عنادهم، أو: لأنهم كانوا في فترة متطاولة، وقيل: معناه: ما سمعنا به أنه نبي، ﴿إِنْ هُوَ﴾، أي: ما هو، ﴿إِلَّا رَجُلٌ يَهُودِيٌّ﴾

(١) الآية: رقم ٢٦ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٥٩ من سورة الأعراف.

حِجَّةٌ ﴿١﴾، أي: جنون، أو جن يخلونه، ولذلك يقول ما يقول. ﴿فَتَرَيَصُّوْا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿٢﴾، أي: انتظروا واصبروا إلى زمان حتى ينجلي أمره، فإن أفاق من جنونه، وإلا قتلتموه، ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ ﴿٣﴾، لما أيس من إيمانهم دعا الله بالانتقام منهم، فالجملة: استئناف نشأ عن سؤال، كأنه قيل: فماذا قال ﷺ، بعد ما سمع هذه الأباطيل؟ فقيل: قال، لما رآهم قد أصروا على الكفر والتكذيب، وتمادوا في الغواية والضلال، حتى أيس من إيمانهم بالكلية، وقد أوحى إليه ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِكَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ ﴿٤﴾، فقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُوا﴾ ﴿٥﴾، بسبب تكذيبهم لقوله: ﴿لَا نَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿٦﴾، ﴿بِمَا كَذَبُوا﴾ ﴿٧﴾، بسبب تكذيبهم إياي، أو بدل تكذيبهم، كقولك: هذا بذلك، أي: بدل ذاك، والمعنى: أبدلني من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ ﴿٨﴾، أجبنا دعاءه وأوحينا إليه عند ذلك، ﴿أَنِ اصْنَعْ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ﴿٩﴾، أي: ملتبساً بحفظنا وكلاءتنا، كأن معك حُفاظنا يكلؤونك بأعينهم، لئلا يتعرض لك أحد، يفسد عملك، ومنه قولهم: عليه من الله عيون كاللثة، ﴿وَوَحَيْنَا﴾ ﴿١٠﴾، أي: أمرنا وتعليمنا إياك صنعتها.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ ﴿١١﴾، أي: عذابنا بأمرنا، ﴿وَفَكَارَ النَّوُورُ﴾ ﴿١٢﴾، أي: فار الماء من تنور الخبز، فخرج سبب الغرق من موضع الحرق ليكون أبلغ في الإنذار والاعتبار، ﴿فَاسْأَلْ فِيهَا﴾ ﴿١٣﴾، فأدخل في السفينة ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ﴿١٤﴾، من كل أمة اثنين مزدوجين، ذكر وأنثى.

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ ﴿١٥﴾، أي: القول من الله بهلاكه، وهو ابنه وإحدى زوجتيه.

﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ ﴿١٦﴾، أي: لا تسألني نجاة الذين كفروا، إنهم مقضى عليهم بالإغراق لا محالة لظلمهم بالإشراك والإصرار، ومن هذا شأنه لا يُشفع له، وكأنه ﷺ ندم على الدعاء عليهم، حين تحقق هلاكهم، فهم بمراجعة الحق فيهم شفقة ورحمة، فنهي عن ذلك.

ثم قال له: ﴿ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ ﴾، فإذا تمكنتم عليها راكبين، ﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، أمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم.

ثم قال له: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي فِي السَّفِينَةِ، أَوْ: مِنْهَا، ﴾ مُنْزَلاً مُبَارَكاً، أي: إنزالاً مباركاً، أَوْ: موضع إنزال يستتبع خيراً كثيراً، ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾، خير من ينزل في كل خير، أمر ﷺ بأن يشفع دعاءه بما يطابقه من ثنائه عليه تعالى، توسلاً به إلى إجابة دعائه، فالبركة في السفينة: النجاة فيها، وبعد الخروج منها: كثرة النسل وتتابع الخيرات، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾، في ما فعل بنوح ﷺ وقومه ﴿ لَآيَةً ﴾، أي: لعبراً ومواعظ، ﴿ وَإِنْ كُنَّا ﴾، أي: وإن الشأن والقصة كنا ﴿ لَمُبْتَلِينَ ﴾، أي: مُصَيِّبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد، أَوْ: مختبرين بهذه الآيات عبادنا، لننظر من يعتبر ويذكر.

١٥ - وقال الإمام المظهري رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾، عطف على قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴾^(١)، ذكر في صدر السورة حال المؤمنين المطيعين، ثم عقبه بالآيات المقتضية للإيمان والطاعة، ثم عقبه بذكر الكافرين الطاغين وما ال إليه أمرهم، ﴿ فَقَالَ يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾، أطيعوه ووحده ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾، استئناف لتعليل الأمر بالعبادة، ﴿ أَفَلَا نُنْقِوْنَ ﴾، عطف على: محذوف، يعنى: أتشركون به، فلا تتقون ان يزيل ما بكم من نعمائه ويعذبكم بإشراككم إياه غيره في العبادة وكفرانكم آلاءه.

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُوا ﴾، الاشراف الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ في ما بينهم، ﴿ مَا هَذَا ﴾، يعنى: نوحا ﷺ ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾، يأكل ويشرب وينام فكيف يكون رسولا من الله، وهذا القصر قصر قلب فان من يدعى الرسالة كأنه منكر لكونه بشراً، ومدح لكونه ملكا على زعمهم الفاسد، فقالوا على قلب دعواه: ليس هذا ملكا وليس هذا شيئا

(١) الآية: رقم ١٢ من سورة المؤمنون.

الآ بشرًا، ومبنى هذا القصر على أنهم أنكروا أن يكون البشر لله رسولاً، مع ما ادعوا أن يكون الحبر له تعالى شريكاً، ﴿قَالَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤْفَكُونَ﴾^(١)، يُريدُ بادعائه الرسالة ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: يطلب أن يكون له الفضل عليكم ويسودكم، جملة: ﴿يُرِيدُ﴾، صفة بعد صفة: لبشر، أو: مستأنفة، كأنه قيل: ما يريد بادعائه الرسالة، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا يعبد غيره أو أن يرسل رسولا ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ رسلا، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ الذي يدعيه نوح ﷺ من التوحيد والمسألة والبعث بعد الموت، ﴿فِرْعَوْنُ أَبَانَا الْأَوَّلِينَ﴾، وذلك اما لفرط عنادهم، أو: لكونهم في فترة متطاولة، وجملة: ما سمعنا حال من فاعل ﴿يُرِيدُ﴾، والجملة الشرطية: معترضة بين الحال وعامله.

(إن)، أي: ما، ﴿هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾، أي: جنون حيث يدعي الرسالة من الله لنفسه، استئناف أو تأكيد لنفي الرسالة فإن المجنون لا يكون رسولا، ﴿فَتَرْتَضَوْا بِهِ﴾، فاحتملوه وانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾، لعله يفي ق من الجنون أو يموت، والفاء في: ﴿فَتَرْتَضَوْا﴾ للسببية، فإن كونه مجنونا يوجب التربص وترك العجلة في الانتقام، ولما أوحى الى نوح ﷺ من الله تعالى: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، قالنوح ﷺ: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي﴾ بإهلاكهم، أو: بإنجاز ما اوعدهم من العذاب ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾، أي: بدل تكذيبهم إياي، أو: بسببه جملة مستأنفة.

﴿فَأَوْحَيْنَا﴾، عطف على: مقدر، تقديره: فاستجبنا دعاءه، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: بحفظنا أن لا يخطئ فيه، أو: يفسد عليك أحد، و﴿أَنْ﴾، مفسرة: لـ ﴿فَأَوْحَيْنَا﴾، فانه بمعنى القول: ﴿وَوَحَيْنَا﴾، أي: أمرنا وتعليمنا كيف تصنع، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، بالركوب، أو: نزول العذاب، عطف على: ﴿اصْنَعْ﴾، ﴿وَفَارَ التَّوَرُّ﴾، أي: فار الماء من التنور للخباز، فاركب أنت ومن معك فلما نبع الماء منه وكان ذلك علامة لنوح أخبرته امرأته فركب، ﴿فَأَسْلَفَ فِيهَا﴾، أي:

(١) الآية: رقم ٣٠ من سورة التوبة.

ادخل فيها جاء سلك لازما ومتعديا يقال سلكت في كذا، أي: دخلت، وقال الله تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾.

﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثنَيْنِ ﴾، ﴿ اثنَيْنِ ﴾ قرأ الجمهور بإضافة: ﴿ كُلِّ ﴾، إلى: ﴿ زَوْجٍ ﴾ فـ ﴿ اثنَيْنِ ﴾ حيثئذ منصوب على: المفعولية، يعني: ادخل فيها ﴿ اثنَيْنِ ﴾ من كل صنفين من الحيوانات، يعني: الذكر والأنثى وقرأ حفص: ﴿ كُلِّ ﴾، بالتونين عوض المضاف اليه، يعني: ادخل فيها ﴿ زَوْجٍ ﴾ كانتا من كل نوع، فـ ﴿ اثنَيْنِ ﴾ على هذا تأكيد للزوجين ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾، يعني: اهل بيتك او: من أمن معك، ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ ﴾ في الأزل ﴿ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ بالإهلاك لكفره، ﴿ مِنْهُمْ ﴾، أي: حال كون من سبق عليه القول بالإهلاك من أهلك وهي امرأته وولده كنعان، ﴿ وَلَا تَخْطِبْنِي ﴾، عطف على: ﴿ أَصْنَعْ ﴾، أو على: ﴿ فَاسْأَلْ ﴾، يعني: لا تخاطبني بالدعاء بالإنجاء في حق الَّذِينَ ظَلَمُوا على أنفسهم بالكفر، ﴿ إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾، لا محالة لظلمهم بالإشراك، وهي جملة: معللة لقوله: ﴿ وَلَا تَخْطِبْنِي ﴾، وقوله: ﴿ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ ﴾، اعتدلت ﴿ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ ﴾؛ ونجوت من مصاحبة الجار السوء، ﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، وقوله: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أُنْزِلْنِي ﴾ في السفينة بعد الركوب، أو: في الأرض بعد الخروج من السفينة ﴿ مُنْزَلًا ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم: بفتح الميم وكسر الزاء، على معنى: موضع النزول، والباقون: بضم الميم وفتح الزاء، بمعنى: الانزال، (مُبَارَكًا)، يتسبب لمزيد الخير في الدارين، فالبركة في السفينة: النجاة من مصاحبة اعداء الله والفراغ للاشتغال بعبادته، والبركة في الأرض: بعد الخروج كثرة النسل والرزق

والاشتغال بعبادة الله تعالى، والجملة الشرطية معطوفة على: ﴿ فَاسْأَلْ ﴾، وقوله: ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾، حال من فاعل ﴿ أُنْزِلْنِي ﴾، وفيه ثناء مطابق لدعائه امر نوحا ﷺ وحده بالدعاء وعلق الدعاء بان يستوي هو ومن معه إظهارا لفضله واشعارا بان في دعائه كفاية عن دعائهم.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي فعلنا بنوح ﷺ وقومه ﴿لَايَتٍ﴾ تدل على كمال قدرة الله تعالى ورأفته بالمسلمين وغضبه على الظالمين، يعتبر بها أولوا الابصار، ﴿وَإِنْ﴾، مخففة من الثقيلة، تقديره: (وَأَنَا كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)، واللام: فارقة، يعنى: كنا لمصيبين قوم نوح ﷺ ببلاء عظيم او ممتحنين عبادنا، وقيل: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، نافية، واللام بمعنى: (الا)، يعنى: وما كنا بإرسال نوح ﷺ ووعدته وتذكيره الا مبتلين قومه ومختبرين إياهم لننظر ما هم عاملون قبل نزول العذاب بهم.

١٦ - وقال الإمام الألوسي رحمه الله: قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، شروع في بيان إهمال الناس وتركهم النظر والاعتبار في ما عدد سبحانه من النعم وما حاقهم من زوالها وفي ذلك تخويف لقريش.

وتقديم قصة نوح ﷺ على سائر القصص مما لا يخفى وجهه، وفي إيرادها إثر قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، من حسن الموقع ما لا يوصف، وتصديرها بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها، والكلام فينسب نوح ﷺ وكمية لبثه في قومه ونحو ذلك قد مر، والأصح أنه ﷺ لم تكن رسالته عامة بل أرسل إلى قوم مخصوصين فَقَالَ متعطفاً عليهم ومستميلاً لهم إلى الحق: ﴿يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: اعبدوه وحده كما يفصح عنه قوله تعالى في سورة (هود): ﴿أَنْ لَا نَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، وترك التقييد به للإيذان بأنها هي العبادة فقط وأما العبادة مع الإشراف فليست من العبادة في شيء رأساً، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، استثناء مسوق لتعليل: العبادة المأمور بها، أو: تعليل الأمر بها، و﴿غَيْرُهُ﴾، بالرفع صفة: لـ ﴿إِلَهِ﴾، باعتبار محله الذي هو الرفع على أنه فاعل بـ ﴿لَكُمْ﴾، أو: مبتدأ خبره ﴿لَكُمْ﴾، أو: محذوف و﴿لَكُمْ﴾: للتخصيص والتبيين، أي: ﴿مَا لَكُمْ﴾ في الوجود ﴿إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ تعالى.

وقرىء (غيره)، بالجذر اعتباراً للفظ: ﴿إِلَهِ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾، الهمزة لإنكار الواقع واستقبحه، والفاء: للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي: أتعرفون

ذلك، أي: مضمون قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ عذابه تعالى الذي يستوجب ما أنتم عليه من ترك عبادته سبحانه وحده وإشراككم به ﷻ في العبادة ما لا يستحق الوجود لولا إيجاد الله تعالى إياه فضلا عن استحقاق العبادة، فالمنكر عدم الالتقاء مع تحقق ما يوجبه، ويجوز أن يكون التقدير: ألا تلاحظون فلا تتقون، فالمنكر: كلا الأمرين فالمبالغة حينئذ في الكمية، وفي الأول في الكيفية، وتقدير مفعول: ﴿ تَتَّقُونَ ﴾، حسبما أشرنا إليه أولى من تقدير بعضهم إياه: زوال النعم، ولا نسلم أن المقام يقتضيه كما لا يخفى، ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ ﴾، أي: الإشراف، ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾، وصف الملا بالكفر مع اشتراك الكل فيه للإيدان بكمال عراقتهم وشدة شكيמתهم فيه، وليس المراد من ذلك إلا ذمهم دون التمييز عن أشراف آخرين آمنوا به ﷻ إذ لم يؤمن به أحد من أشرافهم كما يفصح عنه قول: ﴿ وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكَ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾، وقال الخفاجي: يصح أن يكون الوصف بذلك للتمييز وإن لم يؤمن بعض أشرافهم وقت التكلم بهذا الكلام لأن من أهله ﷻ المتبعين له أشرافا وأما قول: ﴿ وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكَ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾، فعلى زعمهم أو لقلة المتبعين له من الأشراف، وأيا ما كان فالمعنى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ ﴾، لعوامهم ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾، أي: في الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه وصفوه ﷻ بذلك مبالغة في وضع رتبته العالية وحطها عن منصب النبوة، ووصفوه بقوله سبحانه: ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُفْضَلَ عَلَيْكُمْ ﴾، إغضابا للمخاطبين عليه ﷻ وإغراء لهم على معاداته، والتفضل: طلب الفضل وهو كناية عن السيادة، كأنه قيل: يريد أن يسودكم ويتقدمكم بادعائه الرسالة مع كونه مثلكم، وقيل: صيغة التفعّل مستعارة للكمال فإنه ما يتكلف له يكون على أكمل وجه فكأنه قيل: يريد كمال الفضل عليكم، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾، بيان لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريته ﷻ، أي: ولو شاء الله تعالى إرسال الرسول لأرسل رسلا من الملائكة، وإنما قيل: ﴿ لَأَنزَلَ ﴾،

لأن إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال، فمفعول المشيئة: مطلق الإرسال المفهوم من الجواب لا نفس مضمونه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ هَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١)، ولا بأس في ذلك، وأما القول بأن مفعول المشيئة: إنما يحذف إذا لم يكن أمراً غريباً وكان مضمون الجزاء فهو ضابطة للحذف المطرد فيه لا مطلقاً فإنه كسائر المفاعيل يحذف ويقدر بحسب القرائن، وعلى هذا يجوز أن يقال: التقدير ولو شاء الله تعالى عبادته وحده لأنزل ملائكة يبلغوننا ذلك عنه ﷺ وكان هذا منهم طعن في قوله ﷺ لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وكذا قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، بل هو طعن في ما ذكر على التقدير الأول أيضاً، وذلك بناء على أن هذا إشارة إلى الكلام المتضمن الأمر بعبادة الله ﷺ خاصة والكلام على تقدير مضاف أي ما سمعنا بمثل هذا الكلام في آبائنا الماضين قبل بعثته ﷺ، وقولهم: (إِنْ هُوَ)، أي: ما ﴿هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَهُدِي جِنَّةً﴾، أي: جنون أو جن يخبلونه ولذلك يقول ما يقول، ﴿فَتَرَيَصُّوهُ يَهُدِي﴾، فاحتملوه واصبروا عليه وانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾، لعله يفني ق مما هو فيه محمولا على ترامي أحوالهم في المكابرة والعناد وإضرابهم عما وصفوه ﷺ به من البشرية وإرادة التفضل إلى وصفه بما ترى وهم يعرفون أنه ﷺ أرجح الناس عقلاً وأرزنهم قولاً، وهو على ما تقدم محمول على تناقض مقالاتهم الفاسدة قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون، ﴿قَالَ﴾: استئناف بياني كأنه قيل: فماذا قال ﷺ بعد ما سمع منهم هذه الأباطيل؟ فقول: قال لما رآهم قد أصروا على ما هم فيه وتمادوا على الضلال حتى يئس من إيمانهم بالكلية، ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي﴾ بإهلاكهم بالمرة، (والباء) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾، للسببية أو للبدل، و(ما): مصدرية، أي: بسبب تكذيبهم إياي، أو: بدل تكذيبهم، وجوز أن تكون: (الباء) آلية و(ما): موصولة، أي: انصرني بالذي كذبوني به وهو العذاب الذي وعدتهم إياه، وحاصله (انصرني) بإنجاز ذلك، ولا يخفى ما في حذف مثل هذا العائد من الكلام،

(١) الآية: رقم ٩ من سورة النحل.

وقوله: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ عقيب ذلك، وقيل: بسبب ذلك ﴿ أَنْ أَصْنَعَ الْفُلَّكَ ﴾، ﴿ أَنْ ﴾، مفسرة: لما في الوحي من معنى القول: ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾، ملتبسا بمزيد حفظنا ورعايتنا لك من التعدي، أو: من الزيف في الصنع، ﴿ وَوَحَيْنَا ﴾، وأمرنا وتعليمنا لكيفية صنعها، و(الفاء) في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾، لترتيب مضمون ما بعدها على إتمام صنع الفلك، والمراد بالأمر العذاب كما في قوله تعالى: ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾^(١)، فهو واحد الأمور لا الأمر بالركوب؛ فهو واحد الأوامر كما قيل، والمراد بمجيئه كمال اقترابه، أي: ابتداء ظهوره، أي: إذا جاء أثر تمام الفلك عذابنا، وقوله سبحانه: ﴿ وَفَكَارَ التَّنُورُ ﴾، بيان وتفسير لمجيء الأمر.

* * *

(١) الآية: رقم ٤٣ من سورة (هود).

إعراب آيات القصة الواردة في سورة: (المؤمنون)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾: الواو: استئنافية، والجملة: مستأنفة مسوقة لرد خمس قصص أولها قصة نوح ﷺ، واللام: جواب للقسم المحذوف، وقد: حرف تحقيق، وأرسلنا: فعل وفاعل، ونوحا: مفعول به، والى قومه: متعلقان بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾.

﴿فَقَالَ يَتَوَفَّرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، الفاء: حرف عطف، وقال: فعل ماض وفاعله مستتر؛ تقديره: هو، ويا: حرف نداء، وقوم: منادى مضاف الى ياء المتكلم المحذوفة، واعبدوا الله: فعل أمر وفاعل ومفعول به، وما: نافية، ولكم: خبر مقدم، ومن: حرف جر زائد، وإله: مبتدأ مؤخر محلا مجرور بـ ﴿مِنْ﴾ لفظا، وغيره: صفة لـ ﴿إِلَهٍ﴾ على المحل، وقرئ: بالجر على اللفظ وهو جائز، وجملة ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: مستأنفة تجري مجرى التعليل للأمر بالعبادة، والهمزة للاستفهام، والفاء: عاطفة على مقدر، أي: أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذي هو ربكم وخالقكم ورازقكم.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، الفاء: عاطفة، وقال الملأ: فعل وفاعل، والذين: صفة لـ ﴿الْمَلَأُ﴾، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾: صلة، ومن قومه: حال، وجملة (مَا هَذَا): مقول القول، وما: نافية، وهذا: مبتدأ، وإلا: أداة حصر، وبشر: خبر، ومثلكم: صفة.

﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾، جملة ﴿يُرِيدُ﴾: صفة، وأن وما في حيزها: مفعول ﴿يُرِيدُ﴾، وعليكم جار ومجرور متعلقان بـ (يتفضل)، والواو: حالية، أو: استئنافية، وشاء الله: فعل وفاعل، ومفعول المشيئة محذوف؛

يفهم من مضمون جواب: ﴿وَلَوْ﴾، أي: لو شاء إنزال رسول، واللام: واقعة في جواب ﴿وَلَوْ﴾، وجملة ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾: لا محل لها؛ لأنها جواب شرط جازم. ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، الجملة: مستأنفة مسوقة لحكاية شبهتهم الثالثة، وما: نافية وسمعنا فعل وفاعل، وبهذا: متعلقان بـ ﴿سَمِعْنَا﴾، وفي آبائنا: في محل نصب حال، أي: في قصص آبائنا، والأولين: صفة لـ ﴿آبَائِنَا﴾.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَيَصُّوهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، جملة: مستأنفة مسوقة لحكاية شبهتهم الرابعة، وإن: نافية، وهو: مبتدأ، وإلا: أداة حصر، ورجل: خبر ﴿هُوَ﴾، وبه: خبر مقدم، وجنّة: أي: جنون: مبتدأ مؤخر: والجملة: صفة ﴿رَجُلٍ﴾، فتربصوا؛ الفاء: الفصيحة، أي: إن أردتم أن تتبينوا حقيقته ﴿تَرَبَّصُوا﴾، ويجوز أن تكون: استئنافية، وتربصوا: فعل أمر، أي: انتظروا، والواو: فاعل، وبه: متعلقان بـ ﴿تَرَبَّصُوا﴾ وحتى: حرف غاية وجر، وحين: مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، والجار والمجرور: متعلقان بـ ﴿تَرَبَّصُوا﴾ أيضاً، أي: اصبروا عليه واحتملوه الى زمان حتى ينجلي لكم أمره عن مغبته فإن أفاق من جنته وإلا قتلتموه.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونُ﴾، كلام: مستأنف مسوق لطلب الانتصاف منهم والانتصار عليهم من ربه بعد أن يؤس من إيمانهم، وربّ: منادى مضاف الى ياء المتكلم المحذوفة، وانصرني: فعل أمر والفاعل مستتر، والنون: للوقاية، والياء: مفعول به، والباء: حرف جر، وما: مصدرية مؤولة مع الفعل بعدها بمصدر مجرور بالباء، أي: بسبب تكذيبهم إياي، فالباء للسببية؛ ويجوز أن تكون: للبدل، أي: انصرني بدل تكذيبهم إياي، كما تقول هذا بذاك أي بدل ذاك ومكانه، والجار والمجرور: متعلقان بـ ﴿انصُرْنِي﴾.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ الفاء: استئنافية، وأوحينا: فعل وفاعل، واليه: متعلقان بـ ﴿أَوْحَيْنَا﴾، وأن: مفسرة لوقوعها بعد أوحينا، وهو

فعل فيه معنى القول دون حروفه، واصنع: فعل أمر وفاعله مستتر تقديره: أنت، والفلك: مفعول به، وبأعيننا: حال من الضمير المستكن في: ﴿أَصْنَعْ﴾ أي: بحفظنا وكلاءتنا، ووحينا: عطف على: ﴿أَعْيُنُنَا﴾، أي: وأمرنا.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، الفاء: عاطفة لترتيب مضمون ما بعدها على تمام صنع الفلك؛ والمراد بالأمر العذاب، وجملة ﴿جَاءَ﴾: مضاف إليها الظرف وأمرنا: فاعل، وفار التنور: عطف على: ﴿جَاءَ أَمْرُنَا﴾، وقد تقدم بحث هذا في سورة هود، ﴿فَاسْلُكْ﴾، الفاء: رابطة لجواب إذا، واسلك: فعل أمر وفاعله مستتر تقديره: أنت، وفيها: متعلقان بـ ﴿فَاسْلُكْ﴾، ومن كل: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال؛ لأنه كان صفة لـ ﴿اثْنَيْنِ﴾، واثنين: مفعول اسلك وقد تقدم اعراب هذا فيهود أيضا.

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾، وأهلك: عطف على: ﴿اثْنَيْنِ﴾، وإلا: أداة استثناء، ومن: مستثنى متصل من موجب؛ فهو واجب النصب، وجملة ﴿سَبَقَ﴾: صلة، وعليه: متعلقان بـ ﴿سَبَقَ﴾، والقول: فاعل ومنهم: حال، أي: بالإهلاك.

﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾، الواو: عاطفة، ولا: ناهية، وتخاطبني: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾، والفاعل: مستتر تقديره: أنت، والنون: للوقاية، والياء: مفعول به، وفي الذين متعلقان بـ ﴿تُخَاطَبُنِي﴾، أي: بترك إهلاكهم؛ وذلك بعد أن لزمهم الحجة البالغة، وبعد أن أملى لهم الدهر المتطاول، لم يبق إلا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين، وجملة ﴿ظَلَمُوا﴾: صلة، وجملة ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾: تعليل للنهي عن المخاطبة بشأنهم، وإن واسمها وخبرها.

﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ﴾، الفاء: استئنافية، وإذا: ظرف مستقبل، وجملة ﴿أَسْتَوَيْتَ﴾: في محل جر بالإضافة إليها، وأنت: تأكيد للتاء، ومن: عطف

على التاء، ومعك: ظرف متعلق بمحذوف صلة ل ﴿مَنْ﴾، وعلى الفلك: متعلقان بـ ﴿أَسْتَوَيْتَ﴾، أي: اعتدلت عليه.

﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَجَّحْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، الفاء: رابطة لجواب ﴿فَإِذَا﴾، وقل: فعل أمر، وأفرده بالأمر إظهاراً لفضله واشعاراً بأن في دعائه مندوحة عن دعائهم، والحمد: مبتدأ، ولله: خبره، والجملة: مقول القول، وجملة القول لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم، والذي: صفة لله

وجملة (نجانا): صلة، ومن القوم: متعلقان بـ ﴿بَجَّحْنَا﴾، والظالمين: صفة للقوم ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، الواو: عاطفة، وقل: أمر وفاعله مستتر تقديره: أنت، ورب: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة؛ وحرف النداء محذوف، وأنزلي: فعل أمر للدعاء والفاعل مستتر تقديره: أنت، والنون: للوقاية، والياء: مفعول به، ومنزلاً: اسم مكان؛ أو: مصدر مفعول به ثان؛ أو: مفعول مطلق، ومباركاً: صفة، وأنت: الواو: حالية، وأنت: مبتدأ، وخير المنزلين: خبر.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، الجملة: مستأنفة مسوقة لتعليل ما ذكر وإن حرف مشبه بالفعل، وفي ذلك: خبرها المقدم، ولآيات: اللام: المزحقة، وآيات: اسم ﴿إِنَّ﴾، وإن: مخففة من الثقيلة؛ والغالب إهمالها، وكنا: كان واسمها واللام الفارقة، ومبتلين: خبر ﴿كُنَّا﴾، ويجوز أن يكون اسمها: ضمير الشأن، والجملة: خبرها، ويجوز أن تكون إن: نافية واللام بمعنى: إلا.

سادساً: ما قاله المفسرون وأصحاب التأويل في سياق القصة في سورة (الشعراء):

قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْفُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١١٠) قَالُوا أَنْزِلْ لَكَ وَأَتَّبِعَكَ الْأَرْدَلُونَ (١١١)

قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَنْتُحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَبَحْجِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

١ - ما قاله الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ رسل الله الذين أرسلهم إليهم لما ﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ﴾، فتحذروا عقابه على كفركم به، وتكذيبكم رسله، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أَمِينٌ﴾ على وحيه إلي، برسالته إياي إليكم.

ثم يقول تعالى ذكره: ﴿فَاتَّقُوا﴾ عقاب الله أيها القوم على كفركم به، ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فينصيحتي لكم، وأمري إياكم باتقائه، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، يقول: وما أطلب منكم على نصيحتي لكم وأمري إياكم باتقاء عقاب الله بطاعته في ما أمركم ونهاكم، من ثواب ولا جزاء، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دونكم ودون جميع خلق الله، ﴿فَاتَّقُوا﴾ عقاب الله على كفركم به، وخافوا حلول سخطه بكم على تكذيبكم رسله، ﴿وَأَطِيعُوا﴾، يقول: ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فينصيحتي لكم، وأمري إياكم بإخلاص العبادة لخالقكم.

يقول تعالى ذكره: قال قوم نوح ﷺ له مجيبه عن قيله لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾، قالوا: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ﴾ يا نوح، ونقر بتصديقك في ما تدعونا إليه، وإنما ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ﴾ دون ذوي الشرف وأهل البيوتات، ﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، قال نوح لقومه: وما علمي بما كان أتباعي يعملون، إنما لي منهم ظاهر أمرهم دون باطنه، ولم أكلف علم باطنهم، وإنما كلفت الظاهر، فمن أظهر حسنا ظننت به حسنا، ومن أظهر سيئا ظننت به سيئا، ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا

وقوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾، من قومه الذين كذبوه، وردوا عليه النصيحة.
قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ يقول تعالى ذكره: إن في ما فعلنا يا محمد بنوح ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون، حين أنزلنا بأسنا وسطوتنا، بقومه الذين كذبوه، ﴿لَآيَةً﴾

لك ولقومك المصدقين منهم والمكذّبين، في أن ستننا تنجية رسلنا وأتباعهم، إذا نزلت نعمتنا بالمكذّبين بهم من قومهم، وإهلاك المكذّبين بالله، وكذلك سنتي في لك وفي قومك.

﴿وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، يقول: ولم يكن أكثر قومك بالذين يصدقونك مما سبق في قضاء الله أنهم لن يؤمنوا، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فبانتقامه ممن كفر به، وخالف أمره، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالتائب منهم، أن يعاقبه بعد توبته.

٢ - وقال الإمام الزجاج رحمه الله:

وقوله ﷺ: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ﴾، دَخَلَتْ التاء وقوم نوح مُذَكَّرُونَ، لأن المعنى: كذبت جماعة قَوْمُنُوح، وقال: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾، ويجوز أن يَكُونُوا كَذَبُوا نوحاً وَحْدَهُ، ومن كذبر سَوْلاً واحداً من رسل الله فقد كَذَّب الجماعة وخالفها، لأن كل رسولاً أمر بتصديق جميع الرسل، وجائز أن يكون كَذَبَتْ جميع الرسل، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ﴾، قيل: ﴿أَخُوهُمْ﴾ لأنه منهم، وكل رسول يأتي بلسان قَوْمِهِ ليوضح لهم الحجة ويكون أبين لهم.

وقوله: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، ويُقرأ: (وَأَتْبَاعُكَ الْأَرْذَلُونَ)، وهي في العربية جِدَّةٌ قَوِيَّةٌ لأن: (واو) الحال تصحبُ الأسماء أكثر في العربية، لأنك تقول: جِئْتُكَ أَصْحَابُكَ الزَيْدُونَ، ويجوز: وَصَحَبَكَ الزَيْدُونَ، والأكثر جِئْتُكَ وَقَدْ صَحَبَكَ الزَيْدُونَ، وقيل في قوله: ﴿الْأَرْذَلُونَ﴾، نسبهم إلى الحياكة والحجامة، والصناعات لا تَضُرُّ في باب الدِّيَانَاتِ.

وقوله: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْفُخْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، أي: بالحجارة.

وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾، واحداً: فُلْكَ، وجمعها: فُلُكُ، وزعم سيبويه أنه بمنزلة أَسَدٍ وَأُسْدٍ، وقياس فُعْلُ قِيَّاسُ فَعَلٍ، ألا ترى أنك

تقول قُفْل وإِقْفَال وجمل وأجمال، وكذلك أَسَدٌ وَأُسْدٌ وَأَسَدٌ وَأَسَادٍ، وفُكٌّ وفُكٌّ وَأَفْلاك في الجمع، ﴿الْمَشْحُونِ﴾: المملوء، يقال: شحنته، أي: ملأته.

٣ - وقال الإمام الماتريدي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُّ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْقُونَ﴾، قال أهل التأويل: كان أخاهم في النسب، وليس بأخيهم في الدين، قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: إن الله تعالى يسمي الناس: بني آدم؛ على بعدهم من آدم، في جوز أيضاً تسميتهم: إخوة على بُعد بعضهم من بعض.

وقوله: ﴿أَلَا نُنْقُونَ﴾، نقمة الله وعذابه في مخالفتكم أمره ونهيه

أو يقول: ﴿أَلَا نُنْقُونَ﴾، عبادة غير الله، وطاعة من دونه.

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، هذا يخرج على وجهين: أحدهما: أي: كنت أميناً في كم قبل هذا، فتصدقوني في جميع ما أخبرتكم وأنبأتكم، فما بالكم لا تصدقوني الآن إذا أخبرتكم أني رسول الله إليكم؟!

والثاني: يقول: إني لكم رسول أمين، ائتمني الله وجعلني أميناً على وحيه، فأبلغكم الرسالة وأؤدي الأمانة شئتم أو أبيتم، قبلتم أو لم تقبلوا، فلا أخافكم ما توعدونني بعد أن جعلني الله أميناً وائتمني على أمانته؛ كقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾، أي: اتقوا نقمة الله وعذابه، أو اتقوا مخالفة الله في أمره ونهيه، وأطيعوا في ما أبلغكم عن الله وأدعوكم إليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه وأبلغكم أجراً وشيئاً يمنعكم ثقل ذلك عن الإجابة، ولا أحملك في أموالكم وأنفسكم مؤنة في ما أدعوكم إليه، بل أدعوكم إلى عبادة الواحد، وعبادة الواحد أهون وأخف على أنفسكم من عبادة العدد، ولا أحملك

في أموالكم وأنفسكم مؤنة في ما أدعوكم إليه من عبادة العدد، ولا أحملكم أيضًا مؤنة يمنعكم ذلك عن إجابتي.

وقوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾، أي: ما أجري، ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقوله: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، يقولون: نصدّقك وإنما اتبعك الضعفاء منا والسفلة ممن لا رأي لهم ولا تدبير، ولو كنت صادقًا لاتبعك الأشراف والرؤساء، فكان في اتباع الأراذل له ومن ذكروا أعظم آية من الرسالة من اتباع الأشراف، وذلك أن الأراذل من الناس هم أتباع لغيرهم؛ لما يأملون من فضل مال ونيل منهم، أو: رياسة ومنزلة تكون لهم، أو: لفضل بصر وحظ وعلم في الدين؛ في صيرون أتباعًا لمن كان عنده من هذه الخصال شيء، فالرسل صلوات الله عليهم حيث لم يكن عندهم أموال ولا طمع رياسة ولا منزلة اتبعهم الضعفاء والسفلة، مع خوف لهم على أنفسهم من أولئك الأشراف من القتل والصلب لمخالفتهم إياهم، فما اتبعوهم إلا لما تبين عندهم أنهم على حق، وأن ما يدعون صدق، ففي اتباع من ذكرنا أعظم دلالة على صدق الرسل في ما ادعوا من الرسالة لو تأملوا التفكير في ذلك.

وقول نوح: ﴿وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، يحتمل وجهين: أحدهما: يقول: لم أكن أعلم أن الله يهديهم للإيمان والتوحيد من بينكم يعني: الضعفاء، ويدعكم لا يهديكم ثم قال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾، أي: ما جزاء الذين اتبعوني من الأراذل ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾، والثاني: ﴿وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: ما أنا بعالم بما يعملون هم في السر وما ذلك عليّ، ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾، أي: حسابهم عليه في ما يعملون في السر؛ فهذا يدل أن التأويل الأخير أشبه وأقرب من الأول، وكان من أولئك طعن في الذين آمنوا بأنهم يعملون في السر على خلاف ما أظهروا، حتى قال لهم ذلك.

وفي بعض القراءات: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾، بالياء، فهو راجع إلى المؤمنين الذين

اتبعوه، يقول: حسابهم على الله في ما يعملون في السر، أي: لو يشعرون ذلك ولا يعملون في السر خلاف، ما يعملون في العلانية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال أهل التأويل: إنهم سألوا نوحًا ﷺ أن يطرد أولئك الذين آمنوا به من الضعفاء؛ حتى يؤمنوا هم به، فقال عند ذلك: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وجائز أن يكونوا طعنوا في الذين آمنوا أنهم قالوا ظاهرًا، وأما في السر فليسوا على ذلك، فقال نوح ﷺ عن ذلك: وما أنا بطارد الذين آمنوا؛ يدل على ذلك قول نوح ﷺ حيث قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾^(١)، هذا القول منه يدل على أنه كان منهم طعن في أولئك الذي آمنوا به، حيث وكل أمرهم إلى الله فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(٢)، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالُوا لِنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، المرجوم: هو المقتول بالحجارة، وهي أشد قتل؛ لذلك أوعده.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لتكونن من المشتومين باللسان، لكن الأول أقرب؛ لأنه قد كان منهم الشتم فلا يحتمل الوعيد به.

ثم دعا نوح عند ذلك فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَبُونَ﴾^(٣) فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، أي: اقض بيني وبينهم قضاء، أي: اقض عليهم بالعذاب والهلاك، ألا ترى أنه قال: ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فدل سؤاله نجاة نفسه ومن معه من المؤمنين على أن قوله: ﴿فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا﴾، سأل ربه هلاك من كذبه، وهو ما قال في قصة أخرى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾^(٤)، الذي وعدت أنه ينزل بهم، وهو العذاب، فعلى ذلك هذا.

(١) الآية: رقم ٣١ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٣١ من سورة هود.

(٣) الآية: رقم ٨٩ من سورة الأعراف.

ثم لا يحتمل أن يكون هذا منه في أول تكذيب كان منهم، بل كان ذلك بعد ما آيس من إيمانهم؛ لأنه لبث فيهم ما قال الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عاماً، وفي كل ذلك دعاهم إلى توحيد الله، وإنما دعا عليهم بالهلاك بعد ما أخبره الله تعالى عن أمرهم وأياسه عن إيمانهم، فقال: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، وأذن له بالدعاء عليهم بما دعا؛ إذ الأنبياء صلوات الله عليهم لا يدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن من الله في ذلك؛ ألا ترى أنه ذكر عتاب يونس بالخروج من بينهم بلا إذن كان من الله له بالخروج من بينهم، فإذا عوتب هو بالخروج بلا إذن فلا يحتمل أن يدعو بالهلاك بلا إذن، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾، قيل: المملوء.

قال أبو معاذ: والعرب تقول: شحنت السفينة فلم يبق إلا الدفع: وهو السوق، وتقول العرب: شحنا عليهم بلادهم خيلاً ورجالاً، أي: ملأناها.

وقال بعضهم: المشحون: المجهر الذي قد فرغ منه فلم يبق إلا دفعه؛ وهو واحد.

وإنما شحنت بأصناف من الخلق وإلا كان المؤمنون قليلي العدد، وهو ما قال فيها: ﴿مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، أخبر أنه أنجى من كان معه في الفلك المشحون، وأهلك الباقيين.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾، أي: فينبأ نوح الآية لمن كان بعدهم.

أو: إن فيهلك قوم نوح وإغراقهم لعبرة لمن بعدهم.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ إلى آخر القصة قد ذكرناه.

٤ - وقال الإمام الزخشي رحمه الله:

القوم: مؤنثة، وتصغيرها قويمة، ونظير قوله المُرْسَلِينَ والمراد نوح عليه السلام: قولك: فلان يركب الدواب ويلبس البرود، وماله إلا دابة وبرد، قيل: ﴿أَخُوهُمْ﴾، لأنه كان منهم، من قول العرب: يا أخا بني تميم، يريدون: يا واحدا منهم، ومنه بيت الحماسة:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

كان أمينا فيهم مشهورا بالأمانة، كمحمد ﷺ في قريش ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فينصحبيلكم وفي ما أدعوكم إليه من الحق عليه على هذا الأمر، وعلى ما أنا فيه، يعنى: دعاه ونصحه ومعنى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾، أي: فاتقوا الله في طاعتي، وكرره ليؤكداه عليهم ويقرره فينفوسهم، مع تعليق كل واحدة منهما بعله، جعل علة الأول كونه أمينا في ما بينهم، وفي الثاني حسم طمعه عنهم.

قوله: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، وقرئ: وأتباعك، جمع تابع، كشاهد وأشهاد. أو جمع تبع، كبطل وأبطال، والواو: للحال، وحقها أن يضمرب بعدها (قد) في: ﴿وَاتَّبَعَكَ﴾، وقد جمع الأرذل على الصحة وعلى التكسير في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَادُنَا﴾، والرذالة والنذالة: الخسة والدناءة، وإنما استردلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا، وقيل: كانوا من أهل الصناعات الدنية؛ كالحياكة والحجامة.

والصناعة لا تزري بالديانة، وهكذا كانت قريش تقول في أصحاب رسول الله ﷺ، وما زالت أتباع الأنبياء كذلك، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم، ألا ترى إلى هرقل حين سأل أبا سفيان عن أتباع رسول الله ﷺ، فلما قال: ضعفاء الناس وأراذلهم قال: ما زالت أتباع الأنبياء كذلك.

وعن ابن عباس رحمه الله: هم الغاغة، وعن عكرمة: الحاكة والأساكفة، وعن مقاتل: السفلة.

وقوله: (وَمَا عَلِمِي)، وأي شيء علمي؟ والمراد: انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم

لله وإطلاعه على سر أمرهم وباطنه، وإنما قال هذا: لأنهم قد طعنوا مع استردالهم في إيمانهم، وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة، وإنما آمنوا هوى وبديهة، كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ﴾ ويجوز أن: يتغابى لهم نوح ﷺ، في فسر قولهم الأذلين؛ بما هو الرذالة عنده، من سوء الأعمال وفساد العقائد، ولا يلتفت إلى ما هو الرذالة عندهم، ثم يبنى جوابه على ذلك في قول: ما على إلا اعتبار الظواهر، دون التفتيش عن أسرارهم والشق عن قلوبهم، وإن كان لهم عمل سيئ، فالله محاسبهم ومجازيهم عليه، وما أنا إلا منذر لا محاسب ولا مجاز ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ذلك، ولكنكم تجهلون فتساقون مع الجهل حيث سيركم، وقصد بذلك ردّ اعتقادهم وإنكار أن يسمى المؤمن رذلا، وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسبا، فإن الغنى غنى الدين، والنسب نسب التقوى، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يريد ليس من شأني أن أتبع شهواتكم وأطيب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صح إيمانهم طمعا في إيمانكم، وما على إلا أن أنذركم إنذارا بينا بالبرهان الصحيح الذي يتميز به الحق من الباطل، ثم أنتم أعلم بشأنكم.

ليس هذا بإخبار بالتكذيب، لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم، ولكنه أراد أنى لا أدعوك عليهم لما غاظوني وأذوني، وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك، ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك، فاحكم بيني وبينهم، والفتاحة: الحكومة، والفتاح: الحاكم، لأنه يفتح المستغلق كما سمي في صلا، لأنه يفصل بين الخصومات.

٥ - وقال الإمام ابن عطية رحمه الله:

أسند ﴿كَذَّبْتَ﴾ إلى (القوم)، وفيه علامة التأنيث من حيث القوم في معنى الأمة والجماعة، وقوله: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ من حيث من كذب نبيا واحدا، كذب جميع الأنبياء إذ قولهم واحد ودعوتهم سواء، وقوله: ﴿أَخُوهُمْ﴾، يريد: في النسب والمنشأ لا في الدين، و﴿أَمِينٌ﴾، معناه: على وحي الله ورسالته، وقرأ ابن كثير وعاصم: (أجري) ساكنة الياء، وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة: بفتح الياء في كل القرآن، ثم رد عليهم

الأمر بالتقوى والدعاء إلى طاعته تحذيرا ونذارة وحرصا عليهم فذهب أشرافهم إلى استنقاص أتباعه بسبب صغار الناس الذين اتبعوه وضعفائهم، وهذا كفعل قريش في شأن عمار بن ياسر وصهيب وغيرهما، وقال بعض الناس: الْأَرْذَلُونَ: الحاكة، والحجامون والأساكفة، وفي هذا عندي على جهة المثل أي أهل الصنائع الخسيسة لا أن هذه الصنائع المذكورة خصت بهذا، وَالْأَرْذَلُونَ: جمع الأرذل، ولا يستعمل إلا معرفا؛ أو: مضافا؛ أو: ب (من).

قال القاضي أبو محمد: ويظهر من الآية أن مراد (قوم نوح) بنسبة الرذيلة إلى المؤمنين: تهجين أفعالهم لا النظر في صنائعهم، يدل على ذلك قول نوح ﷺ: ﴿وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، لأن معنى كلامه ليس فينظري وعلمي بأعمالهم ومعتقداتهم فائدة، إنما أقنع بظواهرهم وأجتزئ به، ثم حسابهم على الله تعالى، وهذا نحو قول رسول الله ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس) الحديث بجملته (؟).

وقولهم: ﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، يحتمل أن: يريدوا بالحجارة، ويحتمل أن: يريدوا بالقول والشتم ونحوه، وهو شبيه برجم الحجارة، وهو من الرجم بالغيب والظن ونحو ذلك، وقوله: ﴿أَفْتَحْ﴾، معناه: احكم، والفتاح القاضي بلغة يمنية.

٦ - وقال الإمام الرازي رحمه الله:

اعلم أنه تعالى لما قص على محمد ﷺ خبر موسى وإبراهيم ﷺ تسلياً له في ما يلقاه من قومه قص عليه أيضاً نبأ نوح ﷺ، فقد كان نبؤه أعظم من نبأ غيره، لأنه كان يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ومع ذلك كذبه قومه فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾، وإنما قال: ﴿كَذَّبَتْ﴾ لأن القوم مؤنث وتصغيرها قويمة، وإنما حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين لوجهين: أحدهما: أنهم وإن كذبوا نوحاً ﷺ لكن تكذيبه في المعنى يتضمن تكذيب غيره، لأن طريقة معرفة الرسل لا تختلف، فمن حيث المعنى حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين.

وثانيهما: أن قوم نوح كذبوا بجميع رسل الله تعالى، إما لأنهم كانوا من الزنادقة أو من البراهمة.

وأما قوله: ﴿أَخُوهُمْ﴾، فلأنه كان منهم، من قول العرب يا أخا بني تميم يريدون يا واحدا منهم، ثم إنه سبحانه حكى عن نوح ﷺ أنه أولا: خوفهم، وثانيا: أنه وصف نفسه، أما التخويف فهو قوله: ﴿أَلَا نَنْقُوتُ﴾، واعلم أن القوم إنما قبلوا تلك الأديان للتقليد، والمقلد إذا خوَّف خاف، وما لم يحصل الخوف في قلبه لا يشتغل بالاستدلال، فلهذا السبب قدم على جميع كلماته قوله: ﴿أَلَا نَنْقُوتُ﴾، وأما وصفه نفسه فذاك بأمرين: أحدهما: قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، وذلك لأنه كان فيهم مشهورا بالأمانة كمحمد ﷺ في قريش، فكأنه قال: كنت أmina من قبل، فكيف تتهموني اليوم؟ وثانيهما: قوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، أي: على ما أنا فيه من ادعاء الرسالة؛ لئلا يظن به أنه دعاهم للرغبة، فإن قيل: ولماذا كرر الأمر بالتقوى؟ جوابه: لأنه في الأول: أراد ألا تتقون مخالفتي وأنا رسول الله، وفي الثاني: ألا تتقون مخالفتي ولست آخذ منكم أجرا، فهو في المعنى مختلف ولا تكرار فيه، وقد يقول الرجل لغيره: ألا تتقي الله في عقوقي وقد رببتك صغيرا! ألا تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيرا، وإنما قدم الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر بطاعته، لأن تقوى الله علة لطاعته فقدم العلة على المعلول، ثم إن نوحا ﷺ لما قال لهم ذلك أجابوه بقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾.

قولهم: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، والمعنى: أنهم خوفوه بأن يقتل بالحجارة، فعند ذلك حصل اليأس لنوح ﷺ من فلاحهم، وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذِبُونَ ﴿١٣١﴾ فَأَفْخَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحَا﴾، وليس الغرض منه إخبار الله تعالى بالتكذيب لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم، ولكنه أراد إني لا أدعوك عليهم لما آذوني، وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك

فافتح بيني وبينهم، أي: فاحكم بيني وبينهم والفتاحة الحكومة، والفتاح الحاكم لأنه يفتح المستغلق، والمراد من هذا الحكم إنزال العقوبة عليهم لأنه قال عقبه: ﴿ وَنَجِّنِي ﴾، ولولا أن المراد إنزال العقوبة لما كان لذكر النجاة بعدهم معنى، وقد تقدم القول في قصته مشروحا في سورة الأعراف وسورة هود.

٧ - وقال الإمام القرطبي رحمه الله:

قوله: ﴿ أَلَا نُنْقِوْنَ ﴾، أي: ألا تتقون الله في عبادة الأصنام، ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾، أي: صادق في ما أبلغكم عن الله تعالى، وقيل: ﴿ أَمِينٌ ﴾ في ما بينكم، فإنهم كانوا عرفوا أمانته وصدقه من قبل كمحمد ﷺ في قريش، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي: فاستتروا بطاعة الله تعالى من عقابه، ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ في ما أمركم به من الإيمان، ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي: لا طمع لي في مالكم، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ ﴾، أي: ما جزائي ﴿ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ كرر تأكيدا، قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾، فيه مسألتان: الأولى: قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ ﴾ أي: نصدق قولك، ﴿ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾، الواو: للحال وفيه إضممار قد، أي: وقد اتبعك ﴿ الْأَرْذَلُونَ ﴾، جمع الأرذل، المكسر الأراذل والأثنى الرذلى؛ والجمع الرذل.

٨ - وقال الإمام ابن كثير رحمه الله:

وقوله ﷺ: ﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴾، هذا إخبار من الله ﷻ عن عبده ورسوله نوح ﷺ، وهو أول رسول بُعث إلى الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد، بعثه الله ناهيا عن ذلك، ومحذرا من وبيل عقابه، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم، ويتنزل تكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرسل؛ ولهذا قال: ﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْقِوْنَ، أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾، أي: إني رسول من الله إليكم، أمين في ما بعثني به، أبلغكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنقص منها.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٧﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾،
 أي: لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل أدر ثواب ذلك عند الله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا﴾ فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي في ما بعثني به وأتمنني عليه.
 لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلا ونهارا، وجهرا
 وإسرارا، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد،
 وقالوا في الآخر: ﴿لَنْ تَنْتَهَ﴾، أي: عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح ﴿لَتَكُونَنَّ
 مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، أي: لنرجمنك.

فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي
 كَذَّبُونِ ١٧﴾ فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾، كما قال في الآية
 الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ١٩﴾ فَفَنَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿٢٠﴾ وَفَجَرْنَا
 الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿٢١﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِّرَ ﴿٢٢﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا
 جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿٢٣﴾، وقال هاهنا: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ٢٤﴾ ثُمَّ
 أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿٢٥﴾.

٩ - وقال الإمام ابن عادل ؒ:

قوله: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، جملة حالية من كاف: ﴿لَكَ﴾.
 الرذالة: الخسّة والدّلة، وإنما استرذلوهم لاتّضاع نسبهم وقلة نصيبهم في الدنيا.
 وقيل: كانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحياسة والحجامة.

وهذه الشبهة في غاية الركاسة، لأننوحاً ؑ بعث إلى الخلق كافة، فلا يختلف
 الحال بسبب الفقر والغنى وشرف المكاسب وخستها، فأجابهم نوح عنه بالجواب
 الحق، وهو قوله: ﴿وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: ما أعلم أعمالهم وصنائعهم،
 وليس عليّ من دناءة مكاسبهم وأحوالهم شيء، إنما كُلفت أن أدعوهم إلى الله ولي
 منهم ظاهر أمرهم.

قوله: ﴿ وَمَا عَلِمَى ﴾، يجوز في: (مَا) وجهان: أظهرهما: أنها استفهامية في محل رفع بالابتداء، و﴿ عَلِمَى ﴾، خبرها، والباء: متعلقة به.

والثاني: أنها نافية، والباء: متعلقة ب﴿ عَلِمَى ﴾ أيضاً، قاله الحوفي .

ويحتاج إلى إضمار خبر ليصير الكلام به (جملة).

قوله: ﴿ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي ﴾، إن: نافية، أي: ما حسابهم إلا على ربي، ومعناه: لا نعتبر إلا الظاهر من أمرهم دون ما يخفى.

قوله: ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾، جوابها: محذوف، ومفعول: ﴿ تَشْعُرُونَ ﴾، أيضاً، والمعنى: ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾، تعلمون ذلك ما عبتموهم بصنائعهم، قيل: معناه: إني لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم، ويفقههم ويخذلكم.

قوله: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، وذلك كالدلالة على أن القوم سألوه إبعادهم؛ فبين أن الدين يمنعه عن طردهم؛ وقد آمنوا به، وبين أن الغرض من تحمل الرسالة كونه نذيراً؛ فقال: ﴿ إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾، أي: إني أخوف من كذبي ولم يقبل مني، فمن قبل فهو القريب، ومن رد فهو البعيد، فلما أجابهم بهذا الجواب لم يكن منهم إلا التهديد فقالوا: ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْفُخْ يَنْفُخْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾.

١٠ - وقال الإمام ابن عرفة رحمته الله:

قوله تعالى: ﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴾، إنما جمع المرسلين بناء على أن آدم عليه الصلاة والسلام رسول، وكذلك إدريس عليه السلام رسول، وهو سابق على نوح عليه السلام، ولأنهم إذا كذبوا نوحاً عليه السلام فقد كذبوا المرسلين، لأنهم جاءوا بمثل ما جاء به نوح عليه السلام، ولأن المعجزات متحدة، فتكذيبهم لمن جاء بشيء منها تكذيب للجميع، وجمعه باعتبار تفسير حالاته، فهو في حالة يدعوهم إلى الله بشيراً، وفي حالة يدعوهم إلى الله نذيراً مخوفاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، ولم يقل: ما أقبل منكم عليه أجراً، فهو أعم؛ لأن الدعاء إلى الله تعالى وطلب الامتثال له يقتضي التشوف للأجر على ذلك، فلهذا قال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، أي: أنؤمن لك حالة كونك اتبعك أراذل الناس؟ فلا يرضى بحالهم في الإيمان بك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وتقرير هذا الجواب بوجهين:

الأول: أنكم وقفت مع الأمر العادي الدنيوي في كون قومي المتبعين لي متصفين بأرذل الصنائع، وأنا وقفت مع العادي الديني؛ لأنهم وإن كانوا أرذل في الظاهر، فهم أخیار في الباطن؛ لاتصافهم بالإيمان والعمل الصالح.

الوجه الثاني: أنه تقرر في العقول أن الأمرين إن تساويا ويستحيل ترجيح أحدهما على الآخر، وهؤلاء رجحوا المرجوح؛ كأنهم رجحوا الاتصاف بأرذل الصنائع على أشرفها، فاختار الحياكة، والحجامة، والجزارة، وهي أرذل الصفات فلا عقل له، فكيف يتبع من لا عقل له؟ فأجابهم نوح ﷺ: بأنهم لعل لهم علما بالسبب المرجح لذلك غيره، أي: وما علمي بسبب ما كانوا يعملون، فما رجحوا علم ذلك إلا لسبب خفي ظهر لهم ولم يظهر لكم.

١١ - وقال الإمام البقاعي رحمه الله:

ولما أتم سبحانه قصة الأب الأعظم الأقرب، أتبعها دلالة على وصفي العزة والرحمة قصة الأب الثاني، مقدماً لها على غيرها، لما له من القدم في الزمان، إعلماً بأن البلاء قديم، ولأنها أدل على صفتي الرحمة والنقمة التي هي أثر العزة بطول الإملاء لهم على طول مدتهم، ثم تعميم النقمة مع كونهم جميع أهل الأرض فقال: ﴿كَذَّبَتْ﴾ بإثبات التاء اختياراً للتأنيث، وأن كان تذكير القوم أشهر؛ للتنبيه على أن فعلهم أخس الأفعال، أو إلى أنهم مع عتوهم وكثرتهم كانوا عليه سبحانه

أهون شيء وأضعفه؛ بحيث جعلهم هباءً منثوراً وكذا من بعدهم ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾، وهم أهل الأرض كلهم من الآدميين قبل اختلاف الأمم بتفرق اللغات ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾، أي: بتكذيبهم نوحاً عليه السلام، لأنه أقام الدليل على نبوته بالمعجزة، ومن كذب بمعجزة واحدة فقد كذب بجميع المعجزات لتساوي أقدامها في الدلالة على صدق الرسول، وقد سئل الحسن البصري رحمه الله تعالى عن ذلك فقال: من كذب واحداً من الرسل فقد كذب الكل لأن الآخر جاء بما جاء به الأول حكاه عنه البغوي.

ولقصد التسلية عبر بالتكذيب في كل قصة ﴿إِذْ﴾، أي: حين ﴿قَالَ لَهُمْ﴾، لم يتأنوا بطلب دليل، ولا ابتغاء وجه جميل؛ وأشار إلى نسبه فيهم بقوله: ﴿أَخَوَّهُمْ﴾، زيادة في تسلية هذا النبي الكريم ﴿نُوحٍ﴾، وأشار إلى حسن أدبه، واستجلابهم برفقه ولينه، بقوله: ﴿أَلَا نُنْفِئُكُمْ﴾، أي: تكون لكم تقوى، وهي خوف يحملكم على أن تجعلوا بينكم وبين سخطه وقاية بطاعته بالتوحيد وترك الالتفات إلى غيره؛ ثم علل أهليته للأمر عليهم بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾، أي: مع كوني أخاكم يسوءني ما يسوءكم ويسرني ما يسركم، ﴿رَسُولٌ﴾، أي: من عند خالقكم، فلا مندوحة لي عند إبلاغ ما أمرت به، ﴿أَمِينٌ﴾، أي: لا غش عندي كما تعلمون ذلك مني على طول خبرتكم بي، ولا خيانة في شيء من الأمانة، فلذلك لا بد لي من إبلاغ جميع الرسالة، ولما عرض عليهم التقوى بالرفق، وعلل ذلك بما ثبت به أمرها، تسبب عنه الجزم بالأمر فقال: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ﴾، أي: أوجدوا الخو والحذر والتحرز من الذي اختص بالجلال والجمال، مبادرين إلى ذلك بتوحيده لتحرزوا أصل السعادة فتكونوا من أهل الجنة ﴿وَأَطِيعُوا﴾، أي: في كل ما أمركم لتحرزوا رتبة الكمال في ذلك، فلا يمسكم عذاب.

ولما أثبت أمانته، نفى تهمته فقال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: على هذا الحال الذي أتيتكم به؛ وأشار إلى الإعراق في النفي بقوله: ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾، أي: ليظن ظان أنني جعلت الدعاء سبباً له؛ ثم أكد هذا النفي بقوله: ﴿إِنْ﴾، أي: ما ﴿أَجْرِي﴾، أي: في دعائي لكم ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: الذي دبر جميع الخلائق ورباهم.

ولما انتفت التهمة، تسبب عن انتفائها أيضاً ما قدمه، فأعاده إعلاماً بالاهتمام بذلك زيادة في الشفقة عليهم وتأكيده له في قلوبهم؛ تنبيهاً على أن الأمر في غاية العظمة؛ لما يعلم من قلوبهم من شدة الجلافة، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، أي: الذي حاز جميع صفات العظمة ﴿وَأَطِيعُوا﴾.

ولما قام الدليل على نصحه وأمانته، أجابوا بما ينظر إلى محض الدنيا كما أجاب من قال من أشراف العرب: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۖ﴾ (١) أو يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿١﴾، وقالوا: لو طردت هؤلاء الضعفاء لرجونا أن نتبعك حتى نزل في ذلك: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (٢)، ونحوها من الآيات، بأن: ﴿قَالُوا﴾، أي: قومه، منكرين لاتباعه استناداً إلى داء الكبر الذي نشأ منه بطر الحق وغمط الناس، أي: احتقارهم، ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ﴾، أي: لأجل قولك هذا وما أثبتته أوصافك، ﴿وَ﴾: الحال أنه قد ﴿أَتْبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾، أي: المؤخرون في الحال والمآل، والأحوال والأفعال، في كون إيماننا بك سبباً لاستوائنا معهم، فلو طردتهم لم يكن لنا عذر في التخلف عنك، ولا مانع من اتباعك، فكان ما متعوا به من العرض الفاني مانعاً لهم عن السعادة الباقية، وأما الضعفاء فانكسار قلوبهم وخلوها عن شاغل موجب لإقبالها على الخير وقبولها له، لأن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم، وهكذا قالت قريش في أصحاب النبي ﷺ، وما زالت أتباع الرسل كذلك حتى صارت من سماتهم وأماراتهم كما قال هرقل في سؤاله عن أتباع النبي ﷺ، فكان مثال المستكبرين مثال شخص كان آخر دونه بدرجة، فأصبح فوقه بدرجة، فأنف من أن يرتقي إلى درجته لئلا يساويه، ورضي لنفسه أن يكون دونه، فما أسخف

(١) الآيتان: رقم ٧ - ٨ من سورة الفرقان.

(٢) الآية: رقم ٥٢ من سورة الأنعام.

عقله! وما أكثر جهله! فلا شيء أبين من هذا في أن التقدم في الأمور الدنيوية داء لا دواء له إلا إماتة النفس بالتبرؤ منه والبعد عنه

ولما كانت الجواهر متساوية في أنها مخلوقات الله، وإنما تتشرف بآثارها، فالآدمي إنما يشرف أو يردل بحاله من قاله وفعاله، أشار إلى أنه يعتبر ما هم عليه الآن من الأحوال الرفيعة، والأوصاف البديعة، فلذلك ﴿ قَالَ ﴾ نافي أَلعلمه بما قالوه في صورة استفهام إنكاري: ﴿ وَمَا ﴾، أي: وأي شيء، ﴿ عَلِمَى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، أي: قبل أن يتبعوني، أي: وما لي وللبحث عن ذلك، إنما لي ظاهرهم الآن وهو خير ظاهر، فهم الأشرفون وإن كانوا أفقر الناس وأخسهم نسباً، فإن الغني غني الدين، والنسب نسب التقوى؛ ثم أكد أنه لا يبحث عن بواطنهم بقوله: ﴿ إِنْ ﴾، أي، ما ﴿ حِسَابُهُمْ ﴾، أي: في الماضي والآتي، ﴿ إِلَّا عَلَى رِئْيِ ﴾ المحسن إليّ باتباعهم لي ليكون لي مثل أجرهم، المخفف عني أن يكلفني بحسابهم ومعرفة بواطنهم، لأنه المختص بضبط جميع الأعمال والحساب عليها ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾، أي: لو كان لكم نوع شعور لعلمتم ذلك، فلم تقولوا ما قلتم مما هو دائر على أمور الدنيا فقط، ولا نظر له إلى يوم الحساب.

ولما أفهم قوله رد ما أفهمه قولهم من طردهم، صرح به في قوله: ﴿ وَمَا ﴾، أي: ولست ﴿ أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، أي: الذين صار الإيمان لهم وصفاً راسخاً فلم يرتدوا عنه للطمع في إيمانكم ولا لغيره من اتباع شهواتكم؛ ثم علل ذلك بقوله: ﴿ إِنْ ﴾، أي: ما ﴿ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ ﴾، أي: محذر، لا وكيل مناقش على البواطن، ولا متعنت على الاتباع ﴿ مُبِينٌ ﴾، أوضح ما أرسلت به فلا أدع فيه لبساً.

ولما يأسهم مما أرادوا من طرد أتباعه لما أوهموا من اتباعه لو طردهم خداعاً، أقبلوا على التهديد، فاستأنف سبحانه الأخبار عن ذلك بقوله: ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ ﴾، ثم سموه باسمه جفاء وقلة أدب؛ فقالوا: ﴿ يَنْتَوُحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾، أي: المقتولين، ولا ينفعك أتباعك هؤلاء الضعفاء.

ولما آيس منهم بما سمع من المبالغة بالتأكيد في قولهم، ورأى بما يصدق من فعلهم، قال تعالى مخبراً عنه جواباً لسؤال من يريد تعرف حاله بعد ذلك: ﴿قَالَ﴾ شاكياً إلى الله تعالى ما هو أعلم به منه توطئة للدعاء عليهم وإلهاباً إليه وتهيجاً، معرضاً عن تهديدهم له صبراً واحتساباً، لأنه من لازم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واكتفاء عنه بسببه: ﴿رَبِّ﴾، أي: أيها المحسن إليّ.

ولما كان الحال مقتضياً لأن يصدق له ما له في نفسه من الأمانة، وبهم من القرابة، ولما أقام على ما دعاهم إليه من الأدلة مع ما له في نفسه من الوضوح، أكد الإخبار بتكذيبهم، إعلالاً بوجوده، وبأنه تحققه منهم من غير شك، فقال: ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذِبُونَ﴾، أي: فلا نية لهم في اتباعي، ﴿فَأَفْنَحْ﴾، أي: احكم ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾، أي: حكماً يكون لي فيه فرج، وبه من الضيق مخرج، فأهلك المبطلين وأنجز حتفهم، ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ﴾، أي: في الدين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، مما تعذب به الكافرين.

ولما كان في إهلاكهم وإنجائهم من بديع الصنع ما يجعل عن الوصف، أبرزه في مظهر العظمة فقال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾، أي: ممن لا يخالفه في الدين على ضعفهم وقتلهم، ﴿فِي الْفَلَائِكِ﴾.

ولما كانت سلامة المملوء جداً أغرب قال: ﴿الْمَشْحُونِ﴾، أي: المملوء بمن حمل فيه من الناس والطيور وسائر الحيوان وما حمل من زادهم وما يصلحهم.

ولما كان إغراقهم كلهم من الغرائب عظمه بأداة البعد ومظهر العظمة فقال: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾، أي: بعد حملة الذي هو سبب إنجائه، ﴿الْبَاقِينَ﴾، أي: من بقي على الأرض ولم يركب معه في السفينة على قوتهم وكثرتهم، وكان ذلك علينا يسيراً.

ولما كان ذلك أمراً باهراً، عظمه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: الأمر العظيم من الدعاء والإمهال ثم الإنجاء والإهلاك ﴿لَايَةً﴾، أي: عظمة لمن شاهد ذلك أو

سمع به، على أنا ننتقم ممن عصانا، وننجي من أطاعنا، وأنه لا أمر لأحد معنا فيهديه إلى الإيمان، ويحمله على الاستسلام والإذعان، ﴿ وَمَا ﴾، أي: والحال أنه ﴿ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ ﴾، أي: أكثر العالمين بذلك ﴿ مُؤْمِنِينَ ﴾، وقد ينبغي لهم إذ فاتهم الإيمان لمحض الدليل أن يبادروا إليه ويركبوا معه حين رأوا أوائل العذاب؛ أو: بعد أن أجمعهم الغرق، ﴿ وَلَئِنَّ رَبَّكَ ﴾، المحسن إليك بإرسالك، وتكثير أتباعك وتعظيم أشياعك، ﴿ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾، أي: القادر بعزته على كل من قسرهم على الطاعة، وإهلاكهم في أول أوقات المعصية، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾، أي: الذي يخص من يشاء من عباده بخالص وداده، ويرسل إلى الضالين عن محجة العقل القويمة الرسل لبيان ما يجب وما يكره، فلا يهلك إلا بعد البيان الشافي، والإبلاغ الوافي.

١٢ - وقال الإمام أبي السعود رحمه الله:

﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴾، القوم: مؤنث؛ ولذلك يُصَغَّرُ على قُومَةٍ، وقيل: القومُ بمعنى الأُمَّة وتكذيبهم للمرسلين؛ إما: باعتبار إجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصر، وإما: لأن المراد بالجمع: الواحد كما يقال فلان يركب الدواب ويلبس البرود وماله إلا دابة وبردة و﴿ إِذْ ﴾، في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ ﴾ ظرفٌ للتكذيب على أنه عبارة عن زمانٍ مديد وقع فيه ما وقع من الجانبين إلى تمام الأمر، كما أن تكذيبهم عبارة عما صدر عنهم من ابتداء دعوته عليه الصلاة والسلام إلى انتهائها ﴿ أَخُوهُمْ ﴾، أي: نسيبهم ﴿ نُّوحٌ أَلَّا نُنْفِقُونَ ﴾، الله حين تعبّدون غيره ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ ﴾، من جهته تعالى ﴿ أَمِينَ ﴾، مشهور بالأمانة في ما بينكم، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾، في ما أمركم به من التوحيد والطاعة لله تعالى ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾، أي: على ما أنا متصد له من الدعاء والنصح، ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾، أصلاً ﴿ إِنْ أَجْرِي ﴾ في ما أتولاه ﴿ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، والفاء: في قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾، لترتيب ما بعدها على ما قبلها من تنزهه عليه الصلاة والسلام عن الطمع كما أن نظيرتها السابقة لترتيب

ما بعدها على أمانته والتكرير للتأكيد والتنبه على أن كلا منهما مستقل في إيجاب التقوى والطاعة فكيف إذا اجتماعا وقرئ: (إن أجري): بسكون الياء، ﴿قَالُوا أَنْزِلْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، أي: الأقلون جاهاً ومالاً جمع الأرذل على الصّحة فإنه بالغلبة صار جارياً مجرى الاسم، كالأكبر والأكابر وقيل جمع أرذل جمع رذل كأكالب وأكلب وكلب وقرئ: وأتباعك وهو جمع تابع كشاهد وأشهد أو جمع تبع كبطل وأبطال، يعنون أنه لا عبرة باتباعهم لك إذ ليس لهم رزاة عقل ولا إصابة رأي؛ وقد كان ذلك منهم في بادئ الرأي كما ذكر في موضع آخر، وهذا من كمال سخافة عقولهم وقصرهم أنظارهم على حطام الدنيا؛ وكون الأشراف عندهم من هو أكثر منها حظاً والأرذل من حرماً؛ وجهلهم بأنها لا تزن عند الله جناح بعوضة وأن النعيم هو نعيم الآخرة؛ والأشرف من فاز به والأرذل من حرمه، ﴿قَالَ وَمَا عَلِمَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، جواب: عما أشير إليه من قولهم إنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة، أي: وما وظيفتي إلا اعتبار الظواهر وبناء الأحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم والشق عن قلوبهم، ﴿إِنْ حَسَابُهُمْ﴾، أي: ما محاسبة أعمالهم والتفتيش عن كفايتها البارزة والكامنة ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾، فإنه المضطلع السرائر والضمائر، ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي: بشيء من الأشياء أو لو كنتم من آل الشعور لعلمتم ذلك ولكنكم لستم كذلك فتقولون ما تقولون، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، جواب: عما أوهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق إيمانهم بذلك حيث جعلوا اتباعهم مانعاً عنه، وقوله: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ كالعلّة أي: ما أنا إلا رسول مبعوث لإنذار المكلفين وزجرهم عن الكفر والمعاصي سواء كانوا من الأعزاء أو الأذلاء فكيف يتسنى طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء، أو: ما عليّ إلا إنذاركم بالبرهان الواضح وقد فعلته، وما عليّ استرضاء بعضكم بطرد الآخرين، ﴿قَالُوا لَنْ نَمُوتَ نَتَنَحَّيْ﴾، عما تقول، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، من المشتومين أو المرميين بالحجارة، قالوه قاتلهم الله تعالى في أواخر الأمر، ومعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾، تموا على تكديبي

وأصروا على ذلك بعد ما دعوتهم هذه الأزمنة المتطاولة ولم يزدتهم دعائى إلا فراراً، كما يعرب عنه دعاؤه بقوله: ﴿ فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾، أي: أحكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا وهذه حكاية إجمالية لدعائه المفصل في سورة نوح ﴿ وَنَحْنُ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، أي: من قصدهم أو منشؤم أعمالهم، ﴿ فَأَنْجِنَهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾، حسب دعائه، ﴿ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾، أي: المملوء بهم وبما لا بد لهم منه، ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ﴾، أي: بعد إنجائهم ﴿ الْبَاقِينَ ﴾، أي: من قومه.

١٣ - وقال الإمام المراغي رحمه الله:

﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿، أي: كذبت قوم نوح رسل الله حين قال لهم أخوهم نوح ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾: ألا تتقون الله فتحذروا عقابه على كفركم به وتكذيبكم رسله؟

وجعل تكذيب نوح ﴿ تَكْذِيبًا ﴾ للرسل جميعاً عليهم السلام، لأن تكذيبه يتضمن تكذيب غيره منهم إذ طريقتهم لا تختلف؛ فهي في كل مكان وزمان الدعوة إلى التوحيد وأصول الشرائع.

وقد حكى سبحانه عن نوح ﴿ أَنَّهُ خَوْفُهُمْ أَوَّلًا بِقَوْلِهِ: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾، لأن القوم إنما قبلوا تلك الأديان تقليداً، والمقلد إذا خوّف خاف، وما لم يستشعر بالخوف لا يشتغل بالاستدلال والنظر، وقد وصف نوح ﴿ نَفْسَهُ بِأَمْرَيْنِ:

١ - ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾، أي: إني رسول من الله إليكم، أمين في ما بعثني به، أبلغكم رسالاته، لا أزيد فيها، ولا أنقص منها، ﴿ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴾، أي: خافوا عقاب الله وأطيعوني في ما أمركم به من التوحيد، وقدّم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته؛ لأن التقوى هي ملاك الأمر كله في هذه الحياة، وكرر الأمر بها لأنها العمدة في جميع الأعمال، في جب على العامل ملاحظتها إذا أراد الإحسان وتجويد العمل.

٢ - ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل أطلب ثواب ذلك من عند الله، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾، فقد وضع الأمر لكم، وبأن نصحي وأمانتي في ما بعثني الله به واثممني عليه، وسبب التكرير ما علمته من قبل، ونظير هذا ما يقول الوالد لولده: ألا تتقي الله في عقوقي وقدر بيتك صغيراً؟ ألا تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيراً؟ وبعد أن أقام الدليل على صدق رسالته وعظيم نصحه وأمانته لهم أرادوا أن يتصلوا من اتباع دعوته بحجة هي أوهى من بيت العنكبوت.

﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، أي: قالوا كيف نتبعك ونصدقك ونؤمن بك ونتأسى بهؤلاء الأراذل الذين اتبعوك؟ ومرادهم أن هذا لن يكون أبداً وهذه شبهة لا ينبغي لعاقل أن يركن إليها، لأن نوحاً عليه السلام بعث إلى الخلق كافة، لا فارق بين غنى وفقير، وصعلوك وأمير، ولا بين ذوي البيوتات والحسب، وذوي الوضاعة والخسة في النسب، فليس له إلا اعتبار الظواهر، دون التفتيش والبحث عن البواطن، ومن ثم أجابهم: ﴿قَالَ وَمَا عَلِمَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: وأي شيء أعلمني ما كان يعمل أتباعي؟ إنما لى منهم ظاهر أمرهم دون باطنه، فمن أظهر الحسن ظننت به حسناً، ومن أظهر السوء ظننت به ذلك، ولم أكلف العلم بأعمالهم، وإنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان والاعتبار به لا بالحرف والصناعات والفقر والغنى، وهم كأنهم يقولون إن إيمان هؤلاء لم يكن عن نظر صحيح. بل لتوقع مال ورفعة.

ثم أبان أن أمر جزائهم وحسابهم على ربهم لا عليه، فلا يعنيه استقصاء أحوالهم فقال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ﴾، أي: ما حسابهم على ما تحويه سرائرهم إلا على ربهم المطلع عليها لو كنتم من ذوي الشعور والعقل.

ولما جعلوا من موانع إيمانهم اتباع هؤلاء الأراذل كانوا كأنهم طلبوا طردهم فقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: وما أنا بطارد من آمن بالله واتبعني وصدق بما جئت به من عند الله.

ثم بين وظيفة الرسول فقال: ﴿ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾، أي: إنما بعثت منذرا ومخوفاً بأس الله وشديد عذابه، فمن أطاعني كان مني وأنا منه، شريفاً كان أو وضيعاً، جليلاً كان أو حقيراً.

ولما أجابهم بهذا الجواب وأيسوا مما راموا لجئوا إلى التهديد: ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْبُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾، أي: قال قوم نوح ﷺ له: لئن لم تنته عما تدعو إليه من الطعن في آلهتنا لنرجمنك بالحجارة ولنقتلنك بها.

ولما طال مقامه بين ظهرائهم، يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سرا وإعلانياً، وكلما كرر عليهم الدعوة صمّوا آذانهم وصمموا على تكذيبه وتمادوا في عتوهم واستكبارهم؛ استغاث بربه وطلب منه أن يحكم بينه وبينهم وأن يهلكهم كما أهلك المكذبين من قبلهم لرسلمهم وينجيه والمؤمنين به: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَبُونَ ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، أي: إن قومي كذبوني في ما أتيتهم به من الحق من عندك، فاحكم بيني وبينهم حكماً تهلك به المبطل وتنتقم منه؛ وتنصر به الحق وأهله، وفي ذلك إيماء إلى طلب إنزال العذاب بهم كما يرشد إلى ذلك قوله: ﴿ وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، فأجاب الله دعاءه كما قال: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ ﴿ ١١٣ ﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴾، أي: فأنجينا نوحاً ﷺ ومن اتبعه على الإيمان بالله وطاعة رسوله، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره.

وفي قوله: المشحون: إيماء إلى كثرتهم وأن الفلك امتلأ بهم وبما صحبهم، وقد روى أنهم كانوا ثمانين، أربعين رجلاً وأربعين امرأة.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾، أي: إن في إنجاء المؤمنين وإنزال سطوتنا وبأسنا بالكافرين لبرة وعظة لقومك المصدقين منهم والمكذبين، على أن ستننا إنجاء رسلنا وأتباعهم إذا نزلت نقمتنا بالمكذبين من قومهم، وكذلك هي سنتي في ك وفي قومك.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: ومع كل ما حذر به نوح ﷺ وأنذر لم يؤمن به إلا القليل، وفي هذا إيماء إلى أنه لو كان أكثرهم مؤمنين لما عوجلوا بالعقاب.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، أي: وإن ربك لهو العزيز فيانتقامه ممن كفر به وخالف أمره، الرحيم بالتائب منهم أن يعاقبه بعد توبته.

إعراب آيات القصة الواردة في سورة: (الشعراء)

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ﴾، كلام مستأنف مسوق للشروع في حكاية القصة الثالثة، وكذبت قوم نوح المرسلين: فعل وفاعل ومفعول، وأنت الفعل باعتبار معنى: القوم وهو الأمة والجماعة وفي المصباح: القوم: يذكر ويؤنث، في قال: قام القوم وقامت القوم وكذا كل اسم جمع لا واحد له من لفظه نحو رهط ونفر ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفُونَ﴾، الظرف: متعلق بـ ﴿كَذَبَتْ﴾، وجملة ﴿قَالَ﴾: في محل جر بإضافة الظرف إليها، ولهم: متعلقان بـ ﴿قَالَ﴾، وأخوهم: فاعل ﴿قَالَ﴾، ونوح: بدل، وألا: أداة عرض، وتنفون: فعل مضارع وفاعل.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، تعليل لعرضه عليهم الجنوح الى التقوى، وان واسمها ولكم: متعلقان بـ (محذوف حال)، أو: بـ ﴿رَسُولٌ﴾، ورسول: خبر، وأمين: صفة. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾، الفاء: الفصيحة، واتقوا الله: فعل أمر وفاعل ومفعول به، ﴿وَأَطِيعُوا﴾، الفاء: عاطفة، وأطيعوا: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل، والنون: للوقاية والياء: المحذوفة لمرعاة الفواصل مفعول به.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنَّا نَجْزِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، الواو: عاطفة، وما: نافية، وأسألكم: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، وعليه: متعلقان بـ (محذوف حال)، ومن: حرف جر زائد، وأجر: مجرور لفظاً منصوب محلاً لأنه مفعول به، وإن: نافية، وأجري: مبتدأ، وإلا: أداة حصر، وعلى: رب العالمين خبر. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾، تقدم إعرابها قريباً، وقد صدرت القصص الخمس بالأمر بالتقوى للدلالة على اتفاق الأديان السماوية على وجوب معرفة الحق واتباعه، وكررت الجملة نفسها تأكيداً لهذه الغاية السامية.

﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، الهمزة: للاستفهام الإنكاري، ونؤمن: فعل مضارع وفاعله مستتر؛ تقديره: نحن، ولك: متعلقان بـ ﴿نُؤْمِنُ﴾، والواو: للحال، واتبعت الأردلون: فعل ومفعول به وفاعل.

﴿قَالَ وَمَا عَلِمَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، الواو: استئنافية، وما: يحتمل أن تكون: استفهامية، وأن تكون: نافية، فعلى الأول: تكون في محل رفع بالابتداء، وعلمي: خبرها، وبـ ﴿مَا﴾: متعلقان بـ ﴿عَلِمَ﴾، وجملة (كانوا): صلة، ما وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبر كانوا.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾، إن: نافية وحسابهم: مبتدأ، وإلا: أداة حصر، وعليربي: خبر حسابهم ولو: امتناعية، وتشعرون: فعل مضارع مرفوع، وجواب (لو): محذوف؛ كما أن مفعول ﴿تَشْعُرُونَ﴾: محذوف، تقديره: ذلك وتقدير الجواب ما عبتموهم وما نسبتهم إليهم أينقص.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، الواو: عاطفة وما: حجازية، وأنا: اسمها، والباء: حرف جر زائد، وطارذ: مجرور لفظاً؛ خبر: (ما) محلاً والمؤمنين مضاف إليه. ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، إن: نافية، وأنا: مبتدأ، وإلا: أداة حصر، ونذير: خبر، ومبين: صفة.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْبُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، اللام: موطئة للقسم، وإن: شرطية، ولم: حرف نفي وقلب وجزم، وتنته: فعل مضارع مجزوم بلم؛ والفاعل: ضمير مستتر؛ تقديره: أنت، و ﴿لَتَكُونَنَّ﴾، اللام: جواب القسم، وجواب الشرط: محذوف على حسب القاعدة المشهورة:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

وتكونن: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واسم تكونن: ضمير مستتر تقديره: أنت، ومن المرجومين: خبر.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذِبُونَ ﴾، ربّ: منادى مضاف الى ياء المتكلم المحذوفة، وحرف النداء: محذوف، وإن واسمها وجملة ﴿ كَذِبُونَ ﴾: خبرها وكذبون: فعل ماض وفاعل ومفعول به؛ وقد حذفت ياء المتكلم لمراعاة الفواصل.

﴿ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيَ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، الفاء: الفصيحة، وافتح: فعل أمر، معناه: الدعاء، وفاعله: مستتر؛ تقديره: أنت، وبينى: ظرف متعلق بـ ﴿ أَفْتَحَ ﴾، وبينهم: عطف على: ﴿ بَيْنِي ﴾، وفتحاً: يجوز أن يكون: مفعولا مطلقا، ويجوز أن يكون: مفعولا به؛ والفتح: هنا من الفتاحة بمعنى الحكومة، والفتح: الحاكم، سمي: بذلك لفتحته مغالق الأمور، و(نجني)، الواو: عاطفة، ونجني: عطف على: ﴿ أَفْتَحَ ﴾، ﴿ وَمَنْ ﴾، الواو: عاطفة، أو: للمعية، و﴿ مَنْ ﴾، عطف على: الياء، أو: مفعول معه، ومعى: ظرف متعلق بمحذوف صلة ﴿ مَنْ ﴾، ومن المؤمنين: حال.

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾، الفاء: استئنافية وهو من كلامه تعالى، وأنجيناه: فعل ماض وفاعل ومفعول به، ومن: مفعول معه، أو: عطف على: الهاء، ومعه: ظرف متعلق بمحذوف صلة، وفي الفلك: متعلقان بالاستقرار الذي تعلق به الظرف، والمشحون: صفة للفلك، والمشحون: المملوء.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴾، ثم: حرف عطف للتراخي، وأغرقنا: فعل وفاعل، وبعد: ظرف زمان مبني على الضم لانقطاعه عن الإضافة لفظا لا معنى؛ والمراد بعد انجائهم، والباقيين: مفعول ﴿ أَغْرَقْنَا ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾، كلام مستأنف: لبيان العبرة من هذه القصة وإن: حرف مشبه بالفعل، وفي ذلك: خبر مقدم؛ واللام المرحلة وآية: اسم ﴿ إِنَّ ﴾ المؤخر، والواو: عاطفة، أو: حالية، وما: نافية، وكان واسمها ومؤمنين: خبرها؛ يعني أن أكثريتهم الساحقة لم تؤمن ولذلك أخذوا ولو كان نصفهم مؤمنين على الأقل لنجوا.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، الواو: عاطفة، وإن واسمها واللام المزحلقة و﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، أو: مبتدأ، والعزیز: خبر ﴿إِنَّ﴾ أو: ﴿هُوَ﴾، والرحيم: خبر ثان، وقد تقدم إعراب نظائرها مرارا.

سابعاً: ما قاله المفسرون وأصحاب التأويل في سياق القصة في سورة (العنكبوت):

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

١ - ما قاله الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، وهذا وعيد من الله تعالى ذكره هؤلاء المشركين من قريش، القائلين للذين آمنوا: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ (؟)، يقول لنبیه محمد صلی الله علیه و آله: لا يحزنك يا محمد ما تلقى من هؤلاء المشركين أنت وأصحابك من الأذى، فإني وإن أملت لهم فأطلت إملاءهم، فإن مصير أمرهم إلى البوار، ومصير أمرك وأمر أصحابك إلى العلو والظفر بهم، والنجاة مما يحلّ بهم من العقاب، كفعلنا ذلك بنوح عليه السلام، إذ أرسلناه إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى التوحيد، وفراق الآلهة والأوثان، فلم يزدتهم ذلك من دعائه إياهم إلى الله من الإقبال إليه، وقبول ما أتاهم به من النصيحة من عند الله إلا فرارا، وذكر أنه أرسل إلى قومه وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة.

فمن قتادة، قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾، قال: هو الماء الذي أرسل عليهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، يقول: وهم ظالمون أنفسهم بكفرهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

يقول تعالى ذكره: فأنجينا نوحا عليه السلام وأصحاب سفينته، وهم الذين حملهم في سفينته من ولده وأزواجهم وقد بينا ذلك في ما مضى قبل، وذكرنا الروايات فيه، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله تعالى: (وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)، يقول: وجعلنا السفينة التي أنجيناه وأصحابه فيها عبرة وعظة للعالمين وحجة عليهم.

٢ - وقال الإمام الزجاج رحمته الله: قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، فالاستثناء: مُسْتَعْمَلٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وتَأْوِيلُهُ عند النحويين: توكيد العدد وتحصيله وكماله، لأنك قد تذكر الجملة ويكون الحاصل أكثرها، فإذا أردت التوكيد في تمامها قلت كلها، وإذا أردت التوكيد في نقصانها أدخلت فيها الاستثناء، تقول: جاءني إخوانك يعني أنجميعهم جاءك.

وجائز أن تعني أن أكثرهم جاءك، فإذا قلت: جاءني إخوانك كلهم أكذبت معنى الجماعة، وأعلمت أنه لم يتخلف منهم أحد.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، الطوفان: من كل شيء ما كان كثيرا مطيفا بالجماعة كلها كالغرقالذي يشتمل على المدن الكبيرة، يقال فيه طوفان، وكذلك القتل الذريع والموت الجارف طوفان.

٣ - وقال الإمام الماتريدي رحمته الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، يذكر هذا النبأ لوجهين: أحدهما: يصبر رسوله على أذى قومه؛ لأنه ذكر أن نوحا عليه السلام لبث في قومه ألف عام غير خمسين عاما، كان يدعوهم إلى توحيد الله، فلم يجبه إلا نفر من أهله؛ فلم يمنع من الدعاء إلى دين الله ما أوعدوه من المواعيد حيث قالوا: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، ونحو ذلك

من المواعيد، فذلك لم يمنعه عن الدعاء؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْرِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(١).

والثاني: ينقض على المتكشفة مذهبهم؛ لأنهم يقولون: إن الموعدة إنما لا تنجع في الموعوطين لتفريط الواعظ وترك استعمال نفسه ذلك، في قال: إن نوحًا ﷺ قد دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، فلم يجبه إلا نفر؛ فلا يحتمل أن يكون منه تقصير أو تفريط؛ فدل أنها لا تنجع ربما لشقاوة الموعوظ.

وقوله: ﴿فَاخْذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾، قَالَ بَعْضُهُمْ: هو المطر الشديد.

وجائز أن يكون: الطوفان كل بلاء فيه الهلاك.

والطوفان: هو ما أرسل عليهم من الماء فأغرقهم، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾، أي: نوحًا ﷺ، ﴿وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ﴾، من دخل السفينة، ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: جعلها آية، هو أن هلك كل سفينة كانت، وهي ياقية اليوم على ما هي عليه.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً﴾ لمن بعدهم، فتمنعهم عن تكذيب الرسل والعناد معهم.

قال الزجاج: الاستثناء يخرج على تأكيد ما تقدم من الكلام؛ كذكر الكل على أثر ما تقدم من الكلام، أو كلام نحوه.

وقلنا نحن: إن كان ما تقدم من الذكر كافيًا تامًا، في خرج الشيا على أثره مخرج التأكيد لما تقدم؛ نحو قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾^(٥٨) إِلَّا آءَالَ لُوطٍ^(٢)، قوله: ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾: كافٍ تام مفهوم ألا يدخل فيه آل لوط حيث

(١) الآية: رقم ٣٥ من سورة الأحقاف.

(٢) الآية: رقم ٥٨ من سورة الحجر.

ذكر المجرم؛ إذ الله غير مجرمين، فهو كاف مفهوم لا يحتاج إلى ذكر آل لوط، لكنه ذكر على التأكيد له.

وكذلك قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾^(١)، و﴿مُحْصِنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ﴾^(٢)؛ إذا قال: محصنين: يفهم أنهم غير مسافحات ولا متخذات أخدان، لكنه ذكر على التأكيد.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الطوفان كل ماء طاف فاش من سبيل أو غيره؛ وكذلك أن موت الجارف يسمى الطوفان وماء الطوفان، وهو ما ذكر في سورة الأعراف، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هو الغرق، والله أعلم.

٤ - وقال الإمام القشيري رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، أي: ما زادهم طول مقامه فيهم إلا شكاً في أمره، وجهلاً بحاله، ومرية في صدقه، ولم يزد نوح عليه السلام لهم إلا نصحاً، وفي الله إلا صبراً. ولقد عرفه الله أنه لن يؤمن منهم إلا الشر ذمة اليسيرة الذين كانوا قد آمنوا، وأمره باتخاذ السفينة، وأغرق الكفار ولم يغادر منهم أحداً، وصدق وعده، ونصر عبده.. فلا تبديل لستته فينصرة دينه.

٥ - وقال الإمام الواحدي رحمه الله في الوسيط:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ.

(١) الآية: رقم ٢٤ من سورة النساء.

(٢) الآية: رقم ٢٥ من سورة النساء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ ١٠٠ سَنَةً﴾، أقام فيهم يدعوهم إلى الله، ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: قَالَ: بُعِثَ نُوحٌ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، عَاشَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ، وَعَاشَ بَعْدَ الطُّوفَانِ سِتِّينَ سَنَةً حَتَّى كَثُرَ النَّاسُ وَفَشُوا.

وقوله: ﴿فَاخْذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾، قال مقاتل: يعني الماء طفا فوق كل شيء فغرقوا.

وقوله: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، قال ابن عباس: مشركون.

وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾، يعني: نوحا من الغرق، ﴿وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ﴾، الذين كانوا معه فيها، ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، أي: تركنا السفينة عبرة لمن بعدهم من الناس، إن عصوا رسولهم فعلنا بهم مثل ذلك.

٦ - وقال الإمام الزخشي رحمته الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخْذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ١٤ ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

كان عمر نوح عليه السلام ألفا وخمسين سنة، بعث على رأس أربعين، ولبت في قومه تسعمائة وخمسين، وعاش بعد الطوفان ستين، وعن وهب: أنه عاش ألفا وأربعمائة سنة.

فإن قلت: هلا قيل تسعمائة وخمسين سنة؟ قلت: ما أورده الله أحكم، لأنه لو قيل كما قلت، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره، وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك، وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد، إلا أن ذلك أخصر وأعذب لفظاً وأملاً بالفائدة، وفيه نكتة أخرى: وهي أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته وما كابده من طول المصابرة، تسلياً لرسول الله ﷺ.

وتشبيها له، فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه، أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدة صبره.

فإن قلت: فلم جاء المميز أولا بالسنة وثانيا بالعام؟ قلت: لأن تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتجيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك.

والطوفان: ما أطاق وأحاط بكثرة وغلبة، من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما.

٧ - وقال الإمام ابن عطية رحمته الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ.

قصة فيها تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم عما تضمنته الآيات قبلها من تعنت قومه وفتنتهم للمؤمنين وغير ذلك، وفيها وعيد لهم بتمثيل أمرهم بأمر قوم نوح عليه السلام، والواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ عاطفة: جملة كلام على جملة، والقسم فيها بعيد، وقوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿فَلَبِثَ﴾، هذا العطف بالفاء يقتضي ظاهره أنه لبث هذه المدة رسولا يدعو، وقد يحتمل أن تكون: المدة المذكورة مدة إقامته في قومه من لدن مولده إلى غرق قومه، وأما على التأويل الأول: فاختلف في سنيه التي بعث عندها، ف قيل: أربعون، وقيل: ثمانون، وقال عون بن أبي شداد: ثلاثمائة وخمسون، وكذلك يحتمل: أن تكون وفاته صلى الله عليه وسلم عند غرق قومه بعد ذلك بيسير.

وقد روي أنه عمر بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين عاما وأنه عاش ألف سنة وستمائة وخمسين سنة، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾، يقتضي أنه أخذ قومه فقط، وقد اختلف في ذلك، فقالت فرقة: إنما غرق في الطوفان طائفة من الأرض وهي المختصة بقوم نوح عليه السلام، وقالت فرقة: وهي الجمهور: إنما غرقت المعمورة كلها.

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو ظاهر الأمر لاتخاذ السفينة ولبعثه الطير يرتاد زوال الماء ولغير ذلك من الدلائل، وبقي أن يعترض هذا بأن يقال: كيف غرق الجميع والرسالة إلى البعض، فالوجه في ذلك أن يقال: إن اختصاص نبي بأمة ليس هو بأن لا يهدي غيرها ولا يدعوها إلى توحيد الله تعالى، وإنما هو بأن لا يؤخذ بقتال غيرها ولا ببث العبادات فيهم، لكن إذا كانت نبوة قائمة هذه المدة الطويلة والناس حولها يعبدون الأوثان؛ ولم يكن الناس يومئذ كثيرا بحكم القرب من آدم؛ فلا محالة أن دعاءه إلى توحيد الله كان قد بلغ الكل فنالهم الغرق لإعراضهم وتماديهم، والطوفان العظيم الطامي، ويقال ذلك: لكل طام خرج عن العادة من ماء أو نار أو موت ومنه قول الشاعر:

فجاءهم طوفان موت جارف

و(طوفان)، وزنه: فعلا ن بناء مبالغة من طاف يطوف إذا عم من كل جهة، ولكنه كثر استعماله في الماء خاصة، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، يريد: بالشرك، ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾: قد تقدم في غير هذه السورة الاختلاف في عددهم، وهم بنوه وقوم آمنوا معه، والضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾، يحتمل أن: يعود على ﴿السَّفِينَةِ﴾، ويحتمل أن: يعود على العقوبة، ويحتمل أن: يعود على النجاة، والآية هنا العبرة على قدرة الله تعالى في شدة بطشه، قال قتادة: أبقاها آية على الجودي.

٨ - وقال الإمام ابن الجوزي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾.

ففي هذه القصة تسلية للنبي ﷺ حيث أعلم أن الأنبياء قد ابتلوا قبله، وفيها وعيد شديد لمن أقام على الشرك، فانهم وإن أمهلوا، فقد أمهل قوم نوح أكثر ثم أخذوا.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾، فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الموت، فعن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾، قال: (الموت).

والثاني: المطر، قاله ابن عباس وسعيد بن جبيرة وقتادة، قال ابن قتيبة: هو المطر الشديد.

والثالث: الغرق، قاله الضحاك، قال الزجاج: الطوفان من كل شيء: ما كان كثيراً مطيافاً بالجماعة كلها، فالغرقالذي يشتمل على المدن الكثيرة: طوفان، وكذلك القتل الذريع، والموت الجارف: طوفان.

قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾، قال ابن عباس: كافرون.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾، يعني: السفينة، قال قتادة: أبقاها الله تعالى آية للناس بأعلى الجودي.

قال أبو سليمان الدمشقي: وجاز أن يكون أراد: الفعلة التي فعلها بهم من الغرق آية، أي: عبرة للعالمين بعدهم.

٩ - وقال الإمام الرازي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ^(١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ.

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين التكليف وذكر أقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم، وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الأليم، وكان قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصاً بالنبي ﷺ وأصحابه وأمتة حتى صعب عليهم ذلك، بل قبله كان كذلك كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ^(١)،

(١) الآية: رقم ٢ من سورة العنكبوت.

فقد ذكر من جملة من كلف جماعة منهم نوح النبي ﷺ وقومه ومنهم إبراهيم ﷺ وغيرهما، ثم قال تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾، وفي الآية مسألتان: المسألة الأولى: ما الفائدة في ذكر مدة لبثه؟ نقول: كان النبي ﷺ يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الإسلام وإصرارهم على الكفر فقال: إن نوحا ﷺ لبث ألف سنة تقريبا في الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل، وصبر وما ضجر فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك، وأيضا كان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا؛ فبهذا المقدار من التأخير لا ينبغي أن يغتروا فإن العذاب يلحقهم.

المسألة الثانية: قال بعض العلماء: الاستثناء في العدد تكلم بالباقي، فإذا قال القائل لفلان علي عشرة إلا ثلاثة، فكأنه قال علي سبعة، إذا علم هذا فقله: ألف سنة إلا خمسين عاما؛ كقوله: تسعمائة وخمسين سنة، فما الفائدة في العدول عن هذه العبارة إلى غيرها؟ فنقول قال الزمخشري فيه فائدتان: إحداهما: أن الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب، فإن من قال: عاش فلان ألف سنة يمكن أن يتوهم أن يقول: ألف سنة تقريبا لا تحقiquا، فإذا قال: إلا شهرا، أو: إلا سنة؛ يزول ذلك التوهم ويفهم منه التحقيق.

الثانية: هي أن ذكر لبث نوح ﷺ في قومه كان لبيان أنه صبر كثيرا فالنبي ﷺ أولى بالصبر مع قصر مدة دعائه، وإذا كان كذلك فذكر العدد الذي في أعلى مراتب الأعداد التي لها اسم مفرد موضوع، فإن مراتب الأعداد هي الأحاد إلى العشرة والعشرات إلى المائة والمئات إلى الألف، ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير؛ في قال: عشرة آلاف، ومائة ألف، وألف ألف.

قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾.

فيه إشارة إلى لطيفة وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم وإلا لعذب

من ظلم وتاب، فإن الظلم وجد منه، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم، فقوله: وهم ظالمون يعني أهلكهم وهم على ظلمهم، ولو كانوا تركوه لما أهلكهم.

وقوله: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾.

في الراجع إليه الهاء في قوله: جعلناها وجهان: أحدهما: أنها راجعة إلى السفينة المذكورة وعلى هذا ففي كونها آية وجوه: الوجه الأول: أنه اتخذت قبل ظهور الماء ولولا إعلام الله تعالى نوحا ﷺ وإنباؤه إياه به؛ لما اشتغل بها فلا تحصل لهم النجاة.

الوجه الثاني: أن نوحا ﷺ أمر بأخذ قوم معه ورفع قدر من القوت والبحر العظيم لا يتوقع أحد نضوبه، ثم إن الماء غيض قبل نفاد الزاد ولولا ذلك لما حصل النجاة فهو بفضل الله لا بمجرد السفينة.

الوجه الثاني: أن الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح المرجفة والحيوانات المؤذية، ولولا ذلك لما حصلت النجاة.

والثاني: أنها راجعة إلى الواقعة، أو: إلى النجاة، أي: جعلنا الواقعة أو النجاة ﴿ آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾.

١٠ - وقال الإمام السمين الحلبي:

قوله تعالى: ﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾، فقوله: ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾: منصوبٌ على الظرف، ﴿ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾: منصوبٌ على الاستثناء، وفي وقوع الاستثناء من أسماء العدد خلافٌ، وللمانعين منه جوابٌ عن هذه الآية، وقد رُوِيَتْ هنا نكتةٌ لطيفةٌ: وهو أنْ غايرَ بين تمييزي العددين فقال في الأول: ﴿ سَنَةٍ ﴾، وفي الثاني: ﴿ عَامًا ﴾، لثلاثِ ثقلِ اللفظ.

ثم إنه خصَّ لفظَ العامِ بالخمسين إيداناً بأنَّ نبيَّ اللَّهِ ﷺ لَمَّا استراح منهم بقيَ

في زمنٍ حسنٍ، والعربُ تُعَبِّرُ عن الخِصْبِ بالعام، وعن الجَدْبِ بالسَّنةِ قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾، أي: العقوبة أو الطَّوْفَةُ، ونحو ذلك.

١١ - وقال الإمام البقاعي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾، أي: على ما لنا من العظمة المغنية عن الرسالة؛ إجراءً للأمور على ما تقتضيه هذه الدار من حكمة التسبب ﴿نُوحًا﴾، أي: أول رسل الله الخافقين من العباد، وهو معنى: ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾، فإن الكفر كان قد عم أهل الأرض، وكان ﷺ أطول الأنبياء بلاء بهم، ولذلك قال مسبباً عن ذلك ومعقباً: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ﴾، أي: بعد الرسالة يدعوهم إلى الله، وعظم الأمر بقوله: ﴿أَلْفَ﴾، فذكر رأس العدد الذي لا رأس أكبر منه، وعبر بلفظ: ﴿سَنَةٍ﴾ ذمّاً لأيام الكفر، وقال: ﴿إِلَّا خَمْسِينَ﴾، فحقق أن ذلك الزمان تسعمائة وخمسون من غير زيادة ولا نقص مع الاختصار والعذوبة، وقال: ﴿عَامًا﴾، إشارة إلى أن زمان حياته عليه الصلاة والسلام بعد إغراقهم كان رغداً واسعاً حسناً بإيمان المؤمنين وخصب الأرض.

ولما كان تكرير الدعاء مع عدم الإجابة أدل على الامتثال وعدم الملل، قال مسبباً عن لبثه فيهم ودعائه لهم ومعقباً له: ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾، أي: كلهم بالإغراق أخذ قهر وغلبة ﴿الطُّوفَاتِ﴾، أي: من الماء، لأن الطوفان في الأصل لكل فاشٍ طامٌ محيطٌ غالبٌ ممتلئٌ كثرةً وشدةً وقوةً؛ من سيل أو ظلام أو موت أو غيرها، والمراد هنا الماء، ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، أي: عريقون في هذا الوصف، وهو وضع الأشياء في غير مواضعها؛ فعل من يمشي في أشد الظلام، بتكذيبهم رسولهم، وإصرارهم على كفرهم، وهو ملازم لدعائهم ليلاً ونهاراً؛ لم يرجع منهم عن الضلال إلا ناسقلتهم لا يعدون؛ ودل عليهم مسبباً عن ذلك بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾، أي: نوحاً ﷺ بما لنا من العظمة التي لا يغلبها شيء؛ ﴿وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ﴾، من أولاده وأتباعه، من الغرق، وماذا يبلغ مقدار أهل سفينة واحدة في العدة والكثرة، ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾، أي: الفعلة أو السفينة، أي: نفسها وجنسها، بتلك العظمة

﴿ آيَةً ﴾، أي: علامة على قدرة الله وعلمه وإنجائه للطائع وإهلاكه للعاصي؛ ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾، فإن لم يقع في الدهر حادثة أعظم منها ولا أغرب ولا أشهر في تطبيق الماء جميع الأرض، بطولها والعرض، وإغراق جميع من عليها من حيوان: إنسان وغير إنسان، وإنجاء ناس فيهم بما هياً قبل الفعل من سبب ذلك المستمر نفعه على تكرار الأحقاب وتعاقب الأزمان، وكونها آية أما للآدميين الذين كانوا في ذلك الزمان فالأمر فيهم واضح، وأما غيرهم من الحيوان فقد عرفوا لمعرفةهم بالجزئيات المشاهدة أن ذلك الماء لا ينجي منه في دار الأسباب إلا هذه السفينة، فالهداية إلى فعلها للنجاة قبل وقوع سبب الهلاك دالة على تمام العلم وشمول القدرة، وأن من اهتدى إليه دون أهل ذلك العصر كلهم إنما اهتدى بإعلام الله دون غيره، فنصف الآية الأولى الأول من هذه القصة تسليية وتعزية دليلاً على آتبي الفتنة أول السورة، ونصفها الثاني تحذير وتوقية، وفيه دليل على الآية الثالثة، والآية الثالثة، والآية الأخرى تبشير وترجية، وفيه دليل على ما بعد.

* * *

إعراب آيات القصة الواردة فيه سورة: (العنكبوت)

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾: كلام مستأنف مسوق لتأييد التكليف الذي ألزم محمد ﷺ به أتباعه، أي: أنه ليس مختصا بالنبي ﷺ وأتباعه واللام جواب للقسم المحذوف، وقد حرف تحقيق، وأرسلنا: فعل وفاعل، ونوحا: مفعول به، والى قومه: متعلقان بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، فلبث: الفاء: عاطفة، ولبث: فعل ماض وفاعله مستتر؛ تقديره: هو يعود على نوح ﷺ، وفيهم: متعلقان بـ ﴿لَبِثَ﴾، وألف سنة: نصب على الظرف؛ لأنه عدد أضيف الى الظرف فأخذ منه ظرفي ته؛ وهو متعلق بـ ﴿لَبِثَ﴾ أيضا، وإلا: أداة استثناء، وخمسين: منصوب على الاستثناء، وعاما: تمييز؛ وقد روعيت هنا نكتة نذكرها في باب البلاغة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، الفاء: عاطفة، وأخذهم الطوفان: فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر، والواو: حالية، وهم: مبتدأ، وظالمون: خبر.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، الفاء: عاطفة، وأنجيناه: فعل وفاعل ومفعول به، وأصحاب: عطف على الهاء؛ أو: مفعول معه، وجعلناها: الواو: عاطفة، وجعلناها: فعل وفاعل ومفعول به، آية: مفعول به ثان، وللعالمين: صفة لآية.

البلاغة:

١ - نكتة العدد: وذلك في قوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، فإن الإخبار بهذه الصيغة يمهد عذر نوح ﷺ في دعائه على قومه بدعوة أهلكتهم عن

آخرهم، إذ لو قيل: فلبث فيهم تسعمائة وخمسين عاما لما كان لهذه العبارة من التهويل ما للعبارة الأولى؛ لأن لفظة الألف في العبارة الأولى في أول ما يطرق السمع في شغل بها عن سماع بقية الكلام من الاستثناء؛ وإذا راجع الاستماع لم يبق للاستثناء بعد ما تقدمه وقع يزيل ما حصل عنده من ذكر الألف؛ فتعظم كبيرة قوم نوح ﷺ في إصرارهم على المعصية مع طول مدة الدعاء.

وعبارة الزمخشري في صدد هذا العدد: (فإن قلت هلا قيل تسعمائة وخمسين سنة؛ قلت: ما أورده الله أحكم لأنه لو قيل كما قلت: لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره، وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك، وكأنه قيل تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد؛ إلا أن ذلك أخصر وأعذب لفظاً وأملاً بالفائدة.

وفيه نكتة أخرى: وهي أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلي به نوح ﷺ من أمته وما كابدته من طول المصابرة تسلياً لرسول الله ﷺ وتثبيتاً له، فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدة صبره).

وفيه نكتة ثانية في العدد: وهناك نكتة ثانية وهو أنه غاير بين تمييز العديدين فقال في الأول: ﴿سَنَةٍ﴾، وقال في الثاني: ﴿عَامًا﴾، لئلا يثقل اللفظ ثم أنه خص لفظ العام بالخمسين إيداناً بأن نبي الله ﷺ لما استراح منهم بقي في زمن حسن والعرب تعبر عن الخصب بالعام وعن الجذب بالسنة.

وهناك نكتة ثالثة في العدد: وهناك نكتة ثالثة اكتشفها الرازي قال: (فإن قلت ما الفائدة في مدة لبثه؟ قلت: كان رسول الله ﷺ يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الإسلام فقال له الله تعالى: إن نوحاً ﷺ لبث في قومه هذا العدد الكبير ولم يؤمن من قومه إلا القليل؛ فصبر وما ضجر فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك).

ثامناً: ما قاله المفسرون وأصحاب التأويل في سياق القصة في سورة (الصفات):
 قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَبَجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (٧٧) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨) ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٧٩) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾.

١ - ما قاله الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾.

يقول تعالى ذكره: لقد نادانا نوح ﷺ بمسألته إيانا هلاك قومه، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ (٥) ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ (١)، إلى قوله ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾ (٢).

فقوله: ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾، يقول: فلنعم المجيبون كنا له إذ دعانا، فأجبنا له دعاءه، فأهلكنا قومه، ﴿وَبَجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾، يعني: أهل نوح ﷺ الذين ركبوا معه السفينة، وقد ذكرناهم في ما مضى، وبيننا اختلاف العلماء في عددهم.

- فعن قتادة: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾، قال: أجابه الله، وقوله: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، يقول: من الأذى والمكروه الذي كان فيهم الكافرين، ومن كرب الطوفان والغرق الذي هلك به قوم نوح.

- فعن السدي: ﴿وَبَجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، قال: من الغرق.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، يقول: وجعلنا ذرية نوح ﷺ هم الذين بقوا في الأرض بعد مهلك قومه، وذلك أن الناس كلهم من بعد مهلك نوح ﷺ إلى اليوم إنما هم ذرية نوح ﷺ، فالعجم والعرب:

(١) الآيتان: رقم ٦٥ من سورة نوح.

(٢) الآية: رقم ٢٦ من سورة نوح.

أولاد سام بن نوح ﷺ، والترك والصقالبة والخزر: أولاد يافث بن نوح ﷺ، والسودان: أولاد حام بن نوح ﷺ، وبذلك جاءت الآثار، وقالت العلماء.

- وعن قتادة، عن الحسن، عن سُمرة، عن النبي ﷺ، في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾، قال: (سام وحام ويافث).

- وعن قتادة، في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾، قال: فالناس كلهم من ذرية نوح.

- وعن ابن عباس، في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾، يقول: لم يبق إلا ذرية نوح.

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾، وأبقينا عليه، يعني: على نوح ﷺ ذكرا جميلا وثناء حسنا في الآخرين، يعني: في من تأخر بعده من الناس يذكرونه به.

- فعن ابن عباس، قوله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾، يقول: يُذكر بخير.

- وعن مجاهد، في قوله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾، يقول: جعلنا لسان صدق للأنبياء كلهم.

- وعن قتادة في قوله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾، قال: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين.

- وعن السدي، قوله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾، قال: الثناء الحسن.

وقوله: ﴿ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾، يقول: أمنة من الله لنوح ﷺ في العالمين أن يذكره أحد بسوء، وسلام: مرفوع بـ ﴿ عَلَى ﴾، وقد كان بعض أهل العربية من أهل الكوفة يقول: معناه: وتركنا عليه في الآخرين، ﴿ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ ﴾، أي: تركنا عليه هذه الكلمة، كما تقول: قرأت من القرآن ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، فتكون

الجملة في معنى: نصب، وترفعها ب (اللام)، كذلك: ﴿سَلَّمْ عَلَى نُوحٍ﴾، ترفعه ب ﴿عَلَى﴾، وهو في تأويل نصب، قال: ولو كان: تركنا عليه سلاما، كان صوابا.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، يقول تعالى ذكره: إنا كما فعلنا بنوح ﷺ مجازاة له على طاعتنا وصبره على أذى قومه في رضانا، ﴿وَجَعَلْنَا أَهْلَهُ مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ: وأبقينا عليه ثناء في الآخرين، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي﴾ الذين يحسنون في طيعونا، وينتهون إلى أمرنا، ويصبرون على الأذى فينا.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: إن نوحا ﷺ من عبادنا الذين آمنوا بنا، فوحدونا، وأخلصوا لنا العبادة، وأفردونا بالألوهة.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾، يقول تعالى ذكره: ثم أغرقنا حين نجينا نوحا ﷺ وأهله من الكرب العظيم من بقي من قومه.

فعن قتادة: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾، قال: أنجاه الله ومن معه في السفينة، وأغرق بقية قومه.

٢ - وقال الإمام الماتريدي رحمه الله:

وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحَ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾.

قَالَ بَعْضُهُمْ: حين دعا ربه فقال ﷻ: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾، فكأنه إنما دعا ربه بالهلاك على قومه، فأجاب الله دعاءه، وهو ما قال ﷻ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿؟﴾، إلى آخر ما ذكر.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا أَهْلَهُ مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ٧٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ.

ثمة أمران الرسل ﷺ هم مخصصون بهما من بين غيرهم من الناس: - أحدهما: أن ليس لهم الدعاء على قومهم بالهلاك وسؤال العذاب عليهم إلا بعد

مجيء الإذن لهم من الله ﷻ بالدعاء عليهم، فنوح ﷺ إنما دعا ربه بإنزال الهلاك عليهم بالإذن من ربه.

- والثاني: لم يكن لهم الخروج من بين أظهرهم عند نزول العذاب بهم إلا بإذن من الله ﷻ على ذلك؛ ولذلك جاء العتاب ليونس ﷺ والتعير لما خرج من بينهم عند نزول العذاب بلا إذن كان من ربه حيث قال ﷻ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَكَاذَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١)، هما خصلتان لهم خاصة صلوات الله عليهم، وأما لغيرهم من أهل الدين فلهم أن يدعوا على الفجرة والفسقة منهم باللعن والهلاك، فلهم أن يفروا منهم، وأن يخرجوا من بين أظهرهم؛ لفسقهم وفجورهم، وكان هذا يعد من صالح الأعمال لهم.

وقوله ﷻ: ﴿فَلَنَعِمَ الْمُجِيبُونَ﴾.

وهو الرب تبارك وتعالى ذكر المجيب على الجماعة: إنا نفعل كذا، وفعلنا كذا، وهو كلام الملوك في ما بينهم، ثم كل فعل يضاف إلى الله تعالى يشاركه فيه غيره أو ينسب يزداد فيه شيء يكون فاصلا، وذلك بينه وبين فعل غيره؛ نحو ما قال ﷻ في موضع آخر: ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾^(٢)، ونحو قوله: ﴿عَلِمُوا﴾^(٣)، لا كالعلماء ونحوه مما يكثر ذلك؛ لأنه قادر على وفاء ما وعد وأخبر وإنجاز ذلك لا يعجزه شيء، وغيره من الخلائق لعلهم لا يقدرُونَ على وفاء ذلك والقيام بإنجاز ما وعدوا؛ لذلك كان ما ذكر، والله أعلم.

وقوله ﷻ: ﴿وَنَجِّنُهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، يحتمل: نجاته من الكرب العظيم هو دعاؤه قومه إلى توحيد الله ﷻ تسعمائة وخمسين سنة، وما قاساه منهم

(١) الآية: رقم ٨٧ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية: رقم ٤٥ من سورة هود.

(٣) الآية: رقم ٧٣ من سورة الأنعام.

من أنواع الأذى من التكذيب وغيره، فأنجاه الله من كرب ذلك حين أهلكهم، ويحتمل: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، هو القول الشديد وهو الغرق، أغرق قومه وأنجاه منه، وسماه: عظيمًا؛ لشدة ما أصابهم.

وقوله ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، أي: جعلنا ذرية نوح ﷺ من بين سائر ولد آدم وذريتهم هم الباقين، وأهلكنا غيرهم؛ ولذلك كان بقاء نسله إلى يومنا هذا وهلك نسل غيره، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾، يشبه أن يكون ما ذكر: أنه ترك في الآخرين ما ذكر على أثره من السلام حيث قال ﷺ: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾، أي: أبقينا عليه الثناء الحسن في الآخرين حتى يثنوا عليه جميعًا ويصدقوه ويقولوا فيه خيرًا وحسنًا، والله أعلم.

ويحتمل ما قال بعضهم: سلام الله على نوح ﷺ في العالمين، وسلم إليه جميع العالمين في جميع الأوقات، كما سلم عيسى ﷺ على نفسه حيث قال: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾^(١)، وما سلم على يحيى ﷺ حيث قال: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾^(٢)، ذكر السلام عليهما في أوقات ثلاثة وفينوح في الأوقات كلها، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إنا هكذا نجزي كل محسن، فجزاه الله بإحسانه إلينا الحسن في العالمين، رغب الناس في الإحسان: إما إلى الخلق، وإما إلى أنفسهم، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿إِنَّهُ، مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، وليس في ذكره أنه من المؤمنين كثير

(١) الآية: رقم ٣٣ من سورة مريم.

(٢) الآية: رقم ١٥ من سورة مريم.

منفعة له وهو من أولي العزم من الرسل، لكن يحتمل ذكره إياه أنه من المؤمنين وجوهاً: أحدها: أنه من عبادنا المؤمنين قبل الرسالة وقبل أن يبعث رسولا، أي: لم يصر مؤمناً وقت الرسالة، ولكن كان لم يزل مؤمناً قبل الرسالة.

والثاني: أنه من عبادنا المؤمنين بك يا مُحَمَّدٌ؛ يذكر هذا ليسر به ﷺ ويفرح عليه، والرسل ﷺ جميعاً يؤمن بعضهم ببعض.

والثالث: أنه كان من عبادنا المؤمنين المحققين الموفين، أي: وفاء ما اعتقد بلسانه، وهكذا كان الرسل كلهم موفين ما اعتقدوا وأعطوا بلسانهم، وهكذا يعتقد كل مؤمن في أصل إيمانه واعتقاده ألا يعصي ربه، وألا يخالفه في شيء من أموره ونواهيه، لكنه لا يفي ما اعتقده فعلاً؛ بل يقع ربما في معاصيه وفي مخالفة أمره ونهيه، والله أعلم.

٣ - وقال الإمام الماوردي رحمه الله:

قوله ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحَ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾، أي: دعانا، ودعاؤه كان على قومه عند إياسه من إيمانهم، وإنما دعا عليهم بالهلاك بعد طول الاستدعاء لأمرين: أحدهما: ليظهر الله الأرض من العصاة.

الثاني: ليكونوا عبرة يتعظ بها من بعدهم من الأمم.

وقوله: ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾، يحتمل وجهين: أحدهما: فلنعم المجيبون لنوح في دعائه.

الثاني: فلنعم المجيبون لمن دعا لأن التمدح بعموم الإجابة أبلغ.

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾، قال قتادة: كانوا ثمانية: نوح وثلاثة بنين ونساؤهم، أربعة رجال وأربعة نسوة. وقوله: ﴿ مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴾، فيه وجهان: أحدهما: من غرق الطوفان، قاله السدي.

الثاني: من الأذى الذي كان ينزل من قومه، حكاه ابن عيسى.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، قال ابن عباس: والناس كلهم بعد نوح من ذريته.

قوله ﷺ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾، فيه ثلاثة أوجه: أحدها: معناه أبقى الله الشئ الحسن في الآخرين، قاله قتادة.

الثاني: لسان صدق للأنبياء كلهم، قاله مجاهد.

الثالث: هو قوله: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾، قاله الفراء.

٤ - وقال الإمام الزخشي رحمه الله:

لما ذكر الله تعالى إرسال المنذرين في الأمم الخالية وسوء عاقبة المنذرين، أتبع ذلك ذكر نوح ﷺ ودعائه إياه حين أيس من قومه، واللام: الداخلة على نعم جواب قسم محذوف، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: فو الله لنعم المجيئون نحن، والجمع دليل العظمة والكبرياء، والمعنى: إنا أجبناه أحسن الإجابة، وأوصلها إلى مراده وبغيته من نصرته على أعدائه والانتقام منهم بأبلغ ما يكون، ﴿هُمُ الْبَاقِينَ﴾: هم الذين بقوا وحدهم وقد فنى غيرهم، فقد روي أنه مات كل من كان معه في السفينة غير ولده، أو: هم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ من الأمم هذه الكلمة، وهي: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ﴾، يعنى: يسلمون عليه تسليماً، ويدعون له، وهو من الكلام المحكي، كقولك: قرأت سورة أنزلناها.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾؟ قلت: معناه: الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً، وأن لا يخلو أحد منهم منها، كأنه قيل: ثبت الله التسليم على نوح ﷺ وأدامه في الملائكة والثققلين يسلمون عليه عن آخرهم، وعلل مجازاة نوح ﷺ بتلك التكرمة السنية من تبقية ذكره، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان

محسنا، ثم علل كونه محسنا بأنه كان عبدا مؤمنا، ليريك جلاله محل الإيمان، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم، ويرغبك في تحصيله والازدياد منه.

٥ - وقال الإمام ابن عطية رحمه الله:

مثل تعالى لقريش في هذه الآية بالأمم التي ضلت قديما وجاءها الإنذار وأهلكها الله بعذابه، وقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (؟)، يقتضي الإخبار بأنه عذبهم، ولذلك حسن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ﴾ (؟)، ونداء نوح عليه السلام قد تضمن أشياء منها الدعاء على قومه، ومنها سؤال النجاة ومنها طلب النصر، وفي جميع ذلك وقعت الإجابة، وقوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾، يقتضي الخبر بأن الإجابة كانت على أكمل ما أراد نوح عليه السلام، و﴿الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، قال السدي: هو الغرق.

قال القاضي أبو محمد: ومن الكَرْبِ تكذيب الكفرة وركوب الماء وهولُه، قال الرماني: الكَرْبِ: الحر الثقيل على القلب، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، قال ابن عباس وقتادة: أهل الأرض كلهم من ذرية نوح، وروي عن سمرة بن جندب أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، فقال: (سام وحام ويافت)، وقالت فرقة: إن الله تعالى أبقي ذرية نوح ومد نسله وبارك في ضئضئه وليس الأمر بأن أهل الأرض انحصروا إلى نسله بل في الأمم من لا يرجع إليه، والأول أشهر عند علماء الأمة وقالوا نوح عليه السلام هو آدم الأصغر، وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾، معناه: ثناء حسنا جميلا آخر الدهر، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي، وقوله: ﴿سَلَّمَ﴾، على هذا التأويل رفع بالابتداء مستأنف سلم الله به عليه ليقتي بذلك البشر، قال الطبري: هذه أمانة منه لنوح في العالمين أن يذكره أحد بسوء.

قال القاضي أبو محمد: هذا جزاء ما صبر طويلا على أقوال الكفرة الفجرة، وقال الفراء وغيره من الكوفيين: قوله: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾، جملة في موضع نصب بـ ﴿تَرَكْنَا﴾، وهذا هو المتروك عليه، فكأنه قال: وتركنا على نوح

تسليماً يسلم به عليه إلى يوم القيامة، وفي قراءة عبد الله (سلاماً على نوح)، على
النصب بـ ﴿ تَرْكَنَا ﴾، صلى الله على نوح ﷺ وعلى أهله وسلم تسليماً وشرف
وكرم وعلى جميع أنبيائه، و﴿ فِي الْآخِرِينَ ﴾، معناه: في الباقيين غابر الدهر، والقراءة:
بكسر الخاء وما كان من إهلاك فهو بفتحها.

قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ ﴾: إشارة إلى إنعامه على نوح بالإجابة كما اقترح، وأثنى
تعالى على نوح ﷺ بالإحسان، لصبره على أذى قومه ومطاولته لهم وغير ذلك
من عبادته وأفعاله ﷺ، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴾، يقتضي أنه أغرق
قوم نوح ﷺ وأمته ومكذبيه، وليس في ذلك نص على أن الغرق عم جميع أهل
الأرض، ولكن قد قالت جماعة من العلماء وأسندت أحاديث بأن الغرق عم جميع
الناس إلا من كان معه في السفينة، وعلى هذا ترتب القول بأن الناس اليوم من
ذريته، وقالوا: لم يكن الناس حينئذ بهذه الكثرة لأن عهد آدم كان قريباً، وكانت
دعوة نوح ﷺ ونبوءته قد بلغت جميعهم لطول المدة واللبث فيهم فكان الجميع
كفرة عبدة أوثان لم يثنهم الحق إلى نفسه فلذلك أغرق جميعهم.

٦ - وقال الإمام الرازي رحمه الله:

اعلم أنه تعالى لما قال من قبل: ﴿ وَلَقَدْ صَلَّ بِلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾^(١)،
وقال: ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾^(٢)، أتبعه بشرح وقائع الأنبياء ﷺ
فالقصة الأولى: حكاية حال نوح ﷺ وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾،
فيه مباحث: المبحث الأول: أن اللام في قوله: ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾: جواب قسم
محذوف والمخصوص بالمدح محذوف، أي: فلنعم المجيبون نحن.

المبحث الثاني: أنه تعالى ذكر أن نوحاً ﷺ نادى ولم يذكر أن ذلك النداء في أي

(١) الآية: رقم ٧١ من سورة الصافات.

(٢) الآية: رقم ٧٣ من سورة الصافات.

الوقائع كان؟ لا جرم حصل فيه قولان: القول الأول: وهو المشهور عند الجمهور أنه نادى الرب تعالى في أن ينجيه من محنة الغرق وكرب تلك الواقعة.

والقول الثاني: أن نوحاً ﷺ لما اشتغل بدعوة قومه إلى الدين الحق بالغوا في إيذائه وقصدوا قتله، ثم إنه ﷺ نادى ربه واستنصره على كفار قومه، فأجابه الله تعالى ومنعهم من قتله وإيذائه، واحتج هذا القائل على ضعف القول الأول؛ بأنه ﷺ إنما دعا عليهم لأجل أن ينجيه الله تعالى وأهله، وأجاب الله دعاءه فيه فكان حصول تلك النجاة كالمعلوم المتيقن في دعائه، وذلك يمنع من أن يقال المطلوب من هذا النداء حصول هذه النجاة.

ثم إنه تعالى لما حكى عن نوح أنه ناداه قال بعده: ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾، وهذه اللفظة تدل على أن تلك الإجابة كانت من النعم العظيمة، وبيانه من وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحَ ﴾، والقادر العظيم لا يليق به إلا الإحسان العظيم.

والوجه الثاني: أنه أعاد صيغة الجمع في قوله: ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾، وذلك أيضاً يدل على تعظيم تلك النعمة؛ لا سيما وقد وصف تلك الإجابة بأنها نعمت الإجابة.

والوجه الثالث: أن الفاء في قوله: ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾، يدل على أن حصول هذه الإجابة مرتب على ذلك النداء، والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضي كونه معللاً به، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص سبب لحصول الإجابة.

ثم إنه تعالى لما بين أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال، بين أن الإنعام حصل في تلك الإجابة من وجوه:

النعمة الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾، وهو على القول الأول: الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق، وعلى الثاني: الكرب الحاصل من أذى قومه.

والنعمة الثانية: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ﴾، يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته فقد فنوا.

والنعمة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨) سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾، يعني: يذكرون هذه الكلمة، فإن قيل فما معنى قوله: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾؟ قلنا معناه: الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم؛ جميعاً أي لا يخلو أحد منهم منها، كأنه قيل: أثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين في سلمون عليه بكليتهم. ثم إنه تعالى لما شرح تفاصيل إنعامه عليه قال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، والمعنى: أنا إنما خصصنا نوحاً ﷺ بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوءة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن في السنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسناً، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً لله مؤمناً، والمقصود منه بيان أن أعظم الدرجات وأشرف المقامات الإيمان بالله والانقياد لطاعته.

٧ - وقال الإمام البقاعي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا﴾ لما لنا من العظمة ﴿نُوحٌ﴾، بقوله: ﴿إِنِّي مَعْلُوبٌ﴾، فأنصّر، ونحوه مما أخبر الله عنه به بعد أمور عظيمة لقيها منهم من الكروب، والشدائد والخطوب، لنكشف عنه ما أعياه من أمرهم.

ولما أغنت هذه الجملة عن شرح القصة وتطويلها، وكان قد تسبب عن دعائه إجابته، قال بالتأكيد بالاسمية والإشارة إلى القسم والأداة الجامعة لكل مدح وصيغة العظمة؛ إلى أن هول عذابهم وعظم مصابهم بلغ إلى أنه مع شهرته لا يكاد يصدق، فهو يحتاج إلى اجتهد كبير وشدة اعتناء، فكانت الإجابة إجابة من يفعل ذلك، وإن كانت الأفعال بالنسبة إليه سبحانه على حد سواء، لا تحتاج إلى غير مطلق الإرادة: ﴿فَلَنَعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾، أي: كنا بما لنا من العظمة له ولغيره ممن كان نعم المجيب لنا، هذه صفتنا لا تغير لها.

ولما كان معنى هذا: فأجبناه إجابة هي النهاية في استحقاق على المادح من إيصاله إلى مراده من حملة وحمل من آمن به والانتقام ممن كذبه كما هي عادتنا دائماً، عطف عليه قوله: ﴿ وَنَجِّنَاهُ ﴾، أي: بما لنا من العظمة؛ ﴿ وَأَهْلَهُ ﴾، أي: الذين وافقوه في الدين ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾، وهو الأذى من الغرق، ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ ﴾، أي: خاصة، ﴿ الْبَاقِينَ ﴾، لأن جميع أهل الأرض غرقوا فلم يبق منهم أحد أصلاً، وأهل السفينة لم يعقب منهم أحد غير أولاده، فأثبناه على نزاهته إن كان هو الأب الثاني، فالعرب والعجم: أولاد سام، والسودان: أولاد حام، والترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج: أولاد يافث، فكل من تبع سبته في الخير كان له مثل أجره.

ولما ذكر لأنه بارك فينسله، أعلم أنه أدام ذكره بالخير في أهله فقال: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ ﴾، أي: ثناء حسناً، لكنه حذف المفعول وجعله لازماً، فصار المعنى: أوقعنا عليه الترك بشيء هو من عظمتته وحسن ذكره بحيث يعز وصفه ﴿ فِي الْآخِرِينَ ﴾، أي: كل من تأخر عن زمانه إلى يوم الدين.

ولما كان قد كتب الله في القدم سلامته من كل سوء؛ على كثرة الأعداء وطول الإقامة فيهم وشدة الخلاف قال تعالى مستأنفاً مادحاً: ﴿ سَلَامٌ ﴾، أي: عظيم ﴿ عَلَى نُوحٍ ﴾ من كل حي من الجن والأنس والملائكة لسلام الله عليه.

ولما كان لسان جميع أهل الأرض في زمانه ﷺ واحداً، فكانوا كلهم قومه، ولم يكن في زمانه نبي، فكانت نبوته قطب دائرة ذلك الوقت، فكان رسالته عامة لأهله، وكان غير الناس من الخلق لهم تبعاً، خصه في السلام بأن قال: ﴿ فِي الْعَالَمِينَ ﴾، أي: مذكور فيهم كلهم لفظاً ومعنى يسلم عليه دائماً إلى أن تقوم الساعة، وخصوصية نبينا ﷺ بأنه أرسل إلى جميع الخلق مع اختلاف الألسنة ومع استمرار الرسالة أبد الآباد، وكون شريعته ناسخة غير منسوخة، وكون جميع الخلق في القيامة تحت لوائه، فهناك يظهر تمام ما أوتيته من عموم البعثة إلى ما ظهر منه في الدنيا.

ولما كان التقدير: فعلنا به ذلك لإحسانه، وكان الضالون ينكرون أن تنجو الدعاء إلى الله وأتباعهم منهم، أخبر في سياق التأكيد أنه يفعل بكل محسن ما فعل به فقال: ﴿إِنَّا﴾، أي: على عظمتنا، ﴿كَذَلِكَ﴾، أي: مثل ذلك الجزاء بالذكر الحسن والنجاة من كل سوء؛ ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: الذين يتجردون من الظلمات النفسانية إلى الأنوار الملكية بحيث لا يغفلون عن المعبود، ولا ينفكون لحظة عن الشهود.

ولما أفهمت هذه الجملة «ولا بد» إحسانه إلى المحسن، علل ما أفهمته بقوله: مؤكداً إظهاراً للإقبال عليه بأن ذكره مما يرغب فيه، وتكديماً لمن كذبه: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، أي: الذين هم أهل لأن نضيفهم إلى مقام عظمتنا؛ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: الراسخين في هذا الوصف، المتمكنين فيه، فعلم أن الإيمان هو المراد الأقصى من الإنسان لأنه علل الإنجاء بالإحسان والإحسان بالبيان، ولما أفهم تخصيص ذريته بالبقاء إهلاك غيرهم، وقدم ما هو أهل له من مدحه اهتماماً به وترغيباً في مثله، أخبر عن أعدائه بأنه أوقع بهم لأنهم لم يتحلوا بما كان سبب سعادته من الإيمان بقوله: مشيراً إلى العظمة التي أوجدها سبحانه في إغراقهم بأداة التراخي: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا﴾، أي: بما لنا من العظمة التي لا يقوم لها شيء؛ ﴿الْآخِرِينَ﴾، أي: الذي غايروه في الأقوال والأفعال فاستحقوا أضداد أفعالنا معه؛ وهم أهل الأرض كلهم غير أهل السفينة؛ وكلهم قومه كما هو ظاهر الآيات إذا تؤمل تعبيرها عن الدعوة والإغراق ودعائه ﷺ عليهم، وظاهر ما رواه الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن الناس يقولون: (اتنوا نوحاً أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض)، وإنما كانوا قوماً لا أكثر، لأنهم كانوا على لسان واحد قبل بليلة الألسن باتفاق أهل التأريخ، وذلك كما أن العرب يطلق عليهم كلهم على انتشارهم واتساع بلادهم أنهم قوم، لاجتماعهم في اللسان مع أنهم قبائل لا يحصيهم العد، ولا يجمعهم نسب واحد إلا في إسماعيل عليه السلام، وقيل في ما فوقه، فإن النسابين أجمعوا على أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، قالوا: هو من ولد عدنان، واختلفوا في قحطان

أبي اليمن وكذا ثقيف، فقيّل: هما من ولد إسماعيل ﷺ، وقيل لا، ثم من قال: إن ثقيفاً من ولد إسماعيل ﷺ، قالوا: هو من ولد عدنان، وقال بعضهم: لا، ثم إن من ولد عدنان ربيعة ومضر، ومن دون مضر كنانة وهذيل والقارة وخزاعة وأسد وتميم ومزينة والرباب وضبة وقيس، ودون ذلك باهلة وأشجع وفزارة وكنانة وقريش وخلائق، ومن دون ربيعة بكر بن وائل وغيرهم، ومن دون ذلك شيبان وعبد القيس والنمر وخلائق، ودون قحطان أبي اليمن لخم وجذام وعائلة وغسان وكندة وهمدان والأزد، ومنهم الأنصار وخلائق غير ذلك.

٨ - وقال الإمام ابن عاشور ﷺ:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنَعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾، أتبع التذكير والتسليّة من جانب النظر في آثار ما حل بالأُمم المرسل إليهم، وما أخبر عنه من عاقبتهم في الآخرة، بتذكير وتسليّة من جانب الإخبار عن الرسل الذين كذبهم قومهم وأذوهم؛ وكيف انتصر الله لهم ليزيد الرسول ﷺ تثبّيتاً ويلقم المشركين تبكيتاً.

وذكر في هذه السورة ست قصص من قصص الرسل مع أقوامهم لأن في كل قصة منها خاصية لها شبه بحال الرسول ﷺ مع قومه وبحاله الأكمل في دعوته، ففي القصص كلها عبرة وأسوة وتحذير كما سيأتي تفصيله عند كل قصة منها، ويجمعها كلها مقاومة الشرك ومقاومة أهلها.

واختير هؤلاء الرسل الستة: لأن نوحاً ﷺ القدوة الأولى، وإبراهيم ﷺ هو رسول الملة الحنيفية التي هي نواة الشجرة الطيبة شجرة الإسلام، وموسى ﷺ لشبه شريعته بالشرعة الإسلامية في التفصيل والجمع بين الدين والسلطان، فهؤلاء الرسل الثلاثة أصول.

ثم ذكر ثلاثة رسل تفرعوا عنهم وثلاثتهم على ملة رسل من قبلهم: فأما لوط ﷺ فهو على ملة إبراهيم ﷺ، وأما إلياس ويونس عليهما السلام فعلى ملة موسى ﷺ.

وابتدئ بقصة نوح ﷺ مع قومه فإنه أول رسول بعثه الله إلى الناس وهو الأسوة الأولى والقدوة المثلى، وابتداء القصة بذكر نداء نوح ﷺ ربه موعظة للمشركين ليحذروا دعاء الرسول ﷺ ربه تعالى بالنصر عليهم كما دعا نوح ﷺ على قومه وهذا النداء هو المحكي في قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنَّمَا عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾^(٢)، والفاء في قوله: ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾، تفريع على نادانا، أي: نادانا فأجبناه، فحذف المفعول لدلالة ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ عليه لتضمنه معنى فأجبناه جواب من يقال فيه: نعم المجيب.

والمخصوص بالمدح محذوف، أي: ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾، نحن. وضمير المتكلم المشارك مستعمل في التعظيم كما هو معلوم، وتأکید الخبر وتأکید ما فرع عليه بلام القسم لتحقيق الأمرين تحذيرا للمشركين بعد تنزيلهم منزلة من ينكر أن نوحا ﷺ دعا فاستجيب له.

والتنجية: الإنجاء وهو جعل الغير ناجيا، والنجاة: الخلاص من ضر واقع. وأطلقت هنا على السلامة من ذلك قبل الوقوع فيه لأنه لما حصلت سلامته في حين إحاطة الضر بقومه نزلت سلامته منه مع قربته منه بمنزلة الخلاص منه بعد الوقوع فيه؛ تنزيلا لمقاربة وقوع الفعل منزلة وقوعه، وهذا إطلاق كثير للفظ النجاة بحيث يصح أن يقال: النجاة: خلاص من ضر واقع أو متوقع.

والمراد بأهله: عائلته إلا من حق عليه القول منهم، وكذلك المؤمنون من قومه، قال تعالى: ﴿ قُلْنَا أَهْمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾^(٣)، فالإقتصار على أهله هنا لقلة من آمن به من

(١) الآية: رقم ٢٦ من سورة المؤمنون.

(٢) الآية: رقم ٢١ من سورة نوح.

(٣) الآية: رقم ٤٠ من سورة هود.

غيرهم، أو أريد بالأهل أهل دينه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، وأشعر قوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾، أن استجابة دعاء نوح ﷺ كانت بأن أهلك قومه.

والكرب: الحزن الشديد والغم، ووصفه بالعظيم لإفادة أنه عظيم في نوعه فهو غم على غم، والمعني به الطوفان، وهو كرب عظيم على الذين وقعوا فيه، فإنجاء نوح ﷺ منه هو سلامته من الوقوع فيه كما علمت لأنه هول في المنظر، وخوف في العاقبة والواقع فيه موقن بالهلاك، ولا يزال الخوف يزداد به حتى يغمره الماء ثم لا يزال في آلام من ضيق النفس ورعدة القر والخوف وتحقق الهلاك حتى يغرق في الماء.

وإنجاء الله إياه نعمة عليه، وإنجاء أهله نعمة أخرى، وإهلاك ظالميه نعمة كبرى، وجعل عمران الأرض بذريته نعمة دائمة لأنهم يدعون له ويذكر بينهم مصالح أعماله وذلك مما يرحمه الله لأجله، وستأتي نعم أخرى تبلغ اثنتي عشرة.

وضمير الفصل في قوله: هم الباقيين للحصر، أي لم يبق أحد من الناس إلا من نجاه الله مع نوح ﷺ في السفينة من ذريته، ثم من تناسل منهم فلم يبق من أبناء آدم ﷺ غير ذرية نوح ﷺ فجميع الأمم من ذرية أولاد نوح ﷺ الثلاثة.

وظاهر هذا أن من آمن مع نوح من غير أبنائه لم يكن لهم نسل، قال ابن عباس: لما خرج نوح ﷺ من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه، وبذلك يندفع التعارض بين هذه الآية وبين قوله في سورة هود: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، وهذا جارٍ على أن الطوفان قد عم الأرض كلها واستأصل جميع البشر إلا من حملهم نوح ﷺ في السفينة وقد تقدم خبره في سورة هود.

(١) الآية: رقم ٦٨ من سورة آل عمران.

وعموم الطوفان هو مقتضى ظواهر الكتاب والسنة، ومن قالوا إن الطوفان لم يعم الأرض فإنما أقدموا على إنكاره من جهة قصر المدة التي حددت بها كتب الإسرائيليين، وليس يلزم الاطمئنان لها في ضبط عمر الأرض وأحداثها وذلك ليس من القواطع، ويكون القصر إضافي أي لم يبق من قومه الذين أرسل إليهم.

وقد يقال: نسلم أن الطوفان لم يعم الأرض ولكنه عم البشر لأنهم كانوا منحصرين في البلاد التي أصابها الطوفان ولئن كانت أدلة عموم الطوفان غير قطعية فإن مستندات الذين أنكروه غير ناهضة فلا تترك ظواهر الأخبار لأجلها.

وزاد الله في عداد كرامة نوح ﷺ قوله: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾، فتلك نعمة خامسة.

والترك: حقيقته تخليف شيء والتخلي عنه، وهو هنا مراد به الدوام على وجه المجاز المرسل أو الاستعارة، لأن شأن النعم في الدنيا أنها متاع زائل بعد، طال مكثها أو قصر، فكان زوالها استرجاع من معطيها كما جاء في الحديث: (لله ما أخذ وله ما أعطى)^(١)، فشرّف الله نوحا ﷺ بأن أبقى نعمه عليه في أمم بعده.

وظاهر ﴿الْآخِرِينَ﴾، أنها باقية في جميع الأمم إلى انقضاء العالم، وقرينة المجاز تعليق عليه بـ ﴿تَرَكْنَا﴾، لأنه يناسب الإبقاء، يقال: أبقي على كذا، أي حافظ عليه ليبقى ولا يندثر، وعلى هذا لا يكون لـ ﴿تَرَكْنَا﴾ مفعول، وبعضهم قدر له مفعولا يدل عليه المقام، أتركنا ثناء عليه، في جواز أن يراد بهذا الإبقاء تعميره ألف سنة، فهو إبقاء أقصى ما يمكن إبقاء الحي إليه فوق ما هو متعارف.

ويجوز أن يراد: بقاء حسن ذكره بين الأمم، كما قال إبراهيم ﷺ: ﴿وَجَعَلَنِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾^(٢)، فكان نوح ﷺ مذكورا بمحامد الخصال حتى قيل: لا

(١) الحديث: رواه الآم البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز باب: يعذب الميت ببكاء بعض أهله عليه برقم ١٢٨٤، ورواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الجنائز باب البكاء على الميت برقم ٩٢٣.

(٢) الآية: رقم ٨٤ من سورة الشعراء.

تجهل أمة من أمم الأرض نوحا ﷺ وفضله وتمجيده وإن اختلفت الأسماء التي يسمونه بها باختلاف لغاتهم.

فجاء في (سفر التكوين)؛ الإصحاح التاسع: كان نوح رجلا بارا كاملا في أجياله وسار نوح مع الله.

وورد ذكره قبل الإسلام في قول النابغة:

فألفيت الأمانة لم تخنا كذلك كان نوح لا يخون

وذكره لبي بن إسرائيل في معرض الاقتداء به في قوله: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾^(١)، وجملة: ﴿ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾، إنشاء ثناء الله ﷻ على نوح ﷺ وتحية له، ومعناه: لازم التحية وهو الرضى والتقريب، وهو نعمة سادسة.

وتنوين سلام: للتعظيم ولذلك شاع الابتداء بالنكرة لأنها كالموصوف.

والمراد بالعالمين: الأمم والقرون وهو كناية عن دوام السلام عليه كقوله تعالى: ﴿ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾^(٢)، في حق يحيى ﷺ وكقوله: ﴿ سَلَّمَ عَلَى إِيْلَ يَاسِينَ ﴾^(٣)، وقوله: ﴿ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾^(٤)، وفي العالمين حال فهو ظرف مستقر أو خبر ثان عن سلام.

وزهد الكسائي والفراء والمبرد والزمخشري إلى أن قوله: ﴿ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾، في محل مفعول ﴿ تَرَكْنَا ﴾، أي: تركنا عليه هذه الكلمة وهي: ﴿ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾، وهو من الكلام الذي قصدت حكايته كما تقول قرأت: ﴿ سُورَةُ

(١) الآية: رقم ٣ من سورة الإسراء.

(٢) الآية: رقم ١٥ من سورة مريم.

(٣) الآية: رقم ١٣٠ من سورة الصافات.

(٤) الآية: رقم ١٠٩ من سورة الصافات.

أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴿١﴾، أي: جعلنا الناس يسلمون عليه في جميع الأجيال، فما ذكروه إلا قالوا: ﷺ، ومثل ذلك قالوا فينظأثرها في هذه الآيات المتعاقبة.

وزيد في سلام نوح ﷺ في هذه السورة وصفه بأنه في العالمين دون السلام على غيره في قصة إبراهيم وموسى وهارون وإلياس عليهم السلام للإشارة إلى أن التنويه بنوح ﷺ كان سائرا في جميع الأمم لأنهم كلهم ينتمون إليه ويذكرونه ذكر صدق كما قدمناه آنفا.

وجملة: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، تذييل لما سبق من كرامة الله نوحا ﷺ.

و (إن): تفي د تعليلا لمجازاة الله نوحا ﷺ بما عده من النعم بأن ذلك لأنه كان محسنا، أي: متخلقا بالإحسان وهو الإيمان الخالص المفسر في قول النبي ﷺ: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، وأي: دليل على إحسانه أجلى من مصابرته في الدعوة إلى التوحيد والتقوى وما ناله من الأذى من قومه طول مدة دعوته، والمعنى: إنا مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين.

وفي هذا تنويه بنوح ﷺ بأن جزاءه كان هو المثل والإمام لجزاء المحسنين على مراتب إحسانهم وتفاوت تقاربها من إحسان نوح ﷺ وقوته في تبليغ الدعوة.

فهو أول من أودى في الله فسن الجزاء لمن أودى في الله، وكان على قالب جزائه، فلعله أن يكون له كفل من كل جزاء يُجزاه أحد على صبره إذا أودى في الله، فثبت لنوح ﷺ بهذا وصف الإحسان، وهو النعمة السابعة.

وثبت له أنه مثل للمحسنين في جزائهم على إحسانهم، وهي النعمة الثامنة.

وجملة: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، تعليل لاستحقاقه المجازاة الموصوفة بقوله: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، فاختلف معلول هذه العلة ومعلول العلة التي قبلها.

وأفاد وصفه بـ ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾: أنه ممن استحق هذا الوصف، وقد علمت غير مرة أن وصف: (عبد) إذا أضيف إلى ضمير الجلالة أشعر بالتقريب ورفع الدرجة، اقتصر على وصف العباد بالمؤمنين تنويها بشأن الإيمان ليزداد الذين آمنوا إيماناً ويقلع المشركون عن الشرك، وهذه نعمة تاسعة.

وأقحم معها من عبادنا لتشريفه بتلك الإضافة على نحو ما تقدم أنفاً في قوله تعالى: ﴿ الْآعِبَادَ لِلَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴾ (١) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿ (١) ، وهذه نعمة عاشرة. وفي ذلك تنبيه على عظيم قدر الإيمان.

وفي هذه القصة عبرة للمشركين بما حل بقوم نوح عليه السلام وتسلياً للنبي صلى الله عليه وسلم وجعل نوح عليه السلام قدوة له، وإيماءً إلى أن الله ينصره كما نصر نوحاً عليه السلام على قومه وينجيه من أذاهم وتنويه بشأن المؤمنين.

وثم التي في قوله: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾، للترتيب والتراخي الرتبين لأن بعض ما ذكر قبلها في الكلام هو مما حصل بعد مضمون جملة فينفس الأمر كما هو بين، ومعنى التراخي الرتبي هنا أن إغراق الذين كذبوه مع نجاته ونجاة أهله، أعظم رتبة في الانتصار له والدلالة على وجاهته عند الله تعالى وعلى عظيم قدرة الله تعالى ولطفه.

ومعنى: ﴿ الْآخَرِينَ ﴾، من عداه وعدا أهله، أي: بقية قومه، وفي التعبير عنهم بالآخرين ضرب من الاحتقار. ومما في الحديث أنه جاءه رجل فقال: (إن الآخر قد زنى) (٢)، يعني: نفسه على رواية الآخر بمد الهمزة وهي إحدى روايتين في الحديث.

(١) الآيتان: رقم ٤٠ _ ٤١ من سورة الصافات.

(٢) الحديث: أخرجه أبو داود برقم (٤٤٣٧)، والطبراني في الكبير برقم (١٧٩ / ٢)، والحاكم في المستدرک برقم (٤ / ٤١١).

إعراب آيات القصة الواردة في سورة: (الصافات)

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾: كلام مستأنف مسوق للشروع في تفصيل ما أجمل في ما سبق.

واللام: جواب للقسم المحذوف، وقد: حرف تحقيق، ونادانا نوح ﷺ: فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر، والفاء: عاطفة، واللام: جواب قسم محذوف؛ وجواب كل من القسمين محذوف، لدلالة السياق عليه، والتقدير: والله لقد نادانا نوح ﷺ لما يؤس من إيمان قومه بعد أن استنزف ألف سنة إلا خمسين عاما بين أظهرهم فلم يزدادوا إلا عتوا واستكبارا ونفورا فأجبناه أحسن إجابة فوالله لنعم المجيئون نحن.

ونعم: فعل ماض جامد لإنشاء المدح، والمجيئون: فاعل (نعم) والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: نحن وهذه هي الأولى من قصص ست ستأتي تباعا.

وقوله: ﴿وَبَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، الواو: عاطفة، ونجينا: فعل وفاعل ومفعول به، وأهله: عطف على الهاء، أو: مفعول معه ومن الكرب جار ومجرور متعلقان بـ ﴿وَبَجَّيْنَاهُ﴾، العظيم: نعت للكرب.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، وجعلنا: عطف على ﴿وَبَجَّيْنَاهُ﴾، وذريته: مفعول به، وهم: ضمير فصل لا محل له، والباقيين: مفعول ﴿وَجَعَلْنَا﴾ الثاني.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾، الواو: عاطفة وتركنا: فعل وفاعل، وعليه: صفة للمفعول المحذوف، أي: ثناء كائنا عليه، وفي الآخرين: في موضع نصب مفعول به ثان لـ ﴿تَرَكْنَا﴾، وقيل في إعراب هذه الآية غير ذلك.

وقوله: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾، سلام: مبتدأ؛ وسوغ الابتداء به ما فيه من

معنى الدعاء وعلى نوح: خبر متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿سَلَّمُ﴾، أو: متعلق بما تعلق به الأول، وجملة: ﴿سَلَّمُ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾، مفسرة لـ ﴿تَرَكَّنَا﴾، وقال السمين: قوله: ﴿سَلَّمُ عَلَى نُوحٍ﴾: مبتدأ وخبر وفيه أوجه:

أحدها: أنه مفسر لـ ﴿تَرَكَّنَا﴾، أي: تركنا عليه شيئاً وهو هذا الكلام وقيل: ثم قول مقدر؛ أي: فقلنا: ﴿سَلَّمُ﴾، وقيل: ضمن ﴿تَرَكَّنَا﴾ معنى: قلنا، وقيل: سلط ﴿تَرَكَّنَا﴾ على ما بعده، قال الزمخشري: وقوله: ﴿وَتَرَكَّنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾، هذه الكلمة، وهي: ﴿سَلَّمُ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾، يعني: يسلمون عليه تسليماً ويدعون له.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، إن واسمها وكذلك: نعت لمصدر محذوف، وجملة: ﴿نَجْزِي﴾: خبر ﴿إِنَّا﴾، وفاعل ﴿نَجْزِي﴾: مستتر؛ تقديره: نحن، والمحسين: مفعول به لـ ﴿نَجْزِي﴾، والجملة: تعليل لمجازاة نوح ﷺ بتلك التكرمة السامية وهي خلود ذكره وتسليم العالمين عليه أبد الدهر.

وقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾: تعليل للإحسان بالإيمان، تنويها بشأن الإيمان وتشريفاً له، وحثاً على الازدياد منه.

وان واسمها ومن عبادنا: خبرها، والمؤمنين: نعت لعبادنا.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾، عطف على: ﴿بَجَيْنَهُ وَأَهْلَهُ﴾، فالترتيب حقيقي لأن نجاتهم حصلت قبل غرق الباقيين ولكن بينهما تراخيا.

تاسعاً: ما قاله المفسرون وأصحاب التأويل في سياق القصة في سورة (القمر):

قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ① فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ② فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ③ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ④ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ⑤ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ⑥ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑦ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ⑧﴾.

١ - ما قاله الإمام ابن جرير الطبري رحمته الله:

قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۖ﴾ ^(١) فدعاه ربّه أني مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ رحمته الله، وهذا وعيد من الله تعالى ذكره، وتهديد للمشركين من أهل مكة وسائر من أُرْسِلَ إليه رسوله محمدا رحمته الله على تكذيبهم إياه، وتقدم منه إليهم إن هم لم ينيبوا من تكذيبهم إياه، أنه محلّ بهم ما أحل بالأمم الذين قصّ قصصهم في هذه السورة من الهلاك والعذاب، ومنجّ نبيه محمدا رحمته الله والمؤمنين به، كما نجّى من قبله الرسل وأتباعهم من نقمه التي أحلّها بأممهم، فقال جلّ ثناؤه لنبيه محمد رحمته الله: ﴿كَذَبَتْ ۖ﴾ يا محمد قبل هؤلاء الذين كذبوك من قومك، الذين إذا رأوا آية أعرضوا وقالوا سحر مستمرّ؛ ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحا رحمته الله إذ أرسلناه إليهم، كما كذبتك قريش إذ أتيتهم بالحقّ من عندنا وقالوا: هو: ﴿مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۖ﴾، وهو افتُعل من زجرت، وكذا تفعل العرب بالحرف إذا كان أوّله زايّا صيروا تاء الافتعال منه دالا؛ من ذلك قولهم: ازدجر من زجرت، وازدلف من زلفت، وازديد من زدت. واختلف أهل التأويل في المعنى الذي زَجَرُوهُ، فقال بعضهم: كان زجرهم إياه أن قالوا: استطير جنونا.

فعن مجاهد: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۖ﴾، قال: استطير جنونا.

وعن مجاهد كذلك في هذه الآية: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۖ﴾، قال: استعر جنونا.

وقال آخرون: بل كان زجرهم إياه وعيدهم له بالشتم والرجم بالقول القبيح.

قال ابن زيد، في قوله: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۖ﴾، قال: اتهموه وزجروه وأوعدوه لأن لم يفعل ليكوننّ من المرجومين، وقرأ: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ^(١).

(١) الآية: رقم ١١٦ من سورة الشعراء.

وقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْنَصِرْ﴾، يقول تعالى ذكره: فدعا نوح ﷺ ربه: إن قومي قد غلبوني، تمرّدوا وعتوا، ولا طاقة لي بهم، فانتصر منهم بعقاب من عندك على كفرهم بك.

قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

يقول تعالى ذكره: ﴿فَفَتَحْنَا﴾ لما دعانا نوح مستغيثا بنا على قومه ﴿أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾، وهو المندفق، كما قال امرؤ القيس في صفة غيث:
 رَاحَ تَرْمِيهِ الصَّبَا ثُمَّ انْتَحَى فِيهِ شُؤْبُوبٌ جَنُوبٌ مِنْهُمْ مَرُ
 فعن سفيان، قال: ﴿بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾، قال: ينصبّ انصبابا.

وقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾، يقول جلّ ثناؤه: وأسلنا الأرض عيون الماء.
 فعن سفيان، في قوله: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾، قال: فجّرنا الأرض الماء وجاء من السماء، ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، يقول تعالى ذكره: فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدره الله وقضاه.

فعن سفيان: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، قال: ماء السماء وماء الأرض.
 وإنما قيل: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، والالتقاء لا يكون من واحد، وإنما يكون من اثنين فصاعدا، لأن الماء قد يكون جمعا وواحدا، وأريد به في هذا الموضع: مياه السماء ومياه الأرض، فخرج بلفظ الواحد؛ ومعناه: الجمع.
 وقيل: التقى الماء على أمر قد قدر، لأن ذلك كان أمرا قد قضاه الله في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِّرَ ۝١٢ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

يقول تعالى ذكره: وحملنا نوحا عليه السلام إذ التقى الماء على أمر قد قدر، على سفينة ذات ألواح ودُسُر.

والدسر: جمع دسار، وقد يقال في واحدتها: دسير، كما يقال: حَبِيكَ وَحَبَاكَ؛ والدَّسَار: المسمار الذي تشدُّ به السفينة؛ يقال منه: دسرت السفينة إذا شددتها بمسامير أو غيرها.

فعن قتادة، قوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾، حدثنا أن دُسَرَهَا: مساميرها التي شُدَّتْ بها.

وقال ابن زيد، في قوله: ﴿وَدُسُرٍ﴾، قال: الدسر: المسامير التي دُسرت بها السفينة، ضُربت فيها، شُدَّتْ بها.

حدثني عليّ، قال: ثنا أبو صالح، قال: ٥ ثني معاوية، عن عليّ، عن ابن عباس، قوله (وَدُسُرٍ) يقول: المسامير.

وقال آخرون: بل الدُّسُر: صَدْر السفينة، قالوا: وإنما وصف بذلك لأنه يدفع الماء ويدُسُرُه.

فعن الحسن، في قوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾، قال: تدُسُر الماء بصدورها، أو قال: بِجُؤْجُئِهَا.

وعن قتادة، قال: كان الحسن يقول في قوله: ﴿وَدُسُرٍ﴾، جُؤْجُؤُهَا تدسر به الماء.

وعن ابن عباس، قوله: ﴿وَدُسُرٍ﴾، قال: الدُّسُر: كُلُّ السَّفِينَةِ.

وقال آخرون: الدسر: عوارض السفينة.

فعن مجاهد: ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾، قال: ألواح: السفينة، ودسر: عوارضها.

وقال آخرون: الألواح: جانبها، والدُّسُر: طرفها.

وقوله: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾، يقول جل ثناؤه: تجري السفينة التي حملنا نوحا ﷺ فيها بمرأى منا ومنظر.

فعن سفيان، في قوله: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾، يقول: بأمرنا ﴿ جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفْرًا ﴾. اختلف أهل التأويل في تأويله: فقال بعضهم: تأويله فعلنا ذلك ثوابا لمن كان كُفر فيه، بمعنى: كفر بالله فيه.

فعن مجاهد: ﴿ جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفْرًا ﴾، قال: كَفَر بالله.

وعن مجاهد: ﴿ جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفْرًا ﴾، قال: لمن كان كفر فيه.

ووجه آخرون معنى: (مَنْ) إلى معنى (ما) في هذا الموضع، وقالوا: معنى الكلام: جزاء لما كان كُفر من أيادي الله ونعمه عند الذين أهلكهم وغرقهم من قوم نوح.

قال ابن زيد، في قوله: ﴿ جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفْرًا ﴾، قال: لمن كان كفر نعم الله، وكفر بأياديه وآلائه ورسله وكتبه، فإن ذلك جزاء له.

والصواب من القول من ذلك عندي ما قاله مجاهد، وهو أن معناه: ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض عيونا، فغرقنا قوم نوح، ونجيننا نوحا ﷺ عقابا من الله وثوابا للذي جُحد وكُفر، لأن معنى الكفر: الجحود، والذي جحد ألوهيته ووحدانيته قوم نوح، فقال بعضهم لبعض: ﴿ لَا نَذَرْنَ إِلَهَتَكُمْ وَلَا نَذَرْنَ وَدًّا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (?)، ومن ذهب به إلى هذا التأويل كانت من الله، كأنه قيل: عوقبوا لله ولكفرهم به.

ولو وجه موجه إلى أنها مراد بها نوح ﷺ والمؤمنون به كان مذهبا، في كون معنى الكلام حينئذ: فعلنا ذلك جزاء لنوح ﷺ ولمن كان معه في الفلك، كأنه قيل: غرقناهم لنوح ﷺ ولصنيعهم بنوح ﷺ ما صنعوا من كفرهم به.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي .

يقول تعالى ذكره: ولقد تركنا السفينة التي حملنا فيها نوحا ﷺ ومن كان معه آية، يعني عبرة وعظة لمن بعد قوم نوح من الأمم ليعتبروا ويتعظوا، فينتهوا عن أن يسلكوا مسلكهم في الكفر بالله، وتكذيب رسله، فيصيبهم مثل ما أصابهم من العقوبة.

فمن قتادة، قوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾، قال: أبقاها الله ببقاى من أرض الجزيرة، عبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة نظرا، وكم من سفينة كانت بعدها قد صارت رمادا.

وعن قتادة، في قوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً﴾، قال: ألقى الله سفينة نوح على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة.

وعن مجاهد: أن الله حين غرق الأرض، جعلت الجبال تشمخ، فتواضع الجودي، فرفعه الله على الجبال، وجعل قرار السفينة عليه.

وقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾، يقول: فهل من ذي تذكر يتذكر ما قد فعلنا بهذه الأمة التي كفرت بربها، وعصت رسوله نوحا ﷺ، وكذبت به في ما أتاهم به عن ربهم من النصيحة، في عتبر بهم، ويحذر أن يحل به من عذاب الله بكفره بربه، وتكذيبه رسوله محمدا ﷺ، مثل الذي حل بهم، فينبى إلى التوبة، ويراجع الطاعة.

وأصل مدكر: مفتعل من ذكر، اجتمعت فاء الفعل، وهي ذال، وتاء وهي بعد الدال، فصيرتا دالا مشددة، وكذلك تفعل العرب في ما كان أوّله ذالا يتبعها تاء الافتعال يجعلونهما جميعا دالا مشددة، في قولون: اذكرت اذكارا، وإنما هو اذتكرت اذتكارا، وفهل من مذتكر، ولكن قيل: اذكرت ومدكر لما قد وصفت، قد ذكر عن بعض بني أسد أنهم يقولون في ذلك مدكر، في قلبون الدال ويعتبرون الدال والتاء ذالا مشددة، وذكر عن الأسود بن يزيد أنه قال: قلت لعبد الله بن مسعود:

فهل من مدّكر، أو مدّكر، فقال: أقرأني رسول الله ﷺ: (مُدّكر) يعني بذال مشددة.

قال ابن زيد في قوله: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدّكِرٍ ﴾، قال: المدّكر: الذي يتذكر، وفي كلام العرب: المذكر: المتذكر.

وعن سفيان: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدّكِرٍ ﴾، قال: فهل من مدّكر.

وقوله: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾، يقول تعالى ذكره: فكيف كان عذابي لهؤلاء الذين كفروا بربهم من قوم نوح، وكذبوا رسوله نوحا ﷺ، إذ تمادوا في غيهم وضلالهم، وكيف كان إنذاري بما فعلت بهم من العقوبة التي أحللت بهم بكفرهم بربهم، وتكذيبهم رسوله نوحا ﷺ، وهو إنذار لمن كفر منقومه من قريش، وتحذير منه لهم، أن يحلّ بهم على تماديهم في غيهم، مثل الذي حلّ بقوم نوح من العذاب. وقوله: ﴿ وَنُذْرٍ ﴾، يعني: وإنذاري، وهو مصدر.

٢ - وقال الإمام الماتريدي رحمه الله:

قوله ﷺ: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾، يقول والله أعلم: كذبت قبل قومك قوم نوح نوحا ﷺ وآذوه، فصبر على التكذيب وأنواع الأذى، ولم يدع عليهم بالهلاك ما لم يرد الإذن بالدعاء عليهم بالهلاك من الله تعالى، فاصبر أنت على تكذيب القوم وأنواع الأذى، وهو كقوله تعالى: ﴿ فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْرِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾^(١).

فإن قيل: ما الحكمة في تكرار هذه الأنباء في القرآن، ولم يكرر ما فيه من الأحكام؟ قيل: إن هذه الأنباء والقصص إنما جاءت لمحااجة أهل مكة وأمثالهم من الكفرة في إثبات الرسالة والتوحيد والبعث؛ إذ هم المنكرون لهذه الأشياء، وهم كانوا أهل عناد ومكابرة، وفيهم أيضاً مسترشدون، ومن حق المحااجة مع من ذكرنا وأمثالهم أن تعاد الحجة مرة بعد مرة؛ لعلهم يقبلونها في وقت، وتنجع في قلوبهم في وقت، وإن لم

(١) الآية: رقم ٣٥ من سورة الأحقاف.

تنجح في وقت، ومن حق الموعظة للمستترشدين أيضاً أن تكرر ليتعظوا؛ إذ يختلف ذلك باختلاف الأحوال، وقد ذكرنا فوائد تكرارها واقتصار الأحكام في ما تقدم، والله أعلم.

فَإِنْ قِيلَ: إِنْ نوحاً ﷺ قد دعا على قومه بالهلاك، قيل: إنما دعا على قومه بالهلاك بعدما أيس من إيمانهم؛ حيث قيل له: ﴿أَتَهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾^(١)، أما رسول الله ﷺ لم يؤيسه عن إيمان قومه جملة؛ إنما يؤيسه عن بعض بطريق التعيين، وهم قوم علم الله أنهم لا يؤمنون، لا عن الكل؛ فلذلك لم يؤذن بالدعاء عليهم، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾، يحتمل: كذبوه في ما ادعى لنفسه الرسالة، أو: كذبوه في ما دعاهم إليه بالتوحيد وتوجيه الشكر إلى الواحد القهار وقوله ﷺ: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾، أي: قالوا لأتباعهم: إنه مجنون.

وقوله ﷺ: ﴿وَأَزْدَجِرْ﴾، أي: نوح ﷺ حيث قالوا القومهم: لا تتبعوه، وزجرهم عنه بقولهم: إنه مجنون؛ فهذا منهم زجر لأتباعهم عن اتباعه؛ فصار لذلك نوح ﷺ مزدجراً عن القوم، وصار القوم مزدجرين عنه، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: زجروا نوحاً ﷺ، أي: منعه عن إظهار ما أتاهم من الآيات على رسالته، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾، أي: مغلوب بالسفه والمكابرة وأنواع الأذى؛ إذ لا يحتمل أن يكون مغلوباً بالحجج، فانتصر لعبدك عليهم.

وقوله ﷺ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾، يحتمل قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾، أي: من فوق؛ لأن ما كان من فوقك فهو سماء؛ في حتمل أن يكون ذلك: من البحر بفوق الذي ذكر أنه بين السماء والأرض، ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾، أي: أنبعنا الماء من الأرض؛ كأنه قال: أنزلنا الماء من فوق، وأنبعنا من أسفل.

ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾، هو حقيقة فتح السماء

(١) الآية: رقم ٣٦ من سورة هود.

وإنزال الماء منها، واللّه تعالى قادر أن يرسل الماء مما يشاء، وكيف شاء، واللّه أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾، قيل: منصب.

وقال أبو عبيد: (مُنْهَمِرٍ)، أي: كثير سريع الانصباب؛ يقال: همر الرجل: إذا أكثر في الكلام؛ فأسرع.

وقال أبو عَوْسَجَةَ: انهمرت السماء وهمرت، أي: أمطرت؛ فأكثر.

وقوله ﷺ: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ﴾، يذكر أن الماءين جميعاً: ما أرسل من فوق، وما أخرج من تحت على تقدير وتدبير، لا جزافاً، وهو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمُوسَى﴾^(١)، أي: على تقدير وتدبير من الله تعالى جئت، لا على غير تقدير منه.

وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه: (فالتقى الماء ان على أمر قد قدر).

وقال بعضهم: ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ﴾، أي: قد قدر لهم أن يغرقوا بالماء إذ كفروا.

وقال بعضهم: ﴿قَدَرٍ﴾، أي: استوى الماء نصفه من عيون الأرض، ونصفه من السماء، وأصله ما ذكرنا، واللّه أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾، وذكر في حرف حفصة رضي الله عنها: (وحملناه وذريته على ذات ألواح ودسر)، ذكر هاهنا ذات ألواح، وذكر في آية أخرى السفينة بقوله تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾^(٢)، ونحوه؛ في كون: ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾: تفسير السفينة، ولو لم يفهم من ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾: السفينة؛ إذ ذات الألواح قد ترجع إلى الأشجار وغيرها، لكن كان تفسير السفينة بما ذكرنا، واللّه أعلم.

(١) الآية: رقم ٤٠ من سورة (طه).

(٢) الآية: رقم ٤١ من سورة (يس).

وقوله ﷺ: ﴿تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: بتقديرنا وبحفظنا.

وقوله: ﴿جَزَاءٌ لِّمَن كَانَ كُفْرًا﴾، أي: حمل نوح ﷺ وأتباعه في السفينة ونجاهم من الغرق جزاء ما كفر به قومه؛ كذا قال عامة أهل التأويل: إنه أخبر نوحا ﷺ حين كفر به قومه فلم يؤمن به قومه.

وقال مجاهد: جزاء لمن كان كفر بالله تعالى، أي: الغرق جزاؤهم؛ لما كفروا بالله تعالى.

وقال أبو معاذ: وقرئ: (جَزَاءٌ لِّمَن كَانَ كُفْرًا) بنصب الكاف، وتأويل هذه القراءة، أي: إهلاك من أهلك من قومه؛ جزاء لما كفروا بالله تعالى، أو: بنوح ﷺ.

وقوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً﴾، يحتمل وجهين:

أحدهما: تركنا سفينة نوح ﷺ بعينها مدة طويلة حتى صارت آية لأواخرهم ولمن بعدهم؛ وبه يقول قتادة؛ قال: أبقي الله تعالى سفينة نوح ﷺ بينة للمسافرين من أرض الجزيرة حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة كانت بعدها، فصارت رمادا.

والثاني: تركنا آية آثار تلك السفينة وأنباءها آية لمن بعدهم؛ لأن أنباءها قد بقيت في المتأخرين حتى عرفوا أن من نجا لم نجا؟ ومن هلك لم هلك؟ والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾، عن الأسود قال: قلت لعبد الله بن مسعود ﷺ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾، أو: (مُذَكِّر)؟ فقال: أقرأني رسول الله ﷺ ﴿مُذَكِّرٍ﴾ بالبدال.

ثم قوله ﷺ: ﴿مُذَكِّرٍ﴾، أي: هل من متذكر متعظ، يتعظ بما نزل بأولئك فينزعج عن مثل صنيعهم.

وقال قتادة: فهل من طالب خير؛ في عان عليه.

وقوله ﷺ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾، يخرج على وجهين:

أحدهما: أليس ما وعد لهم رسلي من العذاب بالتكذيب صدقاً حقاً، وأريد بقوله: ﴿ وَنُذِرْ ﴾، أي: رسلي.

والثاني: أليس وجدوا عذابي شديداً ونذري ما وقعت به النذارة، وهو العذاب الذي أنذروا به، والنذر على هذا التأويل المنذر به؛ كقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً ﴾^(١)، أي: موعوداً، وإلا وعده لا يكون مفعولاً؛ إذ هو صفة أزلية.

٣ - وقال الإمام السمرقندي رحمته الله:

ثم عزى نبيه عليه السلام ليصبر على أذى قومه كما لقي الرسل من قومهم فقال: ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾، يعني: قبل قومك يا محمد ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾، حين أتاهم بالرسالة، ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ نوحاً عليه السلام ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ ﴾، يعني: قالوا لنوح: إنك مجنون ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾، يعني: أُوعد بالوعيد، ويقال: صاحوا به حتى غشي عليه.

وقال القتيبي: وَازْدُجِرَ، أي: زجر، وهو افتعل من ذلك، فلما ضاق صدره ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴾، يعني: مقهور في ما بينهم؛ ﴿ فَأَنْتَصِرْ ﴾، يعني: أعني عليهم بالعذاب، فأجابه الله كما في سورة الصافات بقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحَ فَلَنِعْمَ أَلْمُحِيبُونَ ﴾^(٢).

قوله عليه السلام: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾، يعني: طرق السماء، ﴿ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾، يعني: منصباً كثيراً.

وقال القتيبي: ﴿ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾، أي: كثير، سريع الانصباب، ومنه يقال: همر للرجل إذا كثر من الكلام، وأسرع فيه، قرأ ابن عامر: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ بتشديد التاء على تكثير الفعل.

وقرأ الباقون: بالتخفي ف، لأنها فتحت فتحةً واحداً.

(١) الآية: رقم ٥ من سورة الإسراء.

وقوله ﷺ: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾، يعني: أخرجنا من الأرض عيوناً مثل الأنهار الجارية، ﴿فَالْتَفَى الْمَاءُ﴾، يعني: ماء السماء، وماء الأرض، ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، يعني: على وقت قد قضى ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾، يعني: حملنا نوحاً ﷺ ﴿عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ﴾، يعني: على سفينة قد اتخذت بألواح، ﴿وَدُسِّرَ﴾، يعني: سفينة قد شددت بالمسامير. وقال بعضهم: كانت سفينة نوح من صاج، وقال بعضهم: من خشب شمشار، ويقال: من الجوز.

وقال القتيبي: الدسر: المسامير، واحدها دسار، وهي أيضاً الشريط الذي يشد بها السفينة.

ثم قال: ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾، يعني: تسير السفينة بمنظر منا، وأمرنا، ويقال: بمراد وحفظ منا. وقال الزجاج في قوله: ﴿فَالْتَفَى الْمَاءُ﴾، ولم يقل الماءان، لأن الماء اسم لجميع ماء السماء، وماء الأرض. فلو قال: ماءان لكان جائزاً، لكنه لم يقل.

ثم قال: ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾، يعني: الحمل على السفينة، ثواب لنوح ﷺ الذي كفر به قومه.

وقرأ بعضهم: (جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ) بالنصب يعني: الغرق عقوبة لمن كذب بالله تعالى، وبنوح ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾، أي: سفينة نوح أبقيناها عبرة للخلق.

وقال بعضهم: يعني: تلك السفينة بعينها كانت باقية على الجبل إلى قريب من خروج النبي ﷺ.

وقال بعضهم: يعني: جنس السفينة صارت عبرة، لأن الناس لم يعرفوا قبل ذلك سفينة، فاتخذت الناس السفن بعد ذلك في البحر، فلذلك كانت آية للناس.

ثم قال: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾، يعني: هل من معتبر يعتبر بما صنع الله تعالى بقوم

نوح ﷺ، فترك المعصية، ويقال: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾، يتعظ بأنه حق، ويؤمن به.
وقال أهل اللغة: أصل مدكر، مفتعل من الذكر، مذتكر، فأدغمت الذال في التاء،
ثم قلبت دالاً مشددة.

ثم قال: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾، يعني: كيف رأيت عذابي، وإنذاري لمن
أنذرهم الرُّسل، فلم يؤمنوا، والنذر بمعنى الإنذار.

٤ - وقال الإمام البغوي رحمه الله:

قوله ﷺ: ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾، أي: قبل أهل مكة، قوم نوح فكذبوا عبدنا، نوحا،
﴿ وَقَالُوا بَحْنُونَ وَازْدُجِرَ ﴾، أي: زجره عن دعوته ومقاتلته بالشتيم والوعيد، وقالوا:
﴿ لَنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُوحَ لَتَكُونَنَّ مِنْ ﴾ (؟)، وقال مجاهد معنى: ازدجر، أي: استطير جنونا.
(فدعا)، نوح ﷺ، (ربه)، وقال: أني مغلوب، مقهور، فانتصر، فانتقم لي منهم.
وقوله: ﴿ فَفَنَحْنَا نُوحَ السَّمَاءَ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾، منصب انصبابا شديدا لم ينقطع أربعين
يوما، وقيل: قد طبق ما بين السماء والأرض.

﴿ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾، يعني: ماء السماء وماء الأرض، وإنما قال:
التقى الماء والالتقاء لا يكون من واحد إنما يكون بين اثنين فصاعدا لأن الماء
يكون جمعا وواحدا، وقرأ عاصم الجحدري: (فالتقى الماءان على أمر قد قدر)،
أي: قضي عليهم في أم الكتاب.

وقال مقاتل: قدر الله أن يكون الماءان سواء فكانا على ما قدر.

﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾، يعني نوحا ﷺ، ﴿ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسْرٍ ﴾، أي: سفينة ذات ألواح،
ذكر النعت وترك الاسم، أراد بالألواح خشب السفينة العريضة، ودسر، أي:
المسامير التي تشد بها الألواح، واحدها دسار ودسير، يقال: دسرت السفينة إذا
شدتها بالمسامير.

وقال الحسن عليه السلام: الدسر صدر السفينة سميت بذلك لأنها تدر الماء بجوؤها، أي: تدفع.

وقال مجاهد عليه السلام: هي عوارض السفينة، وقيل: أضلاعها.

وقال الضحاك عليه السلام: الألواح جانبها، والدسر أصلها وطرفها.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: بمرأى منا، وقال مقاتل بن حيان عليه السلام: بحفظنا، ومنه قولهم للمودع: عين الله عليك، وقال سفيان عليه السلام: بأمرنا.

﴿جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفْرًا﴾، قال مقاتل بن حيان عليه السلام: يعني: فعلنا به، وبهم من إنجاء نوح عليه السلام وإغراق قومه ثواباً لمن كان كفر به وجحد أمره، وهو نوح عليه السلام، وقيل: (من)، بمعنى: ما، أي: جزاء لما كان كفر من أيادي الله ونعمه عند الذين أغرقهم، أو جزاء لما صنع بنوح عليه السلام وأصحابه وقرأ مجاهد: جزاء لمن كان كفر (بفتح الكاف والفاء)، يعني: كان الغرق جزاء لمن كان كفر بالله وكذب رسوله.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا﴾، يعني: الفعلة التي فعلنا، ﴿ءَايَةً﴾، يعتبر بها، وقيل: أراد السفينة.

قال قتادة عليه السلام: أبقاها الله بباقر دي من أرض الجزيرة، عبرة وآية حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، فهل من مذكر، أي متذكر متعظ معتبر خائف مثل عقوبتهم.

* * *

إعراب آيات القصة الواردة في سورة: (القمر)

قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾.

كذبت: فعل ماض، والتاء: للتأنيث، وقبلهم: ظرف زمان منصوب لإضافته متعلق بـ ﴿كَذَبَتْ﴾ وقوم نوح: فاعل ﴿كَذَبَتْ﴾، ﴿فَكَذَّبُوا﴾، الفاء: عاطفة و (كذبوا): فعل و فاعل و (عبدنا): مفعول به، (وقالوا): عطف على (كذبوا)، و (مجنون): خبر لمبتدأ محذوف أي هو مجنون، (وازدجر): يجوز عطفه على (قالوا)، أي: لم يكتفوا بهذا القول بل ضموا إليه زجره ونهره وقيل: هو معطوف على هو ﴿مَجْنُونٌ﴾، فهو في حيز مقولهم، أي: قالوا هو ﴿مَجْنُونٌ﴾ وقد ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه، (وازدجر): فعل ماض مبني للمجهول قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾.

الفاء: عاطفة، ودعاه: فعل ماض و فاعل مستتر ومفعول به، وأن وما في حيزها: في محل نصب بنزع الخافض، أي: بـ ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾، على حكاية المعنى؛ ولو جاء على حكاية اللفظ يقال: (أنه مغلوب)، وأن واسمها وخبرها والفاء: عاطفة، وانتصر: فعل أمر، أي: انتقم لي منهم ف (متعلق انتصر): محذوف كما رأيت.

قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾.

الفاء: عاطفة على محذوف مقدر، أي: فاستجبنا لنوح ﷺ دعاه ﴿فَفَتَحْنَا﴾، وفتحنا: فعل و فاعل وأبواب السماء: مفعول به، وبماءٍ متعلقان ب (فتحنا)، والباء: للتعدية على المبالغة حيث جعل الماء كالآلة التي يفتح بها كما تقول فتحت بالمفتاح ويجوز أن تكون الباء للملابسة أي ملتبسة بماء منهمر فتكون في موضع نصب على الحال، ومنهمر: صفة لماء.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدِيرٍ﴾.

وفجرنا: عطف على: (فتحنا)، والأرض: مفعول به، وعيونا: تمييز فإن نسبة: (فجرنا) إلى الأرض مبهمة وعيونا: مبين لذلك لإيهام، والأصل: وفجرنا عيون الأرض؛ فحول المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه؛ وجيء بالمضاف تمييزاً، فالتقى: عطف على (فجرنا)، والماء: فاعل التقى، وعلى أمر: متعلقان بـ (التقى)؛ وأفادت على معنى التعليل، والمعنى: اجتمع لأجل إغراقهم المقضي أزلاً، وقيل: في موضع نصب على الحال، وجملة قد قدر صفة لأمر.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾.

الواو: عاطفة وحملناه: فعل وفاعل ومفعول به، وعلى ذات: متعلقان بـ (حملناه) وألواح: مضاف إليه، ودسر: عطف على ألواح.

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

الجملة: صفة لذات دسر وذات ألواح في الأصل صفة لسفينة فهي صفة ثانية، وتجري: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدّرة على الياء، وبأعيننا: جار ومجرور في موضع نصب على الحال من الضمير في (تجري)، أي مكلوذة ومحفوظة (بأعيننا)، وجزاء: مفعول لأجله، أي: فعلنا ذلك جزاءً، أو بتقدير: جازيناهم جزاءً، ويجوز أن يكون: مصدراً في موضع الحال، ولمن: متعلقان بجزاءً، وجملة كان: صلة (من).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مَّدَكِرٍ﴾.

الواو: عاطفة، واللام: جواب للقسم المحذوف، وقد: حرف تحقيق، وتركناها: فعل ماض وفاعل ومفعول به؛ والضمير يعود على الفعلة، وهي: إغراقهم على الشكل المذكور، وأجاز الزمخشري: أن يعود على السفينة، وآية: حال أو مفعول به ثان؛ إذا كان (تركناها)، بمعنى: جعلناها، والفاء: عاطفة، وهل: حرف استفهام، ومن: حرف جر زائد، ومدكر: مجرور لفظاً؛ مرفوع محلاً على أنه: مبتدأ محذوف الخبر تقديره موجود.

عاشراً: ما قاله المفسرون وأصحاب التأويل في سياق القصة في سورة (نوح):

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ① ﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ② أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ③ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ④ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ⑤ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ⑥ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ⑦ إِذَا نِيَّهِمْ وَاسْتَعْصَفُوا لِيَّائِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ⑧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ⑨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ⑩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ⑪ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ⑫ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ⑬ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ⑭ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ⑮ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ⑯ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ⑰ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ⑱ ثُمَّ يُعِيدْكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجْكُمْ إِخْرَاجًا ⑲ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ⑳ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ㉑ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهِمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَا لَزِدَهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ㉒ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا ㉓ وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ㉔ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ㉕ مِمَّا خَطَبَيْنَهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ㉖ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا ㉗ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ㉘ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ㉙ ①.

١ - ما قاله الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾، وهو نوح بن لمك، ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، يقول: أرسلناه إليهم بأن أنذر قومك؛ فإن في موضع نصب في قول بعض أهل العربية، وفي موضع خفض في قول بعضهم.

وقوله: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾، يقول تعالى ذكره: قال نوح لقومه: يا قوم

إني لكم نذير مبين، أنذرکم عذاب الله فاحذروه أن ينزل بكم على كفرکم به، ﴿مُتَيْنٌ﴾، يقول: قد أبنت لكم إنذاري إياكم.

وقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾، يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل نوح لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ بأن اعبدوا الله، يقول: إني لكم نذير أنذرکم، وأمرکم بعبادة الله ﴿وَاتَّقُوهُ﴾، يقول: واتقوا عقابه بالإيمان به، والعمل بطاعته، ﴿وَأَطِيعُوا﴾، يقول: وانتهوا إلى ما أمرکم به، واقبلوا نصيحتي لكم.

فعن قتادة رضي الله عنه، قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾، قال: أرسل الله المرسلين بأن يُعْبَدَ اللهُ وحده، وأن تتقي محارمه، وأن يُطاع أمره.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾، يقول: يغفر لكم ذنوبکم.

فإن قال قائل: أو ليست ﴿مِنْ﴾ دالة على البعض؟ قيل: إن لها معنيين وموضعين، فأما أحد الموضعين فهو الموضع الذي لا يصح فيه غيرها، وإذا كان ذلك كذلك لم تدلّ إلا على البعض، وذلك كقولك: اشتريت من ممالكك، فلا يصح في هذا الموضع غيرها، ومعناها: البعض، اشتريت بعض ممالكك، ومن ممالكك مملوكا، والموضع الآخر: هو الذي يصلح فيه مكانها (عن) فإذا، صلحت مكانها (عن) دلت على الجميع، وذلك كقولك: وجع بطني من طعام طعمته، فإن معنى ذلك: أوجع بطني طعام طعمته، وتصلح مكان ﴿مِنْ﴾: عن، وذلك أنك تضع موضعها: (عن)، في صلح الكلام فتقول: وجع بطني عن طعام طعمته، ومن طعام طعمته، فكذلك قوله: (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)، إنما هو: ويصفح لكم، ويعفو لكم عنها؛ وقد يحتمل أن يكون معناها: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾، ما قد وعدكم العقوبة عليه، فأما ما لم يعدكم العقوبة عليه فقد تقدّم عفوہ لكم عنها.

وقوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، يقول: ويؤخر في آجالکم فلا يهلكکم بالعذاب، لا بغرق ولا غيره ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، يقول: إلى حين كتب أنه يقيقکم إليه، إن أنتم أطعتموه وعبدتموه، في أم الكتاب.

فعن مجاهد رحمه الله، في قول الله: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قال: ما قد خطَّ من الأجل، فإذا جاء أجل الله لا يؤخَّر.

وقوله: ﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، يقول تعالى ذكره: إن أجل الله الذي قد كتبه على خلقه في أم الكتاب إذا جاء عنده لا يؤخر عن ميقاته، فينظر بعده ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، يقول: لو علمتم أن ذلك كذلك، لأنبتم إلى طاعة ربكم.

يقول تعالى ذكره: قال نوح عليه السلام: لما بلغ قومه رسالة ربه، وأنذرهم ما أمره به أن ينذرهموه فعصوه، وردّوا عليه ما أتاهم به من عنده ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ إلى توحيدك وعبادتك، وحذرتهم بأسك وسطوتك، ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾، يقول: فلم يزدهم دعائي إياهم إلى ما دعوتهم إليه من الحق الذي أرسلتني به لهم ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾، يقول: إلا إدبارا عنه وهربا منه وإعراضا عنه.

فعن قتادة رحمه الله، في قوله: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾، قال: بلغنا أنهم كانوا يذهب الرجل بابنه إلى نوح، في قول لابنه: احذر هذا لا يغوينك، فأراني قد ذهب بي أبي إليه وأنا مثلك، فحذرتني كما حذرتك.

وقوله: ﴿وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعُهمْ فِي آذَانِهِمْ﴾، يقول جلّ وعزّ: وإني كلما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانيتك، والعمل بطاعتك، والبراءة من عبادة كلّ ما سواك، لتغفر لهم إذا هم فعلوا ذلك جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا دعائي إياهم إلى ذلك، ﴿وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾، يقول: وتغشوا في ثيابهم، وتغطوا بها لئلا يسمعوا دعائي.

قال ابن زيد رحمه الله، في قوله: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعُهمْ فِي آذَانِهِمْ﴾، لئلا يسمعوا كلام نوح عليه السلام.

وقوله: ﴿وَأَصْرُوا﴾، يقول: وثبتوا على ما هم عليه من الكفر وأقاموا عليه.

قال ابن زيد عليه السلام، في قوله: ﴿وَأَصْرُوا﴾، قال: الإصرار إقامتهم على الشر والكفر. وقوله: ﴿وَأَسْتَكْبِرُوا أَسْتَكْبَارًا﴾، يقول: وتكبروا فتعاضموا عن الإذعان للحق، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة.

يقول: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ﴾، إلى ما أمرتني أن أدعوهم إليه ﴿جَهَارًا﴾ ظاهرًا في غير خفاء.

فعن مجاهد عليه السلام، في قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا﴾، قال: الجهار الكلام المعلن به.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، يقول: صرخت لهم، وصحت بالذي أمرتني به من الإنذار.

وعن مجاهد عليه السلام، في قوله: (أَعْلَنْتُ لَهُمْ)، قال: صحت.

وقوله: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، يقول: وأسرت لهم ذلك في ما بيني وبينهم في خفاء.

فعن مجاهد عليه السلام، في قوله: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، قال: في ما بيني وبينهم. وقوله: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، يقول: فقلت لهم: سلوا ربكم غفران ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم، وعبادة ما سواه من الآلهة ووحدوه، وأخلصوا له العبادة، يغفر لكم، إنه كان غفارًا للذنوب من أناب إليه، وتاب إليه من ذنوبه.

وقوله: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾، يقول: يسقيكم ربكم إن تبتم ووحدتموه وأخلصتم له العبادة الغيث، في رسل به السماء عليكم مدرارًا متتابعًا.

فعن الشعبي عليه السلام، قال: خرج عمر بن الخطاب عليه السلام يستسقي، فما زاد على الاستغفار، ثم رجع فقالوا: يا أمير المؤمنين ما رأيناك استسقيت، فقال: لقد طلبت

المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر، ثم قرأ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾، وقرأ الآية التي في سورة هود حتى بلغ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾^(١).

وقوله: ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾، يقول: ويعطكم مع ذلك ربكم أموالاً وبنين، في كثرها عندكم ويزيد في ما عندكم منها ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾، يقول: يرزقكم بساتين ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَرًا﴾ تسقون منها جناتكم ومزارعكم؛ وقال ذلك لهم نوح ﷺ، لأنهم كانوا في ما ذكر قوم يحبون الأموال والأولاد.

فعن قتادة رحمه الله، قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ ... إلى قوله: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَرًا﴾، قال: رأى نوح ﷺ قوما تجزعت أعناقهم حرصاً على الدنيا، فقال: هلموا إلى طاعة الله، فإن فيها درك الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: ما لكم لا ترون لله عظمة.

فعن ابن عباس رحمه الله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، يقول: عظمة.

وعن مجاهد رحمه الله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، قال: لا ترون لله عظمة.

وقال آخرون: معنى ذلك: لا تعظمون الله حق عظمته.

فعن ابن عباس رحمه الله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، قال: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته.

وقال آخرون: ما لكم لا تعلمون لله عظمة.

ذكر من قال ذلك: فعن ابن عباس رحمه الله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، يقول: ما لكم لا تعلمون لله عظمة.

(١) الآية: رقم ٥٢ من سورة هود.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ما لكم لا ترجون لله عاقبة.

فعن قتادة رضي الله عنه، قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، أي: عاقبة.

وعن قتادة رضي الله عنه، قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، قال: لا ترجون لله عاقبة.

وقال آخرون: بلمعنى ذلك: ما لكم لا ترجون لله طاعة.

قال ابن زيد رضي الله عنه، في قول الله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، قال: الوقار: الطاعة.

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: معنى ذلك: ما لكم لا تخافون لله عظمة، وذلك أن الرجاء قد تضعه العرب إذا صحبه الجحد في موضع الخوف، كما قال أبو ذؤيب:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا
وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَاسِلٍ

يعني بقوله: (ولم يرج): لم يخف.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، يقول: وقد خلقكم حالا بعد حال، طوراً نُطْفَةً، وطوراً عِلْقَةً، وطوراً مضغة.

فعن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، يقول: نطفة، ثم علقه، ثم مضغة.

وعن مجاهد رضي الله عنه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، قال: من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه، ثم ما ذكر حتى يتم خلقه.

وعن قتادة رضي الله عنه، قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، طوراً نطفة، وطوراً علقه، وطوراً عظاماً، ثم كسا العظام لحماً، ثم أنشأ خلقاً آخر، أنبت به الشعر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقال ابن زيد رضي الله عنه، في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، قال: طوراً النطفة، ثم طوراً أمشاجاً حين يمشج النطفة الدم، ثم يغلب الدم على النطفة، فتكون علقه، ثم تكون مضغة، ثم تكون عظاماً، ثم تكسى العظام لحماً.

يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل نوح ﷺ لقومه المشركين بربهم، محتجا عليهم بحجج الله في وحدانيته: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا﴾ أيها القوم فتعبروا ﴿كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾، بعضها فوق بعض، والطباق: مصدر من قولهم: طبقت مطابقة وطباقا، وإنما عني بذلك: كيف خلق الله سبع سموات، سماء فوق سماء مطابقة.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾، يقول: وجعل القمر في السموات السبع نورا ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ﴾ فيهن ﴿سِرَاجًا﴾.

فمن قتادة رحمه الله، قوله: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ ﴿١٥﴾ ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، ذكر لنا أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما كان يقول: إن ضوء الشمس والقمر نورهما في السماء، اقرءوا إن شئتم: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ ﴿١٥﴾ ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

وعن قتادة رحمه الله، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رحمه الله أنه قال: إن الشمس والقمر وجوههما قبل السموات، وأقفي تهما قبل الأرض، وأنا أقرأ بذلك آية من كتاب الله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾^(١).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، يقول: والله أنشأكم من تراب الأرض، فخلقكم منه إنشاءً، ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾، يقول: ثم يعيدكم في الأرض كما كنتم ترابا في صيركم كما كنتم من قبل أن يخلقكم، ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾، يقول: ويخرجكم منها إذا شاء أحياء كما كنتم بشرا من قبل أن يعيدكم فيها، في صيركم ترابا إخراجا.

يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل نوح ﷺ لقومه، مذكّرهم نعم ربه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تستقرون عليها وتمتهدونها.

(١) الآية: رقم ١٦ من سورة نوح.

وقوله: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾، يقول: لتسلكوا منها طرقا صعبا متفرقة؛ والفجاج: جمع فجّ، وهو الطريق.

فعن قتادة رضي الله عنه، قوله: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾، قال: طرقا وأعلاما.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾، يقول: طرقا مختلفة.

وقوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهَمْ عَصَوْنِي﴾ فخالفوا أمري، وردّوا عليّ ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ يقول: واتبعوا في معصيتهم إياي من دعاهم إلى ذلك، ممن كثر ماله وولده، فلم تزد كثره ماله وولده إلا خسارا، بعدا من الله، وذهابا عن مَحَجَّة الطريق.

واختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿وَوَلَدُهُ﴾ فقرأه عامة قراء المدينة: ﴿وَوَلَدُهُ﴾ بفتح الواو واللام، وكذلك قرءوا ذلك في جميع القرآن، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة: بضم الواو وسكون اللام، وكذلك كل ما كان من ذكر الولد من سورة مريم إلى آخر القرآن، وقرأ أبو عمرو: كل ما في القرآن من ذلك بفتح الواو واللام في غير هذا الحرف الواحد في سورة نوح، فإنه كان يضم الواو منه.

والصواب من القول عندنا في ذلك: أن كل هذه القراءات قراءات معروفة، متقاربات المعاني، فبأي ذلك قرأ القارئ فمصيب.

وقوله: ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرَأٌ كُبَّارًا﴾، يقول: ومكروا مكرا عظيما.

فعن مجاهد رضي الله عنه: ﴿كُبَّارًا﴾، قال: عظيما.

وقال ابن زيد رضي الله عنه، في قوله: ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرَأٌ كُبَّارًا﴾، كثيرا، كهيئة قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا﴾، والكُبَّار: وهو الكبير، كما قال ابن زيد، تقول العرب: أمر عجيب وعجاب بالتخفيف، وعُجَّاب بالتشديد؛ ورجل حُسان وحَسَّان، وجُمَال وجَمَّال بالتخفيف والتشديد، وكذلك كبير وكُبَّار بالتخفيف والتشديد.

يقول تعالى ذكره مخبراً عن إخبار نوح، عن قومه: ﴿ وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾، كان هؤلاء نفرًا من بني آدم في ما ذكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها.

وكان من خبرهم في ما بلغنا عن محمد بن قيس: ﴿ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾، قال: كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم.

فعن عكرمة رضي الله عنه، قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام. وقال آخرون: هذه أسماء أصنام قوم نوح.

- ذكر من قال ذلك:

فعن قتادة رضي الله عنه، قوله: ﴿ لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾، قال: كان ودّ لهذا الحيّ من كلب بدومة الجندل، وكانت سواع لهذيل برباط، وكان يغوث لبني عطف من الآية: رقم ٣٥ من سورة النبأ.

مُراد بالجُرف من سبأ، وكان يعوق لهمدان ببلخ، وكان نسر لذي كلاع من حمير؛ قال: وكانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح، ثم اتخذها العرب بعد ذلك، والله ما عدا خشبة أو طينة أو حجرًا.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿ لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾، قال: هذه أصنام كانت تُعبد في زمان نوح.

واختلفت القراء في قراءة قوله: (وُدًّا)، فقرأته عامة قراء المدينة: (وُدًّا) بضم الواو، وقراءته عامة قراء الكوفة والبصرة: (وَدًّا) بفتح الواو.

والصواب من القول في ذلك عندنا: أنهما قراءتان معروفتان في قراء الأمصار، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

وقوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾، يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل نوح ﷺ: وقد ضلّ بعبادة هذه الأصنام التي أحدثت على صور هؤلاء النفر المسمين في هذا الموضع كثير من الناس فنُسب الضلال إذ ضلّ بها عابدها إلى أنها المضلة.

وقوله: ﴿وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضِلَالًا﴾، يقول: ولا نزل الظالمين أنفسهم بكفرهم بآياتنا إلا ضلالا إلا طبعًا على قلبه، حتى لا يهتدي للحق.

وبعني تعالى ذكره بقوله: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ﴾، من خطيئاتهم ﴿أُغْرِقُوا﴾، والعرب تجعل: (ما) صلة في ما نوى به مذهب الجزاء، كما يقال: أينما تكن أكن، وحيثما تجلس أجلس، ومعنى الكلام: من خطيئاتهم أغرقوا.

وقال ابن زيد رحمه الله، في قوله: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ﴾، قال: فبخطيئاتهم ﴿أُغْرِقُوا﴾، فأدخلوا نارا، وكانت الباء ههنا فصلا في كلام العرب.

واختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ﴾، فقرأته عامة قراء الأمصار غير أبي عمرو: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ﴾، بالهمز والتاء، وقرأ ذلك أبو عمرو: (مما خطاياهم) بالألف بغير همز.

والقول عندنا: أنهما قراءتان معروفتان، فبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيب.

وقوله: ﴿فَادْخُلُوا نَارًا﴾، جهنم ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾، تقتصر لهم ممن فعل ذلك بهم، ولا تحول بينهم وبين ما فعل بهم.

وقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾، ويعني بالديار: من يدور في الأرض، في ذهب ويجيء فيها وهو في عال من الدوران ديوارًا، اجتمعت الياء والواو، فسبقت الياء الواو وهي ساكنة، وأدغمت الواو فيها، وصيرتا ياءً

مشددة، كما قيل: الحي القيام من قمت، وإنما هو قيوام، والعرب تقول: ما بها ديار ولا عريب، ولا دوي ولا صافر، ولا نافخ ضرمة، يعني بذلك كله: ما بها أحد.

يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل نوح ﷺ في دعائه إياه على قومه: إنك يا رب إن تذر الكافرين أحياء على الأرض، ولم تهلكهم بعذاب من عندك ﴿يُضِلُّوْا عِبَادَكَ﴾ الذين قد آمنوا بك، في صدوهم عن سبيلك، ﴿وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاَجْرًا﴾ في دينك، ﴿كَفَّارًا﴾ لنعمتك.

وذكر أن قيل نوح ﷺ هذا القول ودعائه هذا الدعاء، كان بعد أن أوحى إليه ربه: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾.

فعن قتادة رحمه الله، قوله: ﴿رَبِّ لَا نَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾، أما والله ما دعا عليهم حتى أتاه الوحي من السماء ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، فعند ذلك دعا عليهم نبي الله نوح ﷺ فقال: ﴿رَبِّ لَا نَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾ ٦١ ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاَجْرًا كَفَّارًا﴾، ثم دعا دعوة عامة فقال: ﴿رَبِّ اعْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾.

وقوله: ﴿رَبِّ اعْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي﴾، يقول: رب اعف عني، واستر علي ذنوبي وعلى والدي، ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾، يقول: ولمن دخل مسجدي ومصلاي مصليا مؤمنا، يقول: مصدقا بواجب فرضك عليه.

فعن الضحاك رحمه الله يقول: ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾، قال: مسجدي.

وقوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، يقول: وللمصدقين بتوحيديك والمصدقات.

وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾، يقول: ولا تزد الظالمين أنفسهم بكفرهم إلا خسارًا.

فعن مجاهد رحمه الله، في قوله: ﴿إِلَّا نَبَارًا﴾، قال: خسارًا.

٢ - وقال الإمام الماتريدي رحمه الله:

في ذكر نبأ نوح عليه السلام دلالة رسالته وأية نبوته؛ لما ذكرنا: أن هذا لم يكن من علمه، ولا علم قومه، ولم يختلف النبي ﷺ إلى من عنده علم به فتعلمه منه، فعلم أنه باللَّه تعالى علمه لا بأحد من خلقه؛ في كون فيه إلزام الحجة عليهم، وفيه إعلام رسول الله ﷺ ما لقينوح عليه السلام من قومه؛ ليصبره بذلك على أذى قومه؛ إذ السورة مكية.

ثم أمره بالإنذار، ولم يذكر معه البشارة، فكذلك قال نوح عليه السلام: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ولم يقل: بشير، وقد كان هو بشيرا ونذيرا، فجائز أن يكون اقتصر على ذكر النذارة؛ لأن في ذكرها ذكر البشارة؛ وذلك أنهم إذا استوجبوا العذاب إذا داموا على ما هم فيه من الضلالة وعبادة غير الله تعالى، فهم إذا انتهوا عن ذلك استوجبوا العفو، واستيجاب العفو وقوع البشارة، فإذا كان ذكر أحد الوجهين يقتضي ذكر الوجه الآخر، اكتفي بذكر أحدهما عن ذكر الآخر.

وجائز أن يكون خص النذارة بالذكر؛ لأن الحال كانت حال الإنذار؛ لأنهم كانوا معرضين عن طاعة الله تعالى ومقبلين على عبادة غيره، فكانوا مستوجبين للنذارة، ولم يكونوا من أهل البشارة، وإنما يصيرون من أهلها إذا انتهوا عما هم عليه؛ في كون قوله: ﴿أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ إن داموا على ما هم عليه، وفي هذا دلالة على أن المرء إذا أخذ غير طريق الهدى، فالسبيل فيه أن يفسد عليه مذهبه، ثم إذا ظهر فسادُه عنده، أمره باتباع سبيل الهدى وبين له الحجج والدلائل؛ لينجع فيه ذلك، ليس أن يحتج عليه بالحجج التي هي حجج مذهب الحق قبل أن يبين له فساد ما هو فيه؛ فإن ذلك لا ينجع فيه، ولا يدعوه إلى قبول الحق والتزامه، بل يبين له قبح ما هو فيه وفساد ما اعتقده، فإذا بان له ذلك يحتاج إلى أن يسأله عن سبيل الهدى فيه؛ ليعرفه بالتعلم.

ثم الأصل أن الدنيا هي سبيل الآخرة، والضلال سبيل يفضي بمن سلكه إلى

العذاب الدائم، والهدى سبيل يفضي إلى الثواب الدائم، فالنذارة هي تبين ما ينتهي إليه عاقبة من يلزم الضلال، والبشارة هي تبين ما ينتهي إليه عاقبة من يلزم الهدى. وإن شئت قلت: إن النذارة هي أن يبين عسر ما يحل به في العاقبة، والبشارة هي أن يثبت بما يصير إليه في العاقبة من اليسر.

ثم في قوله ﷺ: ﴿أَنْ أُنْذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، دلالة أن حجة الإسلام تلزم الخلق قبل أن يأتيهم النذير؛ لأنه لو كانت لا تلزمهم، لكانوا في أمن من نزول العذاب قبل أن يأتيهم النذير؛ فلا يخوفون بنزل العذاب بهم قبل أن يندروا، فلما خوفوا بنزول العذاب بهم قبل أن يأتيهم النذير دل أن الحجة لازمة عليهم، وأن لله تعالى أن يعذبهم لتركهم التوحيد وإن لم يرسل إليهم الرسل، في كون تأويل قوله ﷺ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١)، على عذاب الاستئصال في الدنيا ليس على عذاب الآخرة، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿يَقُولُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، أي: مبين بما يقع به الإنذار والتخويف؛ في كون الإبانة منصرفة إلى النذارة، ويحتمل أن يكون هذا الوصف راجعا إلى نفسه خاصة؛ كأنه قال: (نذير لكم مبين)، أي: إني لم أقم في دعائي إياكم إلى عبادة الله تعالى وإنذاركم من عند نفسي، ولكن بما اختصني الله تعالى وولاني ذلك.

ثم الأصل في الإنذار أن يقتضي نهيا وفي النهي أن يقتضي أمرا، لكن الإنذار يقتضي نهيا وكيدا، والنهي الوكيد يقتضي الأمر بالخلاف أمرا وكيدا.

وأما البشارة فهي تقتضي الأمر الوكيد وغير الوكيد؛ لأنه يستوجب البشارة بكل خير يفعله، وإن كان للمرء ترك ذلك الخير بخير آخر يأتي به، فلا يفهم بنفس البشارة الأمر الوكيد؛ ويفهم بتصريح النذارة كلا الوجهين اللذين ذكرناهما.

وإذا كان كذلك، فمطلق البشارة لا يدل على تحقيق النذارة، وأما النذارة فهي

(١) الآية: رقم ١٥ من سورة الإسراء.

تدل على البشارة؛ لأن النذارة على ما هو فيه في الفعل تلزم النهي، وإذا انتهى عنه فقد حصل العفو، وفي حصول العفو ارتفاع ما خوف وذهابه.

وقوله ﷺ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾، فكأنه قال: أنذرهم على عبادة غير الله، وأمرهم بعبادة من يستحق العبادة، وهو الله تعالى؛ إذ الأمر بالإنذار يقتضي النهي عما هم عليه ويدعو إلى خلافه، وبين لهم الخلاف الذي دعوا إليه؛ لقوله ﷺ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾، وقيل: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: وحدوه، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كل عبادة جرى بها الأمر في القرآن على الإرسال فهي منصرفة إلى التوحيد.

فكان الذي حملهم على هذا التأويل هو أن الآيات التي فيها أمر بالعبادة نزلت في أهل الكفر؛ لأنه خاطب بقوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ (١)، ولم يخاطب بقوله ﷺ: يا أيها الذين آمنوا اعبدوا ربكم، وإذا ثبت أنها في أهل الكفر، والكافر أول ما يؤمر بالتوحيد ليس يخاطب بعبادة أخرى سواه؛ لأنه ما لم يأت بالتوحيد لم يقبل منه شيء من العبادات، فجعلوا تأويل العبادة التوحيد لهذا؛ لا أن يكون العبادة عبارة عن التوحيد خاصة، بل العبادة يراد بها التوحيد مرة إذا ذكرت عقيب الكفر، وإذا ذكرت في أهل الإيمان فالعبادة منهم أن يفوا بمعاملة ما اعتقدوه بالقول؛ وأن ينجزوا ما وعدوا من أنفسهم، وهذا كما ذكرنا في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: أنهما إذا ذكرتا في أهل الكفر، انصرف المراد من ذلك إلى الاعتقاد لا إلى الفعل؛ لأنهم ليسوا من أهل الفعل، وإذا ذكرتا في أهل الإسلام أريد بالإقامة والإيتاء إيجاد الفعل، فكذاك الحكم في العبادة بقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: وحدوه، ﴿وَاتَّقُوهُ﴾، أي: اتقوا الإشراف في عبادته، وأطيعوني في ما آمركم به من توحيد الله تعالى وألا تشركوا به شيئاً.

وجائز أن يكون قوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾، أي: اتقوا المهالك كلها، واتقوا النار؛ كما قال

اللَّهُ ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿فَوَأنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^(٢)، فالتقوى إذا ذكر على الانفراد مرسلًا، اقتضى الانتهاء عما فيه الهلاك، واقتضى الأمر بالعبادة والطاعة، وإذا جمع بين العبادة والتقوى، كانت العبادة منصرفة إلى إتيان الأفعال، وانصرف التقوى إلى اتقاء المهالك، وهو كما قلنا في البر والتقوى: إن كل واحد منهما إذا ذكر مفردا اقتضى ما يقتضيه الآخر، وإذا جمعا في الذكر، صرف أحدهما إلى جهة والآخر إلى جهة أخرى، وكذلك الإسلام والإيمان إذا أفرد بذكر أحدهما يكون معنى كل واحد منهما هو معنى الآخر، وإذا جمعا في الذكر صرف كل واحد منهما إلى جهة على حدة.

وقال الحسن في قوله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا﴾، أي: اتقوا الله في حقه أن تضيعوه فهو يجمع ما يؤتى وما يتقى.

ثم الأصل أن الطاعة قد تكون لمن سوى الله، والعبادة لا تكون إلا لله تعالى؛ فلذلك قال عند الأمر بالعبادة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، فأضافها إلى الله تعالى، وأضاف الطاعة إلى نفسه بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا﴾، ففيه دلالة أن ليس في الطاعة لآخر إشراك بالله تعالى في الطاعة، بل الله تعالى جعل الإشراك في الطاعة بقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٣)، وذم من يعدل بالله تعالى في العبادة بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^(٤)، فالعبادة كأنها تقتضي الخضوع والتضرع على الرجاء والخوف، والله تعالى هو الذي يرجى منه ويخاف من نعمته، فأما الطاعة فهي تقتضي فعلا على الأمر لا غير؛ وعلى ذلك لما صرفت الكفرة الرجاء والخوف إلى الأصنام

(١) الآية: رقم ١٣١ من سورة آل عمران.

(٢) الآية: رقم ٦ من سورة التحريم.

(٣) الآية: رقم ٨٠ من سورة النساء.

(٤) الآية: رقم ١٥٠ من سورة الأنعام.

بقولهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾^(١)، وقولهم: ﴿ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾^(٢)، سموا: عباد الأصنام، فكل من يفعل الفعل على الخوف والرجاء فذلك منه عبادة له.

وقوله ﷺ: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، إن صرفت قوله: ﴿ وَأَنْتَقُوهُ ﴾ إلى اتقاء الشرك يرجع قوله: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ إلى ما سلف من الذنوب في حالة الشرك؛ كقوله ﷺ: ﴿ إِنْ يَنْتَهُوْا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾^(٣)، وإن صرفته إلى سائر وجوه المهالك، رجع إلى السالف وإلى الأنف جميعا؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنْتَ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ﴾^(٤)؛ في كون قوله ﴿ مِّنْ ﴾ صلة على ما ذكره أهل التفسير، ومعناه: يغفر لكم ذنوبكم.

وجائز أن يكون قوله: (مِّنْ) على التحقيق ليس على حق الصلة؛ لأنه قد يكون من الذنوب ذنوب يؤاخذ بها بعد الإسلام، وهي التي تكون بينه وبين الخلق من القصاص وغيره، فالمأثم بالقتل وإن زال عنه بالتوبة؛ فإن القصاص لا يرتفع عنه.

وقوله ﷺ: ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، جائز أن يكون: أُولَئِكَ الْقَوْمُ كَانُوا يخافون على أنفسهم الإهلاك من قومهم بإيمانهم وإجابتهم لنوح ﷺ؛ في خرج قوله: ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، مخرج الأمان لهم أنهم بإيمانهم يبقون إلى الأجل الذي ضرب لهم لو لم يؤمنوا؛ إذ يكون معناه: أنكم إن أسلمتم بقيتم إلى انقضاء أجلكم المسمى سالمين آمنين، لا يتهياً لعدوكم أن يمكر بكم.

(١) الآية: رقم ٣ من سورة الزمر.

(٢) الآية: رقم ١٨ من سورة يونس.

(٣) الآية: رقم ٣٨ من سورة الأنفال.

(٤) الآية: رقم ١١٤ من سورة هود.

وقوله ﷺ: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(١)، جائز أن يكون قوله: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾، أي: لا يتأخرون عن آجالهم أو لا يؤخرون بما يطلبون من التأخير؛ في كون في هذا إياس لهم أنهم لا يؤخرون إذا طلبوا التأخير؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢)؛ فأخبر جل جلاله: أن الموت إذا أتاه طلب التأخير لينذل ما طلب منه البذل قبل ذلك من التصديق والإيمان به، فقطع عنهم طمعهم بقوله: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾، وبقوله: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وبقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾^(٣).

وقوله ﷺ: ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: لو كنتم تعلمون ما يحل بكم من الندامة عند انقضاء آجالكم، لكنتم تبدلون للحال ما أريد منكم؛ لئلا يحل بكم العذاب. أو أن يكون معنى قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، أي: أجل العذاب إذا حل، وقعلا محالة، فلو علموا بوقوعه لا محالة، لارتدعوا عنه.

وقوله ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، يحتمل أن يكون هذا من نوح عليه السلام بعد أن أخبر: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، في كون القول منه قول معتذر: أنه لم يقصر في دعوة قومه إلى الإسلام، وأنه قد دعاهم إلى الإسلام في كل وقت وحال، وأنه قد أبلى عذره في ذلك، وإنما جاء التفريط والتعدي من جهة قومه.

ويحتمل أن يكون هذا منه: على الإشفاق والرحمة والتعرض؛ لاستئصال اللين

(١) الآية: رقم ٣٤ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ١٠ من سورة المنافقون.

(٣) الآية: رقم ٤ من سورة نوح.

والرحمة، لعل الله تعالى بلطفه يلين قلوبهم فينقادوا للحق، ويرغبوا في الإجابة؛ ليتخلصوا من العذاب ويستوجبوا المغفرة من ربهم، فهو يخرج على أحد هذين الوجهين: إن كان قبل الإخبار، فهو على التعرض منه؛ لاستئصال اللين والرحمة، وإن كان بعده فهو على إبلاء العذر، لا على الدعاء والرجاء بأن يلين قلوبهم بلطفه فينقادوا للحق؛ إذ لا يجوز أن يخبر الله تعالى أنهم لا يؤمنون، وهو يطمع منهم أن يؤمنوا.

ثم قوله: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، أي: دعوت في كل وقت وكل ساعة من الليل والنهار أمكنني فيه الدعاء.

وقوله ﷺ: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾.

وأصل هذا أن عداوتهم كانت قد اشتدت لنوح ﷺ، وكانوا قد استثقلوه وأبغضوا كلامه، فحدث لهم ببغضهم كلامه واستثقالهم إياه معنى حملهم على الفرار؛ فنسب ذلك إلى الدعاء، لأن حدوث ذلك المعنى كان عند وجود الدعاء؛ فنسب إلى الدعاء على معنى المجاورة والقرب، لا أن يكون الدعاء في الحقيقة سببا لزيادة الفرار؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾^(١)، والقرآن لم يجعل سببا لزيادة الرجس، ولكنهم لما أحدثوا بغضا عندما تلى عليهم القرآن، فحدث لهم بذلك معنى حملهم على ذلك الوجه، فأضيفت تلك الزيادة إلى القرآن؛ إذ عند ذلك حدث ذلك السبب الزائد في الرجس، فنسب إليه على معنى المجاورة، وقال الله تعالى: ﴿فَاتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾^(٢)، وهم لم يكونوا منسيين، بل كانوا مذكرين يذكرونهم مرة بعد مرة، لكن ببغضهم إياهم واتخاذهم سخريا أوقع لهم النسيان، فنسب إليهم الإنساء، فعلى ذلك لما أبغضوه واستثقلوا كلامه ودعائه، أحدث لهم ذلك البغض زيادة نفار

(١) الآية: رقم ١٢٥ من سورة التوبة.

(٢) الآية: رقم ١١٠ من سورة المؤمنون.

وجحود، ثم نسب النفار إلى الدعاء على الوجه الذي ذكرنا لا أن يكون الدعاء في الحقيقة منفر.

وقوله ﷺ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾، وقال في موضع آخر: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيَكُمُ الْبَيْتُ الْمَدِينُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَكْفُرُوا بِهِمْ فَأَرْسِلْهُمْ فِي تَرْغُوتَ الْبَيْتِ الْمَدِينِ﴾^(١)، في جواز أن تكون هذه الآية في ما يدعون رؤساءهم وأشرفهم والأجلة منهم، فإذا دعاهم ردوا أيديهم في أفواه الأنبياء ﷺ، وضربوهم على ما ذكر في الأخبار، وأما الأتباع منهم، والمقلدون لهم، كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم ويغطون وجوههم ورءوسهم؛ كي لا يسمعوا كلامه في قع شيء منه في قلوبهم؛ لما حذرهم رؤسائهم عن ذلك.

أو يكون هذا في طائفة منهم، وهذا في طائفة إذا كان أيس من قوم، وأقبل على آخرين، فاختلفت معاملتهم معه على ما كان من أمر نبينا مُحَمَّد ﷺ، ثم هذا يحتمل وجهين: أحدهما: على التحقيق على ما ذكرنا؛ ليؤيسه من الإجابة.

والثاني: جائز أن يكون على التمثيل، فضرب مثلهم فيتركهم الإجابة مثل من جعل أصبعه في أذنه واستغشى ثيابه؛ لئلا يسمع ولا يجيب؛ وهو كقوله ﷺ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾^(٢)، ولم يوجد منهم نبذ، ولكنهم أعرضوا عنه إعراض من ينبذه وراء ظهره، وكذلك في قوله ﷺ: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِيْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ على التمثيل، وهو أنهم تركوا الإجابة إلى ما دعوا إليه كترك الإجابة من الذي يرد يده في فيه؛ لئلا يتكلم، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾، أي: داموا على ما هم عليه وثبتوا على كفرهم.

(١) الآية: رقم ٩ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية: رقم ١٨٧ من سورة آل عمران.

وقال قتادة: ﴿وَأَصْرُوا﴾، أي: صاحوا في وجوه الأنبياء عليهم السلام ردا عليهم، أو مغالبة في الدعاء؛ كقوله: ﴿وَالْعَوَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾^(١).

وقوله ﷺ: ﴿وَأَسْتَكْبِرُوا اسْتِكْبَارًا﴾، أي: استكبروا عن طاعة الله تعالى، وامتنعوا عن الإجابة لرسوله ﷺ.

وقوله ﷺ: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، ففي هذا إخبار أنه دعاهم إلى عبادة الله تعالى في كل وقت تهيأ له من ليل أو نهار، ولم يقصر فيها، ودعاهم في كل وقت؛ رجاء الإجابة منهم.

ويحتمل: ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا﴾، أي: إذا بعدوا مني، وازدحموا وكثروا؛ فدعاهم جهاراً؛ لتعمهم الدعوة.

وقوله ﷺ: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، إذا قربوا منه وقلوا، فلما أدخلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم أعلن في الدعاء.

ثم جائز أن يكون: الجهر والإسرار منصرفاً إلى الدعوة، ويكون الإعلان إعلاناً بالحجج وإظهاراً للبينات، وإلى هذا يذهب أبو بكر الأصبم.

وقوله ﷺ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، فالاستغفار طلب المغفرة بما ذكر من قوله ﷺ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾؛ في كون هذا منه أمراً لهم بإتيان الإيمان الذي هو سبب المغفرة، لا أمراً بسؤال المغفرة نفسه من الله تعالى؛ إذ استغفار كل قوم يرجع إلى أحوالهم، فإذا كانوا كفرة، فهو إيمان بالله تعالى، وإن كانوا أصحاب ذنوب، فالتوبة إلى الله تعالى، وإن كانوا مخلصين فمما سلف من ذنوبهم مما يعلمونها، ونحو ذلك.

وقوله ﷺ: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ جَنَّاتٍ وَجَعَلَ

(١) الآية: رقم ٢٦ من سورة فصلت.

لَكَرُّ أَنْهَرًا﴿١﴾، فيحتمل أنما قال هذا لهم ذلك: لأنهم كانوا في شدة عيش وضيق حال فوعد أنهم إن انتهوا عن الكفر، وأجابوا إلى ما يدعوهم إليه، غفر الله لهم ذنوبهم، وأرسل السماء عليهم مدرارا؛ في توسعوا به، على ما قال به بعض أهل التأويل: إن الله تعالى قد حبس عنهم المطر، وعقمت أرحام نسائهم، وهلك مواشيهم وجناتهم لتمام أربعين سنة، ثم أهلكوا بعد ذلك، وكانوا كلهم كفارا، ليس فيهم صغير؛ فلذلك كان نوح ﷺ يعدهم بما ذكرنا، والله أعلم.

ويحتمل أن يكونوا: خافوا انقطاع النعمة عنهم بالإجابة وزوال السعة عنهم بالإسلام ومن الناس من يترك الإيمان خشية هذا، فأخبر ﷺ أن الذي هم فيه من رغد العيش لا ينقطع عنهم بالإسلام، بل يرسل عليهم المطر من السماء مدرارا متتابعاً، ويمدهم بأموال وبنين مع ما يجعل لهم من الجنان والأنهار، لكن ذوو الألباب والعقلاء ينظرون إلى حسن العاقبة وما إليه مآل الأمر دون الحال، فذلك الذي يرغب فيه؛ ولذلك اختلفت دعوة النبي ﷺ لأمته: فمنهم من بشره بكثرة أمواله وبنيه، ومنهم من رغبه في آخرته، قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾^(٢).

ونظير الأول كقوله ﷺ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٣)، والأصل أن الرسل ﷺ بعثوا مبشرين ومنذرين، داعين، زاجرين، محتجين، مدحضين، فما تلوا عليهم من أنباء الأولين دخل فيهم جميع الأوجه الثلاثة؛ إذ النذارة والبشارة مرة

(١) الآية: رقم ٥٨ من سورة يونس.

(٢) الآية: رقم ١٥ من سورة آل عمران.

(٣) الآية: رقم ٩٦ من سورة الأعراف.

تقع بالابتلاء، ومرة بذكر ما ينزل بالمتقدمين المصدقين منهم والمكذبين؛ أن كيف كان عاقبة هؤلاء وهؤلاء.

وكذلك دعاء الرحمة يكون مرة بابتداء الدعاء، والزجر، وبذكر الأمم السالفة، وأن الرسل كيف كانوا يدعونهم ثانياً للحق، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾.

قال أبو بكر الأصم: تأويله كيف لا ترجون لله ثواباً فتعبدوه في ثيكم بها، وقد علمتم أن الخير كله في يده، وأن الذي تعبدون من دون الله لا يملكون لكم نفعاً ولا يدفعون عنكم ضرراً؛ فجعل قوله: ﴿ وَقَارًا ﴾ مكان (عبادة)، والله أعلم.

وقال غيره: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾، أي: ما لكم لا ترجون لأنفسكم عند الله منزلة وشرفاً وقدرًا.

وقال بعضهم: أي: ما لكم لا تخافون عظمة الله وقدرته عليكم؛ فتنتهوا عما نهاكم وتأتوا ما أمركم به، وحمل الرجاء على الخوف؛ لما قد ذكرنا أن الرجاء المطلق يقتضي الخوف والرجاء جميعاً، وكذلك الخوف المطلق يقتضي رجاء، والله أعلم.

والأشبه بالتأويل عندنا: أن الرجاء لله تعالى على مثال الغضب لله، والحب لله، والبغض لله، أي: ما لكم لا تسعون سعي من يرجو ما عند الله على الوقار والهيبة، بعد أن شاهدتم من نعم الله تعالى وإحسانه إليكم من خلق أن سماوات والأرض، وتسخير الشمس والقمر، وما ذكر من منته في الآيات التي يتلوها؛ وذلك أن المرء إذا سعى لآخر على غير رجاء أو لم يرج أحداً، استحقق به، فألزمهم نوح ﷺ سعي من يرجوه على التوقير والهيبة على ما عليه العادة في الشاهد أن الساعي للملوك والكبراء على الرجاء كيف يكون منهم توقيرهم إياهم وهيبتهم منهم، والله أعلم.

وقوله ﷺ: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾.

فمن حمل قوله: ﴿ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾، على حقيقة الرجاء، فتأويله: كيف لا ترجون أن يعظم قدركم عند الله ﷻ إذا أجبتم إلى ما دعاكم إليه، وفي ما ذكر من خلقه إياهم أطوارا تذكير لهم حسن صنيعه بهم في ما قلبهم من حال إلى حال من أول ما أنشأهم إلى حالهم التي هم فيها، فكيف لا يرجون إحسانه في حادث الأوقات إذا أقبلوا على طاعته واشتغلوا بعبادته؟!

وإن كانوا قوله ﷻ: ﴿ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾، على الخوف، ففي ما ذكر من قوله ﷻ: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾، تذكير العظمة والسلطان والقدرة، وهو أنه دبركم في تلك الظلمات الثلاث، ولم يخفَ عليه أحوالكم فيها، بل قلبكم من حال إلى حال كيف شاء، فكيف يخفى عليه أفعالكم في حال بروزكم وظهوركم؛ في كون في ذكر هذا تنبيه أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال الخلق في دعو ذلك إلى المراقبة، ويلزم التيقظ والتبصر في كل حال؛ لئلا يتعدى حدود الله، ولا يضيع حقوقه، في حل به البوار والهلاك.

فإذا حملت التأويل على الرجاء: فهو يخرج على غير التأويل الذي حملته على الخوف؛ لأنك إذا حملته على الرجاء، كان فيه تذكير عظيم مننه، ونعمه عليهم من أول ما أنشأهم إلى الوقت الذي انتهوا إليه؛ في حملهم ذلك على طلب ما يشرف قدرهم عند الله تعالى، ويحمد عاقبتهم.

وإن حملته على الخوف: كان فيه تذكير القدرة والسلطان؛ في حملهم على المراقبة والاتقاء في حادث الأوقات.

ومن حمل قوله: ﴿ وَقَارًا ﴾، على العبادة: فهو يخرج على غير الوجهين الذين ذكرناهما في الخوف والرجاء إذا صرف إليهما التأويل، كأنه يقول: إن الذي خلقكم أطوارا قد تعلمون أنه حكيم ومن هو حكيم لا يسفه، وترككم سدى لا يأمركم ولا ينهاكم، ولا يستأدي منكم شكر النعم سفه؛ في كون في ذكر هذا ترغيب في العبادة وإخلاص الطاعة.

ويكون في ذكر هذا أيضا إثبات الربوبية وإلزام القول بالوحدانية؛ لأنه أنشأهم من أول ما أنشأهم نقطة، ثم علقه، ثم مضغة إلى أن خلقهم بشرا سوياً، فلو لم يكن المدبر والمنشئ واحداً، لكان يعجز عن تقليبه من حال إلى حال؛ لأنه إذا أراد أن ينشئ من النطفِ علقه، ومن العلقه مضغة، كان للآخر أن يمنعه عن تدبيره؛ فلا يتهياً له إنشاء علقه ولا مضغة، فارتفاع المانع دليل على أن لا مدبر سواه، ولا خالق غيره.

وإذا ثبت انفراده بما ذكرنا ثبت أنه هو المستحق للعبادة من الخلائق.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: معنى قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، أي: مختلف الأخلق والصور والألوان والألفاظ والأصوات والنعم؛ حتى لا يرى أحد يشبه آخر بجميع خلقته، وهذا من عظيم ما يستدل به على قدرته وحكمته، والله الموفق.

وقوله ﷺ: ﴿الَّذِينَ تَرَوْنَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾.

قد ذكرنا أن قوله: ﴿الَّذِينَ تَرَوْنَ﴾، يقتضي تذكير أمر عرفوه، فأغفلوا عنه، فقد يقتضي تذكير أعجوبة لم يسبق من الخلائق العلم بها، يقول: قد رأوا أنه خلق سبع سماوات طباقا بغير علائق فوقها ولا أعمدة تحتها، ومن قدر على خلق مثله لقادر على خلق كل ما يريد؛ في كون فيه إيجاب القول بالبعث؛ إذ إعادتهم ليست بأعسر من خلق السماوات في تقدير عقولكم، فمن قدر على خلقهن، لقادر على البعث، والله الموفق.

وقوله ﷺ: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيْهِ نُورًا﴾، منهم من يذكر أنه جعله نورا في السماء الدنيا، وأضافه إلى جملة السماوات.

وقد يجوز أيضا أن: يضاف الشيء إلى العدد وإن لم يكن يوجد ذلك إلا في البعض، يقال: في سبع قبائل مسجد واحد، والمسجد إذا كان واحدا فهو لا يكون في سبع قبائل، وإنما يكون في قبيلة واحدة، ويقال: فلان توارى في دور قوم، وهو

لا يكون متواريا في دور جملتهم، وإنما يكون متواريا في واحدة منهم، ثم أضيف التواري إلى الجملة فكذلك أضاف نور القمر إلى السماوات السبع وإن كان القمر في سماء واحدة.

وقوله ﷺ: ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾، فذكر السراج هاهنا مكان الضوء في موضع آخر، وهو قوله ﷺ: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً ﴾^(١)، فذكر في القمر النور وفي الشمس الضياء؛ لأن القمر يكون في وقت الحاجة إلى النور، وذلك في ظلمة الليل، ثم الله تعالى أنشأ الليل لسكن فيه، لكن قد يبدو للخلائق بالليل حوائج يحتاجون إلى قضائها؛ فمن الله تعالى عليهم بنور القمر؛ ليتوصلوا بنوره إلى قضاء حوائجهم، وجعل الشمس ضياء؛ ليختطف ضوءها نور الليل، ويغلب عليه، ولا يختطف نور النهار نور الشمس، والله أعلم.

قوله ﷺ: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾، جائز أن يكون أضاف الإنبات إلى الأرض، ويرد ذلك إلى الأصل الذي خلق من التراب، وهو آدم ﷺ فنسب الفرع إلى الذي منه خلق الأصل؛ لحدوثه منه، لا أن يكون خلق الجملة من التراب، وهو كقوله ﷺ: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾^(٢)، والذي لنا في السماء هو المطر لا الذي يرزق به، ولكن الذي يرزق به أصله المطر، فنسب إلى المطر؛ لأنه هو الأصل الذي يتوصل به إلى الإرزاق؛ فكذلك الخلائق لما كانوا من نسل آدم ﷺ وكان هو أصلا لهم، أضيف النسل إلى الأصل؛ الذي حدث منه الأصل.

ويحتمل أن يكون: يرجع هذا إلى كل فينفسه؛ وذلك لأن حياة الأبدان وقوامها بالذي يخرج من الأرض، وينبت منها من أنواع الأغذية، فإذا كان قوامها بما ينبت منها، فكأنما أنبتنا منها؛ فاستقام أن يضاف الإنبات إليها، كما يستقيم أن يضاف

(١) الآية: رقم ٥ من سورة يونس.

(٢) الآية: رقم ٢٢ من سورة الذاريات.

خروج الثمار إلى الأرض وإن كان حدوثها من الأشجار؛ إذ قوام الأشجار وبقاؤها بها؛ فنسب ما يخرج منها إلى الأرض على التقدير الذي ذكرنا.

ففي قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، على التأويل الأول إثبات القدرة على البعث والإزام الحجة على من يجحد كونه؛ لأنه يذكرهم قدرته أنه أنشأهم من الأرض، ولم يكونوا شيئا، فمن قدر على إنشائهم من الأرض بعد أن كانوا ترابا، لقادر على أن يعيدهم إلى الحالة التي كانوا عليها من كونهم بشرا سويا، وإن صاروا عظاما ورفاتا؛ لأنهم كانوا يزعمون أن كيف يعادوا خلقا جديدا بعد أن صاروا ترابا، فاحتج عليهم بأمر الابتداء من الوجه الذي ذكرنا.

وإن كان على التأويل الثاني، ففيه تذكير نعمه: أن قد أخرج لهم من الأرض ما يتعيشون به، ويقيمون به أودهم، أو يستأدي منهم الشكر، وفيه تذكير قوته وسلطانه؛ ليخوفهم عقابه في تعظوا ويتقوا سخطه، ويطلبوا مرضاته.

وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾، فجمع بين الإعادة والإخراج بحرف الجمع: وجعل قوله ﷻ: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ في موضع ﴿ثُمَّ﴾؛ لأن هذا الإخراج يكون بعد الإعادة إلى الأرض، في كون في هذا دليل أن أحد الحرفين وهو: (الواو) قد يستعمل مكان ﴿ثُمَّ﴾.

وقوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾، أي: جعلها كالشيء المبسوط الذي ينتفع ببسطه، ولو لم يجعلها كذلك، لم يتوصلوا إلى حوائجهم، ولا الانتفاع بها، ففي ذكر هذا تذكير بما لله تعالى عليهم من عظيم المنة.

وقوله ﷻ: ﴿لَسَلَكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾، قيل: الفجاج: هي الطرق الواسعة.

وقيل: السبل في السهل، والفجاج: الطرق في الجبال، وهذا أيضا من عظيم نعم الله تعالى على عباده؛ لأن الله تعالى قدر أرزاق الخلق في البلاد، فلو لم يجعل لهم في الأرض سبلا، لم يجدوا طريقا يسلكونه، في توصلون به إلى ما به

قوام أبدانهم؛ فصارت الطرق المتخذة لما نسلك فيها، فنصل إلى حوائجنا وإلى معاشنا: كالدواب التي سخرت لنا؛ فتوصل بها إلى حوائجنا، وهذا يبين لك أن ملك أقطار الأرض وتديرها يرجع إلى الواحد القهار؛ لأنه أحوج الخلق إلى الانتشار في البلاد؛ لإقامة أودهم، وجعل لهم سببا يتوصلون به إلى ذلك؛ فثبت أن مالك الأقطار واحد.

وقوله ﷺ: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّمَّ عَصَوْنِي ﴾، أي: عصوني في ما أمرتهم به أو في ما دعوتهم إليه.

وقوله ﷺ: ﴿ وَاتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوْلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾، يشبه أن يكون المتبوعون هم الذين كثرت أموالهم وحواشيهم، استتبعوا من دونهم في تبعوهم ولم يتبعوا نوحا ﷺ، وقد كان نوح ﷺ يدعوهم إلى اتباعه، فأخبر أنهم لم يتبعوه، وإنَّما اتبعوا من كثرت أمواله وأولاده وحواشيه؛ فتكون هذه الآية في الأتباع أنهم اتبعوا أجلتهم ورؤساءهم ليس في رؤسائهم، وما تقدم من الآيات في أجلتهم من دعاء نوح ﷺ إياهم إلى التوحيد وغيره.

ويحتمل أن تكون هذه الآية في الأجلة والضعفة جميعا؛ في كون قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوا ﴾، أي: اتبعوا من تقدمهم من أهل الثروة والغناء، والذين وسعت عليهم الدنيا، وبسطت لهم؛ ظناً منهم أنهم أحق بالله تعالى، وأقرب إليه في المنزلة. والذي حملهم على هذا هو أنهم لا يرون أحدا في الشاهد يترك صلة وليه ويصل عدوه، في رون أنه إذا بسطت على رؤسائهم الدنيا، ووسع الله تعالى عليهم، وضيق على هؤلاء أن أولئك أقرب منزلة وأعلى حالا، وأنهم هم الأولياء، وهم لا يؤمنون بالآخرة وثوابها، فكانوا يزعمون أنه يوفر الجزاء على الأولياء والمحسنين في الدنيا، وزعموا أن من وسع عليه الدنيا فهو أحق أن يكون وليا لله تعالى حيث وصل إليه الجزاء فيها، فهذا الظن هو الذي حملهم على الاتباع.

وقوله ﷺ: ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾، أي: بوارا وهلاكاً لذلك المتبوع، فكانت تلك النعم التي ظنوا أنهم أكرموا بها بصنيعهم سبباً لخسارهم.

ثم قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوْلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾، كقوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^(١)، ثم قد بينا تأويل شكايته إلى الله تعالى من قومه، فهذه الآية وتلك الآيات في معنى تأويل الشكاية إلى الله تعالى واحد.

وقوله ﷺ: ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرٌ كَبِيرٌ﴾، قَالَ بَعْضُهُمْ: إنهم كانوا يمكرون ما يمكرون بألسنتهم؛ حيث كانوا يدعونهم إلى الكفر والصد عن سبيل الله، فكنى بالمكر عما قالوه بالسنتهم، فكان ذلك: ﴿مَكْرٌ كَبِيرٌ﴾، أي: قولاً عظيماً.

وجائز أن يكون على حقيقة المكر، وهو أن رؤساءهم مكروا باتباعهم حيث قالوا: إِنْ هَؤُلَاءِ لَوْ كَانُوا أَحَقُّ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَّا، لَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ يَوْسَعُ عَلَيْهِمْ وَيَضِيقُ عَلَيْنَا، فإذا وسع علينا وضيق عليهم، ثبت أننا نحن الأولياء والأصفياء دون غيرنا، وهذا منهم مكر عظيم؛ لأنه يأخذ قلوب أولئك في صدهم عن سبيل الله تعالى.

وجائز أن يكون مكرهم ما ذكر أنهم كانوا يأتون بأولادهم الصغار إلى نوح ﷺ، ويقولون لهم: إياكم واتباع هذا فإنه ضال مضل، فكان هذا مكرهم بصغارهم.

وقوله ﷺ: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْذِرُ الْهَتَكُ وَلَا تَنْذِرُ وَدًّا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

هذه المقالة منهم كانت بعد أن انقادت لهم الأتباع، واتبعتهم إلى ما دعواهم إليه من عبادة الأصنام، فقالوا بعد ذلك: ﴿لَا تَنْذِرُ﴾، أي: لا تذر عبادتها.

وقوله ﷺ: ﴿وَلَا تَنْذِرُ وَدًّا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، وهي أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها.

ثم يحتمل أن يكون الذي بعثهم على عبادة الأصنام ما ذكره أهل التفسير: أن قوم نوح عليه السلام اتخذوا هذه الأصنام أول ما اتخذوها على صورة رجال عباد كانت هذه الأسماء أسماءهم، فسموا الأصنام بأسماء العباد؛ ليعتبروا بها، ويجتهدوا في العبادة إذا نظروا إليها، فلما مضى ذلك القرن الذين اتخذوها عبدة وخلفهم قرن بعدهم، قال لهم الشيطان: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدون هذه الأصنام، فعبدوها. ومنهم من ذكر أن جسد آدم عليه السلام كان عند نوح عليه السلام يترك كل مؤمن في زمانه أن يدخل فينظر إلى جسد آدم عليه السلام ومن لم يكن مؤمناً لم يدعه أن ينظر إليه، فجاء إبليس إلى الكفار فقال: أيفخر نوح ومن آمن به عليكم بجسد آدم وأنتم كلكم ولده؟ فصنع لكل قوم صنما على صورة آدم عليه السلام فكانوا يعبدون تلك الصورة.

ويحتمل أن يكون الذي بعثهم على ذلك هو أنهم لم يروا أنفسهم تصلح لعبادة رب العالمين، كما يرى هؤلاء الذين يخدمون الأجلة في الشاهد لا يطمع كل واحد منهم في خدمة الملوك، ولا يرى نفسه أهلاً لخدمتهم، بل يشتغل بخدمة من دونه أولاً؛ على رجاء أن يقربه إلى الملك، فكذلك هؤلاء حسبوا أنهم لا يصلحون لخدمة رب العالمين، فكانوا إذا رأوا شيئاً حسناً كانوا يظنون أن حسنه لمنزلة له عند الله تعالى لا غير، فكانوا يقبلون على عبادته؛ رجاء أن يقربهم إلى الله تعالى، فجعلوا الأصنام على أحسن ما قدروا عليه ثم اشتغلوا بخدمتها وعبادتها؛ رجاء أن تقربهم إلى الله تعالى، كما قال عليه السلام حكاية عنهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ^(١)، وقال: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ ^(٢)، فجائز أن يكون هذا الحسبان: هو الذي حملهم على عبادتها وتعظيم شأنها، والله أعلم أي ذلك كان!

وقوله عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾، جائز أن يكون: أريد

(١) الآية: رقم ٣ من سورة الزمر.

(٢) الآية: رقم ١٨ من سورة يونس.

به الكبراء أنهم أضلوا كثيرا، أي: دعوا إلى الضلال، وزينوه في قلوبهم فأضلوا سفهاءهم بذلك.

وجائز أن يكون أريد به الأصنام، ولكن حقه إن كان على الأصنام أن يقول: (وقد أضللن كثيرا)؛ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾^(١)، ولكن الإضلال من فعل الممتحنين، والأصنام ليست لها أفعال، فلما نسب إليها نسبة من يوجد منه الفعل، أخرج الخطاب على الوزن الذي يخاطب به من يوجد منه هذا الفعل؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَكَايَن مِّن قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا﴾^(٢)، فأضاف إلى القرية فعل أهلها، والفعل إذا أضيف إلى الأهل، أضيف بلفظ التذكير، ثم أنث هاهنا؛ لإضافة فعل الأهل إلى القرية، ولو كانت القرية بحيث يكون منها الفعل لكان الخطاب يرتفع عنها بلفظ التأنيث لا بلفظ التذكير، فحيث أضيف إليها فعل أهلها أنث كما يجب لو كان الفعل متحققا منها.

ثم الأصنام لا يتحقق منها الإضلال، ولكن معنى الإضافة هاهنا هو أنها أنشئت على هيئة لو كانت تلك الهيئة ممن يضل لأضل، وهو كما قلنا في تأويل قوله عليه السلام: ﴿وَعَرَّيْتُهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٣).

وقوله عليه السلام: ﴿وَلَا نُرِدِّ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾، فهذا يشبه أن يكون بعدما بين له: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِرَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾^(٤)، فإذا علم أنهم لا يؤمنون لم يدع لهم بالهدى، ولكن دعا الله تعالى ليزيد في إضلالهم، ويكون الإضلال عبارة عن الهلاك، والضلال: الهلاك، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٥)، أي: هلكننا.

(١) الآية: رقم ٣٦ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية: رقم ٨ من سورة الطلاق.

(٣) الآية: رقم ٧٠ من سورة الأنعام.

(٤) الآية: رقم ٣٦ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ١٠ من سورة السجدة.

وقوله ﷺ: ﴿ مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾، فحرف (ما) هاهنا صلة في الكلام، ومعناه: بخطيئاتهم، أو من خطيئاتهم أغرقوا، فأدخلوا نارا في الآخرة؛ إذ أغرقت أبدانهم وأجسادهم وردت أرواحهم إلى النار.

﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾، أي: لم يجدوا لأنفسهم بعبادتهم من عبدوا من دون الله تعالى أنصارًا من المعبودين؛ لأنهم كانوا يعبدون من يعبدون من دون الله ليقرّبهم إلى الله، ويكونوا لهم شفعاء وعزًّا، فلم يجدوا الأمر على ما قدره عند أنفسهم.

وقوله ﷺ: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾، قيل: تأويله: لا تذر على الأرض من الكافرين ساكن دار، وإذا لم يبق منهم ساكن دار فقد بادوا جميعا وهلكوا، فكأنه يقول: لا تذر منهم أحدا.

وقوله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاِجْرًا كَفَّارًا ﴾.

هذا كلام شنيع في الظاهر من نوح ﷺ؛ لأنه خارج مخرج الإنكار على الله تعالى لو تركهم ولم يهلكهم، وهذا يشبه بقول من قال: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ﴾^(١)، وهذا أيضا خارج مخرج التذكير لله تعالى: أنه لو أبقاهم أدى ذلك إلى إضلال العباد، وفيه تقدم بين يدي الله تعالى وذلك عظيم؛ لأنه ليس في شرط الألوهية إهلاك من عمله الإضلال؛ ألا ترى أن إبليس اللعين وأتباعه جل سعيهم في إضلال.

بني آدم، ثم لم يستأصلوا ولم يهلكوا، بل أبقوا إلى الوقت المعلوم.

ولكن يجوز أن يكون دعا عليهم، بعد أن أذن له بالدعاء عليهم بالهلاك والبوار؛ في كون الدعاء بالهلاك على تقدم الإذن.

(١) الآية: رقم ٣٠ من سورة البقرة.

والأصل: أن الرسل ﷺ بعثوا لدعاء الخلق إلى الإسلام، وكانوا في دعائهم راجين الإسلام منهم، خائفين عليهم بدوامهم على الكفر، فلما قيل لنوح ﷺ: ﴿أَنْتَ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، وقع له الإيأس عن إسلام من تخلف عن الإيمان، فارتفع معنى الدعاء إلى الإسلام، فجاز أن يرد له الإذن بعد ذلك بالدعاء عليهم بالهلاك، في دعو إذ ذاك.

ثم يكون قوله: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ خارجاً مخرج الإشفاق والرحمة على من معه من المؤمنين، وهو أن الذين داموا على الكفر لو أبقوا، خيف منهم أن يضلوا المؤمنين ويغيروهم إلى ملتهم؛ فتكون شفقتهم على المسلمين داعية له على الدعاء بالهلاك على الكفرة؛ لئلا يتوصلوا إلى الإضلال.

وقوله ﷺ: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجَارًا كَفَّارًا﴾، وقت بلوغهم المحنة والابتلاء، فحينئذ يوجد منهم الفجور، لا أن يلدوا فجارا كفارا؛ إذ لا صنع لهم في ذلك الوقت، وهو كقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾^(١)، أي: نبتليه لوقت بلوغه المحنة والابتلاء، لا أن يبتلى وقت ما يشاء.

وفي هذه الآية دلالة أن الكفر قد يقع عليه اسم الفجور؛ لأنه لو خرج قوله تعالى: ﴿كَفَّارًا﴾، مخرج التفسير لقوله: ﴿فَاجِرًا﴾ استقام أن يحمل تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾^(٢)، على الكفرة.

وقوله ﷺ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾، هكذا الواجب على المرء في الدعاء والاستغفار أن يبدأ بنفسه، ثم بوالديه، ثم بالمؤمنين.

ثم قوله: ﴿بَيْتِي﴾، قَالَ بَعْضُهُمْ: أي: في سفينتي.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: (في بيتي)، أي: في ديني؛ في كون البيت كناية عن الدين.

(١) الآية: رقم ٢ من سورة الإنسان.

(٢) الآية: رقم ١٤ من سورة الإنفطار.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إنما هو بيته الذي يسكن فيه؛ لما أطلع الله تعالى أن من دخل بيته مؤمناً لا يعود إلى الكفر.

قال الشيخ رحمه الله: ثم إن أرجى الأمور للمؤمنين في الآخرة دعاء الأنبياء والملائكة عليهم السلام في الدنيا؛ لأنهم إنما يدعون بعد الإذن لهم بالدعاء، فلا يحتمل أن يأذن الله تعالى لهم بالدعاء، ثم لا يجيب دعوتهم.

وذكر عن ابن عباسٍ رحمه الله أنه قال: إن نوحاً عليه السلام دعا بدعوتين: أحدهما: للمؤمنين بالاستغفار والتوبة.

والثانية: على الكفار بالبوار والتبار.

وقد أجيبت دعوته في ما دعا على الكفرة؛ فلا يجوز أن يجاب في شر الدعوتين، ثم لا يجاب في خير الدعوتين.

وقوله عليه السلام: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾، قيل: كسرا وذلا وصغارا؛ فإنه مشتق من التبر، وكل مكسور يقال له: تبر؛ فكأنه يقول: اكسر منعة الظالمين وشوكتهم؛ فإن كان التأويل هذا فهو يقع على جميع الظلمة من كان في وقته ومن بعده.

وقيل: التبار: الهلاك؛ فإن كان هذا معناه فهو على ظالمي زمانه؛ إذ لا يجوز للأنبياء عليهم السلام أن يدعوا على قوم إلا أن يؤذن لهم بالدعاء عليهم، وإنما جاء الإذن في حق قومه، فأما في حق غيرهم لم يثبت؛ فلا يجوز القول فيه إلا بما تواتر الخبر به عن رسول الله ﷺ، والله أعلم.

* * *

إعراب الآيات الواردة فيه سياق القصة فيه سورة نوح

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾.

إن واسمها وجملة أرسلنا: خبرها، ونوحا: مفعول به، وإلى قومه: متعلقان بـ(أرسلنا).

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يجوز أن تكون أن: مصدرية فتكون مع مدخولها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بـ(أرسلنا)، والمعنى: أرسلناه بأن قلنا له: (أنذر)، ويجوز أن تكون: مفسرة لأن الإرسال فيه معنى القول، وأنذر: فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت، وقومك: مفعول به، ومن قبل: متعلقان بـ(أنذر)، وأن وما في حيزها: في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة، ويأتيهم: فعل مضارع منصوب بـ(أن)، والهاء: مفعول به وعذاب: فاعل، وأليم: نعت قوله تعالى: ﴿قَالَ يَفْعَلُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

قال: فعل ماضٍ؛ وفاعله مستتر تقديره: هو، ويا: حرف نداء، وقوم: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، وقد تقدم بحث المنادى المضاف إلى ياء المتكلم وإن واسمها ولكم: متعلقان بـ(نذير)، ونذير: خبر، ومبين: نعت.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾.

أن: مصدرية؛ أو: مفسرة، وقد تقدم القول فيها أنفا، واعبدوا: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل والله: لفظ الجلالة في محل مفعول به، واتقوه وأطيعون: معطوفان على (اعبدوا)، وحذفت ياء المتكلم لمناسبة رءوس الآي، أي: وأطيعوني قوله تعالى: ﴿يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

يغفر: فعل مضارع مجزوم؛ لأنه جواب الطلب، ولكم: متعلقان ب(يغفر)، ومن ذنوبكم: في موضع نصب مفعول (يغفر)، لأن من للتبعض، أي: بعض ذنوبكم، لأن الإيمان يجب ما قبله من الذنوب لا ما بعده، وقيل: لا ابتداء الغاية، وقيل: زائدة؛ وهو مذهب الأخفش، لأنه يجيز زيادتها في الموجب؛ وغيره والبصريون ومعظم الكوفيين يشترطون لزيادتها أن يسبقها نفي أو نهي أو استفهام؛ وأن تدخل على النكرة، ويؤخركم: عطف على (يغفر)، والكاف: مفعول به، وإلى أجل: متعلقان بـ(يؤخركم)؛ ومسمى: نعت لأجل.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

الجملة: تعليل لما تقدم، وإن واسمها وإذا: ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه متعلق بجوابه، وجملة، (جاء): في محل جر بإضافة الظرف إليها، وجملة، (لا يؤخر): لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم، ولو: شرطية وكنتم: كان واسمها، وجملة، تعلمون: خبرها؛ وجواب (لو): محذوف كما حذف مفعول (تعلمون)، أي: لو كنتم تعلمون ذلك لآمتتم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾.

رب: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة؛ وحذف حرف النداء وإن واسمها وجملة، دعوت: خبرها وقومي: مفعول به، وليلا ونهارا: ظرفان متعلقان بـ(دعوت)، والجملة: مقول القول.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾.

الفاء: عاطفة ولم: حرف نفي وقلب وجزم، ويزدهم: فعل مضارع مجزوم بـ(لم)، والهاء: مفعول به أول ودعائي: فاعل، وإلا: أداة حصر، وفرارا: مفعول به ثان، والاستثناء: مفرغ قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾.

الواو: عاطفة، وإن واسمها وكلما: ظرف متعلق ب(جعلوا)، أو: ما: مصدرية أو نكرة، ودعوتهم: فعل وفاعل ومفعول به، واللام: للتعليل، وتغفر: فعل مضارع منصوب بـ(أن) مضمرة جوازا بعد لام للتعليل، والجار والمجرور متعلقان بـ(دعوتهم)، وجملة، (جعلوا): لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وهو: (كلما)، وأصابعهم: مفعول (جعلوا) الأول، وفي آذانهم: في موضع المفعول الثاني.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾.

واستغشوا: عطف على (جعلوا)، وثيابهم: مفعول به، وأصروا واستكبروا: معطوفان أيضا، واستكبارا: مفعول مطلق.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾.

ثم: حرف عطف للترتيب مع التراخي، وإن واسمها وجملة، (دعوتهم): خبرها، وجهاراً: مفعول مطلق على أنه مصدر من المعنى، لأن الدعاء يكون جهاراً، وغيرهفهو من باب رجع القهقري وقعد القرفصاء، ويجوز أن يكون: مصدرا في موضع الحال، أي: مجاهرا وذا جهار؛ وجعل نفس المصدر مبالغة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

عطف على ما تقدم، وإسرارا: مفعول مطلق.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾.

الفاء: عاطفة، وقلت: فعل وفاعل، واستغفروا: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل، وربكم: مفعول به، وإن واسمها وجملة، (كان): خبرها، واسم كان: مستتر تقديره: هو، وغفارا: خبرها، وجملة، (استغفروا): مقول القول، وجملة، (إنه كان غفارا): لا محل لها لأنها تعليل للاستغفار.

قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾.

يرسل: فعل مضارع مجزوم؛ لأنه جواب الطلب، والفاعل: مستتر يعود على الله تعالى، والسماء: مفعول به، وعليكم: متعلقان ب(يرسل)، ومدارار: حال من السماء قوله تعالى: ﴿وَيُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

ويمددمكم: عطف على (يرسل)، والكاف: مفعول به، وبأموال: متعلقان ب(ويمددمكم)، وبنين: عطف على (أموال)، ويجعل: فعل مضارع مجزوم؛ عطف على: (ويمددمكم)، ولكم: في موضع المفعول الثاني، وجنات: مفعول به، ويجعل لكم أنهارا: عطف على الجملة السابقة، والمراد بجنات الدنيا البساتين.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾.

ما: اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، ولكم: خبر، ولا: نافية، وترجون: فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو: فاعل، وجملة، (لا ترجون): حال من الكاف في: (لكم)، ولله: حال؛ لأن اللام: للتبيين ولو تأخرت؛ لكانت صفة للوقار، ووقارا: مفعول به ل(ترجون)، أي: توقيرا وتعظيما.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

الواو: للحال، وقد: حرف تحقيق، وخلقكم: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة حالية من فاعل: (ترجون)، وأطوارا: حال مؤولة بالمشتق، أي: متنقلين من حال إلى حال.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾.

الهمزة: للاستفهام الإنكاري، ولم: حرف نفي وقلب وجزم، وتروا: فعل مضارع مجزوم ب(لم)؛ وعلامة جزمه حذف النون، والواو: فاعل، وكيف: اسم استفهام في محل نصب على الحال؛ والعامل فيها خلق، وخلق الله: فعل ماض

وفاعل، والجملة: سَدَّتْ مَسَدًّ مفعولي (تروا) المعلقة عن العمل بالاستفهام، وسبع سموات: مفعول به، وطباقا: نعت لسبع، أي: بعضها فوق بعض، أو: منصوب بفعل محذوف، أي: طبقت طباقا في كون مصدر: طبقت مطابقة وطباقا.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾.

الواو: عاطفة، وجعل القمر: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، وفيهن: حال، ونورا: مفعول به ثان وجعل الشمس سراجا: عطف على الجملة السابقة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾.

الواو: عاطفة، والله: مبتدأ، وجملة، (أنبتكم): خبر، ومن الأرض: متعلقان بـ(أنبتكم)، ونباتا: مفعول مطلق ويجوز أن يكون: مصدرا لـ(أنبت) على حذف الزوائد؛ ويسمى: اسم مصدر، ويجوز أن يكون: مصدرا لـ(نبتم) مقدرا، أي: فنبتم نباتا؛ في كون منصوبا بالمطاوع المقدر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

عطف على ما تقدم قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾.

الواو: حرف عطف، والله: مبتدأ، وجملة، (جعل): خبر، ولكم: حال، والأرض: مفعول به أول، وبساطا: مفعول به ثان.

قوله تعالى: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾.

اللام: لام التعليل، وتسلكوا: فعل مضارع منصوب بـ(أن) مضمرة بعد لام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بـ(جعل)، ومنها: حال من (سبلا)، أي: كائنة من الأرض؛ ولو تأخر لكان: صفة لها، وسبلا: مفعول به، وفجاجا: نعت.

قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْمُ عَصَوْنِي﴾.

قال نوح: فعل ماض وفاعل، ورب: منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة،

وإن واسمها وجملة، (عصوني): خبرها، والجملة: مقول القول قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوْلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾.

واتبعوا: عطف على: ﴿عَصَوْنِي﴾، ومن: مفعول به، ولم: حرف نفي وقلب وجزم، ويزده: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾، والهاء: مفعول به، وماله: فاعل، وولده: عطف على: ﴿مَالُهُ﴾ وإلا: أداة حصر، وخسارا: مفعول به ثان لـ ﴿يَزِدُّهُ﴾. قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرًا كَبِيرًا﴾.

الواو: عاطفة، ومكروا: فعل ماضٍ وفاعل، ومكرا: مفعول مطلق، وكبارا: نعت لـ (مكرا)، أي: عظيما جدا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

الواو: عاطفة، وقالوا: فعل ماضٍ وفاعل، ولا: ناهية، وتذرن: فعل مضارع مجزوم بـ (لا)؛ وعلامة جزمه حذف النون؛ والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، والنون المشددة: نون التوكيد الثقيلة وآلهتكم: مفعول به، ولا تذرن: عطف على: (لا تذرن) الأولى، وودًا وما عطف عليه: مفعول تذرن، ويغوث ويعوق: ممنوعان من الصرف للعلمية ووزن الفعل إن كانا عربيين والعلمية والعجمة إن كانا أعجميين، وقرىء ولا يغوثا ويعوقا: مصروفين لأمرين أحدهما: أن صرفهما للتناسب إذ قبلهما اسمان منصرفان وبعدهما اسم منصرف، والثاني: أنه جاء على لغة من يصرف غير المنصرف مطلقا.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾.

الواو: عاطفة، وجملة، ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾: مقول قول محذوف معطوف على: ﴿قَالَ﴾ السابقة، أي: (قال إنهم عصوني)، و(قال قد أضلوا)، وأضلوا: فعل وفاعل، وكثيرا: مفعول به، والواو: عاطفة على القول المحذوف، ولا: ناهية، وتزد: فعل مضارع مجزوم بـ (لا)، والظالمين: مفعول به، وإلا: أداة حصر، وضلالا: مفعول به.

قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾.

من: حرف جر، وما: زائدة، وخطيئاتهم: مجرور بـ(من) التعليلية، والجار والمجرور: متعلقان بـ(أغرقوا)، وأغرقوا: فعل ماض مبني للمجهول، فأدخلوا: عطف على: أغرقوا؛ وجعل دخولهم النار متعقبا لإغراقهم نظرا لاقترابه؛ ولأنه كائن لا محالة فكأنه قد كان، ونارا: مفعول به ثان على السعة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾.

الفاء: عطف متعقب أيضا: ولم: حرف نفي وقلب وجزم، ويجدوا: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمْ﴾، ولهم: في موضع المفعول الثاني لـ﴿يَجِدُوا﴾، ومن دون الله: حال، وأنصارا: مفعول يجدوا الأول.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

الواو: عاطفة، وقال نوح: فعل ماض وفاعل، ورب: منادى محذوف منه حرف النداء وهو مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة، ولا: ناهية، وتذر: فعل مضارع مجزوم بلا، وعلى الأرض: متعلقان بـ﴿تَذَرُ﴾، ومن الكافرين: حال لأنه كان في الأصل صفة لـ﴿دَيَّارًا﴾، وديارا: مفعول تذر قوله تعالى: ﴿إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

إن واسمها والجملة: تعليل لطلب نوح ﷺ، فإن قيل: كيف علم أن أولاده سيكونون مثلهم، أجيب: بأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فاكتنه دخائلهم؛ وسبر أغوارهم؛ وإن: شرطية، وتذرهم: فعل الشرط؛ والهاء: مفعول به، ويضلوا: جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه: خبر (إنك)، وعبادك: مفعول به، والواو: حرف عطف، ولا: نافية، ويلدوا: فعل مضارع معطوف على: (يضلوا)، والواو: فاعل، وإلا: أداة حصر، وفاجرا: مفعول (يضلوا)، وكفارا: نعت.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

رب: منادى مضاف، واغفر: فعل دعاء، ولي: متعلقان ب(اغفر)، ولوالدي: عطف على: (لي)، ولمن: عطف أيضا، وجملة، دخل بيتي: صلة الموصول، ومؤمنا: حال، وللمؤمنين والمؤمنات: عطف أيضا.

قوله تعالى: ﴿لَا نَذِرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

الواو: عاطفة، ولا: ناهية دعائية، وتزد: فعل مضارع مجزوم ب﴿لا﴾، والظالمين: مفعول به أول، وإلا: أداة حصر، وتبارا: مفعول به ثان.

* * *

البلاغة في الآيات الواردة في سياق القصة في سورة نوح

- في قوله: ﴿وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾: كناية عن المبالغة في إعراضهم عمّا دعاهم إليه فمنهم بمثابة من سدّ سمعه وغشى بصره كيلا يسمع ويرى، يقال لبس فلان ثياب العداوة، وقيل: الكلام حقيقي، ومعنى: ﴿وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾: غطّوا بها وجوههم لئلا يروني، أو: جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامي في كون استغشاء الثياب على هذا زيادة في سدّ الآذان.

وفي التراخي وتكرير الدعوة بيان وتوكيد، وننقل بهذا الصدد عبارة الزمخشري لنفاستها قال: (فإن قلت ذكر أنه دعاهم ليلا ونهارا ثم دعاهم جهارا ثم دعاهم في السر والعلن في جب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصحّ العطف، قلت: قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في الابتداء بالأهون والترقي في الأشد فالأشد فافتتح بالمناصحة في السر؛ فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة؛ فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان، ومعنى: (ثم): الدلالة على تباعد الأحوال؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع بين الأمرين أغلظ من أفراد أحدهما)، وهذا كلام بديع قلّما يكتنه غوره أحد فإنه يعلم من قوله: ثم إني دعوتهم جهارا أن الدعوة السابقة بالإسرار، فأفادت ثمّ التفاوت بين الجهار والإسرار السابق وأفادت ثم الثانية أن الجمع بينهما أغلظ من أفراد كلّ منهما.

- في قوله: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾: مجاز مرسل علاقته المحلية، فقد أراد بالسما المطر لأن المطر ينزل منها قال:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

والمراد بالبيت وصف شجاعتهم لأنهم إذا اجتروا على رعينات القوم

الغضاب فهم أخرى بأن يجترئوا على غيرهم، وفي البيت أيضا استخدام فقد أطلق السماء وأعاد عليها الضمير بمعنى النبات لأنها سببه.

- وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾: استعارة تصريحية لأنه شبههم بالنبات، فقد استعار الإنبات للإنشاء كما يقال زرعك الله للخير، وكانت هذه الاستعارة ذات فائدة لأنها دلّت على الحدوث فإنهم إذا كانوا نباتا كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات.

- في قوله: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِجًا كَفَّارًا﴾: مجاز مرسل علاقته ما يؤول إليه لأنهم لم يفجروا وقت الولادة بل بعدها بزمان طويل على كل حال.

والخلاصة مما سبق: ذكر القرآن الكريم نبي الله نوحًا ﷺ في سور عديدة، أسهب في ذكره في بعضها، كسورة هود والشعراء والصفوات ونوح، وأطنب جدًا في بعضها الآخر؛ كسورة الأعراف ونس والنجم والقمر والتحريم، وذكر ذكرًا عابرًا في سور مثل النساء والتوبة وغافر، ومن خلال ربط الآيات بعضها ببعض مما جاء بين ثنايا السور من أحداث القصة؛ وستتضح عندنا معالم القصة عن الفترة التي بُعث فيها نوح ﷺ لدعوة الناس إلى التوحيد بعد أن مالوا عن طريق الصواب، وأن الناس في عهد نوح ﷺ قد ابتعدوا عن المسيرة الإيمانية التي جاء بها الأنبياء قبل نوح ﷺ؛ مثل: شيث وإدريس ﷺ، وقد نشأ من هذا البُعد أن اختلطت الأمور على الناس، والتبس الحق بالباطل، فوجد الناس أنفسهم ينحدرون إلى الشرك من باب حبّ الخير وأهل الخير، فانقلب هذا الأمر عند تقادم العهد إلى تعزيز الشرك وتأصيله، حتى غدا هو السائد، وما سواه دخيل وشاذ مخالف لما عليها الأغلبية، لا يُعترف به، فكان التوحيد غريبًا ينبغي محاربته، ومخالفًا لما وُجد عليه الآباء، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾^(١).

(١) الآية: رقم ٢٣ من سورة نوح.

وقد ورد أن هذه الأسماء هي لأناس صالحين، أراد أقوامهم تخليد ذكراهم والافتداء بهم والسير على نهجهم، فانقلبت هذه المحبة مع تقادم العهد إلى عبادة وتقديس بما ألقاه إليهم الشيطان؛ العدو المتربص بالمؤمنين من أوهام تجاههم، فزَيَّن لهم عبادتهم بما أضفاه عليهم من قداسة وخوارق، وأن هؤلاء الآلهة مصدر كل خير، فأضحى الشر سائداً وهو الأساس، وكل دعوة مخالفة لهذا الذي اعتقده ينبغي محاربتها بضراوة، وفي كل مجتمع يقوم على مثل هذا الاعتقاد لا بد من وجود منتفعين يجنون الأرباح والجاه، يقفون ضد التغيير المصادم لمصالحهم، ويحرِّضون العامة والغوغاء ضد النبي المصلح الذي بُعث لهدايتهم وإنقاذهم من العمى والضلال، والأخذ بأيديهم إلى طريق الهدى الموصل إلى رضوان الله وجناته، وكان هذا ما واجه نوحاً ﷺ، فقد بعثه الله إلى قوم ضلوا الطريق، واحتاجوا إلى مرشد يسلك بهم الطريق الصواب، فكان قدَّر نوح ﷺ أن يكون هو النبي المرسل إليهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(١).

وهكذا تلقى نوح ﷺ التكليف بالرسالة، وتوجه إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله باذلاً جهده في إقناعهم، لا يريد منهم أجراً على جهده، وإنما يسره كل السرور أن يقبل الجميع دعوته، وأن يسارعوا إلى نبذ الشرك، والاعتصام بحبل الله المتين، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(٢)، فبذل الحجة والمنطق في الإقناع، وبرهن لهم حقيقة الأصنام، وأن موجد هذا الكون هو الله الواحد الأحد، الذي يُحيي ويميت، ويهب ويمنع، وهو الغفور لمن أناب وتاب، لكن ماذا رد قوم نوح؟ فاسمع لنوح ﷺ وهو يشكو إلى الله تعالى، ﴿ قَالَ رَبِّ

(١) الآية: رقم ١ من سورة نوح.

(٢) الآيات: رقم ٢-٤ من سورة نوح.

إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾، وقد نوع نوح ﷺ في أسلوب دعوته فمع ذكره أنه تخير مختلف الأوقات وكذلك مختلف الطرق والوسائل لإيصال دعوة الله إليهم؛ فقد بين لهم أن تحسين الأحوال في الدنيا يتابع منهج الله ﷻ؛ وبشرهم إن ساروا على صراط الله المستقيم بعيش رغد وحياة فضلى؛ حيث يفي ض الماء، ويكثر الولد، قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾، ثم وجههم إلى ما خلق الله لهم على الأرض، وما سخر لهم في هذا الكون لفائدتهم، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾، وبرغم هذه الدلائل الظاهرة والحجج الباهرة، أحجم قوم نوح عن اتباع الحق، والسير في طريق الهدى، واتبعوا كبراءهم، غير عابئين بسخط الله وغضبه، وهذا منتهى الجحود والنكران لأنعام المنعم؛ قال تعالى: ﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَرْكِبُنِي الْفُلَ فَاجِدَافًا مُّسِيءًا فَاصْتَفْتُكَ مِنْ أَهْلِ الْبَنَاتِ وَأَصْبَحْتُ مِمَّنْ خَسِرَ ﴿٤﴾.

استمرت دعوة نوح ﷺ لقومه زمناً ليس باليسير؛ فقد تطاولت به المدة حتى أعذر بشأنهم، وشهدت فترة دعوته أجيالاً وقروناً، وكأن الكبار كانوا يوصون الصغار والناشئة بعدم قبول دعوة نوح، فكان الجيل الجديد أشد إنكاراً وعتواً وتفلتاً من آبائهم، وقد شعر نوح ﷺ بأنه أصبح بينهم غريباً متهمًا بالجنون والتخريف، وهم الأوفر شبابًا والأكثر فهمًا بأمور الدنيا ومتطلبات العيش، فلماذا العودة إلى الوراء؟! وعرفنوح ما يدور في أذهانهم تجاهه، وكيدهم له، ومكرهم به؛ للخلاص منه؛ قال تعالى: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ

(١) الآيتان: رقم ٥ - ٦ من سورة نوح.

(٢) الآيات: رقم ١٠ - ١٢ من سورة نوح.

(٣) الآيتان: رقم ١٥ - ١٦ من سورة نوح.

(٤) الآية: رقم ٢١ من سورة نوح.

مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِأَيْدِي اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿١﴾، ولكن لا بد لجُهد نوح ﷺ في الدعوة من ثمرة؛ فآمن معه عدد قليل من قومه، والتزموا بتعاليمه، إلا أن قوتهم لا تزال ضعيفة أمام قوى الشر الطاغية، وبهذا تعالى عليه المتكبرون، وأنفوا من الدخول في دينه؛ قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْبُكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْبُكَ أَتْبَعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَبْدُوا الرَّأْيَ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿٢﴾، وصعد القوم لهجتهم ضد نوح ﷺ وأتباعه، وعدّوهم من السفهاء الخارجين على المجتمع، وأنهم كاذبون في دعواهم؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرْ﴾ ﴿٣﴾، وربما قاطعوهم اجتماعيًا، وتكتلوا ضدهم لعزلهم، ومنع رافد جديد لهم من قومهم.

قال ابن إسحاق: إن قوم نوح كانوا يبطشون به في خنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: (اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون)، ومع كل هذه الضغوط من الصادين فإن نوحًا ﷺ لم يَيْئَسْ مِنْ جِدَالِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، قال تعالى: ﴿قَالَ يَقُومُ أَرْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنِينٍ مِّنْ رَبِّيْ وَءَاَنِنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِيتْ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿٤﴾؛ أي: فلم تهتدوا لهذه الرحمة بسبب صدكم، ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ مِّمَّا كَانُوا فِيهَا يَخْتَفُونَ﴾ ﴿٥﴾، فلن تدرکوا هذه الرحمة وأنتم تحملون الكراهية لها، وأنا لن ألزكم بها، ولن تنتفعوا بها إلا بقبولها راضين بها عن حب وقناعة، فأما المتكبرون الذين غلّف الران قلوبهم، فلن ينالوها، ولن يحظّوا برضا الله لهذا الخلق الذميم؛ فالدعوة مفتوحة للناس جميعًا،

(١) الآية: رقم ٧١ من سورة يونس.

(٢) الآية: رقم ٢٧ من سورة هود.

(٣) الآية: رقم ٩ من سورة القمر.

(٤) الآية: رقم ٢٨ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ٢٩ من سورة هود.

بلا تفريق بين عظيم وصغير، كل الناس أمام الله سواء، والإيمان يوحد القلوب، ويؤاخي بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقَّوْا رَبِّهِمْ وَلَئِكَ يَـرْءَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾^(١).

لكنهم أصروا واستكبروا، وأضحى إيمانهم مرتبطاً بطرد المؤمنين الضعفاء، قال تعالى: ﴿ قَالُوا أَنْزِلْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾^(٢) قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٣﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٤﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٦﴾، فكانت إجابة نوح عليه السلام أنه نبي يبلغ الرسالة، والأمر لله في القبول وعدمه، قال تعالى: ﴿ وَيَقْوِمُ مَن يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾^(٣)، ثم قال لهم: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾^(٤)، فلا تظنوا أن عندي الأموال، فأمنحكم منها ما تشاءون، فأنا عبد، والأمر كله لله؛ فهو الذي يعطي ويمنع، ويرزق ويغدق، أو يمنع ويقتل، قال تعالى: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(٥).

كما لا أقول لمن آمن من الفقراء والضعفاء بأنهم سيستمرون على ما هم عليه من الفقر والضعف إلى أن يتوفاهم الله، فهذا الأمر أيضاً ليس لي، إن أنا إلا عبد مأمور مكلف بالرسالة لأبلغكم إياها، فهذه مهمتي، وأما تغيير الحال من غنى إلى فقر أو من فقر إلى غنى ومن صحة إلى مرض أو من مرض إلى صحة فكل أحوال الناس وتقلباتها بيد الله، أما اعتراضهم على دخول الفقراء في الدين، فلم يكن إلا نوعاً من

(١) الآيات: رقم ١١١-١١٥ من سورة الشعراء.

(٢) الآية: رقم ٣٠ من سورة هود.

(٣) الآية: رقم ٣١ من سورة هود.

(٤) الآية: رقم ٣١ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ٣٢ من سورة هود.

الجدال العقيم والحجج الواهية التي يتذرعون بها للمماطلة والتعويق، فهم أصلاً لا يريدون الإيمان، ولا يرغبون فيه، ﴿قَالُوا يَنْصُوحٌ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾^(١).

ولم يكن بعدُ قد أعد للطوفان عدته، وإنما كان التخويف بشكل عام من غضب الله، وأخذهم بالسنين، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وهذا استنتاج من سورة نوح، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾^(٢)، فوعدهم بهذه الخيرات إن استغفروا ربهم دليل فقدانها عندهم، وحاجتهم لها، وبعد الصد ضاق بهم نوح، وشكا حاله إلى ربه بعد صبر طويل، وتحمل للأذى قولاً وفعلًا؛ قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْصُوحٌ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ۝١٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمٌ كَاذِبُونَ ۝١٤ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٥﴾^(٣)، فالأمر أخذ طابع المواجهة؛ لأن نوحًا ﷺ مكلف بالتبليغ، وأنى له أن ينتهي والله تعالى قد كلفه بالتبليغ؟ فلا بد من الصبر والمعاناة، وطالت المعاناة مع أولئك المعاندين الأشقياء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۝١٦﴾^(٤).

لكن وبعد صبر طويل جاء الوحي الإلهي بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝١٧﴾^(٥)، لقد صبر نوح عليهم كثيرًا، وجرب دعوته في عدة أجيال منهم، فما كان منهم سوى الصد والعناد

(١) الآيات: رقم ١٠-١٢ من سورة نوح.

(٢) الآيات: رقم ١١٦-١١٨ من سورة الشعراء.

(٣) الآية: رقم ١٤ من سورة العنكبوت.

(٤) الآية: رقم ٣٦ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ٣٧ من سورة هود.

واتهامه بالجنون، وهنا حقٌّ على المعاندين العذاب والاستئصال، واستوجبوا عقاب الله، قال تعالى: ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾^(١)، لقد قضى الله فيهم قضاء لا مردَّ له، وكتب عليهم الهلاك غرقاً.

* * *

(١) الآية: رقم ٣٧ من سورة هود.

قصة نوح عليه السلام والمعجزة التي أيده الله بها

بعث الله نوح عليه السلام لما عُبِدَت الأصنام والطواغيت، وشرع الناس بالضلالة والكفر، فبعثه الله رحمة للناس فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض.

واختلفوا في مقدار سنه يوم بُعث، فقليل: كان ابن خمسين سنة وقيل: ابن ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل: ابن أربعمائة وثمانين سنة والله أعلم.

وقد ذكر الله قصة نوح عليه السلام في القرآن العظيم في كثير من المواضع وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب، وكيف أنجاه الله هو ومن آمن معه، والمعجزة التي أيده الله بها، وأنزلت سورة باسمه أيضًا تتحدث عن قصته مع قومه وما حل بهم من عذاب...

نسب نوح عليه السلام: هو نوح بن لامك بن منوشلخ بن خنوخ وهو إدريس عليه السلام بن يود بن مهلاييل بن قين بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام، وهو من أولو العزم. أبونا الأول وأبو العالم، هو آدم عليه السلام، وأبونا الثاني، نوح عليه السلام، فكل من على ظهر الأرض إنما هو من ذريته، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْنَعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧).

مولده عليه السلام: كان مولد سينا نوح عليه السلام بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة، في ما ذكره ابن جرير وغيره، وهو أكثر الأنبياء تعميرًا في الأرض بعد آدم عليه السلام.

الفترة الزمنية بينه نوح وبين آدم عليه السلام: بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة، وكان بينهما عشرة قرون، فعن أبي أمامة عليه السلام: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ

(١) الآيات: رقم ٧٥ - ٧٧ من سورة الصافات.

الله، أنبياءاً كان آدم؟ قال: (نعم، مُعلِّمٌ مُكَلِّمٌ)، قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: (عشر قرون)، قال: فكم بين نوح وإبراهيم؟ قال: (عشر قرون)، قالوا: يا رسول الله، كم كانت الرُّسل؟ قال: (ثلاث مائة وخمسة عشرة جمًّا غفيرًا)^(١).

ولا يشترط أن يكون معنى القرن مائة سنة ويمكن أن يكون معنى قرن: جيل من الناس، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾^(٢)، وقوله سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾^(٣)، وعلى هذا ممكن أن يكون بين نوح وآدم ﷺ آلاف السنين والله أعلم.

امرأة نوح ﷺ وأبناؤه:

امرأة نوح ﷺ أم لأولاده كلهم وهم: حام وسام ويافت، وكنعان الكافر الذي مات غرقاً، وامرأة نوح كافرة أيضاً والدليل، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾^(٤).

والخيانة: قيل في أحد التفاسير: أنها كانت تقول عن زوجها بأنه مجنون لما كان يبني السفينة في صحراء لا ماء فيها، وقيل أيضاً: لأنها لم تتبع دين زوجها وعصت أمره في عبادة الله وترك عبادة الأصنام.

المدة التي عاش فيها سيدنا نوح ﷺ: المدة الدعوية التي عاش فيها نوح ﷺ يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(٥).

(١) الحديث: رواه الحاكم في المستدرک على الصحيحين ٣٠٨٠ • صحيح على شرط مسلم.

(٢) الآية: رقم ٧٤ من سورة مريم.

(٣) الآية: رقم ١٧ من سورة الإسراء.

(٤) الآية: رقم ١٠ من سورة التحريم.

(٥) الآية: رقم ١٤ من سورة العنكبوت.

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلّفوا فبعث الله النبيين مبشّرين ومُنذرين، قال وكذلك هي في قراءة عبد الله: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)^(١).

أما المدة التي عاش فيها فهي أكثر من ذلك وقد اختلف في المدة التي عاش فيها، يقال: والله أعلم أنه بُعث وله من العمر أربعمئة وثمانون سنة؛ وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمئة وخمسون سنة، في كون قد عاش ألف سنة وسبعمئة وثمانون سنة.

قصة نوح عليه السلام مع قومه:

أولاً: لم أرسل الله نوح عليه السلام إلى قومه؟

ظل الناس على التوحيد عشرة قرون يعبدون الله تعالى إلى أن أتى اليوم الذي حققت الشياطين فيه ما تريد، فقد كان هناك رجال صالحون يعبدون الله تعالى وأسماءهم ذكرت في القرآن الكريم وهم خمسة: ود ويغوث ويعوق ونسر وسواع. أحبهم قومهم كثيراً، فلما توفى الله هؤلاء الخمسة، جاءت الشياطين فقالت للناس: لو أنكم تجعلون لهم تماثيل لتذكروهم وتفعّلوا كما كانوا يفعلون، وفعلوا صنعوا لهم تذكّار وصور ليتذكروهم ولكن جيل بعد جيل أخذوا يعظمون تلك الصور، وبدأ الناس يتوسلون بهم، ثم بدؤوا يتبركون بهذه الأصنام حتّى عبدوهم من دون الله تعالى.

وأول من عبّد من دون الله وُدّ فكانوا يسمون عبد ود لكن ودّا كان صالحاً، فأرسل الله أول رسول إلى أهل الأرض ليأتي بدين جديد دين التوحيد وهو نوح عليه السلام.

(١) الحديث: أورده الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة ٧/ ٨٥٤.

ثانياً: الحوار بين نوح ﷺ وقومه:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

فالحكام الأغنياء ووجهاء القوم أول من تصدى لنوح ﷺ قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢)، أجابهم نوح ﷺ من دون سب أو شتم فهو نبي مرسل من الله ويعرف كيفية الحوار، قال تعالى: ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) أبلغكم رسالت ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون^(٤)، فرد عليه الملاء مرة أخرى بكل تكبر واستخفاف به وبقومه الذين آمنوا معه، قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْفِرُوا مِنْ قَوْمِهِمْ وَمَا نَرْنَكَ إِلَّا كَذِيبٌ كَذِيبٌ﴾^(٥).

يعنون بهذا أن أفقر الناس الضعفاء هؤلاء هم الذين آمنوا معك أما الأغنياء فلا، بحجة أنه بشر مثلهم، قال تعالى: ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّي وَءَاثَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾^(٦)، أي: لن نجبركم على الدين، فلا إكراه في الدين.

قالوا: أتريد يا نوح مالا وتتركنا نفعل ما نشاء؟ وتخرج من آمن معك وتطردهم من ديارنا، فرد عليهم: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا بَأْسَ فِيهِ إِنِّي أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقَوْنَ رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرْنَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾^(٧).

(١) الآية: رقم ٥٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٦٠ من سورة الأعراف.

(٣) الآية: رقم ٦١ من سورة الأعراف.

(٤) الآية: رقم ٢٧ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ٢٨ من سورة هود.

(٦) الآية: رقم ٢٩ من سورة هود.

ثم قال لهم: هؤلاء الضعفاء الذين يعبدون الله ولا يعبدون مثلكم فضلهم الله عليكم أن هداهم للإيمان وسيعاقبني الله إن طردتهم: ﴿وَيَقَوْمٌ مِّنْ يَّصْرُفِي مِّنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(١).

لقد لبث نوح ﷺ ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو قومه صباح مساء إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾^(٢) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا^(٣) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِيءَ إِذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا^(٤).

استخدم نوح ﷺ أساليب دعوية متنوعة ورغم ذلك لم يستجيبوا له، فقال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾^(٥) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا^(٦) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا^(٧) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا^(٨) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِينَ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَارًا^(٩)، أي: أن الله سيعطيكم من خيري الدنيا والآخرة إذا أطعتم أمر الله ورسوله.

لكنهم تمادوا واستكبروا وطغوا أكثر وأكثر، حتى قيل أنه كان لديهم ملك يأمرهم بعبادة الأصنام ويعاند نوحا ﷺ، وكان هذا الملك عنده أموال عظيمة وأولاد كثيرة، فاتبعه قومه بدل من اتباعهم لنبيهم نوح ﷺ، ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾^(١٠) وَمَكْرُؤًا مَّكَرًا كَبِيرًا^(١١) وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا^(١٢).

فحرّضوا الناس على الكفر والعناد، وقالوا يا نوح: قد ناقشنا كثيرًا وجادلنا فأكثر جدالنا، ﴿فَأَنبَأِمْآتَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(١٣).

(١) الآية: رقم ٣٠ من سورة هود.

(٢) الآيات: رقم ٥-٧ من سورة نوح.

(٣) الآيات: رقم ٨-١٢ من سورة نوح.

(٤) الآيات: رقم ٢١-٢٣ من سورة نوح.

(٥) الآية: رقم ٣٢ من سورة هود..

رد عليهم بكل ثقة وقوة، ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾^(١).

ومع كل هذا الجهد المبذول والوقت الطويل جدا الذي لبثه فيهملم يؤمنوا به؛ حتى زوجته وابنه لم يؤمنوا به؛ وهم أقرب الناس إليه، ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ ﴾^(٢).

في هذه اللحظة دعا نوح ﷺ على قومه، لأنه يئس منهم، وكان قلق بشأن الذرية من بعدهم، لأنهم كانوا يوصون الأجيال من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربتة، ومخالفتة، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل وصاه سرًا أن لا يؤمن بنوح أبدًا وهكذا توارثوا هذا الإعراض والتكذيب، ولهذا قال لربه سبحانه: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾^(٣).

سفينة نوح ﷺ:

أوحى الله تعالى إلى نوح ﷺ أن يصنع سفينة في صحراء قاحلة لا ماء فيها، ولا أخشاب ولا أشجار؛ فعلمه الله أن يزرع شجر لسنوات طويلة، ثم بعد ذلك يقطعها ألواحًا ليصنع منها سفينة كبيرة.

فطن قوم نوح أن نوحًا ﷺ قد جُن، لأنه كان يدعو قومه لعبادة الله ثم ترك الدعوة وذهب ليصنع سفينة في صحراء لا ماء فيها، قال تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾^(٤)، والناس يعجبون مما يفعله نوح ﷺ.

فأوحى الله إلى نوح ﷺ أن هناك علامة بعد إكمال بناء السفينة، وهي أنك

(١) الآية: رقم ٣٣ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٣٦ من سورة هود.

(٣) الآيات: رقم ٢٦-٢٧ من سورة نوح.

(٤) الآيات: رقم ٣٨-٣٩ من سورة هود.

ترى الماء يخرج من التنور فهي تلك العلامة، فإذا رأيت ذلك فإنه سيبدأ العذاب، وعليك بركوب السفينة أنت ومن آمن معك.

وعندما رأى نوح ﷺ العلامة طلب من أهل الإيمان أن يركبوا معه، حتى الحيوانات من ذكر وأنثى ركبت معه بوحى من الله، قال تعالى: ﴿قُلْنَا أَهْمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(١).

بدأ العذاب وبدأ المطر ينهمر، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۖ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾^(٢).

وبدأت العيون تتفجر من الأرض وإذا بالسفينة تطفو، قال جل وعلا: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجِحِ وَدُسِّرَ﴾^(٣).

عقوبة الكافر ابن نوح ﷺ: أما أهل الكفر فاخترتوا في بيوتهم ثم هربوا إلى الجبال، والطوفان يزداد شيئاً فشيئاً، قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾^(٤)، ثم رأى نوح ﷺ ابنه بعيداً عنهم، فناداه ليركب معهم، وهنا تظهر عاطفة الأبوة الناصحة، قال تعالى: ﴿يَنْبَغِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾^(٥)، عسى أن يتوب قبل فوات الأوان.

لكن العناد وقف حائلاً بينه وبين أبيه، قال تعالى: ﴿قَالَ سَاوِيَ إِلَى جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾^(٦)، أي: أن الجبل سيحميني، فرد عليه نوح ﷺ بأن عذاب الله آت

(١) الآية: رقم ٤٠ من سورة هود.

(٢) الآيات: رقم ١١-١٢ من سورة القمر.

(٣) الآية: رقم ١٣ من سورة القمر.

(٤) الآية: رقم ٤٢ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ٤٢ من سورة هود.

(٦) الآية: رقم ٤٣ من سورة هود.

لا محالة نازل، قال تعالى: ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾^(١)، فأمر الله إذا نزل فلا راد لقضائه.

قال بعض المفسرين: من رحمة الله بنوح عليه السلام أن الموج أخفى وجه ابنه وهو يغرق ليكون أراف وأخف على نوح عليه السلام من أن يرى ابنه وهو يغرق، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾^(٢)، فرد الله على نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَنْتَهِ عَنْهُ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾^(٣).

هنا استعاذ نوح بربه، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾^(٤).

وما زال في السفينة ضمن هذه الأحداث، وفي تلك الأثناء حمد الله واستغفره هو ومن معه.

نهاية قصة نوح عليه السلام:

ثم قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَتَاَرْضُ أَبْلَغِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءُ أَقْلِي وَغِيصُ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾^(٥)، فرست السفينة على جبل الجودي، ونجا الله نوحاً عليه السلام هو ومن معه، ولم يبق فيها غير المؤمنين ليعمروا الأرض وانقطع النسل ولم يأتينسل جديد إلا من نسل أبناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافت، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾^(٦).

(١) الآية: رقم ٤٣ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٤٥ من سورة هود.

(٣) الآية: رقم ٤٦ من سورة هود.

(٤) الآية: رقم ٤٧ من سورة هود.

(٥) الآية: رقم ٤٤ من سورة هود.

(٦) الآية: رقم ٧٧ من سورة الصافات.

فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه: (سأمت أبو العرب، ويافت أبو الروم، وحام أبو الحبش) ^(١).

وفاته رضي الله عنه:

دعوة لا إله إلا الله هيدعوة الأنبياء جميعها بدأ بها نوح عليه السلام وبها ختم محمد عليه السلام رسالتهم.

انتهت قصة نوح عليه السلام مع قومه الذين لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما قبر نوح عليه السلام اختلف فيه، يقال: أن قبره في المسجد الحرام عن ابن جرير، والله أعلم.

العبر والعظات المستفادة من قصة نوح عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٢)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُ كُرْحِي الْجَارِيَةَ ۖ لَنَجْعَلَنَّ لَكَ ذِكْرًا وَتَعِيَهَا أُنْثَىٰ وَوَعَيْتَ ۖ﴾ ^(٣).

- تذكرنا هذه الآيات العظيمة بأن قصص الأنبياء عليهم السلام ليس المقصود منها سردها فقط، وإنما لناخذ العبر والموعظة ونتذكر ما كانت الأمم السابقة تفعل وما كانت نهايتهم حتى نذكر أنفسنا بإطاعة الله ورسوله في كل شيء.

- الصبر عند الدعوة إلى الله تعالى، وعلى الداعي أن يسلك كل سبل الدعوة إلى الله تعالى بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى. والتنوع بأساليب الدعوة كما فعل نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۖ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۖ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ۖ إِنَّهُمْ كَافِرُونَ ۖ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا ۖ فَسَجَّارًا ۖ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ۖ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۖ﴾.

(١) الحديث: رواه الإمام الترمذي وقال: حديث حسن.

(٢) الآية: رقم ١٢٠ من سورة هود.

(٣) الآيتان: رقم ١١-١٢ من سورة الحاقة.

- على الداعي أن يدعو إلى الله تعالى على الوجه الذي يرضاه الله عنه، لكنه ليس مسؤولاً عن النتيجة، قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۖ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۖ ﴾^(١).

- عدم الغلو في محبة الصالحين، فعن عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنه: (صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ؛ أَمَّا وَدَّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاغُ كَانَتْ لِهَذِيلٍ، وَأَمَّا يَعُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَأٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرُ فَكَانَتْ لِحِمَيْرٍ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أَوْلَيْكَ وَتَسَخَّ الْعِلْمُ عُبِدَتْ)^(٢).

ذكر وصية نوح عليه السلام لابنه: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: (إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ، أَمْرُكَ بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنْ اثْنَتَيْنِ، أَمْرُكَ ب (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فِي كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بِهِنَّ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلَقَةً مُبْهَمَةً قَصَمْتَهُنَّ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَ (سَبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ)، فَإِنَّهَا: صَلَاةٌ كُلُّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ الْخَلْقُ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ، قَالَ: قُلْتُ: أَوْ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الشِّرْكُ قَدْ عَرَفْنَاهُ فَمَا الْكِبَرُ؟ قَالَ: أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا نَعْلَانِ حَسَنَتَانِ لِهَمَا شِرَاكَيْنِ حَسَنَانِ؟ قَالَ: (لَا)، قَالَ: هُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا أَصْحَابٌ يَجْلِسُونَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: (لَا)، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا الْكِبَرُ؟ قَالَ: (سَفَهُ الْحَقِّ وَغَمْضُ النَّاسِ)^(٣).

(١) الآيتان: رقم ٢١-٢٢ من سورة الغاشية.

(٢) الحديث: رواه البخاري في صحيحه برقم ٤٩٢٠ أنظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري.

(٣) الحديث: أوردن الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة ١٣٤ برقم وإسناده صحيح.

الدروس المستفادة من قصة نوح ﷺ: إن قصة نوح ﷺ من القصص القرآني الحق الذي قصه الله تعالى على نبيه محمد ﷺ، حيث قال: ﴿مَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ﴾^(١).

وهي تحمل الكثير من الهدايات والعبر والمواعظ، ومنها: نوح ﷺ هو شيخ المرسلين، فهو أول رسول شرع الله تعالى على لسانه الشرائع وأحكام الحلال والحرام.

دلت قصة نوح ﷺ على أنه اعتنى في دعوة قومه بثلاثة عناصر:

الأول: الاستناد والركون إلى قوة الله القوي العزيز.

الثاني: أمر قومه بعبادة الله تعالى وحده.

الثالث: أمر قومه بالإيمان باليوم الآخر عندما خوفهم عذاب الله تعالى.

- إن الكفار دائماً يرون المؤمنين في ضلال، وأنهم هم الذين على الهدى والصلاح، فقد نسبوا نوحاً ﷺ حين عرض دعوته عليهم إلى الضلال، وكذبوه، وتمردوا عليه وعلى دعوته، وأمعنوا في إيذائه، وأصروا على ما هم عليه من شرك.

- إن الغاية من بعثة نوح ﷺ وكذلك الأنبياء ﷺ عموماً هي تبليغ رسالة الله ﷻ إلى القوم؛ ليخرجوهم من ظلمات الشرك إلى نور الهداية.

- إن معاندة الكفار بما هم عليه من باطل لنبيهم ﷺ الذي هو على الحق والاستمرار على الكفر موجبٌ للعذاب العاجل والعذاب الأليم الذي ينتظرهم في الآخرة.

- إن إعراض القوم عن قبول دعوة الحق غالباً هو ما كان عليه كبراءؤهم من

(١) الآية: رقم ٣ من سورة يوسف.

الأشراف والسادة من الاستكبار والاستعلاء على الضعفاء والفقراء الذين يتبعون الحق، فليس هناك ما يحجزهم أو يمنعهم عن اتباعه، بخلاف الأشراف الذين يمنعهم جاههم وسلطانهم وفقدان مناصبهم.

- إن الحق دائماً أمره ظاهر وواضح وجلي، بحيث لا يبقى لمن يعرفه مجالاً للرأي والتفكير في قبوله، وهذا ما اتهم أشراف القوم به ضعفاءهم.

- إن الهداية أمرٌ بيد الله ﷻ، لا يملكه حتى الأنبياء عليهم السلام، فلا يستطيع واحد منهم إلزام قومه وإكراههم على قبول دعوته.

- ليس لأحد أن يحدد إذا ما كان أي شخص يستحق الأجر والثواب من الله تعالى أم لا، فليس الضعف أو الفقر في المؤمن ينقص من ثوابه، فالميزان الحقيقي الذي يوزن به الناس عند الله ﷻ هو ميزان الإيمان والكفر.

- إن ما اتصف به قوم نوح من العمى والفسق والظلم وغيرها هي التي أدت بهم إلى رفض دعوة نوح ﷺ مهما آتاهم من الأدلة والبراهين على صدق دعوته مما أدى بهم إلى إهلاكهم واستئصالهم.

- أن الجدال نوعان:

أحدهما: محمود، وهو: أسلوب استخدام نوح ﷺ في عرض دعوته؛ لتقرير الأدلة، وإزالة الشبهات التي يلصقها الكفار بنبوته وبدعوته.

أما الثاني: فمذموم، وهو: ما استخدمه قومه؛ ليزينوا الباطل ويصير حقاً.

- إن كل إنسان محاسب على نفسه، فإن افتري في زعمه النبوة أو الرسالة كما يزعم الأعداء دائماً فإثمه يعود عليه، وإن كان محقاً وصادقاً فعليهم عقاب تكذيبهم.

- كانت سفينة نوح ﷺ أول سفينة على الأرض صنعها نوح ﷺ بحفظ الله تعالى ورعايته.

- السخرية خلق مذموم، ومن آثاره ومضاره أنها نذير شؤم للساخرين؛ لذلك كان الغرق عاقبة قوم نوح ﷺ الذين سخرُوا بنبيهم.

- من رحمة الله ﷻ بخلقه نجاة نوح ﷺ والمؤمنين معه، ومن فضله وكرمه أن حافظ على أصل الثروة الحيوانية عندما أمره أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين، ذكرًا وأنثى.

- لا يعتبر سؤال نوح ﷺ عن مصير ابنه الهالك بالغرق معصية لله تعالى، وإنما هو من باب الخطأ في الاجتهاد، فعاتبه الله تعالى عليه وأمره بالاستغفار.

- تعد رابطة الدين أقوى من رابطة النسب، وأن أمر الهداية والصلاح ليس له علاقة بالتفاخر بالنسب، ولا محاباة عند الله تعالى في هذا الأمر لنبي أو ولي، وإنما يجزيهم حسب أعمالهم التي كانت في الدنيا، وليس بأنسابهم وتفاخرهم بأبائهم وأجدادهم، فقد نجى الله تعالى نوحا ﷺ وأهلك ابنه الكافر، وكذلك زوجته الكافرة.

- في قصة نوح ﷺ مع ابنه تسلية للآباء الصالحين في فساد أبنائهم.

- كان اعتذار نوح ﷺ يمثل توبة كاملة، تضمنت أركان التوبة الثلاثة، وهي: الركن الأول: الندم على ما فات، وهذا في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾.

الركن الثاني: الإقلاع عن الذنب، وهذا مفهوم من قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾، فقد ندم على سؤاله، وأقلع عن ذنبه؛ ولذلك طلب المغفرة والرحمة من الله ﷻ، فقال: ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾.

الركن الثالث: العزم على الترك، وهذا في قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾.

فنوح ﷺ يستعيز بالله تعالى أن يسأله مرة أخرى شيئاً في المستقبل.

- إن نعم الله تعالى من الأمن والسلامة والبركات والخيرات، هي لكل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وفي المقابل فإن كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة ليس له إلا الانتفاع بمتاع الدنيا والتعذيب في الآخرة.

- تعد قصة نوح ﷺ مع قومه من الأخبار الغيبية التي غابت عن النبي ﷺ، ولكن الله تعالى أطلعه عليها، وهذا من الأدلة على صدق نبوته ﷺ.

- لقد خاطب الله تعالى البشرية جمعاء بأن تنضم تحت راية التوحيد والإيمان، وذكرهم أنهم من ذرية نوح ﷺ، وقد كان عبداً شكوراً لله تعالى على كل ما أنعم به عليه، فالأولى أن تقتدي به البشرية فتكون مثله، ولا تقتدي بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من الشرك والضلال.

- إن في قصة نوح ﷺ مع قومه الهالكين وفي أمر السفينة أيضاً دلالات واضحة على كمال قدرة الله جل جلاله، وأنه لا يترك رسله وأنبياءه، بل ينصرهم على أعداء دعوتهم، كما أن الله تعالى يختبر الأقوام بإرسال الرسل إليهم؛ ليميز الطائع من العاصي.

- إن تعلم الصناعات مما رغب به الدين وحث عليه، وليست الحرفة عيباً، إنما هي شرف وعزة لصاحبها يستغني بها عن ذل السؤال.

- شأن الظالمين الطغاة دائماً اللجوء إلى التهديد بالقتل عند نفاذ ذخيرتهم من السب والشتم والاتهام بالباطل والجدال المذموم.

- رسالات الأنبياء في القواعد والأصول العامة للعقيدة والأخلاق واحدة، فهم متعاونون متناصرون في ما بينهم، وكل منهم يكمل رسالة الآخر في الدعوة إلى التوحيد.

- الله جل جلاله هو الصمد الذي يُلجأ إليه عند الحاجة والضرورة، فلجأ إليه نوح ﷺ، واستجاب له.
- إن النعم التي أنعمها الله تعالى على نوح ﷺ، كانت؛ لأنه كان محسنًا، وعلة إحسانه أنه كان عبدًا لله تعالى مصدقًا به موحدًا إياه.
- لا عذر للناس في تكذيب الرسل والكفر بهم بعد أن أتوهم بالمعجزات الباهرات والأدلة الواضحات على صدقهم.
- إذا جاء الموت فلا يستطيع أحد تأخيرهِ. فخوف نوح ﷺ قومه؛ زجرًا لهم عن حب الدنيا، وترغيبًا لهم في توحيد الله تعالى والإيمان به.
- استمر نوح ﷺ في الدعوة إلى التوحيد ما يقرب من ألف سنة، لم يمل، ولم يكل، ولم يفتر عن الدعوة ليلاً ونهارًا، سرًا وجهرًا. كل هذا امتثالًا لأمر الله تعالى بالتبليغ بكل ما يملك من جهد و طاقة.
- سلك نوح ﷺ في دعوة قومه ثلاث مراتب، حيث بدأ بمناصحتهم سرًا، ثم ثنى بالمجاهرة للجميع، ثم جمع بين الأسرار والإعلان، فهذه سياسة ناجحة استنفذ فيها نوح ﷺ كل طاقاته، وهي تؤتي أكلها إذا ما تم التفاعل والتجاوب مع هذه الدعوة من قبل المدعوين.
- إن الله تعالى وعد من يستغفره بخمسة أشياء: إنزال المطر، والإمداد بالأموال، وكذلك بالبنين، وجعل الجنات والحدائق، وكذلك الأنهار.
- لا تجوز الشكوى إلا لله تعالى وحده؛ لذلك شكى نوح ﷺ قومه إلى الله تعالى عندما يؤس من إيمانهم.
- دعا نوح ﷺ لنفسه، ولوالديه، ولجميع المؤمنين والمؤمنات إلى يوم القيامة.
- ينبغي الاستعانة بالله ﷻ، وذكر اسمه عند الركوب والنزول، وفي جميع

الحركات والتقلبات، والإكثار من حمد الله تعالى على نعمه، وخاصة عند نعمة النجاة من الكرب.

- وجوب الصبر على أداء التكاليف، والصبر على أذى السفهاء والجهلاء، والصبر في مواجهة الأعداء، والصبر على صعاب الحياة كافة.

- الشجاعة في إبداء الرأي، والغيرة على الحق، وأن الداعية يجب أن يكون ماضياً في دعوته، لا يثنيه عنها وعيدٌ أو تهديد.

* * *

حياة النبي نوح ﷺ في القرآن الكريم والدروس المستفادة منها

إن نوحا ﷺ نبي من أنبياء الله العظام، وهو نبي من أنبياء أولي العزم، فأولو العزم هم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونبينا الخاتم صلوات الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.. وهؤلاء الأنبياء عليهم السلام لهم مواقع متميزة في حياة البشرية، ونبي الله نوح ﷺ له امتيازات، فمن امتيازاته أنه أبونا الثاني، والقرآن الكريم ذكره في أكثر من أربعين موضعا، حيث تناول مسألة نوح ﷺ، وما جرى عليه.

ومن خصوصيات النبي نوح ﷺ، أن الله ﷻ وصفه بأوصاف مدح وثناء منها: أنه اصطفاه على العالمين، وعدّه من المحسنين، وكذلك من عباده المؤمنين، وجعله عبدا صالحا، فمن الملاحظ أن القرآن يعبر بهذه التعبيرات، التي نعبر بها نحن عندما نرى إنسانا صالحا محسنا ومؤمنا، فهذه تعابير نطلقها على الناس العاديين، لمجرد أنهم يقومون بأداء فريضتي الصلاة والصيام، والحال أنها تعابير فخمة وعظيمة، أطلقها الله على أنبيائه أولي العزم.

فالذي نستفيدة مما جاء في القرآن من قصص الأنبياء والمرسلين أنه إذا أردنا أن نعرف إنسانا، فلنحاول أن نتقي التعبيرات المطابقة لحالته، لزيادة، ولا نقصانا، وأن الله سبحانه بهذه الموارد الكثيرة التي وردت في القرآن لا يركز على الجهات الخاصة في الأنبياء، مثل: تاريخ مواليدهم، وفي أي بلد نشأوا ولا على الخصوصيات الفردية، مثل: الشكل، واللون.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ ﴾ قَالَ يَفْعَلُونَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢﴾ (١)، إن هذه الافتتاحية كافية لدروس كثيرة: الدرس الأول: أن الله ﷻ يأتي بالنبى من ضمن القوم، كي لا يحتج بالبعد النفسى، أو اللغوى، أو العشائرى، أو الجغرافى، ولثلا يعيش الناس، حالة من حالات الطرد التلقائى، ولهذا نعتقد أن من أراد أن يبلغ فى قوم، فليبلغ فى أمته، حيث أن هناك تقارباً نفسياً وبيئياً وعرفياً، يساعد على إكمال المهمة.

الدرس الثانى: والدرس المهم أيضاً فى هذه الآية، هو أن شعار الأنبياء هو التوحيد، فالنبى الأكرم ﷺ شعاره: (قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا).. وكذلك نوح عليه السلام، فإنه يخاطب عبّاد الأصنام، ويطلب منهم أن يعبدوا الله ﷻ، فعبودية الله والتوحيد بالمعنى الساذج، أمرٌ بسيط، وهو أن يعتقد الإنسان بأنه (لا إله إلا هو)، ولكن القضية أعمق، فالعبودية لله ﷻ بمعنى اتخاذه إلهاً يعبد، ومطاعاً يُطاع، فإذن، العبودية والوحدانية لله، ومن ثمارها المهمة (الطاعة) وهى التقوى.

الدرس الثالث: إن النبى نوحاً عليه السلام عاش الأمرين من قومه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٢ ﴾ (٢)، فقد لبث فىهم تسعمائة وخمسين سنة، وهذا عمر الدعوة، لا عمر نوح، ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ٨ ﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ٩﴾ (٣)، ويبدو من بعض الروايات أن حصيلة إنتاج نوح فى تسعمائة وخمسين سنة طويلاً وعمقاً، ليلاً ونهاراً، وكيفية أقل من مئة إنسان، وبعض الروايات تصرّح بالثمانين، ولعل أقل من ذلك.. وهنا موطن الدرس الذى ينبغى أن نستفي دمنه، وهو: من يريد أن يعمل لله ﷻ، عليه أن لايهتم بالنتائج، فالنتائج عند الله ﷻ، ولعل السعى المشكور عند الله ﷻ يتعوّض.

(١) الآيتان: رقم ١-٢ من سورة نوح.

(٢) الآية: رقم ٥ من سورة نوح.

(٣) الآيتان: رقم ٨-٩ من سورة نوح.

(٢) الآية: رقم ٢٧ من سورة هود.

فهل في كون الحق جاء على يد بشر شيء من الشبهة مما يدل على أنه ليس بحق؟ ومضمون هذا الكلام أنك لقول قاله البشر من أي مصدر يكون باطلاً، وهذا قدح منهم في جميع العلوم البشرية المستفادة من البشر، ومعلوم أن هذا يبطل العلوم كلها، فهل عند البشر علوم إلا مستفيدها بعضهم من بعض وهي متفاوتة؟ فأعظمها وأصدقها وأنفعها ما تلقاه الناس عن الرسل الذين علومه مع نوح يالهي.

وكذلك قولهم: ﴿ مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾، أي: نحن وأنتم بشر، وقد أجابت الرسل كلهم عن هذه المقالة فقالوا: ﴿ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾^(١)، فمن الله على الرسل، وخصهم بالوحي والرسالة مع أن إنكارهم عليهم من هذه الجهة من أكبر الجهل وأعظم القدح في نعمة الله، فإن رحمة الله وحكمته اقتضت أن يكون الرسل من البشر؛ ليتمكن العباد من الأخذ عنهم، وتيسر عليهم هذه النعمة، ويسهل الله لهم طرقها، فهؤلاء المكذبون كفروا بأصل النعمة، وبالطريق المستقيم النافع الذي جاءتهم به.

وكذلك قولهم: ﴿ وَمَا نَزَّلَكَ أُتْبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا ﴾، من المعلوم لكل أحد عاقل: أن الحق يعرف أنه حق بنفسه لا بمن تبعه، وأن هذا القول الذي قالوه صدر عن كبير وتيه، والكبر أكبر مانع للعبد من معرفة الحق و من اتباعه.

وأيضاً قولهم: ﴿ أَرَادُوا ﴾، إن أرادوا الفقر فالفقر ليس من العيوب، وإن أرادوا أراذلنا في الأخلاق فهذا كذب معلوم بالبدية، وإنما الأراذل الذين قالوا هذه المقالة، فهل الإيمان بالله ورسله، وطاعة الله ورسله، والانقياد للحق، والسلامة من كل خصلة ذميمة، هل هذا الوصف رذيلة وأهله أراذل؟ أم الرذيلة بضده، من ترك أفرض الفروض توحيد الله وشكره وحده وامتلاء القلب من التكبر على الحق وعلى الخلق؟ هذا والله أراذل الرذائل، ولكن القوم مباهتون فما نقموا من هؤلاء الأخيار إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد.

(١) الآية: رقم ١١ من سورة إبراهيم.

وقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾، أي: مبادرة منهم إلى الإيمان بك يا نوح، لم يشاوروا أولم يتأنوا ويتروا والوفرض أن هذا حقيقة فهذا من أدلة الحق، فإن الحق عليه من البراهين والنور والجلالة والبهاء والصدق والطمأنينة ما لا يحتاج إلى مشاورة أحد باتباعه، وإنما التي تحتاج إلى مشاورة هي الأمور الخفية، التي لا تعلم حقيقتها ولا منفعتها، أما الإيمان الذي هو أجلى من الشمس في نورها، وأحلى من كل شيء، فما يتأخر عنه إلا كل متكبر جبار أمثال هؤلاء الطغاة البغاة.

وقولهم: ﴿وَمَا زَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، هل في هذا الكلام شيء من الإنصاف بوجه، لانهم يخبرون عن أنفسهم، وكلامهم يحتم لأنه الذي في قلوبهم، ويحتمل أنهم يقولون ما لا يعتقدون، وعلى كلا الأمرين فالحق يجب قبوله، سواء أقاله الفاضل أو المفضول، فالحق أعلى من كل شيء.

وكذلك قولهم: ﴿بَلْ نُنَظُّكُمْ كَذِبِينَ﴾ معلوم أن الظن أكذب الحديث، ثم لو قالوا: بل نعلمكم كاذبين، فهذه كل مبطل يقدر أن يقولها، ولكن بأي شيء استدللتم أنهم كاذبون؟ فهذه أدلتهم وبراهينهم أبطلت نفسها بنفسها كما ترى، فكيف وقد قابلها الرسل بالأدلة والبراهين المتنوعة التي لا تبقي ريباً لأحد في بطلانها؟

الفائدة الثالثة: أن من فضائل الأنبياء ﷺ وأدلة رسالتهم إخلاصهم التام لله تعالى في عبوديتهم لله القاصرة، وفي عبوديتهم المتعدية لنفع الخلق كالدعوة والتعليم وتوابع ذلك، ولذلك يدون ذلك ويعيدونه على أسماع قومهم كل منهم يقول: ﴿وَيَقْوَرُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لََّ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾^(١)، ولهذا كان من أجل الفضائل لأتباع الرسل أن يكونوا مقتدين بالرسول في هذه الفضيلة، والله تعالى يجعل لهم من فضله من رفعة الدنيا والآخرة أعظم مما يتنافس فيه طلاب الدنيا.

الفائدة الرابعة: أن القدح في نيات المؤمنين وفيما من الله عليهم به من الفضائل

(١) الآية: رقم ٢٩ من سورة هود.

والتألي على الله تعالى أنه لا يؤتيهم من فضله من مواريث أعداء الرسل، فلهذا قال نوح ﷺ لقومه حين تألوا على الله، وتوسلوا في ذم المؤمن يئبه بذلك، فقال: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾^(١).

الفائدة الخامسة: أنه ينبغي الاستعانة بالله، وأن يذكر اسمه عند الركوب و النزول، وفي جميع التقلبات والحركات، وحمد الله والإكثار من ذكره عند النعم لاسيما النجاة من الكربات والمشقات، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بَجَرِهَا وَمُرْسَاهَا ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلْ أَشْهَدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾^(٣).

الفائدة السادسة: وأنه ينبغي أيضًا الدعاء بالبركة في نزول المنازل العارضة كالمنازل في إقامات السفر وغيره، والمنازل المستقرة كالمساكن والدور؛ لقوله: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾^(٤)، وفي ذلك كله من استصحاب ذكر الله، ومن القوة على الحركات والسكنات، ومن قوة الثقة بالله، ومن نزول بركة الله التي هي خير ما صحبت العبد في أحواله كلها ما لا غنى للعبد عنه طرفه عين.

الفائدة السابعة: أن تقوى الله والقيام بواجبات الإيمان من جملة لأسباب التي تُنال بها الدنيا وكثرة الأولاد والرزق وقوة الأبدان، وإن كان لذلك أيضًا أسباب أخرى، وهي السبب الوحيد الذي ليس هناك سبب سواه في نيل خير الآخرة، والسلامة من عقابها.

(١) الآية: رقم ٣١ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٤١ من سورة هود.

(٣) الآية: رقم ٢٨ من سورة المؤمنون.

(٤) الآية: رقم ٢٩ من سورة المؤمنون.

الفائدة الثامنة: أن النجاة من العقوبات العامة الدنيوية هي للمؤمنين، وهم الرسل وأتباعهم، وأما العقوبات الدنيوية العامة فإنها تختص بالمجرمين، ويتبعهم توابعهم من ذرية وحيوان، وإن لم يكن لها ذنوب؛ لأن الوقائع التي أوقع الله بأصناف المكذبين شملت الأطفال والبهائم، وأما ما يذكر في بعض الإسرائيليات أن قوم نوح أو غيرهم لما أراد الله إهلاكهم أعقم الأرحام حتى لا يتبعهم في العقوبة أطفالهم فهذا ليس له أصل، وهو مناف للأمر المعلوم، وذلك مصداق لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(١).

الفائدة التاسعة: صبر نوح ﷺ على دعوته لقومه مئات السنين، فقد لبث فيهم تسعمئة وخمسون عاماً يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهراً، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ۝٤﴾^(٣).

ومن لوازم الصبر ألا يستطيل الداعي إلى الله الطريق، ولا يستعجل النتائج، روى البخاري في صحيحه من حديث خباب ابن الأرت قال: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلٍّ كَعَبَةٍ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: (قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نَصْفَيْنِ، وَيُمَشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)^(٤).

(١) الآية: رقم ٢٥ من سورة الأنفال.

(٢) الآيات: رقم ١-٣ من سورة العصر.

(٣) الآية: رقم ٣٥ من سورة الأحقاف.

(٤) الحديث: رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

إضاءة على آيات:

الإضاءة الأولى: ﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّا ﴾:

- وظيفة الداعية الدعوة إلى الله، وهي وظيفة الأنبياء والمرسلين، فهو لا يطلب من الناس أجراً على دعوته، ولا يتطلع بذلك إلى منصب أو جاه ومكانة، بل هممه وهدفه من ذلك هو طلب الأجر من الله ﷻ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الحق، ومن نور المعصية إلى نور الطاعة، قال تعالى: ﴿ وَيَقْوَمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّا إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾.

- نوح ﷺ نفى عن نفسه بعض الاتهامات التي قد يُتهم بها الداعية غالباً من إرادته للمال و طلبه للدنيا، لذلك قال لهم: ﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّا ﴾، وفي آية أخرى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾^(١)؛ لأن المدعويين قد يظنون أن قيام الداعية بنصح الناس وتذكيرهم ووعظهم من أجل الحصول على المال أو غرض دنيوي.

- أكد الله ﷻ على هذا الموضوع وهو عدم طلب الأنبياء الأجر، وذكره عن أنبيائه مرات كثيرة، فذكر ذلك عن نوح ﷺ كما ذكرنا وعن هود وصالح ولوط وشعيب ﷺ كلهم قالوا القومهم: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٢)، وذكر عن نبينا محمد ﷺ مثل ذلك في آيات كثيرة، وما ذاك إلا لأهمية الموضوع.

- إن المدعويين عندما يعلمون أن الداعية لا يأخذ على دعوته مقابل آمن الناس، فإن ذلك يترك أثراً أكبر عليهم من حيث قبولهم لدعوته، وذلك لعلمهم أنه لا يريد من ذلك إلا وجه الله تعالى، ومصلحتهم والخير لهم.

- إن طمع الداعية فيما عند الناس من مال وطلب جاه ومنصب يُشكّكهم في

(١) الآية: رقم ٧٢ من سورة (يونس).

(٢) الآية: رقم ١٠٩ من سورة الشعراء.

صدقه و نيته، لذلك قال ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: (نعم، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة)^(١)، وكل ذلك ليستغني عن الناس ولا يطلبهم شيئاً.

الإضاءة الثانية: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾:

قال الله ﷻ عن نوح ﷺ: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

يخبر نوح ﷺ قومه بأنه لا يملك خزائن الله من أموال وخيرات، فلا يملك إعطاءها لأحد ولا منعها عن أحد، ولا يدعي علم الغيب، وليس بملك، بل هو نبي مرسل، ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾، أي: تحتقرونهم يعني من الضعفاء و المساكين الذين آمنوا بالله: إن الله لن يعطيهم أجراً، فالله هو أعلم بهم إن كانوا كافرين أو مؤمنين، وأعلم بما في نفوسهم وقلوبهم، فلو قال عنهم ما ليس فيهم فإنه من الظالمين المعتدين.

ومن الإضاءات كذلك:

١ - نوح ﷺ النبي الرسول الداعية إلى ربه أقرّ بكل سهولة وشجاعة أمام قومه بأنه لا يملك الكنوز، ولا يعلم الغيب، ولا يدعي أنه ملك، ولا يحكم على أحد بجنة ولا نار.

٢ - على الداعية أن لا يدعي ما ليس عنده، سواء كان علماً أوجاهاً أو مالاً، من أجل أن يبرز نفسه أمام الناس، ويرفع قدره ومنزلته لديهم، بل عليه أن يذكر ما عنده وينفي ما ليس عنده، وكل ذلك لا يقلل من شأنه، بل يزيده رفعةً ومنزلة عند ربه؛

(١) الحديث: أخرجه البخاري برقم: (٢٢٦٢).

(٢) الآية: رقم ٥٠ من سورة الأنعام.

لأنه من التواضع، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) ^(١).

٣ - من صفات الداعية أنه لا يدَّعي معرفة كل شيء ولو كان ذاعلم وفقه وفهم، فعليه أن يتحدث بما يعلم، ويترك الحديث فيما لا يعلم، ولا يستنكف أو يستكبر أن يقول: (الله أعلم)، خاصة في بعض العلوم التي ليست من اختصاصه كالعلوم الدنيوية، فبعض الدعاة يخوض فيك لعلم ويتحدث فيه ولو كان لا يحسنه، ظناً منه أن عدم الحديث في مثل ذلك يُعدُّ نقصاً لقدره ومكانته.

٤ - الداعية لا يحكم على أحد، ولا يدخل في نوايا الآخرين؛ لأن مثل ذلك يُعدُّ ظلمًا وتعديًا، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ^(٢)، والنية عمل قلبي لا يعلم به إلا الله عز وجل، فقد يرى الداعية غيره أفضل منه دعوة ونشرًا للخير، ويرى إقبال الناس حوله وتقبلهم له، فيأتيه الشيطان حسدًا له، فيجعله يطعن في نيته وصحة عمله، وكذلك قد يقوم بعمل الخير من عرف بالشر والفساد، فيأتي البعض فيتهمه بأنه لم يُرد وجه الله بذلك، وأنه عُرف عنه كذا وكذا، فمثل ذلك لا يجوز، فالعاصي ولو عصى ربه فهو مسلم، وقد يكون هذا العمل سببًا لدخوله الجنة.

الإضاءة الثالثة: ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾:

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ ^(٢).

نوح عليه السلام أمره ربه ببناء السفينة في الصحراء حتى ينجو بها، فجعل قومه كل ما مروا به استهزؤوا وسخروا منه لبنائه سفينة في صحراء ليس بها ماء، فأجابهم نوح عليه السلام بكل ثقة: إن تسخروا منا الآن فسوف نسخر منكم فيما بعدك ما تسخرون منا.

(١) الحديث: أخرجه مسلم برقم: (٢٥٨٨).

(٢) الآية: رقم ٣٨ من سورة هود.

ومن الإضاعات كذلك:

- الداعية معرّض للسخرية من الآخرين، وقد يكون هذا هو الأصل في أهل الضلال والشر، وقد سخر كلقوم من أنبيائهم، وعلى رأسهم خير البرية والبشر نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فقد يحزن الداعية على وقوع مثل ذلك، ولكن عليه ألا تراجع ويتكاسل، ويعلم أن حزنه مُثاب عليه، وأن قدوته في ذلك أنبياء الله ﷺ، فالوعد عند الله، فالداعية الصادق يعلم موعود الله له ولو استهزأ به كل البشر، فسيسخر منهم في يوم يتضح فيه الحق من الباطل، ويعلو فيه الحق على الباطل، ويتميز أهل الإيمان عن أهل النفاق والعصيان، قال تعالى في موضع آخر عن حال أهل الضلال مع أهل الإيمان قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ١٨﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ١٩﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٢٠﴾^(١).

الإضاعة الرابعة: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾:

قال الله ﷻ عن نوح ﷺ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٦٠﴾ قَالَ يَقَوْمٍ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٦١﴾^(٢).

- فعندما قام نوح ﷺ بدعوة قومه للإيمان، أجابوه بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، ولم يقولوا: ضلال فقط، بل مبين؛ أي واضح ظاهر لهم، وقد كذبوا في ذلك، فأجابهم ﷺ بإجابة الرفيق الشفيق الحليم عليهم، فنفى عن نفسه الضلالة، وبيّن ووضح لهم حقيقته وهدفه ورسالته بأنه: ﴿رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فلم يعتد عليهم و يرد عليهم بمثل قولهم.

(١) الآيات: رقم ١٠٩-١١١ من سورة الأنعام.

(٢) الآيات: رقم ٦٠-٦١ من سورة الأعراف.

ومن الإضاعات كذلك:

١ - قال الله ﷻ عن هود عليه السلام مثل هذه المقولة وردَّ عليهم بمثل ردَّ نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ أَمَلَأُ الذِّينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَزَلُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴾ (١٦) قَالَ يَقَوْمُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾، فهذا هو خلق الأنبياء، قال ابن عطية رحمه الله: وقوله لهم جواباً عن هذا ﴿ إِنَّا لَنَزَلُكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ مبالغة فيحسن الأدب، والإعراض عن الجفاء منهم، وتناول رفيق، وسعة صدر حسبما يقتضيه خلق النبوة (١٨).

٢ - قد يواجه الداعية عبارات شديدة اللهجة، واتهامات باطلة زائفة، فيُقي الله: دعوت كهذه ضلال مبين، وسفاهة وجهل، وتخلف ورجعية، فالواجب الرد على مثل ذلك بلطف ولين، وأدب ورفق، وعدم تعدُّ وتجنُّ، والاكتفاء بنفي الاتهام عنه، فهم جهلة سفهاء، وهو ذوعلم ودين، وعلمه ودينه يمنعه من الوقوع فيما وقعوا فيه من اتهامات وسباب، والداعية همُّه إيصال الحق للناس ولو تعرضوا لشخص هو ذاته، فهو يريد ما عند الله من خير و ثواب.

٣ - على الداعية أن يوضح للناسد فهو رسالته التي من أجلها دعا وتحدث و نصَّح و وجه، فهو لا يريد منهم مآلاً ولا مصلحة ولا منفعة.

٤ - يحتاج الداعية فيمثل هذه المواقف إلى الصبر والحلم على الجاهلين والسفهاء، وأن يحذر من الانتصار للنفس؛ لأن الانتصار للنفس يُخرج الدعوة من مسارها وإرادة وجه الله، فتصبح أمراً شخصياً للانتقام والرد والبحث عن حظوظ النفس.

٥ - قد يقوم السفهاء والجاهلون بتغيير مسار النقاش من نقاش علمي إلى

(١) الآيات: رقم ٦٦-٦٧ من سورة الأعراف.

(٢) الحديث: ورد في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي: ٢ / ٤١٥.

نقاش شخصي هروباً من الإجابة، لعدم قدرتهم على إقامة الحجة والرد العلمي، ولرفضهم قبول الحق، فيستهزؤون، وربما وجَّهوا الاتهامات الباطلة للداعية وتعرضوا لشخصه، فعلى الداعية ألا يلتفت لمثل ذلك بل يمضي في تبليغ دعوته.

فوائد للدعاة

من قصة نوح عليه السلام

الفائدة الأولى: دعوة نوح عليه السلام إلى توحيد الله تعالى:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقَهُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

وهذا هو منهج جميع الأنبياء والمرسلين؛ الدعوة إلى التوحيد، والنهي عن الشرك؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٢).

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بَعَثَ مُعَاذًا رضي الله عنه إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: (ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْهُمْ أَطَاعُوا لِدَلِكِ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْهُمْ أَطَاعُوا لِدَلِكِ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ)^(٣).

فلا بد للدعاة إلى الله تعالى الاهتمام بالتوحيد والدعوة إليه؛ فإنه أساس الدين وأهم المهمات، ولا خير في دعوة لا تهتم به ولا تذكر الناس به، ولا تنهاهم عن ضده؛ وهو الشرك بالله تعالى.

(١) الآية: رقم ٥٩ من سورة الأعراف.

(٢) الآية: رقم ٢٥ من سورة الأنبياء.

(٣) الحديث: رواه الشيخان البخاري ومسلم.

(٧) الآية: رقم ١٤ من سورة العنكبوت.

الفائدة الرابعة: لم ييأس و لم يترك نوح ﷺ الدعوة إلى الله تعالى معقلة المستجيبين لدعوته، فلا تيأس أيها الداعية إلى الله تعالى، ولا تقعد عن الدعوة بسبب قلة المستجيبين أو الأتباع، وأنت لا تجد الأثر المرجو من الدعوة؛ فهذا النبي الرسول نوح ﷺ لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا؛ وقد أخبر عنه تعالى فقال: ﴿ وَمَاءَ أَمْنٍ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾^(١).

الفائدة الخامسة: قد بلغ نوح ﷺ البلاغ المبين، وصبر الصبر العظيم، ولم يُقَصِّر في دعوة قومه، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآنِيتِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴾^(٢).

قال العلامة السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره على هذه الآية: (فلا نقدر على إكراهكم على ما أمر الله، ولا إلزامكم، ما نفرتم عنه؛ ولهذا قال: ﴿ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴾).

وقال أيضًا نوح ﷺ لقومه: ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِن أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^(٣).

قال العلامة السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره على هذه الآية: أي: إن إرادة الله غالبية، فإنه إذا أراد أن يغويكم، لردكم الحق، فلو حرصت غاية مجهودي، ونصحت لكم أتم النصح وهو قد فعل ﷺ فليس ذلك بنا فعلكم شيئًا؛ ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾؛ يفعل بكم ما يشاء، ويحكم فيكم بما يريد، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾؛ فيجازيكم بأعمالكم. فمهمة الداعية إلى الله تعالى البلاغ المبين، وقلوب الناس وهدايتهم بيد الله

(١) الآية: رقم ٤٠ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٢٨ من سورة هود.

(٣) الآية: رقم ٣٤ من سورة هود.

تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾^(٢) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ^(٣).

الفائدة السادسة: سلك نوح ﷺ كل السبل والطرق في هداية قومه؛ من الترغيب و الترهيب، والدعوة في السر و العلن، وفي الليل و النهار.

قال تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾^(٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا^(٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِيْءَآذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا^(٧) وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا^(٨) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا^(٩) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا^(١٠) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا^(١١) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا^(١٢) وَيُمِدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا^(١٣) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا^(١٤) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا^(١٥) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا^(١٦) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا^(١٧) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا^(١٨) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا^(١٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا^(٢٠) لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا^(٢١) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهِمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا^(٢٢) وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا^(٢٣)

فعلى الداعية إلى الله تعالى أني سلك كل السبل والطرق، ويبذل كل وسعه في هداية الخلق، ولا يقصر، وبعدها القلوب بيد الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء.

الفائدة السابعة: كان نوح ﷺ يخاف و يُشفق على قومه من عذاب الله، ويريد لهم رحمة الله وهدايته، وخيره في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

(١) الآية: رقم ١٣ من سورة فصلت.

(٢) الأيتان: رقم ٢١-٢٢ من سورة الغاشية.

(٣) الآيات: رقم ٥-٢٢ من سورة نوح.

أَلِيمٍ^(١)، وهكذا كان النبي محمد ﷺ؛ قال تعالى عنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

وفي الحديث أن عائشة رضي الله عنها: قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: (هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحِدٍ؟ قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْ هُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَا لَيْلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَمَتْنِي، فَانْظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكُ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ لَذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنَّ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)^(٣).

فعلى الداعية إلى الله تعالى أن تكون غايته دلالة الناس إلى رحمة الله و جنته، والشفقة عليهم من عذاب الله وغضبه.

الفائدة الثامنة: إخلاص نوح ﷺ في دعوته إلى الله تعالى، فلا يريد منهم مالا، ولا يريد من أحد شيئا، وإنما يريد الأجر والثواب من الله تعالى.

قال نوح ﷺ: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنِّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

فالدعوة إلى الله تعالى من أعظم القربات وأجل الطاعات التي يجب فيها الإخلاص لله تعالى؛ لأن الدعوة تكون إلى الله، لا إلى حزب أو جماعة، أو رياء أو سمعة أو جاه، أو أي غير ذلك.

(١) الآيتان: رقم ٢٥-٢٦ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ١٠٧ من سورة الأنبياء.

(٣) الحديث: رواه الشيخان البخاري ومسلم.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

الفائدة التاسعة: توكل نوح ﷺ على الله تعالى وأخذه بالأسباب، من صنع السفينة وركوبها، وتوكله على الله في نجاته ونجاة من آمن معه.

قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾^(٢) ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾^(٣) ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٤).

وهكذا كل داعية إلى الله، عليه أن يتوكل على الله تعالى ويأخذ بالأسباب التي جعلها سبحانه، كما كان النبي ﷺ وأصحابه؛ فقد أخذوا بكل الأسباب فحفروا الخندق، ولبسوا الدروع، وبذلوا الأنفس والأموال، وهم متوكلون على الله تعالى. وختاماً...

ينبغي للدعاة إلى الله تعالى أن يسلكوا سبيل الأنبياء والمرسلين، فسبيل نوح ﷺ هو سبيل محمد ﷺ؛ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةً﴾^(٥).

(١) الآية: رقم ١٠٨ من سورة يوسف.

(٢) الآيات: رقم ٣٨-٤٠ من سورة هود.

(٣) الآية: رقم ٩٠ من سورة الأنعام.

الخاتمة

ذلك ما تيسر جمعه وكتابته من أخبار القصة الواردة في كتاب الله ﷻ وفي صحيح السنة النبوية وأخبار الصحابة والتابعين بانتقاء الصحيح منها مما جاء منصوباً في مصدري التشريع (الكتاب والسنة) وما قاله المفسرون وأهل السير والتواريخ مما ذكر صريحاً، وأما سكنت عنه النصوص الشرعية من أمور الغيب وأحوال الماضي مما لا ينبغي البحث عنه ولا التقصي عن تفاصيله إلا بقدر ما ينفع فقد تحاشينا ذكره وحشو الكتاب بحروفه، لأنه لا يترتب على ذلك عمل باطن ولا ظاهر! ويتأكد ذلك في الأمور المشتبهة، ومن جملتها الحكم على الغيب من خلال ما يعرف في الواقع، مع احتمال أو ثبوت الفرق المؤثر بينهما، ففي قصة الطوفان مثلاً، لا يصح الحكم على أشكال وأجناس الحيوانات بمصاحبة حكم الواقع، لأننا لا نستطيع القطع بكون الأرض نفسها كانت حينئذ على ما هي عليه الآن في الشكل والمناخ وما يعيش عليها الكائنات الحية! بل يقرر كثير من علماء الطبيعة والأحياء أوجهاً للفرق بين طبيعة الأرض وما عليها في عصرنا وبين ما كانت عليه في العصور التاريخية الغابرة، وأكبر وأجل الأحداث لإثبات هذه الفوارق هو طوفان نوح ﷺ حتى قسمت الحياة على الأرض لعصر ما قبل الطوفان وعصر ما بعد الطوفان!

والمقصود أن استبعاد أو استغراب حمل نوح ﷺ لأنواع الأحياء معه في السفينة مبناه على استصحاب حكم الواقع بتفاصيله وعلومه المعاصرة، وهذا في الحقيقة غير لازم، فإن السفينة بناها نوح ﷺ بوحى وتعليم من الله، ولا نعرف حجمها ولا شكلها ولا تصميمها، وهي معجزة وآية لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿فَأَنبِئْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾^(٢).

(١) الآية: رقم ١٥ من سورة العنكبوت.

(٢) الآية: رقم ٤١ من سورة (يس).

وهذه السفينة إن كانت معجزة وآية، فلا يصح قياسها على غيرها من السفن، وإلا فهل يمكن لسفينة عادية أن تجري في موج كالجبال كما جرى لسفينة نوح ﷺ، ثم إن كون الطوفان عم جميع الأرض وإن كان يفهم من بعض الآيات، إلا إنه لم ينص عليه القرآن صراحة، وإنما المقطوع به أن قوم نوح وهم البشر الذين كانوا يعيشون على الأرض في هذا الزمان قد غرقوا جميعا إلا من ركب السفينة، فهل عم الطوفان جميع الأرض، أم كان خاصا بالبقاع التي يعيش فيها البشر؟ فهذه المسألة وإن جرى فيها الترجيح إلا إن القطع فيها غير متيسر، وعلى الاحتمال الثاني يكون ما حملة نوح ﷺ هو أنواع الحيوانات التي كانت تعيش في تلك البقاع خاصة.

وقد روي في بيان كيفية الجمع بين أنواع الحيوان التي لا تجتمع عادة في مكان واحد، فضلا عن سفينة روايات موقوفة وآثار مقطوعة، ولسنا في حاجة إلى إيراد شيء من ذلك، للأصل الذي أصلناه، وهو أن الأمر معجزة، فلا يصح قياسه بالعقل المجرد الذي تحكمه القوانين والسنن المطردة، وقد أحسن ابن عطية الأندلسي حينما قال في تفسيره المحرر الوجيز: وهذا كله قصص لا يصح إلا لو استند، والله أعلم كيف كان.

وأما ما ورد يمن الخلافي موضوع عمر نوح ﷺ: فنوح ﷺ من أولي العزم من الرسل، وقد جاهد في الدعوة إلى الله تعالى جهادا طويلا، فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله تعالى بما وسعه من الوسائل وبما أمكنه من السبل، فدعاهم ليلا ونهارا سرا وجهارا، كما هو معلوم من سيرته التي قصها القرآن في غير موضع، ولكن نوحا ﷺ لم يجاهد الكفار بالسيف، فإن الجهاد لم يشرع إلا بعد إهلاك القرون الأولى بالعذاب المستأصل، فلما أنزل الله التوراة على موسى شرع فيها جهاد الكفار بالسيف، واستمر الحكم على ذلك، قال الحافظ ابن كثير ﷺ: فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة،

كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعادا الأولى بالدبور، وثمرود بالصيحة، وقوم لوط بالخنس والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى ﷺ وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم، ثم أنزل على موسى ﷺ التوراة، شرع فيها قتال الكفار واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾^(١).

بهذا تعلم أن نوحا ﷺ من سادة المجاهدين في ميدان الدعوة إلى الله تعالى، وأما الجهاد بالسيف فإنه لم يؤمر به أصلا، وقد حاز النبي ﷺ قصب السبق ونال القدر المعلى في كل ميادين القرب والطاعات، فقد وفى كل مقامات العبودية حقها، من العلم والعمل والدعوة والجهاد وغير ذلك ﷺ، فلا يساويه أحد من خلق الله فضلا عن أن يتقدمه في أبواب الخير والتقرب إلى الله تعالى.

وأما ما ورد من الخلاف في شأن الطوفان: فإن ظاهر القرآن وقول جماهير علماء المفسرين أن الطوفان الذي حدث زمن نوح ﷺ شمل الأرض جميعها وليس بقعة معينة. فالقرآن نص على أن جميع أهل الأرض قد أغرقوا إلا نوحا ﷺ ومن كان معه في السفينة من الناس والحيوانات، قال الله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾^(٢) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ^(٣).

والقرآن نص أنه سبحانه جعل أصحاب السفينة هم الخلائف في الأرض بعد هلاك الكفار ولو كان هناك ناس غيرهم نجوا لكانوا خلائف معهم، قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةً وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ ﴾^(٤).

(١) الآية: رقم ٤٣ من سورة القصص.

(٢) الآيتان: رقم ١١٩ - ١٢٠ من سورة المؤمنون.

(٣) الآية: رقم ٧٣ من سورة يونس.

كما نص القرآن أن من على الأرض من الناس كلهم من نسل وذرية نوح ﷺ فقط، وأما المؤمنون الذين نجوا معه في السفينة فلم تبق لهم ذرية، فجميع أهل الأرض الآن من ذرية نوح ﷺ، ولو كان هناك ناس غيرهم في بقاع أخرى لكان هناك نسل من غير نوح ﷺ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْنَعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝٧٦ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ۝٧٧ وَرَكَّنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝٧٨ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝٨١ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ۝٨٢﴾ (١).

قال ابن عباس ؓ: لم تبق إلا ذرية نوح ﷺ.

شبهات تثار حول الطوفان الذي كان في زمن نوح ﷺ:

من الإنصاف للحقيقة أن يعلم الناظر والباحث، أن العالم إذا ألف كتابا واحتوى علما كثيرا ثم بعد ذلك اطلعوا على مكان واحد من كتابه يصعب على الفهم، فالمتعارف عليه عند جميع العقلاء، والذي تقتضيه الموضوعية العلمية أن هذا الكتاب لا يُطعن فيه، ولا يُطرح جميع ما فيه من علم، بمجرد وجود هذه الصعوبة، بل عليه أن يستعمل الأدوات المناسبة لفهم ما يشكل عليه، وحل معضلات الكلام.

وهذا في كلام البشر؛ فكيف بكتاب مثل (كتاب الله) جل جلاله، وقد مر عليه من القرون ما مر، وآمن به من العقلاء من آمن، وعاداه من البشر من عاداه، وسعوا إلى الطعن فيه بكل سبيل؛ فلم يستطيعوا أن يأتوا فيه بباطل؛ بل يضطر المنصفون منهم إلى الإقرار بفضل هذا الكتاب، وعظيم شأنه، ومنهم من شرح الله صدره للإيمان به، بعدما جهد طويلا ليطعن فيه !!

والقصص في القرآن إنما جاءت لمقاصد إيمانية ودعوية أشار القرآن إليها بوضوح منها :

١ - تثبيت قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين عند الشدائد :

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثِثُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

٢ - للتدليل على أن هذا القرآن من الله تعالى المحيط بكل شيء علما ، والعالم بما كان وبما سيكون ، كما قال الله تعالى بعد ذكره لقصة نوح ﷺ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْقِذِينَ﴾^(٢).

فالقرآن يذكر من الحادثة ما يحقق المقصود الدعوي والإيماني منها، كما نرى في قصة نوح ﷺ مع قومه ، فقد كان التركيز على جهد نوح في دعوته، وبيان مدى إعراض قومه عن الحق، ثم بين الله العقاب الذي لحق هؤلاء القوم المعرضين عن الحق ، وذكر لنا من صفات هذا العقاب ما نستطيع أن نأخذ منه صورة عامة لهوله، أما باقي تفصيلاته التي لا تفيدنا فلم يتعرض لها القرآن .

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله: (ففي القرآن الكريم أشياء كثيرة لم يبينها الله لنا ولا رسوله ، ولم يثبت في بيانها شيء، والبحث عنها لا طائل تحته ولا فائدة فيه، وكثير من المفسرين يطنبون في ذكر الأقوال فيها بدون علم ولا جدوى، ونحن نُعرض عن مثل ذلك دائما، كلون كلب أصحاب الكهف، واسمه، وكالبعض الذي ضرب به القتل من بقرة بني إسرائيل، وكاسم الغلام الذي قتله الخضر، وأنكر عليه موسى قتله، وكخشب سفينة نوح من أي شجر هو، وكم طول السفينة وعرضها، وكم فيها

(١) الآية: رقم ١٢٠ من سورة هود.

(٢) الآية: رقم ٤٩ من سورة هود.

من الطبقات، إلى غير ذلك مما لا فائدة في البحث عنه، ولا دليل على التحقيق فيه^(١).

فالأولى أن نترك التدقيق في المعلومات التي لم يذكرها القرآن ولا السنة عن هذا الطوفان وذلك لسببين:

١ - عدم وجود الفائدة من ذلك التدقيق ، فلو كان فيه فائدة لأخبرنا به القرآن أو السنة .

٢ - أن الأسانيد العلمية، والأدلة التاريخية؛ لن توصلنا إلى نتيجة قطعية في مثل ذلك؛ لأن واقع الحياة وتفصيلها في ذلك الزمن البعيد جدا مجهولة للإنسان، وما يذكره العلم الحديث عن تلك الأزمان البعيدة في القدم ليس كله من الحقائق العلمية المطلقة، بل كثير منه هو نظريات وتفسيرات علمية، قابلة للتغير والتخطئة والإبطال .

ثم أن ظاهر النصوص القرآنية والذي عليه المفسرون أنه عمّ الأرض، وصرح القرآن أيضا أن قوم نوح قد عمّهم الطوفان بماء هائل، ولم ينج منهم إلا من ركب مع نوح في السفينة، والبشرية اليوم هي من نسل نوح ﷺ، فهذا الذي يشير إليه القرآن، أما كيف تمّ جمع هذه الحيوانات، وكم طول السفينة، وكم كانت كمية الماء وإلى أي مدى بالضبط وصل؛ فلا يوجد نص قاطع من قرآن أو سنة على ذلك، فلا نشغل بها أنفسنا.

قال الطاهر ابن عاشور رحمه الله: (وعموم الطوفان هو مقتضى ظواهر الكتاب والسنة)^(٢).

(١) أنظر: أضواء البيان، ج ٤ ص ٥٨

(٢) أنظر: التحرير والتنوير ج ٢٣ ص ١٣١ .

والقرآن الكريم كذلك لم يخبر أن جميع الحيوانات التي كانت على ظهر الأرض يومئذ ، كانت معه في السفينة، وإنما كان معه من كل صنف منها زوجان اثنان .

قال الله تعالى: ﴿ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ .

قال الشوكاني رحمه الله في تفسير هذه الآية: (أي: قلنا يا نوح: احمل في السفينة من كل زوجين، مما في الأرض من الحيوانات: اثنين؛ ذكرا، وأنثى)^(١).

فنوح رحمه الله لم يحمل جميع الحيوانات، وإنما حمل من كل نوع منها اثنين، ذكرا وأنثى؛ ليحصل التوالد والنسل منهما بعد ذلك .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى: (أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ثُمَّ هَدَى كل مخلوق إلى ما خلقه له ، وهذه الهداية العامة المشاهدة في جميع المخلوقات، فكل مخلوق تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل، ما يتمكن به من ذلك)^(٢).

ثم إن في عالمنا المشاهد اليوم بعض الحيوانات تهاجر المسافات الطويلة وتعود إلى أماكنها ولا تخطئها ، وبدراسة قريية الغور لعالم الأسماك، وعالم الطيور، وعالم الحيوان كله؛ تقف من ذلك على ما يذهل العقل، ويحير اللبيب، ويدل الفطن على قدرة اللطيف الخبير !!

كيف تتعرف هذه الحيوانات على الطريق الصحيح لرحلاتها، وكيف تتنبه للتوقيت المناسب للرحلة؛ وكيف ، وكيف ؟!

(١) أنظر: فتح القدير، ج ٢ ص ٥٦٥ .

(٢) أنظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص/ ٥٩٠).

الباحثون حاولوا الإجابة على هذه الأسئلة ؟

لكنّ الله أعطانا الجواب من قبل فقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾^(١).

* * *

(١) الآية: رقم ٥٠ من سورة (طه).

فهرس المحتويات

٧	تقديم
١٣	مقدمة السلسلة
٢٤	مقدمة الإصدار
٣١	التعريف بنوح ﷺ
٣١	أولاً: اسمه ونسبه
٣٢	ثانياً: حكمة تسمية سورة باسمه
٣٣	ثالثاً: زمانه ومدة مكثه في قومه
٣٥	ذكر نوح ﷺ في القرآن الكريم
٣٥	مكانة نوح ﷺ
٣٥	أولاً: ثناء الخلق عليه
٣٦	ثانياً: إجابة دعوته
٣٨	ثالثاً: الذرية الصالحة
٣٩	صفات وأخلاق نوح ﷺ
٣٩	أولاً: صفات نوح ﷺ وأخلاقه مع الله تعالى
٤٥	ثانياً: صفات نوح ﷺ وأخلاقه
٥٧	دعوة نوح ﷺ
٥٧	أولاً: اصطفاؤه وتكليفه بالرسالة

٥٨	 ثانيًا: معالم دعوته
٦٢	 ثالثًا: أساليب دعوته
٦٧	 مواقف قوم نوح ﷺ من دعوته
٦٧	 أولاً: تكذيب قوم نوح
٦٩	 ثانيًا: صفات قوم نوح
٧٤	 ثالثًا: شكوى نوح لربه من قومه
٧٦	 رابعًا: دعاء نوح ﷺ على قومه
٧٨	 خامسًا: عقابة قوم نوح ﷺ
٨٠	 سادسًا: حكمة تذكير الرسل أقوامهم بعاقبة قوم نوح ﷺ
٨٥	 نوح ﷺ وابنه وزوجته
٨٥	 أولاً: نوح ﷺ وابنه
٨٧	 ثانيًا: نوح ﷺ وزوجته
٨٨	 ثالثًا: نوح ﷺ والسفينة
٩٣	 رابعًا: نوح ﷺ والنبوة في ذريته
٩٥	 المناهج التي تضمنتها قصة نوح ﷺ
٩٧	 صور من اعتراض قوم نوح ﷺ على دعوته المباركة
١٠٠	 الخلاصة
١٠١	 الآيات التي ذكر فيها نوح في القرآن

- السور التي ذكرت فيها قصة نوح ﷺ ١٠٤
- أولاً: سورة (الأعراف): الآيات من ٥٩-٦٤ ١٠٤
- ثانياً: سورة (يونس): الآيات من ٧١-٧٣ ١٠٤
- ثالثاً: سورة (هود) الآيات من ٢٥-٤٨ ١٠٤
- رابعاً: سورة (الأنبياء) الآيات ٧٦-٧٧ ١٠٦
- خامساً: سورة (المؤمنون) الآيات من ٢٣-٣٠ ١٠٦
- سادساً: سورة الشعراء الآيات من ١٠٥-١٢٠ ١٠٦
- سابعاً: سورة العنكبوت الآيات من ١٤-١٥ ١٠٧
- ثامناً: سورة الصافات الآيات من ٧٥-٨٢ ١٠٧
- تاسعاً: سورة (القمر) الآيات من ٩-١٦ ١٠٧
- عاشراً: سورة (نوح) الآيات من ١-٢٨ ١٠٨
- ما قاله المفسرون وأصحاب التأويل في سياق القصة ١٠٩
- أولاً: ما قاله المفسرون وأصحاب التأويل في سياق
القصة في سورة (الأعراف) ١٠٩
- ١- ما قاله الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله ١٠٩
- ٢- وقال الإمام ابن أبي حاتم رحمه الله في تفسيره: (تفسير ابن أبي حاتم) ١١٣
- ٣- وقال الإمام الماتريدي رحمه الله في تفسيره: (تأويلات أهل السنة) ١١٥
- ٤- وقال الإمام السمرقندي رحمه الله في تفسيره: (بحر العلوم) ١١٩

- ٥- وقال الإمام القشيري رحمه الله في تفسيره: (لطائف الإشارات) ١٢١
- ٦- وقال الإمام الزمخشري رحمه الله في تفسيره: (الكشاف) ١٢٢
- ٧- وقال الإمام ابن عطية رحمه الله في تفسيره: (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) ١٢٤
- ٨- وقال الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره: (التفسير الكبير) ١٢٧
- ٩- وقال الإمام الخازن رحمه الله في تفسيره: (لباب التأويل في معاني التنزيل) ١٣٤
- إعراب آيات القصة الواردة في سورة الأعراف ١٣٨
- البلاغة في آيات القصة الواردة في سورة الأعراف ١٤١
- ١- المجاز المرسل ١٤١
- ٢- نفي الأخصّ والأعم ١٤١
- الفوائد اللغوية في آيات القصة الواردة في سورة الأعراف ١٤٣
- ١- الاسم إذا كان سبقه الضمير ١٤٣
- ٢- اللام الداخلة على قد ١٤٣
- إعراب آيات القصة الواردة في سورة: (يونس) ١٦٦
- البلاغة في آيات القصة الواردة في سورة: (يونس) ١٦٩
- ثالثاً: ما قاله المفسرون وأصحاب التأويل في سياق القصة في سورة (هود) ... ١٦٩
- ٤- وقال الإمام الزمخشري رحمه الله ٢٢٢
- ٥- وقال الإمام الرازي رحمه الله ٢٣٦
- إعراب آيات القصة الواردة في سورة: (هود) ٢٧٧

- البلاغة في آيات القصة الواردة في سورة: (هود) ٢٨٩
- الآية: رقم ٢٦ من سورة نوح ٢٩٦
- إعراب آيات القصة الواردة في سورة: (الأنبياء) ٣١٢
- البلاغة في آيات القصة الواردة في سورة: (الأنبياء) ٣١٣
- ١ - ما قاله الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله ٣١٤
- ٢ - وقال الإمام الماتريدي رحمه الله ٣١٧
- ٣ - وقال الإمام السمرقندي رحمه الله ٣٢١
- ٤ - وقال الإمام القشيري رحمه الله ٣٢٤
- ٥ - وقال الإمام الزمخشري رحمه الله ٣٢٥
- ٦ - وقال الإمام ابن عطية رحمه الله ٣٢٦
- ٩ - وقال الإمام ابن جزي رحمه الله في تفسيره ٣٣٦
- ١١ - وقال الإمام ابن عادل رحمه الله ٣٣٨
- ١٢ - وقال الإمام ابن عرفة رحمه الله ٣٤٠
- ١٣ - وقال الإمام الخطيب رحمه الله في تفسيره: (السراج المنير) ٣٤٢
- ١٤ - وقال الإمام ابن عجيبة رحمه الله في تفسيره: (البحر المديد) ٣٤٦
- ١٥ - وقال الإمام المظهري رحمه الله ٣٤٩
- إعراب آيات القصة الواردة في سورة: (المؤمنون) ٣٥٦
- ١ - ما قاله الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله ٣٦٠

- ٢ - وقال الإمام الزجاج رحمه الله ٣٦٢
- ٣ - وقال الإمام الماتريدي رحمه الله ٣٦٣
- ٤ - وقال الإمام الزمخشري رحمه الله ٣٦٧
- ٥ - وقال الإمام ابن عطية رحمه الله ٣٦٨
- ٦ - وقال الإمام الرازي رحمه الله ٣٦٩
- ٧ - وقال الإمام القرطبي رحمه الله ٣٧١
- ٨ - وقال الإمام ابن كثير رحمه الله ٣٧١
- ٩ - وقال الإمام ابن عادل رحمه الله ٣٧٢
- ١٠ - وقال الإمام ابن عرفة رحمه الله ٣٧٣
- ١١ - وقال الإمام البقاعي رحمه الله ٣٧٤
- ١٢ - وقال الإمام أبي السعود رحمه الله ٣٧٩
- ١٣ - وقال الإمام المراغي رحمه الله ٣٨١
- إعراب آيات القصة الواردة في سورة: (الشعراء) ٣٨٥
- ١ - ما قاله الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله ٣٨٨
- ٢ - وقال الإمام الزجاج رحمه الله ٣٨٩
- ٣ - وقال الإمام الماتريدي رحمه الله ٣٨٩
- ٤ - وقال الإمام القشيري رحمه الله ٣٩١
- ٦ - وقال الإمام الزمخشري رحمه الله ٣٩٢

- ٧ - وقال الإمام ابن عطية رحمه الله ٣٩٣
- ٨ - وقال الإمام ابن الجوزي رحمه الله ٣٩٤
- ٩ - وقال الإمام الرازي رحمه الله ٣٩٥
- ١١ - وقال الإمام البقاعي رحمه الله : ٣٩٨
- إعراب آيات القصة الواردة في سورة: (العنكبوت) ٤٠٠
- ١ - ما قاله الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله ٤٠٢
- ٢ - وقال الإمام الماتريدي رحمه الله ٤٠٤
- ٣ - وقال الإمام الماوردي رحمه الله ٤٠٧
- ٤ - وقال الإمام الزمخشري رحمه الله ٤٠٨
- ٥ - وقال الإمام ابن عطية رحمه الله ٤٠٩
- ٦ - وقال الإمام الرازي رحمه الله ٤١٠
- ٧ - وقال الإمام البقاعي رحمه الله ٤١٢
- ٨ - وقال الإمام ابن عاشور رحمه الله ٤١٥
- إعراب آيات القصة الواردة في سورة: (الصافات) ٤٢٢
- ١ - ما قاله الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله ٤٢٤
- ٢ - وقال الإمام الماتريدي رحمه الله ٤٢٩
- إعراب آيات القصة الواردة في سورة: (القمر) ٤٣٧
- ٢ - وقال الإمام الماتريدي رحمه الله ٤٥٠

٤٧٢	إعراب الآيات الواردة في سياق القصة في سورة نوح
٤٨٠	البلاغة في الآيات الواردة في سياق القصة في سورة نوح
٤٨٨	قصة نوح ﷺ والمعجزة التي أيده الله بها
٥٠٤	حياة النبي نوح ﷺ في القرآن الكريم والدروس المستفادة منها
٥١١	إضاءات على آيات
٥١٧	فوائد للدعاة
٥١٧	من قصة نوح ﷺ
٥٢٣	الخاتمة
٥٣١	فهرس المحتويات



[illegible]

[illegible]

[illegible]

This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

د. إدريس بن شير
للثقافة والعلم